

ستيفان تسفايج

بناء العالم

ديكنز، تولستوي، سئندال، كلايست

نقلها عن الألمانية

محمد حديد

دراسات نقدية عالمية

٢٢



Bibliotheca Alexandrina

«برلاف لهنى : زهسير اجمو

بِناة العالم

دراسات نقدية عالمية

« ٢٢ »

ستيفان تسفايچ

بناء العالم

ديكنز، تولستوي، سندان، كلايس

نقلها عن الألمانية

محمد حديد

العنوان الأصلي للكتاب :

STEFAN ZWEIG

Baumeister Der Welt

Dickens- Tolstoi- Stendal- Kleist

بناء العالم : ديكنز - تولستوي - ستندال - كلايست =
Baumeister der weelt / ستيفان زيفايغ ؛ نقلها
من الألمانية محمد جديد . - دمشق : وزارة الثقافة ، ١٩٩٣ . -
١٠٠ ص ؛ ٢٤ سم . - (دراسات نقدية عالمية ؛ ٢٢) .

١ - ٨٠٩ ز ف ا ب ٢ - العنوان ٣ - العنوان الموارى
٤ - زفايغ ٥ - جديد ٦ - السلسلة
مكتبة الأسد

الابتداع القانوني : ع - ١١٧١ / ١١ / ١٩٩٣

ويكنز

«دنيا» . ما كان للمرء أن يُسائل الكتب والسير ، عن معدر ما كان معاصرو شارلز ديكنز يكتنون له من الحب ، فالحب لا يعيش ويتنفّس إلاّ في الكلمة المنطوقة . ولا بد للمرء أن يلتمس أن يُروى له ذلك ، وأحسن ما يكون من لدن إنكليزي يبلغ بذكريات صباه إلى ذلك الزمان الحافل بضروب النجاح الأولى ، من لدن واحد من أولئك الذين لم يستطيعوا . حتى بعد ما انقضى الآن خمسون عاماً ، أن يعقدوا العزم على أن يسمّوا شارلز ديكنز . شاعر بكويك ، باسمه ، بل ما فتئوا يطلقون عليه لقبه الأكثر ألفة واصوقاً به ، البوظ Boz . فمن تأثرهم الحزين القائم على استعادة الذكريات يستطيع المرء أن يسبر حماسة الآلاف الذين كانوا في تلك الأيام يستقبلون بافتتان عارم تلك الكراديس الروائية الشهيرة الزرق . التي يعثرها الاصفراء اليوم ، طُرقة نادرة عند هواة الكتب في الصناديق والخزائن . ففي تلك الأيام لم يكن « الديكنزيتون القدامى » — كما حثني واحد منهم -- يستطيعون قط أن يَحتملوا انتظار ساعي البريد في البيت ، ذلك الساعي الذي كان يحمل أخيراً . وبعد لأي ، الكراسي الزرقاء الجديدة من البوظ Boz في حزماتها . فقد كانوا يعانون شهراً بطوله من الجوع إليها . ويتنزعون بالصبر والأمل ، ويتنازعون أيتزوج كوبر فيلد « دورا » أم « أجنيس »

ويستهجون إذ وصلت أحوال « ميكوبَرز » إلى أزمة من جديد ،
أتراهم كانوا يعرفون أنه سيتغلب عليها بشارب البنش(*) الحارّ ،
والروح الطيبة ، تغلباً بطولياً ! — وكان عليهم أن ينتظروا بعدُ ،
وينتظروا ، إلى أن يقبل ساعي البريد ، في العربة الناعسة ، ويحل لهم
كل هذه الأحاجي المرحّة ؟ أمّا هذا فما كانوا ليقدروا عليه ، إذ لم
يكن ممكناً ، ببساطة ، وكانوا جميعاً ، شيوخاً وشباباً ، يرتحلون عاماً
بعد عام ، في اليوم الموعد ، مستبِقين لقاء ساعي البريد ، على بعد
ميلين ، لمجرد الحصول على كتابهم في وقت أقرب ، ويشرعون
وهم بعدُ في طريق الإياب ، في القراءة ، وكان واحدٌ منهم ينظر في
صحيفة الآخر من وراء كتفه ، وكان آخرون يتلون بصوت عال ،
على أن أولئك الذين كانوا أطيبهم قلباً ، كانوا هم وحدهم الذين
يسعون سعباً حثيثاً ليأتوا بالغنيمة إلى أزواجهم وأولادهم على نحو أسرع .
وكذلك كانت كل قرية ، وكل مدينة ، والبلاد بأسرها ، وفوق ذلك
العالم الانكليزي المستوطن في القارات كلها ، يحبون ديكتر مثلما
أحبته هذه البلدة الصغيرة . لقد أحبّوه منذ ساعة اللقاء الأولى إلى الساعة
الأخيرة من حياته ، ولم توجد قط في القرن التاسع عشر علاقة حميمة
لا تبدّل ، على هذا النحو ، بين أديب وأمه . لقد انطلق هذا المجد
انطلاق صاروخ ، غير أنه لم يحمّد أبداً ، بل ظل ، كشمسٍ ، لا
يتبدّل ، مشرقاً على العالم . ومن الكراسة الأولى لأوراق بكويك طبعت
أربعمائة نسخة ، أمّا الكراسة الخامسة عشرة فقد طبع منها أربعون
ألفاً : فبمثل هذا السلطان الكاسح حطّ مجده في عصره ، فشق طريقه
إلى ألمانيا سراعاً ، فكانت المئات والآلاف من الكرايس الصغيرة

(*) شراب مؤلف من مزيج من الخمر والتوابل

ذوات القروش تزرع الضحك والسرور حتى في قسّامات أشدّ القلوب
 كدراً ، وارتحل نيكولاس نيكلباي الصغير ، وأوليفر تويست البائس .
 وآلاف الشخصيات الأخرى عند هذا الذي لا ينضب ، إلى أمريكا .
 وإلى أوستراليا وكندا . أما اليوم فالناس يتداولون ملايين الكتب لديكتر ،
 مجلدات كبيرة وصغيرة ، غليظة ورقيقة ، وطبعات رخيصة للقراء ،
 يقابلها ، هناك في أمريكا ، أغلى طبعة اتخذت لأديب من الأدباء قاطبة
 (إذ تكلف ثلاثمائة ألف مارك فيما اعتقد(*)) . وهذه الطبعة لأصحاب
 المليارات) . ولكن في كل هذه الكتب ما تزال تعشعش اليوم ، كما
 كانت بالأمس ، الضحكة الهائلة . ليصطفق جناحها كطائر غريد
 بمجرد أن يقلّب المرء الأوراق الأولى . لقد أصبح الكلف بهذا الكاتب
 لا مثيل له . ولئن لم يتصاعد على مر السنين فان ذلك لم يكن إلاّ لأن
 الهوى ما عاد يعرف ممكناً أعلى . وعندما عزم ديكنز على أن يقرأ
 على الملأ ، وعندما واجه جمهوره أوّل مرة وجهاً لوجه ترنحت انكلترا
 من السكر ، فدهّمت الناس القاعات كالعاصفة ، وغصّت بهم وأترعت ،
 وتشبّث المتحمسون بأوتاد الأعمدة ، وتسَلَّلوا تحت منصّته لمجرد
 أن يقدرُوا على سماع الكاتب المحبوب . وفي أمريكا نام الناس في برد
 الشتاء القارص إلى الحد الأقصى على فُرُش مجلوبة أمام الخزائن . وكان
 الخدم يأتونهم بالطعام من المطاعم المجاورة . غير أن الاندفاع أصبح
 اندفاعاً لا سبيل إلى صدّه ، وغدت كل القاعات أصغر مما ينبغي .
 وفي آخر الأمر أخليت للكاتب في بروكلين كنيسة لتكون قاعة إلقاء .
 ومن المنبر قرأ مغامرات أوليفر تويست وقصة نيل الصغيرة . ولم يكن

(*) هذه القيمة تنطبق على واقع سوق الكتاب قبل نحو نصف قرن من الزمان أي عدد
 صدور هذا الكتاب باللغة الألمانية .
 « المترجم »

يعرف لهذا المجد مزاج ، فقد أزعج والتر سكوت جانباً ، وخيّم بظله ردىاً من الزمان على عبقرية ثاكري ، وعندما خمدت الشعلة ، وحينما مات ديكنز ، سرى ذلك مثل شرخ في أرجاء العالم الانكليزي بأسره ، وجعل الغرباء في الشوارع يتحدث بعضهم إلى بعض بأن الانهيار أصاب لندن وكأنها في أعقاب معركة خاسرة . وسُجّي بين شكسبير وفيلدنج في كنيسة ويستمنستر ، نانتينغون انكلترا ، وطفق الآلاف يتألمون إليه ، وطفق النصب التذكاري يغشاه ، أياماً بطولها ، طوفان من الأزاهير والأكاليل ، ومازال المرء حتى اليوم ، بعد أربعين عاماً ، قلماً يستطيع أن يجاوز المكان من دون أن يجد أزهاراً نثرتها يدٌ عارفة للجميل : فالمجد والحب لم يذوبا في كل هذه السنين ، إذ يعدّ شارلز ديكنز اليوم ، كما كان في تلك الأيام ، في تلك الساعة ، حيث كانت انكلترا تضع في يد ذاك البريء الذي لا اسم له هدية المجد العالمي غير المنتظرة ، الروائي الأعظم حظاً من حب العالم الانكليزي بأسره وتهافته عليه واحتفاله به .

على أن مثل هذا الأثر المتغلغل الهائل ، سواء في اتساعه أم في عمقه ، لعمل أدبي ، ما كان له أن يتحوّل إلى حقيقة إلاّ بالاجتماع النادر لعنصرين متضاربين أشدّ ما يكون التضارب ، ألا وهما هويّة إنسان عبقرية ، مع تقاليد عصره . وبوجه عام يؤثّر التقليديّ والعبقريّ أحدهما في الآخر ، مثلما يفعل الماء والنار كلا ، بل يكاد يكون من السمات المميزة للعبقرية أنها ، بحكم كونها روحاً متجسدة لتقاليد في حالة الصيرورة ، تعادي التقاليد الماضية ، وأنها ، بحكم كونها الأب الأول لجنس جديد ، تنبئ عن الشريان الآخذ في الموت ،

فالعبقرية وعصرها مثل عالمين يتبادلان النور والظلّ فيما بينهما ،
غير أنهما يحلّتان في أجواء مختلفة ، وهما يلتقيان في مساريهما الدائريين ،
غير أنهما لا يتحدان أبداً . لقد حانت ههنا تلك الثانية النادرة في سماء
النجوم . حيث يغشي ظل واحد من النجوم القرص المضيء للنجم
الآخر على نحو يتطابق به أحدهما مع الآخر : فديكتز هو الأديب
العظيم الوحيد في ذلك القرن ، الذي كانت سريرته الأكثر عمقاً تتطابق
تطابقاً تاماً مع الحاجة الروحية لعصره . وروايته تتطابق تطابقاً مطلقاً
مع ذوق انكلترا في تلك الأيام ، وعمله هو التمثيل المادي للتقليد
الانكليزي : فديكتز هو الفكاهة ، والملاحظة ، والأخلاق ، والجماليات ،
والمضمون الفكري والفني ، وهو حسّ الحياة الفريد في نوعه ، والغريب
عنا في الغالب ، والمتسم في كثير من الأحيان بالتعاطف معها تعاطفاً
ينطوي على الحنين . لدى ستين مليوناً من البشر على الجانب الآخر من
القناة الانكليزية ، ولم يكن هو الذي أخرج هذا العمل . بل التقليد
الانكليزي ، وهو الأقوى والأغنى . والأكثر خصوصية بين الثقافات
الحديثة ، والذي يعدّ من أجل ذلك الأكثر خطورة بينها أيضاً . ولا
يجوز للمرء أن يبخل طاقته الحيوية قدرها ، فكل انكليزي يعدّ أكثر
انكليزية ممّا يعدّ الألماني ألمانياً ، والانكليزية لا تتوضع كطلاء . كلون
فوق العضوية الفكرية للبشر ، بل تتغلغل في دهمهم وتفعّل مفعولها الضابط
لإيقاع الإنسان ، وتنشر النبض في أعماق ما في الرد وأكثره خفاءً
وأشدّه تفرّداً : ألا وهو الجانب الفني . فالانكليزي : من حيث هو
فنان أيضاً ، يعدّ أشد ارتباطاً بجنسه من الألماني أو الفرنسي . فكل فنان
في انكلترا ، وكل أديب حق ، قد تصارع من أجل ذلك مع السمة
الانكليزية فيه ، على أن أشد ألوان الكراهية سعيّاً وبأساً لم يقدر على

قهو التفلد . فهو يبلغ بشرايينه الدقيقة إلى عمق سحيق في مملكة الروح الأرضية . ومن أراد انتزاع الانكليزية مزق العضوية بأسرها . وهي تتزف من الجرح . ولقد تجرأ على ذلك نفر من النبلاء يعدوهم شوق إلى المواطنة العالمية الحرة : فهذا بايرون وشيللي وأوسكار وايلد ، يريدون أن يعدموا الانكليزي في أنفسهم لأنهم كانوا يكرهون المواطن الخالد في الانكليزي . غير أنهم لم يزيدوا على أن مزقوا حياتهم الخاصة . فالتقاليد الانكليزية هي الأقوى والأشد غلبة في العالم . غير أنها هي الأكثر خطراً على الفن أيضاً ، إنها الأخطر لأنها مأكرة مخادعة : فما هي باليباب الصقيعي ، وما هي بالمتجافية أو غير المضيافة ، بل تغري بنار الموقد الحارة والراحة العذبة ، ولكنها تحدّ بحدود أخلاقية ، فهي تضيق وتضبط وتسيء التصرف مع الدافع الفني الحر ، فهي مسكن متواضع ذو هواء مخترن ، مصون من عواصف الحياة الخطيرة ، مرح ودود مضياف ، وهي « منزل » أصيل بكل ما فيه من نيران موقد الطمأنينة المتزلية ، غير أنها مع ذلك سجن لمن كانت دياره العالم ، وكان هواه الأعمق التيه المغامر فيما لا حدود له ، وفيما ينطوي على سعادة بدوية . لقد نزل ديكنز من التقاليد الانكليزية منزلاً مريحاً ، ووطّن نفسه بطريقة منزلية ضمن جدرانها الأربعة . وكان قرير العين في الجو المنزلي ، ولم يتجاوز قط ، طوال حياته ، حدود انكلترا الفنية أو الأخلاقية أو الجمالية . ولم يكن ثورياً . وكان الفنان فيه يطمئن إلى الانكليزي ويدوب فيه شيئاً فشيئاً . ويعد عمله إرادة أمته اللاواعية المتحوّلة إلى فن . وعندما نرسم حدود حدة أدبه ، والمزايا النادرة . والإمكانات المضیعة في أدبه فانما نقاضي انكلترا دائماً وفي الوقت ذاته .

فديكتز هو التعبير الأدبي الأعلى عن التقاليد الانكليزية بين قرن نابليون البطولي ، والماضي الحافل بالأعجاد والامبريالية ، حلم مستقبله ، ولئن كان لم ينجز لنا إلاّ ممتازاً ، وليس شائخاً عملاقاً ، ممّا نذرته له عبقريته من قبل ، فلم تكن انكلترا ، ولا عرقه ذاته ، هما اللذان عاقاه ، بل اللحظة البريئة : إنها عصر انكلترا فيكتوريا . فقد كان شكسبير أيضاً إمكانية قصوى ، واشباعاً شعرياً لعصر انكليزي ، ولكنه عصر انكلترا الاليزابيتية القوية التي تنشرح صدرها بالعمل ، انكلترا التصابي والفتوة والحسّ الجليد الذي كان حاراً يستعر من الطاقة التي يتعالى زبدها . لقد كان شكسبير ابن قرن الفعل والإرادة والطاقة . فقد انجلت آفاق جديدة ، واكتسبت ممالك في أمريكا متممة بالمغامرة ، وأطيح بالعدو الموروث . وانطلاقاً من إيطاليا كانت نار عصر النهضة يتماوج لهيبها ممتداً إلى الضباب الشمالي ، وقد صُرف النظر عن معبود وديانة لإعادة ملء الدنيا بقيم حية جديدة . لقد كان شكسبير تجسيد انكلترا البطوالية ، أما ديكتز فلم يكن إلاّ رمز المواطنة . وكان من الرعايا الأوفياء للملكة الأخرى ، الملكة فيكتوريا العجوز الوديدة ذات الحنان المنزلي ، وغير ذات الشأن ، وكان مواطناً في نظام دولة مضطرة في الاحتشام ، وهو نظام مريح مرتّب ، دونما حماسة أو هوى غلاب . وكان يعوق اندفاعه ثقل العصر ، ذلك العصر الذي لم يكن جائعاً ، والذي لم يكن يريد إلاّ أن يهضم ، ولم تكن الرياح الرُشاء تزيد على أن تعبت بأشعة سفينته ، على أنها لم تُسأ بها قط عن الساحل الانكليزي إلى الجمال الخطير في المجهول : إلى اللانهائي الذي لا درب يفضي إليه . ولقد ظل دائماً يتخذ جانب الحذر بالقرب من المؤلف والمعتاد والموروث القديم : ومثلما كان شكسبير يمثل جرأة

انكلترا الحائنة ، كان ديكتر يمثل حذر انكلترا الشبّعى . ففي عام ١٨١٢ ولد . وما هو إلا أن يقدر على أن يجيل بصره حواليه حتى يسود الظلام العالم ، وتنطفئ الشعلة الكبرى التي كانت تهدد بابادة الدعائم المتداعية للدول الأوروبية . ففي واترلو تتحطم طليعة الجيش على أيدي المشاة الانكليز ، ويتم إنقاذ انكلترا ، وترى عدوها بالوراثه وحيداً في جزيرة نائية ينهار دونما تاج أو سلطان . أما هذا فلم يشهده ديكتر ، فهو ما عاد يرى شعلة العالم ، والوهج الناري يرحف من إحدى نهايتي أوروبا إلى النهاية الأخرى ، وإنما يتلمس بصره الطريق من خلال ضباب انكلترا . فما عاد الفتي يجد أبطالاً . لقد انصرم عهد الأبطال ، وبالطبع فإن نفرأ من الناس في انكلترا لم يريدوا أن يصدقوا ذلك ، بل يريدون أن ينتزعوا بالقوة والحماسة أعواد عجلات الزمن الدوار ، وأن يردوا على الدنيا اندفاعتها الصاخبة القديمة ، غير أن انكلترا تريد الإخلاق إلى الراحة وتصدّهم عنها . فهم يفزعون إلى الرومانسية في زواياها المحلية ، ويحاولون أن يضرعوا النار من الشرارات الواهية من جديد ، غير أن القدر لا سبيل إلى قسره . فأما شيللي فيغرق في البحر التيراني ، وأما لورد بايرون فيحترق بالحمتى في ميسولونجي : فالزمان ما عاد يريد المغامرات ، والعالم ألوان رماد ، وتمضي انكلترا في تلمّظها بالغنيمة التي ما زالت تنزف الدم ، فالمواطن والتاجر والسمسار كلهم ملك يسترخي على العرش كما يسترخي المرء على سرير القيلولة . فانكلترا تقوم بالهضم . والفن الذي كان مقدراً له أن يحظى بالإعجاب لم يكن له بدٌ من أن يكون فناً هاضماً وما كان يجوز له أن يعوّق ، ولا أن يهزّ بألوان الانفعال المستعرة ، إنما كان له أن يداعب ويدغدغ ، ولم يكن يجوز له أن يكون إلا عاطفياً ، وليس مأساوياً . ولم يكن المرء

يريد الرعدة التي تشق الصدر كالبرق ، وتبهر النفس وتجمد الدم -
فقد كان الناس يعرفون ذلك فوق ما ينبغي لهم أن يعرفوه ، من الحياة
الواقعية ، عندما كانت المجلات تأتي من فرنسا وروسيا ، ولم يكن
الناس يريدون إلاّ القشعريرة وهدير القطط واللاعب الذي ما يفتأ يطوي
وينشر الكرة الملونة التي تنسج منها الأقاصيص . لقد كان الناس يريدون
فن المدفأة في تلك الأيام ، يريدون كتباً يقرأونها في دعة واسترخاء
بينما تهزّ العاصفة عمود البيت الخشبي ، يقرأونها لدى المدفأة ، على
حيز تراقص ألسنة الكتب ذاتها على ذلك النحر وتمرقع بكثير من
ألسنة اللهب الصغيرة غير ذات الخطر . فهو فن يبعث الدفء في القلب
كالشاي ، لا فنّ يسكّرهُ وهو مبتهج يستعر . فلقد بلغ من خوف
منتصري الأمس القريب -- أوائل الذين لا يريدون إلاّ أن يحتفظوا
ويحافظوا ، وما عادوا يريدون أن يجرؤوا ويبدلوا - أنهم كانوا
يخشون شعورهم القوي ذاته . فهم لا يريدون ، سواء في الكتب أم
في الحياة ، إلاّ العواطف المتزنة المنضبطة ، ولا يريدون حالات
وتجد تنطلق كالعواصف ، بل مشاعر عادية دائماً ، تروح وتغدو
وفقاً لأصول اللياقة . وفي تلك الأيام تغدو السعادة في انكسار متطابقة
مع الرويّة والتبصّر ، والجمال مع اللياقة والنزعة الحسية تتطابق من
جديد مع الحياة المصطنع ، والشعور الوطني مع الولاء ، والحب مع
الزواج . وتغدو كل قيم الحياة مصابة بفقر الدم ، فانكسرت راضية
لا تبتغي تحويلاً . ولذلك فإن فناً يستطيع أن يعترف بأمة شبحي بهذا
القدر لا بد له أن يكون هو ذاته راضياً بأي طريقة من الطرق ، وأن
يثني على ما هو قائم وألاّ يبتغي تجاوزه . وهذه الإرادة المتعلقة بفن
مترف ودود ، بفن هاضم ، تجد عبقريتها . مثلما وجدت انكساراً

اليزابيث فيما مضى شكسبيرها . فديكنز هو الحاجة الفنية المتحوّلة إلى إبداع في انكلترا في تلك الأيام . أما أنه جاء في اللحظة الصحيحة فذلك ما أنشأ مجده ، وأما أن تلك الحاجة هيمنت عليه فتلك مأساته . ففته يتغذى بأخلاق الرياء القائمة على ترف انكلترا الشبّعي : ولو لم تكن هناك طاقة أدبية فائقة إلى هذا الحد وراء عمله ، ولو لم تموّه فكاهته المتألّقة البرّاقة كالذهب انعدام لون المشاعر في داخله ، لما كانت له قيمة إلّا في ذلك العالم الانكليزي ، ولما حفلنا به ، شأن آلاف الروايات التي أنتجها أناس مهرة على الجانب الآخر من القناة الانكليزية ، ولا يستطيع المرء أن يقدر التقدير الكامل عبقرية رجل أرغمنا على أن نحسّ بهذا العالم الممجّج القائم على ترف الشيع ، على أنه ممتع ، ويكاد يكون جديراً بالحب ، وحول نثر الحياة الأكثر ابتذالاً إلى شعر ، إلّا عندما يكره ، من أعماق أعماق روحه ، محدوديّة الثقافة الفيكتورية .

على أن ديكنز نفسه لم يناضل قط ضد انكلترا هذه . ولكن في الأعماق — في الأسفل عند اللاوعي — كان يقوم فيه صراع الفنان مع الانكليزي . فهي الأصل كان قد خطا خطوة قوية واثقة ، ولكن الاعياء أصابه شيئاً فشيئاً في رمال عصره اللينة التي تتوسّط بين انصلابة والهشاشة . وظلت خطاه آخر الأمر تنطبق على المواطن القديمة لأقدام التقاليد العريضة انطباقاً مطردّ الزيادة . لقد هيمن على ديكنز عصره . ولا بد لي من أن أفكر دائماً لدى الحديث عن مصيره ، في مغامرات جليفر مع الأقزام . فبينما ينال العملاق بشدّة الأقزام بالآلاف الخيوط الصغيرة ، ويمسكون بذلك المستيقظ على نحو بالغ الإحكام ، ولا يطلقون سراحه إلّا بعد أن يستسلم ويقسم على ألا يخالف قوانين البلاد أبداً . وعلى هذا النحو شددت التقاليد الانكليزية وثاقها على ديكنز في نوم

خمول ذكره وتشبث به وهصرته بألوان النجاح على الطينة الانكليزية ، ثم انتزعت فدفعت به إلى المجد وأوثقت بذلك يديه . لقد كان ، بعد طفولة طويلة متكدرة ، كاتب الختزال في مجلس النواب ، وحاول ذات مرة أن يكتب مقطوعات صغيرة ، وكان ذلك في الحقيقة من أجل زيادة دخله أكثر مما كان عن حاجة يملئها حافظ أدبي ، ونجحت التجربة الأولى . وعهدت الصحيفة إليه بالأمر . ثم التمس منه ناشر كلمات ساخرة من أجل ناد ، يفترض فيها أن تشكل بطريفة معينة النص اللازم لرسوم ساخرة تتصل بفئة النبلاء الانكليز ، وقبل ديكتر ، وأصاب العمل نجاحاً ، بل نجح فوق كل توقع . فكانت الكرايس الأولى من « نادي بيكويك » نجاحاً لا مثيل له ، وبعد شهرين كان « بوظ » كاتب الأمة ، ودفع به المجد قدماً إلى الأمام ، ونشأ عن بيكويك رواية ، وأصاب المزيد من النجاح ، وتزداد كثافة الشباك الصغيرة شيئاً فشيئاً ، وهي الأغلال الخفية للمجد الوطني ، وكان الإعجاب يستفز من عمل إلى آخر ، ويدفع به على نحو يزداد باطراد في مسار رياح الذوق المعاصر ، وهذه الشباك المثة ألف ، التي حيكت على أشد الطرق اختلاطاً وإرباكاً ، من الإعجاب وألوان النجاح الصريح والوعي الفخور بالإرادة الفنية تشد وثاقه الآن شداً إلى التراب الانكليزي إلى أن استسلم ، وآلى على نفسه ، في سريره ، ألا يتجاوز الشرائع الجمالية والأخلاقية لوطنه أبداً ، ولبت ضمن سلطان التقاليد الانكليزية ، والذوق المدني ، جلفراً حديداً بين الأقسام ، وانحصر خياله الرائع الذي كان في وسعه أن ينطلق كنسر ، فوق هذا العالم الضيق ، في أغلال النجاح . وثمة قناعة داخلية عميقة تشكل عبئاً على الدافع النني عنده . فقد كان ديكتر راضياً ، راضياً عن العالم ، وعن

انكلترا ، وعن معاصريه ، وكان هؤلاء راضين عنه ، ولم يكن أي من
 الفريقين يبتغي شيئاً بخلاف ما كان عليه . ولم يكن فيه ذلك الحب
 الغاضب الذي يريد أن يربّي ، ويهزّ ، ويخيزّ ، ويرفع ، ولم تكن
 فيه تلك الإرادة العميقة عند الفنان ، التي تعمله على منارعة الرب ورفض
 عالمه ، وإنشاء ذلك العالم من جديد حسب ما يبدو له . فقد كان ديكنز
 تقياً ورعاً ، وكان يكن لكل ما هو قائم إعجاباً ينطوي على حب الخير ،
 واقتنائاً طفولياً خالداً ينطوي على حب اللهو . لقد كان راضياً قانعاً ،
 ولم يكن يريد كثيراً . فقد كان فيما سلف فتىً مدقع الفقر ، قد نسيه
 الدهر وأجفله الدنيا ، وبددت شبابه مهنٌ بائسة ، وكان ينطوي في
 تلك الأيام على شوق ملوّن ، غير أنهم ردّوه جميعاً إلى حالة من الإجفال
 الطويل العنيد . وكان هذا يستعير فيه . وكانت طفولته هي المعاناة
 المأساوية الشاعرية حقاً — فهنا دفنت بذرة إرادة إبداعية في تربة الألم
 الصامت الخصب . وكانت أعمق رغبة روحية لديه ، حينما تهيأت
 له القوة وإمكانية التأثير على النطاق العريض ، أن ينتقم لهذه الطفولة .
 فكان يريد برواياته أن يساعد كل الأطفال المساكين والمشردين
 المنسيين الذين عانوا من الجور مثلما عانى هو فيما سلف ، عن طريق
 الأساتذة الفاسدين والمدارس المهمة والوالدين اللامباليين ، وعن طريق
 ذلك النوع الثقيل الذي يمثل معظم الناس أولى الأثره الذين لا تنطوي
 نفوسهم على الحب . وكان يريد أن ينقذ هؤلاء الأطفال بعض أزهار
 مسرات الطفولة الملونة ، تلك الأزهار التي تولّاها الذبول في صدره
 إذ حرمت لدى الخير . ولقد وهبته الحياة فيما بعد كل شيء ، ولم
 يكن يعرف شيئاً يشكو منه ، غير أن الطفولة فيه كانت تنادي بالثأر
 وكانت الرغبة الأخلاقية الوحيدة ، والإرادة الحيوية الداخلية لأدبه ،

معونة هؤلاء الضعفاء : فهنا كان يريد إصلاح نظام الحياة المعاصر ،
 لم يكن يرفضه ، ولم يكن يتصددى لمعايير الدواة ، فهو لا يهدّد ،
 ولا يرفع القبضة الغاضبة ضد الجنس بأسره ، وضد المشرعين والمواطنين ،
 وضد زيف التقاليد ، بل يرمي فحسب ، هنا وهناك ، باصبع حذرة ،
 إلى جرح مفتوح . فأنكلترا هي البلد الوحيد في أوروبا الذي لم يكن
 في تلك الأيام ، عام ١٨٤٨ ، يقوم بثورة ، وكذلك لم يكن هو أيضاً
 يريد أن يقوّض وينشئ من جديد ، بل كان يريد التصحيح والتحسين
 فحسب . لم يكن يريد إلاّ أن يشذب ويخفف ظواهر الظلم الاجتماعي ،
 هناك حيث ينغرس شوكتها في اللحم حاداً ومؤثلاً أكثر مما يطاق ، غير
 أنه لم يرد قط أن ينقب عن الالة الأكثر عمقاً ويقضي عليها . ومن
 حيث هو انكاييزي أصيل ، لا يجروّ على تناول أسس الأخلاق ، فهي
 بالقياس إلى المحافظ أقدس المقدسات ، كآية الخلاص ، والانجيل .
 وهذه القناعة ، هذه الخلاصة من الطبع الغائر لعصره ، تعد سمة مميزة
 جداً بالقياس إلى ديكتز . لم يكن يريد من الحياة كثيراً : وكذلك كان
 أبطاله . فالبطل عنسد بلزك ذو رغائب نزاع إلى السلطان ، وهو
 يستعر من الشوق الطامع إلى السلطة ، فما من شيء يكفيه ، وكلهم
 لا يشبع ، وكل واحد منهم فاتح للعالم ، انقلابي ، فوضوي ، وطاغية
 في الوقت ذاته . وهم يتخذون طبعاً نابليونياً ، وكذلك يعد أبطال
 دوستويفسكي ناريين وجديين ، ترفض إرادتهم العالم وتترع ، في
 أروع أشكال التوق ، فوق الحياة الواقعية ، إلى الحياة الحقّة ، لهم
 لا يريدون أن يكونوا مواطنين وبشراً ، بل يتوهّج في كلّ منهم ،
 من خلال كل التواضع ، ذلك الكبرياء الخطير المتمثل في تحوله إلى
 مخلّص . فالبطل عند بلزك يريد أن يستعيد العالم ، والبطل عند

دوستوييفسكي يريد أن يتغلب عليه ، ولكل منهما توتر يرفعهما فوق الحياة اليومية ، اتجاه شاقولي تجاه اللانهائي ، والبشر عند ديكنز متواضعون جميعاً . يا إلهي ! ماذا يريدون ؟ مائة جنيه في السنة ، زوجة لطيفة ، واثني عشرية من الأطفال ، ومائدة أعدت إعداداً ودياً للأصدقاء الطيبين ، ومتزلهم الخشبي في لندن له إطلالة على الخضرة أمام النافذة ، وله حديقة صغيرة مع حفنة من السعادة ، فمثالهم مثال المواطن الصغير المحدود الهزيل ، ولا بد للمرء عند ديكنز أن يكون قدير العين بذلك ، ووراء عمله يكمن الخالق ، لا إلهاً غاضباً ، عملاقاً ، متعالياً عن البشر ، بل مراقباً راضياً ، مواطناً موابياً . فالمواطنة هي الجو السائد في كل روايات ديكنز .

ومن أجل ذلك كان عماله العظيم ، والذي لا ينسى ، في الحقيقة ، هو مجرد اكتشاف رومانسية البورجوازية ، شعر الثري . فقد كان أول من حول الحياة اليومية إلى العالم الشعري ، وأرسل الشمس تضئ من خلال هذا الوسط الباهت الكتيب . وإن من رأى في انكلترا ذات مرة ، كم يبلغ إشعاع البريق الذهبي الذي تغزاه هناك شمس الضمى من ركام الضباب ، خللق أن يعرف قدر ما كان لابد لأديب أن يسعد به أمته ، إذ يمنحها ، من الشفق الباهت ، بطريقة فنية ، هذه الثانية من الخلاص . فديكنز هو هذه القيثارة الذهبية المحدقة بالحياة اليومية الانكليزية ، وهو الهالة المقدسة للأشياء البسيطة والناس البسطاء ، وهو قصيدة انكلترا الرعوية . لقد كان يلتمس أبطاله ، وسير الحياة في شوارع الضواحي الضيقة ، في تلك الشوارع التي كان الأدباء الآخرون يعمرون بها غير آبهين ، فقد كان هؤلاء يلتمسون أبطالهم تحت أضواء التيجان في قاعات النبلاء ، وعلى الطرق في الغابة السحرية الواردة في

أساطير الجن ، وكانوا يبحثون عما هو ناءٍ وغير مألوف ، وغير عادي . وكان المواطن عندهم الثقل الأرضي المتحول إلى مادة ، ولم يكونوا يريدون إلاّ أرواحاً نارية ، ثمينة متسامية في حالات الوجد ، وأناساً في أجواء الشعر الغنائي والبطولي . ولم يكن ديكتر ينجعل من أن يجعل من العامل اليومي ، البسيط كل البساطة ، بطلاً ، فقد كان رجلاً عصامياً ، جاء من الأسفل ، وكان يكنّ لهذا الوسط تعاطفاً مؤثراً ، وكانت له حماسة غريبة لما هو مبتذل ، وتحمّس للأشياء الأبوية القديمة التي لا قيمة لها مطلقاً ، ولستقطّ المتاع في الحياة ، وكتبه نفسها دكان للطرائف على هذا النحو ، ملأى بسقط المتاع ، الذي يمكن لكل امرئ أن يعده شيئاً لا قيمة له ، وركاماً من الغرائب والتساهاات المضحكة ، التي ظلت عبثاً ، طوال عقود من الزمان ، تنتظر من يجها . غير أنه كان يتناول هذه الأشياء القديمة التافهة التي علاها الغبار ويمسحها حتى تلتصق ويؤلف بينها ، ويعرضها في شمس دعابته ، وإذا هي تأخذ في التوهج فجأة بهريق لا مثيل له . وهكذا كان يأخذ الأحاسيس المزدرة الصغيرة الكثيرة من صدور الناس البسطاء فيستترقها بسمعه ، ويؤلف بين أجزائها كما يؤلف بين تروس الساعة ، إلى أن تعود إليها دقائق الحياة ، وإذا هي تأخذ في الطنين كساعات اللعب الصغيرة ، ثم في القرقرّة ، ثم تغني ، لحناً هادئاً أبوياً حميماً ، كان أعذب وأحلى من قصائد الفرسان الكئيبة من بلاد الأساطير ، والقصائد ذات المقاطع المتعددة (*) ، قصائد سيدة البحيرة (**) . وعلى هذا النحو أخرج ديكتر كل العالم البورجوازي من تحت ركام رماد الماضي ، وألّف بين أجزائه من

Kanonzen (*)

Lady Vom See (**)

جديد في صورة جليّة : ففي عمله فحسب تحول ذلك العالم من جديد إلى عالم حي ، وقد جعل حماقاته وضروب محدوديته منهومة بالتروى ، وألوان جماله معقولة واضحة بالحب ، أما خرافاته فيحولها إلى أساطير جديدة شعرية جداً . لقد أصبح صرير الجندب عند الموقد موسيقا في قصته ، وأجراس ليلة رأس السنة تنطق بالسنّة بشرية ، وسحر ليلة الميلاد يوفّق بين الشعر والشعور الديني ، وقد استخرج من أصغر الاحتمالات معنى أعمق ، وأعان كل هؤلاء البسطاء على اكتشاف شعر حياتهم اليومية ، وزادهم حباً لما كان من قبل أحبّ شيء إليهم ، للدار « Home » عندهم ، للحجرة الضيقة ، حيث تفرّق المدفأة البخارية بألسنة اللهب الحمر ، ويططق الخشب الجاف ، وحيث يثر الشاي على المنضدة ويغني ، وحيث تعصم الكائنات التي لا أمانٍ لها ، نفسها من عواصف الرغبة وألوان الجراءة في الدنيا ، لقد أراد أن يعلم شعر الحياة اليومية كل أولئك الذين كانت الحياة اليومية تجرفهم في مسارها ، وقد بيّن للآلاف ، وللملايين ، إلى أين يبلغ الأبدى في حياتهم البائسة ، وأين تستكن شرارة البهجة الهادئة تحت رماد الحياة اليومية . لقد علمهم أن يشعلوها فيحولوها إلى ضرام من الدعة المرحّة . كان يريد أن يعين البؤساء والأطفال ، أمّا ما تجاوز هذا المستوى المتوسط من الحياة من الناحية المادية أو الروحية ، فقد كان بغياً إليه ، فلم يكن يحب إلاّ العادي ، والمتوسط ، من كل قلبه . فأما الأغنياء والذين آثرتهم الحياة فقد كان يكنّ لهم الضغينة ، فهؤلاء يكادون يكونون دائماً أوغاداً وبخلاء في كتبه ، وقتلما يكونون لوحات فنية ، بل يكادون يكونون دائماً صوراً ساخرة (كاريكاتورية) . لم يكن يحبهم . فما أكثر ما كان يحمل إلى أبيه ، طفلاً ، رسائل إلى سجن المدينين ، في المارشالي ، وما كان

برى الرهون ، وما أكثر ما عرف محنة المال الأليمة ، وظل ، عائد بعد عام ، يجلس في غرفة بالطابق الأعلى في مخزن هنجر فورد ، صغيرة قدرة لاتدخلها الشمس ، يطلي الأحذية بطلاء في طست لها ، ويعقد الخيوط للمئات والمئات منها في كل يوم ، إلى أن التهبت يداه الصغيرتان الطفوليتان ، وانهمرت دموع الهوان من عينيه ، وما أكثر ما عرف الجوع والحربان في ساعات الفجر الضبابية الباردة ، في شوارع لندن . ولم يمدد له أحد يد العون في تلك الأيام ، وكانت المركبات تمر بالفتى المرتعد برداً ، كما يمر به الفرسان خبيباً ، ولم تكن الأبواب قد انفتحت له ، ولم يعرف الخير إلا من الضعفاء ، ومن أجل ذلك لم يكن يريد أن يرد العطاء إلا إلى هؤلاء ، فأدبه ديمقراطي بصورة فائقة — وليس اشتراكياً ، إذ تعوزه روح التطرف — فالحب والعواطف وحدهما يهبان له النار المثيرة للتعاطف . ففي العالم البورجوازي — في المجال الأوسط بين ملجأ المساكين ، والأرباح — كان يطيب له المقام إلى الحد الأقصى ، فلم يكن يترّ عيناً إلا مع هؤلاء البسطاء . وهو يرسم حجراتهم رسماً فيه ترف واتساع ، وكأنما يريد هو نفسه ، أن يسكنها ، ويحوك لهم سيرة حياة ملوثة تراقص من فوقها على الدوام نار شمسية ، ويعلّم لهم أحلامهم المتواضعة ، فهو محاميهم وواعظهم وحبيبهم . والشمس الدافئة أبداً في عالمهم البسيط الموحد الكئيب .

ولكن ما أكثر ما اغتنى به هذا الواقع المتواضع تلك الحيوات الصغيرة ! فالجماعة البورجوازية بأسرها . يجلسها العائلي وأخلاق مهنها ، والمزيج الذي لا تخطئه العين . من المشاعر ، كل ذلك تحول مرة أخرى إلى كون ، إلى دنيا بنجومها وآهتها في كتبه . ومن مرة الحيوات الصغيرة ، تلك المسطحة ، الراكدة التي لا تكاد تنموج .

قام بصراً ثاقب هنا باستراق كنوز ، ورفعها إلى الضوء بالشبكة ذات النسيج الدقيق . ومن الشعور استخرج بشراً ، ألا ما أكثرهم من بشر ! مئات من الشخوص يكفون ليأهلوا مدينة صغيرة . وإنّ منهم آمن لا يُنسى ، شخوص خلدت في الأدب ، وهي تمتد حياتها إلى المفهوم اللغوي الواقعي للشعب ، بيكويك ، وسام ويكر ، وبيكسينيف ، وييتسي تروتوود ، هؤلاء جميعاً هم أوائك الذين تبعث أسماؤهم فينا ذكرى باسم بصورة ساحرة . ألا ما أغنى هذه الروايات ! لقد كانت الأحداث العرضية عند دافيد كوبرفيلد خليفة أن تكفي وحدها لإمداد كاتب آخر بالوقائع اللازمة لعمل حياته الأدبية . على أن كتب ديكنز تعد روايات حقيقية بمعنى الحصب والحركة التي لا يعثرها الفتور ، لا مثل أقاصيصنا الألمانية النفسية التي لا تمتد كلها تقريباً إلاّ عرضاً ، وثمة نقاط ميتة قليلة فيها ، ومسافات رملية خاوية قليلة ، وفيها جذر ومدّ من الأحداث ، وهي في الواقع كبحر لا يُسبّر غوره ، ولا تحيط به العين ، فلا يكاد المرء يستطيع أن يحيط ببصره بهذه الفوضى الشديدة من البشر الذين تعجّ بهم ، فهم يندفعون صاعدين إلى خشبة مسرح القلب ، ويتصادم بعضهم ببعض ، ويمرّون مندفعين ، وما من شخصية من الشخصيات التي يبدو أنها لا تمر إلاّ عرضاً وتسكعاً ، تضيق ، فكلّهم يكمل ، وينمي ، ويدخل في عداوة مع الآخر ، ويكدّس الضوء أو الظل ، وثمة مداخلات متلوّية ، هازلة وجادة ، تذهب بكرة غزل الحدث جيئة وذهاباً في مثل لعب القطط . وكل إمكانات الشعور تتذبذب ارتفاعاً وهبوطاً في تناوب سريع على لوحة القياس المدرجة ، وكل شيء مختلط : هتاف ، وابل من الأصوات ، وغطرسة . فتارة تلتهم دمة الثأر ، وطوراً تلتهم دمة المرح المنطلق ،

وَتَنْفُشُ السَّحْبَ وَتَتَبَدَّدُ ، ثُمَّ تَتَرَاكُم مِّنْ جَدِيدٍ ، وَلَكِنَّ الْهَوَاءَ الَّذِي
نَفَثَهُ الْعَاصِفَةُ يَتَأَلَّقُ آخِرَ الْأَمْرِ فِي الشَّمْسِ الرَّائِعَةِ . وَبَعْضُ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ
إِلْيَاذَةٌ تَنْطَوِي عَلَى أَلْفِ صِرَاعٍ فَرْدِيٍّ ، إِلْيَاذَةٌ عَالَمٍ أَرْضِيٍّ لَا آلِهَةَ فِيهِ ،
وَبَعْضُهَا مَجْرَدُ أَنْشُودَةٍ رَعْوِيَّةٍ مُتَوَاضِعَةٍ مَسَالِيمَةٍ : غَيْرَ أَنَّ كُلَّ الرِّوَايَاتِ ،
الْمُمْتَازِ مِنْهَا وَالَّذِي لَا يُقْرَأُ ، تَتَسَمَّى بِهَذِهِ السَّمَةِ ، سَمَةٌ تَعْدُدُ الْجَوَابِ
إِلَى حَدِّ الْإِفْرَاطِ ، وَلَهَا جَمِيعًا ، حَتَّى أَكْثَرُهَا جَمُوحًا وَكَأَبَةً ، فِي
صُخُورِ الْأَرْضِ الْمَأْسَاوِيَةِ طُرْفٌ مِّنَ الْجَمَالِ صَغِيرَةٍ مُتَنَازِرَةٍ كَالْأَزْهَارِ .
فَفِي كُلِّ مَكَانٍ تَزْدَهَرُ هَذِهِ الْمَفَاتِنُ الَّتِي لَا تُنْسَبُ فِيهَا تَنْتَظَرُ ، كَأَزْهَارِ
الْبُنْفَسِجِ الصَّغِيرَةِ ، مُتَوَاضِعَةٍ مُسْتَكْنِيَّةٍ ، فِي مَخْطَطِ الْمَرْجِ الْمُمْتَدِّ بَعِيدًا
فِي كَتَبِهِ ، وَفِي كُلِّ مَكَانٍ يَنْضَحُ الْيَنْبُوعُ الصَّافِي بِمَرْحٍ طَاقٍ يَرْدُدُ صَدَاهُ ،
مِنَ الْحَجَرِ الدَّاكِنِ لِلْأَحْدَاثِ الْعَاصِفَةِ ، وَثَمَّةُ فُصُولٍ عِنْدَ دِيكَزٍ لَا
يَسْتَطِيعُ الْمَرْءُ أَنْ يَشْبَهَ مَفْعُولَهَا إِلَّا بِالْمُنَاطَرِ الطَّبِيعِيَّةِ ، فَهِيَ بِاللُّغَةِ النِّقَاءِ
بَالِغَةُ الرِّبَانِيَّةِ ، لَمْ تَمَسَّسْهَا التَّوَاوُزُ الْأَرْضِيَّةُ ، بِاللُّغَةِ الْإِزْدَهَارِ بِفَعْلِ
الشَّمْسِ فِي لِنْسَانِيَّتِهَا الْمَرْحَةِ الْعَذْبَةِ . وَإِنَّ الْمَرْءَ لَخَلِيقٌ ، مِّنْ أَجْلِهَا فَحَسَبَ ،
أَنْ يَحِبَّ دِيكَزَ ، لِأَنَّ هَذِهِ الْفَنُونَ الصَّغِيرَةَ تَتَنَازَرُ فِي عَمَلِهِ عَلَى نَحْوِ بَالِغِ
الْإِفْرَاطِ ، حَتَّى إِنْ كَثُرَتْهَا اتَّحَوَّلَ إِلَى عَظَمَةٍ . فَمَنْ عَسَاهُ يَسْتَطِيعُ
أَنْ يَحْصِيَ شَخْصَهُ فَحَسَبَ ، كُلِّ هَؤُلَاءِ الْفَهْرِ الْمُتَوَاجِجِينَ الشَّائِئِينَ
الطَّبِيعِيِّينَ ذَوِي الْإِبْتِسَامَةِ السَّهْلَةِ ، وَالْمُسْتَسْتَبِينَ دَائِمًا إِلَى حَدِّ بَعِيدٍ ؟ أَمَّا
أَحَاطَ بِهِمْ ، بِكُلِّ حِمَاقَاتِهِمْ ، وَخَصَائِصِهِمْ الْفَرْدِيَّةِ ، وَحَشَرَهُمْ فِي
أَغْرَبِ الْمَهْنِ ، وَزَجَّ بِهِمْ فِي أَكْثَرِ الْغَامِرَاتِ شَيْطَانِيَّةٍ . وَمَهْمَا بَبَلَغَ
مِنْ كَثَرَتِهِمْ ، فَمَا مِنْ أَحَدٍ يَمَازِلُ الْآخَرَ ، بَلْ يَمَازُونَ بِالصِّيَاغَةِ الشَّخْصِيَّةِ
الدَّقِيقَةِ الَّتِي تَصِلُ دَقَّتِهَا إِلَى أَدَقِّ التَّفَاصِيلِ ، وَمَا مِنْ شَيْءٍ يَعْدُ قَالِبًا
أَوْ نَمَطًا ، وَإِنَّمَا كُلُّ شَيْءٍ حَسَّاسِيَّةٌ وَحَيَوِيَّةٌ ، وَهُمْ جَمِيعًا لَيْسُوا مِنْ

نتاج إعمال الفكر ، بل من نتاج البصر ، فقد أبصرتهم نظرة هذا الأديب التي لا تشبه لها البتة .

وهذه النظرة لها دقة فريدة في نوعها ، فهي آلة رائعة لا تخطيء ، لقد كان ديكنز عبقرية بصرية ، وإن المرء ليحب أن يتأمل كل صورة منه ، صورة الصبا ، وصورة سني الرجولة (الأفضل) ، فهي صورة تهيمن عليها هذه العين العجيبة ، وليست هذه بعين الأديب تجري في جنون جميل ، أو تلك التي تغشاها كآبة عاطفية ، وليست بالضغينة المتهاونة ، أو ذات الرؤيا النارية . بل هي عين الإنكليزية ، تلتصع بحيدة كالفلولاذ ، ولقد كانت فولاذية أيضاً كخزانة الأموال يستقر فيها كل شيء فلا يحترق ولا يضيع ، معزولاً عزلاً لا يكاد يتسرّب معه الهواء ، أياّن يدفع إليها ، بالأمس ، أو قبل كثير من السنين : سواء في ذلك الأكثر سموّاً والأدنى خطراً ، بل أيّ لوحة ملونة فوق حانوت الطُرف للقديمة في لندن رآها ديكنز ذو السنوات الخمس ، قبل عهد لا سبيل إلى تصوّره ، أو شجرة بأزهارها المفتحة قبالة تماماً أمام النافذة . لم يكن شيء يغرب عن هذه العين ، فقد كانت أقوى من الزمن ، وكانت تصفّ انطباعاً إلى جانب انطباع ، على نحوٍ توفيري في مخزن الذاكرة ، إلى أن يستعبده الأديب ، ولم يكن شيء يسرع إلى النسيان ، أو يشحب أو ينوي ، بل كان كل شيء يرقد أو ينتظر ، ويظل مترعاً بالعبير والعصارة ، ملوّناً واثقاً ، ولم يكن شيء يموت أو يذبل ، فلا مثيل للذاكرة العين عند ديكنز ، فهي تقطّع . بنصلها الفولاذي ، ضباب الطفولة . ففي « دافيد كوبرفيلد » ، هذه السيرة الذاتية المقنّعة ، تُحسّن ذكريات للطفل ذي الحولين عن أمه والخدام كصوّر الظل .

(Silhouette) من خلفية اللاوعي ، بحدّة السكين ، ولا يوجد خطوط للمحيط - غامضة عند ديكنز ، فهو لا يقدم إمكانات للرؤية قابلة للتأويلات ، بل لا ينتهي إلا إلى الوضوح ، وطاقته التصويرية لا تدع لخيال القارئ إرادة حرة ، فهو يقسرها (وهذا ما جعل منه الأديب المثالي لأمة لا خيال لها) . ضعوا كتبه أمام عشرين رسّاماً ، واطلبوا إليهم صور كوبرفيلد وبكويك ، وسوف تبدو الصفحات متشابهة ، سوف تصور ، في تشابه لا سبيل إلى شرحه ، السيد البدين ذا الصدر الأبيض والعينين الودودتين وراء زجاجتي النظارتين ، أو الغلام - الجميل الأشقر المروّج في عربة البريد الذاهبة إلى يارموث ، فديكنز يصف وصفاً يبلغ من حدته وعنايته دقته أن المرء يضطر إلى متابعة نظراته التي تنوم مغناطيسياً . لم تكن له نظرة بلزك السحرية التي تدع أناس السحابة الناعمة يصوغون ذواتهم على نحو فوضوي من خلال التحرر من أهوائهم ، بل كانت له نظرة أرضية تماماً ، نظرة بحار ، نظرة صياد ، نظرة صقر ، إلى الإنسانيات الصغيرة ، ولكن الأشياء الصغيرة هي التي تشكل معنى الحياة ، كما قال ذات مرة ، فنظراته تنصّب السمات المميزة الصغيرة ، فهو يرى البقعة على الثوب ، وملامح الحرج الصغيرة المرتبكة ، وهو يحيط بخصلات الشعر الأحمر التي تطلع من تحت الشعر المستعار الداكن ، حينما يتولّى الغضب صاحبها ، وهو يتحسّس اللويّنات ، ويتلمّس حركة كل إصبع على حدة لدى المصافحة ، والظل المتدرج في الابتسامة . لقد كان طوال سنين قبل فترته الأدبية كاتباً مختبراً في مجلس النواب ، وتدرّب هناك على حشر المنصّل في الموجز ، وعلى تصوير كلمة بخط ، وجملة بخط متعرج ، وعلى هذا النحو مارس فيما بعد ، بصورة أدبية ، نوعاً من الاختزال

الواقع ، فطرح الإشارة الصغيرة بدلاً من الوصف ، واستقطر جوهر الملاحظة من الوقائع الملونة ، وحيال هذه المظاهر الخارجية الصغيرة كان يمتاز بدقة نظر خارقة ، فلم يكن يغرب عن بصره شيء ، وكان يدرك ، مثل القفل الجيد في جهاز التصوير ، الواحدَ بالمائة من الثانية ، في الحركة أو اللقطة ، ولم يكن يتسرب من بين يديه شيء ، وقد صعد هذه الحدة في النظر انكسار غريب تماماً في النظرة ، انكسار لا يعكس الموضوع مثل مرآة في أبعاده الطبيعية ، بل مثل مرآة مقعرة ، إذ يبالغ فيه ، مبرزاً الخاصة المميزة . فديكتر يؤكد على الدوام السمات المميزة لشخصه ، وهو يحولها من الموضوعي ، متجاوزاً بها إلى حالة التصعيد ، إلى الحالة الهزلية الساخرة (الكاريكاتورية) وهو يجعلها أكثر حدة ويرفع بها إلى الرمز ، فبكويك المكتنز يتحوّل إلى اكتناز من الناحية النفسية أيضاً ، وجينفل الناحل يتحوّل إلى جفاف وعقم ، والشرير إلى شيطان ، والطيب إلى كمال متجسّد ، وذلك أن ديكتر يبالغ ، شأن كل فنان عظيم ، ولكن ليس في اتجاه التعاضم الأحق ، بل في الاتجاه الهزلي . وكل الأثر الممتع إلى حد هائل في تصويره لم يكن ينشأ إلى هذا الحد عن مزاجه ، ولا عن روحه المعنوية العالية ، بل كان يكمن في هذا الوضع الغريب لزاوية النظر في عينيه التي كانت تعكس بحدّتها البالغة كل الظاهرات على نحو ما ، في الاتجاه المدهش والتصويري الساخر (الكاريكاتوري) .

وبالفعل : ففي هذا البصر الفريد من نوعه — وليس في روحه المفرطة بعض الإفراط في البورجوازية — تكمن عبقرية ديكتر . فالخلق أن ديكتر لم يكن قط عالم نفس يحيط بنفس الإنسان على نحو سريري ،

ويدع الأشياء تفتّح من بذرتها الواضحة أو الغامضة بألوانها وأشكالها في نموّ خفيّ ، فعلم النفس عنده يبدأ بالمرئيّ ، وهو يحدّد السمات عن طريق المظاهر ، ولكن عن طريق تلك المظاهر الأخيرة والأكثر دقة ، والتي لا تكون مرئية على أية حال إلاّ للعين المرفهة إرهافاً أدبيّاً ، وهو لا يبدأ ، مثل الفلاسفة الانكليز ، بالافتراضات الأولية ، بل بالسمات المميزة . فالمظاهر الخارجية للنفس ، وهي تلك المظاهر المادية تماماً ، والأبعد عن الاحتمال ، يمسك بها ، ويجعل بها ، عن طريق بصريّاته . الساخرة (الكاريكاتورية) الغريبة ، كل الشخصية شيئاً يلفت النظر ، وهو يجعل الأنواع تتبين من خلال السمات المميزة ، فهو يعطي معلم المدرسة كريكل صوتاً خافتاً لا يخرج الكلمة إلاّ بجهد ، وسرعان ما يستشعر المرء فزع الأطفال في هذا الانسان ، إذ يدع جهده الحديث شريان الغضب يتنفخ على جبينه . أمّا أوربا هيّب فيدها باردتان مخضلتان دائماً : وتكاد هذه الشخصية تنفس الضيق والتبرم والمظاهر المنفّرة الأفغانية ، وهذه صفات ومظاهر خارجية ، غير أنها هي دائماً تلك التي تحدث أثرها في الجانب النفسي ، وفي الحقيقة قد يكون ما يصوره أحياناً مجرد طُرفة حية ، طرفة متداخلة مع إنسان ، وهي تحركه تحريكاً كالدمية ، وأحياناً يبيّن خصائص الانسان ، مرة أخرى ، عن طريق مرافقه ، فما عسى أن يكون بكويك من دون « سام ويلر » ، و «دورا» من دون « جب » و « بارنابي » من دون « رابن » و « كيت » بغير الحصان ! — وهو لا يرسم الخصائص المميزة للشخصية أبداً وفقاً للنموذج ذاته . بل وفقاً للظل الهزليّ المشوّه (Grotesk) وليست شخصياته في الحقيقة ، وعلى الدوام ، إلاّ جملة من السمات المميزة ، غير أنها سمات يبلغ من إرهاف تحديدها أنها تتداخل فيما بينها متلازمة

دونما زيادة أو نقصان ، وتشكل صورة بالموزاييك على نحوٍ رائع ، ومن أجل ذلك لا تحدث أثرها على الغالب ، وعلى الدوام ، إلاّ خارجياً ، وعلى نحو واضح معقول ، وهي تخلف ذكرى حادة للعين ، ومجرد ذكرى غامضة للشعور ، فإذا ما ابتعثنا في أنفسنا شخصية لبزاك أو دوستويفسكي باسمها ، الأب غوريو ، أو راسكولنيكوف ، أجاب شعورٌ ، ذكرى تضحية ، بأسٌ ، ركّامٌ من الأهواء ، وإذا ما ذكرنا بيكويك ظهرت صورة ، سيدٌ مرح ، ذو بدانة عظيمة ، وأزرار ذهبية على صدره ، فهنا نحسّ بذلك إحساساً : فعند شخوص ديكتز يفكر المرء كأنه أمام صور مرسومة ، وعند شخوص دوستويفسكي وبلزك كما يفكر في موسيقا ، ذلك لأن هذين يبدعان إبداعاً حديسياً ، فأما ديكتز فلا يبدع إبداعاً توليدياً ، وذاتك بعينيّ الفكر ، وديكتز بعين الجسد ، وهو لا يتناول النفس حيث تكون في عالم الأشباح لا يهيم عليها إلاّ ضوء المناجاة في عالم الرؤى ، الملتهب أضعافاً سبعة ، والصاعد من ليل اللاشعور ، وهو يرصد الجو اللاجسدي حيث يكون له تأثير في الجسديّ ، غير أنه لا يغفل هناك شيئاً ، وخياله في الحقيقة مجرد نظر ، وهو من أجل ذلك لا يكفي لتلك الأحاسيس والشخصيات العائدة إلى المجال الأوسط ، والتي تسكن الأرضيّ ، وشخصه لا تتمثل إلاّ من حيث الجسم في درجات الحرارة المعتدلة. للأحاسيس العادية ، فأما في الدرجات الساخنة للأهواء فتذوب في العاطفية ، كما تذوب صور الشمع ، أو تتحجّر في الكراهية وتغدو سريعة العطب ، ولم يكن ديكتز يصيب نجاحاً إلاّ في الطبائع ذات الخط المستقيم ، لا تلك الطبائع التي لا تثير الاهتمام بدرجة ثابتة ، والتي تتميز فيها المعابر ذات المائة وجه ، من الخير إلى الشر ، ومن الربّ إلى الشيطان ، بالسهولة ،

والناس عنده يتسمون بالوضوح دائماً ، فاما ممتازون ، أبطالاً ، وإمّا أذنياء ، أو غاداء ، وهم طباع رسمها القدر ، وعلى جبينها هالة قداسة أو وصمة عار ، وعالم يترجّح بين الطيب والخبيث ، بين ذي الإحساس والذي لا إحساس له ، وفوق ذلك لا يعرف نهجه طريقاً في عالم المداخلات الخفية ، وأشكال الترابط الصوفي . فالعظيم الجليل لا يمكن إدراكه ، والبطولي لا سبيل إلى اكتسابه . وإنه لمجد ديكتر ومأساته أنه ظل دائماً في نقطة وسطى بين العبقريّة والتقليد ، بين المهول والمبتذل في المسارات المحددة للعالم الأرضي ، في الرقيّ وفي المؤثر ، في المريح والبورجوازي .

غير أن هذا المجد لم يكن يكفيه ، فقد كان الأديب الرعوي يتوق إلى المأساويات ، وظل حيناً بعد آخر ينزع بطموحه إلى المأساة ، ولم يكن ينتهي دائماً إلاّ إلى المشجاة (الميلودراما) ، وههنا كانت حدوده . وهذه التجارب لا تسرّ . ولئن كانت روايتا « قصة مدينتين » و « منزل الأشباح » تعدان في انكسار من الإبداع الرفيع فهما بالقياس إلى إحساسنا ضائعتان سدى ، لأن اللفتة الكبرى فيهما لفتة مفتعلة . ويعد الجهد الذي ينزع إلى المأساويّ فيهما جديراً بالإعجاب حقاً ، ففي هاتين الروايتين يكدرّس ديكتر المؤامرات ، وينصب كوارث كبرى ، كجلاميد الصخر ، فوق رؤوس أبطاله ، وهو يستحضر رعدة ليالي المطر والهياج الشعبي والثورات ويطلق كل جهاز الفزع والرعب من عقاله ، غير أن تلك الرعدة السامية لا تحلّ أبداً ، بل يحلّ مجرد قشعريرة ، وهي الانعكاس الجسدي المحض للرعب ، لا رعدة الروح . فتلك الهزات العميقة ، وتلك الآثار العاصفة التي تدع القلب يتنهّد في شوق بعد تفريغ الشحنة في وميض البرق ، لا تنبثق قط من كتبه ، فديكتر يكدرّس

خطراً على أخطار ، غير أن المرء لا يهابها ، وعند دوستويفسكي تبرز في بعض الأحيان فجأة هَوَاتٌ ، ويلتقط المرء أنفاسه مجهداً حينما يشعر بهذا الظلام ، هذه الهوة التي لا اسم لها ، تنشق في صدره ، ويحس المرء بالأرض تدور تحت قدميه ، ويشعر بدوار مبالغ ، دوار ناري ، ولكنه حلواً ، ويود لو ينهار إلى الأعماق ، ويرتعد مع ذلك في الوقت نفسه من هذا الشعور حيث تنهيج المتعة والألم عند درجات من الحرارة هائلة تبلغ بهما إلى التوهج الأبيض ، فلا يستطيع المرء أن يفصل أحدهما عن الآخر ، ومثل هذه الهَوَاتِ موجود عند ديكنز ، فهو يشقها ويملؤها سواداً ، ويظهر كل خطرها ، غير أن المرء لا يرتعد مع ذلك ، ولا يغشاه ذلك الدُّوار الحلواً المتصل بالانهيار الروحي والذي ربما كان أشد ما في الاستمتاع الفني من فتنة . إن المرء ليحسّ عنده بالأمان دائماً على نحو ما ، وكأنه يمسك بافريز شرفة ، ذلك لأن المرء يعرف أنه لا يدع أحداً يسقط ، وهو يعرف أن البطل لن ينهار ، وكلا الملاكين اللذين يسبحان في الهواء بأجنحتهما البيض خلال عالم هذا الأديب الانكليزي ، أي الرأفة والعدالة ، يحملانه من دون أن يلحقه أذى ، فهو فوق كل الصدوع والهوى (جمع الهَوَّة) وإنما تعوز ديكنز الفظاظلة والجرأة على المساويات الحققة ، فما هو بالبطوليّ ، وإنما هو عاطفي ، فالمساويات لإرادة القهر ، والعاطفية شوق إلى الدموع . وما وصل ديكنز قط إلى السلطان الأخير للألم البائس ، ذلك السلطان الذي لا دموع له ولا كلمات . فالتأثير الرقيق ، مثل موت « دورا » في رواية « كوبرفيلد » هو أظهر المشاعر الجدية التي تمكن من تصويرها تصويراً كاملاً ، وإذا ما تأهب لتحليق شديد حقاً فسرعان ما يعوقه عن ذلك التعاطف ، وما يفتأ زيت التعاطف (الحارّ في الغالب) يهديء عاصفة العناصر

المُسْتَعَمَّة إلى الأعلى ، ويتغلب التقليد العاطفي للرواية الانكليزية على إرادة الشموخ ، ولابدّ للنهائي أن يكون يوم دينونة ، وحساباً أخروياً ، فالصالحون يرتقون والأشرار يعاقبون . ومما يؤسف له أن ديكتز أخذ على عاتقه أمر هذه العدالة في أكثر الروايات ، فالأوغاد عنده يغرقون ، ويقتل بعضهم بعضاً ، والمتكبرون والأغنياء يصيبهم الإفلاس ، والأبطال جالسون مطمئنون إلى دفء الصوف ، وقد انتهت هذا التكريس الانكليزي الأصيل للمعنى الأخلاقي بأعظم ألوان الإلهام المتصلة بالرواية المأساوية (التراجيديا) عند ديكتز ، على نحو ما ، إلى الفتور ، ذلك لأن النظرة إلى العالم في هذه الأعمال ، والدوامة المثبتة فيها التي تحافظ على ثباتها ، ما عادت هي عدالة الفنان الحر ، بل أصبحت عدالة مواطن انجليكاني ، وإنما يارس ديكتز الرقابة على المشاعر بدلاً من أن يدعها تحدث أثرها بصورة حرة ، وهو لا يتيح لها ، مثل بازاك ، فورانها الأوّل ، بل يوجهها عن طريق السدود والأخاديد ، في قنوات تدوير عندها طواحين الأخلاق المدنية . فالواعظ ، وصاحب الغبطة ، وفيلسوف الحسد العام ، وأستاذ المدرسة ، كل هؤلاء قاعدٌ معه ، لا يرى ، في ورشة الفنان ، وهم يتدخلون : فهم يُغرونه أن يجعل من الرواية الحادة مثلاً وتحذيراً للشباب بدلاً من أن يجعلها صورة متواضعة للوقائع الحرة ، ولاريب أن تلك العقلية الفاضلة نالت ثوابها ، فحين مات ديكتز عرف أسقف ونشستر كيف يفتخر بعمله ، ففي وسع المرء أن يضعه بين يدي كل طفل ، غير أن هذا بالضبط . أي عرضه للحياة ، لا في وقائعها ، بل بالصورة التي يريد المرء أن يعرضها بها على الأطفال ، يهبط بقدرته على الإقناع . وبالقياص إلينا ، نحن غير الانكليز ، ينضج عمله بالأخلاقية ويتجسّح بها على نحو مفرط .

والكي يكون المرء بطلاً عند ديكنز لابد له أن يكون مثلاً أعلى للفضيلة ،
 مثلاً من مثل المتطهرين Puritans . أما عند فيلدينج وسموليت
 اللذين كانا من الانكليز أيضاً ، غير أنهما كانا من أبناء قرن أكثر
 استمتاعاً حسيماً ، فلم يكن يضر البطل على الإطلاق أن يهشم أنف
 خصمه ، وأن يضاجع وصيفة سيدته النبيلة ذات مرة ، مهما يبلغ من
 حبه لسيدته ، فأما عند ديكنز فلا يسمح ، حتى الفساق ، لأنفسهم
 بمثل هذه الفظائع ، بل إن المتهمين عنده لا يؤذون في الحقيقة ، وتظل
 مسراتهم هي أنهم يستطيعون أن يتبعوا عانساً طاعنة من دون أن يحمروا
 خجلاً ، وإليك ديك سوينفيلد الجامح ، أين يكمن جموحه حقاً ؟
 يا إلهي ، إنه يشرب أربعة أقداح من البيرة الانكليزية بدلاً من اثنين ،
 ويسدد حسابه بطريقة شاذة إلى أقصى حد ، ثم يتسكع قليلاً ، وهذا
 كل شيء ، وفي الختام يحصل في اللحظة المناسبة على ميراث ، ميراث
 متواضع بالطبع ، ويتزوج بأكثر الطرق تهديفاً ، الفتاة التي أعانته
 على سلوك طريق الفضيلة ، بل إن الأوغاد عند ديكنز ليسوا بالأخلاقين
 حقاً ، فحتى هؤلاء لهم ، على الرغم من كل غرائز الشر ، نفس طيبة .
 وهذه الأكذوبة الانكليزية المتصلة باللاشعورية منطبعة كالعلامة التجارية
 في عمله ، فالنفاق الانكليزي ذو العين الحولاء ، الذي يتجاهل ما لا يريد
 رؤيته ، يصرف النظرة المتحسسة عند ديكنز ، عن الوقائع ، لقد منعت
 إنكلترا الملبكة فيكتوريا ديكنز أن يكتب الرواية المساوية الكاملة التي
 كانت أكثر أشواقه عمقاً ، ولقد كانت خليقة أن تجرّه جراً كاملاً إلى
 اعتدالها الشبان ، وأن تحوله تماماً ، بأذرع الإعجاب المشبهة ، إلى
 مدافع عن حرجها الجنسي ، لولا أن علماً كان مفتوحاً سام الفنان ،
 وكان في وسع شوقه الإبداعي أن يفرغ إليه ، ولو لم يكن يملك ذلك

الجناح الفضّي الذي كان يسمو به فوق المجالات العفنة لمثل هذه الألوان من النفعية : ألا وهو مريحه السعيد الذي يكاد يخرج عن العالم الأرضي . وهذا العالم الواحد السعيد الحر المغتبط بالسكينة ، والذي لم يكن يتعلق في أجوائه ضباب انكثرا ، هو ديار الطفولة . فالأكذوبة الإنكليزية تقطع الإحساس في الإنسان ، وتفرض سلطانها على البالغين ، فأما الأطفال فيعيشون بعد أحاسيسهم غير آبهين وكأنهم في الفردوس ، فهم ليسوا من الانكليز بعد ، بل هم مجرد أنهار بشرية مشرقة صغيرة ، وفي عالمهم الملون لم يلق دخان النفاق الضبابي ظلاله بعد . وههنا ، حيث كان متاح لديكنز أن يتصرف ، حرّاً ، لا يعوقه ضميره البورجوازي الانكليزي ، حقق عملاً خالداً ، فسنوات الطفولة في رواياته هي وحدها الجميلة ، وإن تضمنت هذه الشخصيات ، فيما أعتقد ، أبداً . في الأدب العالمي ، هذه الأقاصيص المريحة والجادة ، أقاصيص الأيام الأولى . فمن عساه يستطيع أن ينسى أوديسانيل الصغيرة ، وكيف تخرج مع جدها الشيخ ، من دخان المدن الكبيرة وغبارها ، إلى الخضرة المنبثقة في الحقول ، بريئة عذبة ، حافظة هذه الابتسامة الملائكية ، في سعادتها ، فوق كل المتاهات والأنظار ، حتى الموت . وهذا مؤثر بمعنى يتجاوز كل العاطفيات ليلبغ أكثر المشاعر الإنسانية أصالة وحيوية . وإليك « تراداز » الفتى البدين في سراويله النضفية المنفضحة ، الذي يتسلّى عن ألم الجلدات التي تلقاها برسم الهياكل العظمية ، و « كيت » أوفي الأوفياء ، و « نيكلاي » الصغير ، ثم هذا الواحد ، الذي يعود المرة بعد المرة ، « الغلام الجميل » الصغير جداً ، والذي لم يكن يلتقي معاملة فيها من الود ما ينبغي له ، هذا الذي ليس امرأ آخر سوى شارلز ديكنز ، الأديب الذي خلد حبه للأطفال ، وآلام طفوفاته الخاصة .

كما لم يفعل أديب آخر ، فهو ما يفتأ يعود بنا إلى الحديث مرة بعد أخرى عن هذا الغلام المستضعف المنسي ، المروّع الحالم ، الذي خلفه أبواه يتيماً ، وههنا أصبحت عاطفته قريبة إلى الدموع حقاً ، وغدا صوته الرنان ملآن متجاوباً كايقاع الأجراس ، ألا إن رقصة الأطفال هذه الجماعية لشيء لا يسمى في روايات ديكنز ، فههنا يتداخل الضحك والبكاء ، والسامي والمضحك في تألق واحد نقوس قزح ، وبأثلف العاطفي والسامي ، والمأساوي والهزلي ، الحقيقة والشعر ، في شيء جديد ، في شيء لم يوجد قط من قبل . ههنا يتغلب على الانكيزي ، على الأرضي ، وههنا ديكنز ، من دون قيود ، عظيماً لا مثيل له ، ولو أراد الناس أن ينصبوا له تمثالاً لكان لابد أن يحيط ممرّهم رقصات الأطفال هذه بشخصيته الخالدة ، حامياً لهم وأباً ، ذلك لأنهم هم الذين أولاهم الحب ، على أنهم أشد صور الوجود الانساني قاءاً ، وكان إذا أراد أن يثير العطف نحو البشر جعلهم أطفالاً ، ومن أجل الأطفال أحب حتى أولئك الذين لم يكونوا أطفالاً ، بل طفوليين ، أي ضعاف العقول ، والذين اختلطت عقولهم ، ففي كل رواياته يوجد واحد من هؤلاء المجازين الهادئين الذين نحول عقولهم المسكينة الضائعة بعيداً في الأعالي ، كالطيور البيض ، فوق عالم الموم والآلام ، والذين ليس للحياة عندهم مشكلة ولا جهد ، ولا رسالة ، وإنما هي طو سعيد لا يفهم البتة ، غير أنه حميل . وإنه لمن المؤثر أن يرى كيف يصنف هؤلاء البشر ، فهو يحسّهم بعناية كما يحسّ المرضى ، ويحيط رؤوسهم بكثير من الفضيلة ، كهالة القديسين ، ولأنهم لسعداء عنده لأنهم ظاوا خالدين في فردوس الطفولة . ذلك لأن الطفولة هي الفردوس في أعمال ديكنز ، وعندما أقرأ رواية لديكنز أحس دائماً .

بخوف كتيب حينما يترعرع الأطفال ، ذلك لأنّي أعرف أنّ سيضيع
الآن أحلى ما لديهم ، ذلك الذي لا سبيل إلى استعادته . والآن سرعان
ما يختلط الشعري بالتقليدي ، والحقيقة الخالصة بالأكذوبة الانكليزية ،
ويبدو أنه يشترك هو نفسه في هذا الشعور في أعماق أعماقه ، ذلك لأنه
لا يسلم أبطاله المفضلين إلى الحياة إلاّ على مضض ، وهو لا يصحبهم
قط حتى الشيخوخة ، حيث يغدون مبتدئين ، تخاراً في دكاكين الحياة ،
ضائعين في أزقتها ، فهو يودعهم بعد أن يكون قد رفعهم إلى باب
كنيسة الزواج ، عبر كل التقلبات ، وانتهى بهم إلى مرفأ الحياة المريحة
الصنيل كالمرآة . فأمّا تلك الطفلة التي كانت أحبّ أطفال الرتل الملون
إليه ، وهي الصغيرة نيل التي نخلد فيها ذكرى متوفاة مبكرة عزيزة
جداً عليه ، فلم يدعها أبداً في عالم خيالات الأمل-الفظ ، عالم الكذب .
بل صانها إلى الأبد ، في فردوس الطفولة ، وأغمض عينيها الزرقاوين
العذبتين قبل الألوان ، وتركها تعبر ، غير واعية ، من إشراق باكورة
العمر إلى ظلام الموت ، فقد كانت أعز عليه من أن يسلمها للعالم
الواقعي .

ذلك لأن هذا العالم ، كما أسلفت من القول ، متواضع على النمط
البورجوازي ، فهو انكساراً شعبياً ، قطاع ضيق من إمكانات الحياة
الهائلة ، وما كان لائل هذا العالم البائس أن يغتني إلاّ عن طريق شعور
عظيم ، فقد جعل بنزاع البورجوازي شامخاً عن طريق كراهيته ،
ودوستوييفسكي عن طريق حبه للمنحط (المسيح) ، وكذلك يفعل
ديكتر الفنان ، إذ يخلص هؤلاء البشر من ثقل الأرض الجاثم على
صدورهم : عن طريق مرحة . ولم يكن يتأمل عالمه ، عالم البورجوازية
الصغيرة بأهمية موضوعية ، ولم يكن يترنم بذلك النشيد عن أوائل

الطيبين ، وعن البراعة واليقظة اللتين تصنعان السعادة وحدهما ، بل كان يغمز لشخصه بروح طيبة ، ولكنها مرحة مع ذلك ، وهو يستصغرهم قليلاً ، ويهزأ بهمومهم المتقزّمة ، مثلما يفعل « جو تفريد كيلر » و « فيلهيلم رابه » ، ولكنه يهزأ بمعنى ودي وقلب طيب ، حتى إن المرء لا يريد لهم ، على كل ما فيهم من حماقات وسفاهات ، إلا حباً . ومثل إطلاقة شمس تخيم الدعابة على كتبه ، وتجعل أرضها المتواضعة على نحو مفاجيء مرحة وجميلة . بلا حدود ، ملأى بألف أعجوبة فائقة ، وعلى هذا اللهب الطيب الباعث للدفع يغدو كل شيء أكثر حياة وأكثر احتمالاً ، حتى إن الدموع الكاذبة لمبرق كقطع الماس ، والعواطف الصغيرة تلتهب كالحريق الحقيقي ، وكذلك ترفع الدعابة عمل ديكنز فوق الزمان لتبلغ به كل العصور ، وهو يسبح في الهواء مثل آريل (*) ، مهووماً كاشبح في جوّ كتبه ، فيملؤها بالموسيقى الخفيفة ، ثم يزوج بها في رقصة دورانية ، وطرب للحياة عظيم ، وهو حاضر في كل مكان ، فهو يسطع مثل ضوء عامل النجم ، حتى من داخل هوة أكثر المداخلات ظلاماً ، فيحلّ التوترات المفرطة في الشدة ، ويخفف العاطفي المفرط بنبرة خلفية من السخرية ، والمبالغ فيه بظله ، الغريب المشوّه (Grotesk) ، وهو العنصر الموفّق ، الموازن ، وهو العنصر الخالد في عمله (**) ، وهو شأن كل شيء عند ديكنز — انكليزي بالطبع ، دعابة انكليزية أصيلة ، وهو أيضاً تعوزه النزعة الحسية ، إذ لا ينسى نفسه ، ولا ينهمك في مزاجه الخاص ، ولا يتحول أبداً

(*) روح هائمة في الأساطير الشرقية واليهودية ، استخدمها شكسبير في « العاصفة »

(**) الضمير « هو » يعود على ديكنز نفسه

إلى التهمتلك ، بل يظل ، حتى في تحليقه ، معتدلاً ، لا يزعق ولا يصخب
مثل رابليه ، ولا يجزّ مجندلاً ، كما هو الحال عند سرفانتس ، من
الافتتان الجامح ، أو يقفز على رأسه في المستحيل كالأمريكي ، بل
يظل دائماً منتصباً بارداً ، ولا يتسهم ديكتر ، شأن كل الانكليز ، إلا
بالقم ، لا بالجسد كله . ودعابته لا تحرق ذاتها بذاتها ، بل تنوهج
وتنثر نورها في عروق البشر ، وتراقص بألف لسان صغير من ألسنة
اللهب ، وتطوف كالشبح وتنثر ضوءها في دعاة كدعاة الحن ،
كالمهرج الساحر ، في سط الوقائع . ثم ان دعابته تتمثل أيضاً في تصوير
وسط دائماً ، لأن هذا قدر ديكتر - وهو توارن بين سيكر الشعور
والمزاج الجامح والسخرية الباسمة في برود ، ولا يمكن مقارنة دعابته
بدعاة الانكليز الكبار الآخرين ، فليس له شيء من تهكم ستيرن
المتآك الواخن ، ولا شيء من مرح فبلدنغ ذي البصمات العريضة
الذي ينسب إلى نبلاء . وهو لا ينتهم الناس على نحو مؤام مثل تاكيري ،
بل يبعث على الارتياح ولا يؤلم أبداً . وهو يعث بهم في مرح كما تعث
أقراص الشمس(*) حول رؤوسهم وأيديهم ، وهو لا يريد أن يكون
أخلاقياً ، ولا تهكمياً ، ولا أن يخفي تحت قبة المجازين أي جدّه
خطره ، بل هو لا يريد على الإطلاق ، لا يريد شيئاً ، فهو موجود ،
وجوده لا غاية له ، وهو بلهبي ، وإنما يستكن الظرف حتى في
ذلك الوضع الغريب لعين ديكتر ، فهو يزخرِف الشخصيات ، ويبالغ

(*) الظاهر أن الكاتب يشير بأقراص الشمس إلى مثل ما قصد المتنبي بالدنانير في قصيدته

المشهوره ، اذ يقول :

دناسيراً تفسر من البنان

وألقى الشرق منها في ثيابي

« المترجم »

هناك فيها ، ويضفي عليها تلك الأبعاد المسلية والتحريرات الهزلية التي غدت فيما بعد فنتة الملايين : ، وكل شيء يدخل في هذه الدائرة من الضوء ، فاذا الأشياء نضيت كما لو كان ذلك من داخلها ، بل إن اللصوص والأشقياء عليهم هالة المجد من المرح ، والعالم كله يبدو مضطرباً على نحو ما إلى الابتسام ، حينما يرمقه ديكتر ، فكل شيء يتألق ويدور على نفسه ، ويبدو شوق البلاد الضبابية إلى الشمس وقد ارتوى إلى الأبد ، فاللغة تنقلب عاليها سافلها ، وتداخل الحمل بعضها في بعض ، وتتوالت بعيداً ، وتلعب مع معانيها لعبة الاختباء ، ويطرح بعضها الأسئلة على بعض ، وتتبادل المزاح ، ويضلل بعضها بعضاً ، ويخسحها المزاج إلى الرقص ، وما من سبيل إلى تفويض هذه الدعابة ، وهي اللذة الطعم بدون ملح الجنس الذي حرمه إياه المطبخ الانكليزي ، ولم يكن يدع نفسه يرتك ، إذ كان الطابع وراء الأديب يستحقه ، ذلك لأن ديكتر لم يكن يستطيع ، حتى وهو في الحمى ، وفي المحنة ، والغضب ، أن يكتب على نحو آخر سوى الكتابة المرحية ، وكانت دعابته دعابة لا تُقاوم ، فقد كان يجلس جلسة المتمكن في هذه العين ، ولم يكن يتلاشى إلا حين يتلاشى ضوءها ، ولم يكن ثمة شيء أرضي يقدر على أن ينال منه ، على أن الزمان أيضاً لن يوفق إلى ذلك . ذلك لأنني لا أستطيع أن أتصور أناساً ان يحبوا أقاصيص مثل « العصفور عند الموقد » ، ويستطيعون أن يقاوموا الدعابة في بعض الأقاصيص في هذه الكتب . وقد تتبدل الحاجات النفسية كما تتبدل الحاجات الأدبية ، غير أن المرء مادام يتوق إلى المرح ، في لحظات تلك الحالات من الدعة ، حيث تستريح إرادة الحياة ، ولا يوجد إلا حس الحياة يحرك أمواجه في هدوء ، وحيث لا يتوق المرء إلى شيء كما يتوق إلى

أيّ انفعال للقلب متناغم ، خالٍ من الأذى ، فيمدّ يده إلى هذه الكتب الوحيدة ، في انكلترا ، وفي كل مكان من العالم .

وهذا هو العظيم ، الذي لا يتخطاه الزمن ، في هذا العمل الأرضي ، المفرط في الأرضية : ذلك أن له شمساً فيه ، فهو يرسل أشعته ويبعث الدفء ، وما ينبغي للمرء أن يسائل أعمال الفن العظيمة عن حدثها فحسب ، بل عن حدثها الخارجية (Extensitaet) ، عن أثرها في الجماهير . فأما ديكنز فسوف يستطيع المرء أن يقول عنه ، كما لا يستطيع أن يقول عن سواه في قرننا ، إنه زاد من بهجة الدنيا . فلقد تألقت ملايين العيون عند كتبه بالدموع ، وزرع الضحك من جديد في صدور الآلاف الذين ذوى الضحك عندهم أو طواه الثرى : وتخطى أثره الجانب الأدبي إلى حد بعيد ، فقد نظر الأغنياء في الأمر ، وأنشأوا أوقافاً ، حينما قرأوا عن الأخوين تشيربي ، وتأثر قساة القلوب ، وجعل الأطفال في الشوارع يتلقّون — وهذا أمر موثوق — مزيداً من الصدقات حين ظهر « أوليفر تويست » ، وحسّنت الحكومة دور العجزة ، وأحكمت الرقابة على المدارس الخاصة ، وازداد التعاطف وحب الخير في انكلترا عن طريق ديكنز ، وخففت المصائب عن كثير ، وكثير من المساكين والبؤساء ، وأنا أعرف أن مثل هذه الآثار الاستثنائية لا شأن لها بالتقييم الجمالي لعمل فني ، غير أنها مهمة لأنها تبيّن أن كل عمل عظيم يحدث — متخطياً عالم الخيال ، حيث تستطيع كل إرادة مبدعة أن تهيم بحرية — ألواناً من التغيير في العالم الواقعي أيضاً ، وهي ألوان من التغيير في الجوهرية ، في المرنّي : ثم في درجة حرارة الحس الشعوري . لقد زاد ديكنز — على النقيض من الأدباء الذين كانوا

يلتمسون لأنفسهم التعاطف والإقبال — المرح والمتعة في عصره ، وزاد دورتهما الدموية . وقد أصبح العالم أكثر إشراقاً منذ اليوم الذي تناول فيه المختزل الشاب في مجلس النواب القلم ، ليكتب عن البشر والمصائر . لقد أنقذ البهجة في عصره ، وأنقذ للأجيال اللاحقة « مرح انكلترا » ، تلك القديمة المرححة « ، انكلترا ما بين حروب نابليون والاستعمار ، ولسوف ينظر المرء ، بعد كثير من السنين ، نظرة إلى الوراء ، إلى هذا العالم ، الذي يكون عندئذ عالم الأجداد ، بما فيه من مهن غريبة منقرضة ، حيث تكون قد سحقت منذ عهد طويل في هاون التصنيع ، وربما سينظر في هذه الحياة التي كانت خالية من الأذى ، ملأى بالدعابات البسيطة الهادئة . لقد أبدع ديكتز الأدب الرعوي في انكلترا — وهذا هو عمله ، فلتنجّب الغضب من شأن هذا الهاديء ، الراضي ، في مواجهة الشامخ ، فالأدب الرعوي هو أيضاً شيء خالد ، عودة أزلية . فلقد تجدد ههنا أدب الحياة المترلية(*) أو الحياة الرعوية الريفية(*) ، قصيدة الانسان الهارب ، المستريح من رعدة الرغبة ، مثلما ستتجدد دائماً مع قلب الأجيال من جديد ، وإنما تأتي ، لتذهب من جديد ، فرصة لالتقاط الأنفاس بين الانفعالات ، واكتساباً للطاقة قبل الإجهاد أو بعده ، فهي ثانية الرضى ، في القلب الذي يدق ولا يهدأ . ولقد يبدع الآخرون القوة ، وآخرون سواهم الهدوء ، فأما ديكتز فقد صاغ لحظة من الهدوء في العالم في قصيدة ، واليوم يشند صخب الحياة ، وتهدر الآلات ، وينطلق العصر في انقلاب أكثر سرعة ، غير أن الرعوية

(*) Das Georgikon od. Bukolikon وهو إشارة إلى أنماط الشعر

الروماني كما هو معروف عند فرجيل .

خالدة ، لأنها بهجة الحياة ، فهي تعود ، مثل السماء الزرقاء بعد العاصفة ،
المرح الخالد للحياة بعد كل أزمات النفس وهزّاتها . وعلى هذا النحو
سيظل ديكتز أيضاً ، يعود ، المرة تلو الأخرى ، من النسيان عندما
يكون الناس في حاجة إلى الابتهاج ، ويريدون ، بعد أن أنهكتهم ضروب
التوتر العاطفي المأساوي ، أن يستمعوا إلى موسيقا الأدب السحرية من
الأشياء الأكثر هدوءاً .

* * *

توسّوي

ما من شيء يحدث أثره بهذه القوة ويضع
الناس جميعاً في الحالة النفسية ذاتها مثل لتاج
حياة .

وأخيراً ، مثل حياة السانية كاملة.

٢٣ آذار ١٨٩٤ ،

المذكرات

مفصل

ليس الكمال الأخلاقي هو المهم فيما
نصل إليه ، بل عملية الاكتمال .
مذكرات الشيخوخة

كان رجل يعيش في أرض عوص (١) وكان مستقيماً ورعاً يحْتَنِبُ
الفساد ، وكانت مواشيه سبعة آلاف خروف ، وثلاثة آلاف جمل ،
وخمسمائة حمارة ، وأوتي كثيراً من الخدم ، وكان أعظم سلطاناً من
كل من سكن المشرق .

على هذا النحو تبدأ قصة أيوب ، الذي أوتي القناعة ، حتى الساعة
التي رفع الله فيها يده عليه ، وابتلاه بالبرص ، لكي يصحو من ترفه
المؤذِن بالخطر ويعلِّب نفسه . وكذلك يبدأ أيضاً التاريخ الفكري لـ
(ليونيكولايفتش تولستوي) . فقد كان هو أيضاً « جالساً في الأعالي »
بين جبابرة الأرض ، غنياً يسكن منزلاً مريحاً ، موروثاً منذ عهد بعيد ،
وكان جسده ينضح صحة وقوة ، أما الفتاة التي كان يطمح إليها بشغف
فقد أتيح له أن يأخذها إلى بيته زوجاً ، وولدت له ثلاثة عشر طفلاً .

(١) أرض عوص جزء من جبل سيمير أو أرض أدوم ، وقيل هي أرض الشنة بحوران
انظر : قصص الأنبياء ، لمبد الوهاب نجار ، تفسير ابن كثير ، سورة ص .
« المترجم »

وانتهى عمل يديه ونفسه إلى الخلود ، وهو يضيء على الزمان : وكان فلاحو ياسنايا بوليانا ينحنون بخشوع عندما يمر بهم الإقطاعي المتسلط واثباً . وكذلك تنحني الكرة الأرضية بخشوع أما مجده المُسَكِر . ومثلما كان أيّوب قبل المحنة لم يبق أمام تولستوي مزيد يتمناه ، وهو يكتب ذات مرة في رسالة أجراً كلمة بشرية : « أنا سعيد سعادة ليس بعدها زيادة لمستزيد » . وفجأة ، بين عشية وضحاها ما عاد لكل هذا معنى ، ولا قيمة . فالعمل يثير اشمئزاز الرجل العامل ، والزوجة تغدو غريبة بالقياس إليه ، ولا يأبه للأطفال . وبين عشية وضحاها ينهض من سريره المبعر ، ويتجول كالمريض لا يقرّ له قرار ، جيئة وذهاباً . ففي النهار يجلس خاملاً ، نائم اليد ، جامد العين ، أمام منصة العمل . فطوّراً يرتقي الدرج عجلان يغلق خزائنه على بندقية صيده لكيلا يقضي بها على نفسه : وأحياناً يتنهّد وكأن صدره ينفجر ، وأحياناً ينشج مثل طفل في غرفة مدهمة الظلام ، وما عاد يفتح رسالة ولا يستقبل أصدقاء فالأولاد ينظرون إليه مذعورين ، والزوجة تنظر يائسة إلى الرجل الذي أطبق عليه الظلام دفعة واحدة .

فما علة هذا التحول المفاجيء ؟ أو تفترس العلة حياته افتراساً خفياً ، أم حلّ البرّص بجسمه ، أم دهمه الشقاء من الخارج ؟ ما الذي ألمّ بليو نيكولايفتش تولستوي حتى أصبح أشد الناس جبروتاً على هذا القدر من الافتقار إلى البهجة فجأة ، وحتى أطبق الظلام ، على هذا النحو المأساوي ، على أكثر من في البلاد الروسية شموخاً ؟

والجواب الرهيب إلى المدى الأقصى : لا شيء ! فما من شيء ألمّ به ، أو إنّ ما ألمّ به في الحقيقة — وهو الأمر الأدهى : — هو

اللاشيء . فقد أبصر تولستوي اللاشيء وراء الأشياء . فثمة شيء ما تمزق في روحه ، وانفتح صدع نحو الداخل ، صدع ضيق أسود ، وتحملق العين المزلزلة قسراً في هذا الفراغ ، في هذا الآخر ، الغريب ، البارد ، والذي لا يمكن إدراكه وراء حياتنا الخاصة الدافئة التي يجري فيها الدم ، في اللاشيء الخالد وراء الوجود العابر .

ومن صوب البصر ذات مرة إلى هذه الهاوية التي لا يمكن تسميتها لا يستطيع أن يصرف البصر عنها بعد ذلك ، ويتدفق الظلام في حواسه ، وينطفئ لديه بريق الحياة ولونها ، ويظل الضحك في فمه متجمداً ، ولا يستطيع بعد أن يدرك شيئاً من دون أن يحسّ بهذا البارد ، ولا يستطيع بعد أن يرى شيئاً من دون أن يفكر معه في هذا الآخر ، العدم ، اللاشيء ، فالأشياء تسقط ذابلة ، لا قيمة لها ، من الشعور الذي ما زال كاملاً . والمجد يتحوّل إلى سباق مع الريح . والفن إلى عبث مجازين . والمال إلى خبث أصفر ، وجسد المرء الذي يتنفس ويتمتع بصحة جيدة إلى مسكن للديدان : فهذه الشقة السوداء غير المرئية تمتص من كل القيم عصاراتها وحلاوتها ، وإن العالم ليحلّ به الصقيع عند ذلك الذي انفتح له هذا اللاشيء الرهيب المفترس الليلي بكل الخوف البدائي عند المخلوق ، وهو الدُرّ دور الهائل عند ادجار آلن بو، الذي يجرف كل شيء معه ، والهاوية ، هاوية باسكال ذات العمق الأعظم من كل سمّ للفكر .

وفي وجه هذا يغدو من العبث كل تمويه وإخفاء ، فلا يجدي شيئاً أن يسمي المرء هذا الامتصاص المظلم ربّاً ويقدهسه ، ولا يجدي شيئاً أن يغطي المرء الثقب الأسود بلبصق أوراق الانجيل عليه ، فمثل

هذا الظلام العميق يحترق كل الرقوق (١) ، ويطفئ شموع الكنيسة .
فمثل هذه البرودة الصقيعية عند قطبي الكون لا يمكن تدفئتها بنفس
الكلمة الفاتر ، ولا يجدي شيئاً أن يبدأ المرء بالوعظ بصوت عال لتغطية
هذا السكون الجاثم عليه بصورة قاتلة ، مثلما يغطي الأطفال في الغابة
خوفهم بالغناء ، وما من إرادة ولا حكمة تجلو بعداً عن هذا المروع
ظلمة قلبه .

ففي السنة الرابعة والخمسين من حياته ذات الأثر العالمي نظر
تولستوي أول مرة في عين العدم الكبير . ومنذ هذه الساعة إلى تلك
الساعة التي توفي فيها يحمل في هذا الثقب الأسود في ثبات ، في هذا
الداخلي الذي لا يدرك وراء الوجود الخاص . ولكن نظرة رجل مثل
ليو تولستوي تظل بعد واضحة على نحو حاسم حتى وهي مصوبة نحو
اللاشيء ، وهي نظرة أكثر الناس الذين شهدهم عصرنا إطلاعاً وفكراً .
فلم يحدث قط أن خاض رجل كفاحاً ضد ما لا يسمى ، وضد مأساة
الفناء ، بهذه القوة العملاقة . ولم يطرح أحد مقابل سؤال القدر للإنسان ،
سؤال الإنسانية عن قدرها على نحو أكثر تصميماً . ولم يعان أحد معاناة
أشد رهبة مما عانى من النظرة الخاوية إلى الأخرى ، تلك النظرة
التي تمتص الروح إلى النهاية ، ولم يحتملها أحد احتمالاً أعظم ، ذلك
لأن ضميراً رجولياً يتصدى لهذا البؤس الأسود بنظرة الفنان الصافية
الجريئة ذات العفوان . فلم يغضض ليو تولستوي أبداً ، ولا ثانية
واحدة ، طرفه بجبن أمام المأساوي ، في الوجود ، أو يغلقه ، وهو هذه
العين الأكثر يقظة وصدقاً ونزاهة في فننا الحديث : ومن أجل ذلك

(١) الرقوق جمع الرق ، بفتح الراء وكسرهما ، وهو جلد رقيق يكتب فيه

فما من شيء يعدّ أعظم في نوعه من هذه المحاولة البطولية المتمثلة في إضفاء معنى تصويري حتى على ما لا يمكن إدراكه، وجلاء حقيقة، لا سبيل إلى ردّه . لقد عاش تولستوي ثلاثين عاماً ، من العشرين إلى الخمسين وهو يبدع ، طليقاً لا همّ له ، ثم يعيش ثلاثين عاماً ، من الخمسين إلى النهاية ، لا شيء سوى معنى الحياة ومعرفتها . وكان ذلك يسيراً عليه إلى أن طرح على نفسه المهمة التي لا يُسبّر غورها : وهي ألاّ ينقذ نفسه فحسب ، بل أن ينقذ ، بصراعه من أجل الحقيقة ، البشرية قاطبة . أمّا أنه تصدّى لتلك المهمة فذلك ما يجعل منه بطلاً ، بل يكاد يجعل منه قديساً ، وأمّا أنه هُزِمَ دونها فذلك ما يجعل منه أكثر الناس إنسانية .

* * *

المسورة

كان وجهي وجه فلاح عادي

جبهة تُغشّيها غابة من الشعر : ففيها من الغابة أكثر مما فيها من الضوء ، وهي تصدّ كل سبيل إلى النظرة الداخلية . أما لحية البطارقة المتدفقة فتزحف ، عريضة تخفق بها الريح ، إلى أن تبلغ الوجنتين صعوداً ، ويظل طوفانها يغشّي الشفة الشهوانية ويغمر البشرة السمراء المتخذدة كلعاء الأشجار عقوداً من الزمان . وفي مقدم الجبهة يتكاثف حاجبان قويّان مستغلطان يرتفعان في مثل غلظ اصبع اليد ، ويتشابك شعرهما كجذور الأشجار . وعلى الهامة يزبد المدّ البحري الأشهب ، الزبد المتماوج المضطرب ، من خصلات الشعر المتبعثرة على نحو كثيف . وفي كل مكان يتشابك ويتعرّج بكثافة استوائية ، هذا النموّ الدنيوي الأصيل من الشعر المنسكب في احتشاد فوضوي . ومثلما كان الأمر في موسى ميكيل المنجلو ، صورة الرجل الذي هو أكثر الرجال رجولة ، لا يتجلّى للعين من محيّا تولستوي أول الأمر شيء سوى الموجة المزبدة البيضاء المتمثلة في لحية الأب العملاقة .

وعلى هذا يضطر المرء ، لكي يتعرّف على المجرد الجوهري في وجه مكسوّ على هذا النحو ، عن طريق الروح ، إلى سلب هذه الغابة ،

غابة اللحية ، عن ملامحه (وقد تسدي صور الشباب الحليقة عوناً كبيراً في مثل هذه التجلية لصياغة الصورة) . وان المرء ليقدم على هذا فيأخذه الفرع . ذلك لأن هذا مما لا تخطئه العين ولا يمكن إنكاره ، إذ ان وجه رجل الفكر هذا النبل تأتلف ملامحه الرئيسية بخشونة ، ولا يعدو أن يكون شيئاً آخر سوى وجه فلاح . لقد اختارت العبقريه ههنا لنفسها كوخاً منخفضاً قد علاه السِنَاج وغطّيه الدخان ، بيتاً روسياً حقيقياً ، مسكناً وورشة ، أما البشرة فليست إلا تراباً وطنياً ، مكتنزة لا بريق لها ، وفي وسط المربع الخالي من الملامح الحادة أنف له خيشومان بهيميان عريضان ، عجيبان كأنما بسطتهما لكمة ، ووراء الشعر المنفوش أذنان لا طينتان مشوهتان ، وبين حفرتي الوجنتين الغائرتين فم متجهّم غليظ الشفتين : أشكال ليس بينها نسب فنية على الإطلاق ، وإنما هو شيء مألوف فظ ، يكاد يكون وضعياً .

الظل والظلمة في كل مكان . فثمة وهذه وثقل في هذا الوجه العمالي المأساوي . وما من مكان فيه تخليق ونزوع إلى السمو ونور غامر ، وارتقاء للفكر جريء ، كما في مثل تلك القبة المرمية في سحياً دوستويفسكي ، وما من مكان ينبثق منه الضوء ، أو يشعّ البريق — ومن ينكر هذا فانما يزوّق ، ويكذب : كلاً ، بل يظل هذا الوجه المسكين المحدود وجهاً لا سبيل إلى إتقاده ، فما هو بمحارب للأفكار ، بل هو سجن لها ، سجن لا ضوء فيه ، عفن ، خال من المرح ، قبيح . وفي وقت مبكر يعرف تولستوي الفتى نفسه سيماء الخاسرة . فكل إيماءة إلى مظهره الخارجي « باعثة على الإنزعاج لديه » وهو يشك في « إمكان وجود سعادة أرضية لذلك الانسان الذي له مثل هذا الأنف العريض ، ومثل هاتين الشفتين الغليظتين والعينين الصغيرتين الرماديتين . ومن

أجل ذلك يعتمد الفتى منذ وقت مبكر إلى إخفاء ملامحه وراء هذا القناع الصفيق من اللحية الداكنة التي تتخللها الشيوخوخة ، في وقت متأخر ، متأخر جداً ، ببريق فضي ، وتضفي عليها المهابة . على أن العقد الأخير وحده هو الذي يخفف وطأة السحب القائمة ، وفي ضوء المساء الخريفي وحده يهبط شعاع من الجمال عليه . فيضفي هالة من الفضيلة على هذه الأرض المساوية ..

لقد اتخذت العبقرية الهائمة أبداً عند تولستوي مأوى لها في حجرة منخفضة رطبة ، في سيماء روسية تمثل كل امرئ في روسيا ، وفي وسع المرء أن يخمّن من ورائها كل شيء ، الآرجل الفكر ، والأديب ، والمصور . فحين كان تولستوي غلاماً ، وفقى ، ورجلاً ، وحتى شيخاً ، كان يحدث في النفوس أثره كأنه مجرد واحد من كثير . فهو ينسجم مع كل ثوب ، وتحت كل قبعة ؛ وبمثل هذه الجبهة الروسية النموذجية التي لا تشير إلى شخصية بعينها ، يستطيع المرء أن يرأس مجلساً للوزراء ، مثلما يستطيع أن يقامر في مقصف للأشقياء وهو سكران ، وأن يبيع خبز القمح في السوق ، أو يرفع الصليب فوق الجمهور الراكع في القداس وهو في ثياب المطران الحريرية ، فلم يكن هذا المحباً ليلفت النظر على أنه شيء لا تخطئه العين ، في أي مكان ، وفي أي مهنة ، وفي أي ثوب ، وفي أي مكان روسي . فهو يبدو ، طالباً ، مثل اسم على مسمى ، ويبدو ، ضابطاً ، مثل أي حامل سيف ، ويبدو ، نبيلاً ريفياً ، مثل أي واحد من كبار الملاك ، وإذا سافر في عربة إلى جانب الخادم فلا بد للمرء أن يسأل الصورة الضوئية مساءلة عميقة جداً : أي الشيخين عند كرسي قيادة العربة هو الكونت حقاً ، وأيهما

الحوذتي . وإذا أظهرته صورة في حوار مع الفلاحين ولم يدر المرء بذلك ، فلن يقدر أحد أن « ليو » هذا الموجود وسط رهط القرويين هو « كونت » ، وأنه أعظم شأنًا بملايين المرات من كل أولئك المدعوين بأسماء جريجور وايفان وايليا ، وبيوتر ، من حوله . وكأن هذا « كل » في واحد « في الوقت ذاته » ، وكأن العبقريّة لم تتخذ هذه المرة قناع إنسان خاص ، بل تنكرت في شعب ، مخفلة الاسم تماماً ، وإلى هذا المدى يحدث اسمه أثراً كأثر الروسي العام ، ولما كان تولستوي يحتوي بوجه خاص روسيا بأسرها ، فهو لا يمتاز بمحيّا خاص ، بل يمتاز بالمحيّا الروسي . ومن أجل ذلك يكاد يخيّب النظر إليه أول الأمر كل أولئك الذين يرونه أول مرة ، فهم يقبلون من بعد أميال بالخط الحديدي ، ومن المدينة بعدئذ بالعربة ، وها هم أولاء ينتظرون الأستاذ في شوق ، في حجرة الاستقبال خاشعين ، وكلّ يتوقع في نفسه حضوراً طاعياً ، وتصوّره النفس سلفاً في صورة رجل من ذوي السلطان والجلالة ، له لحية كلحية الأب ، شامخ ، متكبر ، عملاق ، وعبقريّ ، في شخصية واحدة ، وسرعان ما تهبط رعدة التوقع بأكتاف كل من هؤلاء ، وسرعان ما يغضون الطرف بغير إرادة أمام شخصية البطريرك العملاقة التي يفترض أن يتجه إليها النظر في اللحظة التالية ، وإذا الباب ينفتح أخيراً ، وإذا رجل ضئيل متين البنيان يدخل بنشاط ، تحفّق لحيته في الهواء ، بخطوات تكاد تكون راكضة ، ثم يتوقف ، ويقف باسمّاً في ودّ أمام الضيف الذي أخذته المفاجأة ، ويتحدث إليه في مرح ، بصوت متسارع ، ويمد إلى كلٍّ منهم يده بخفة مصافحاً ، وهم يتناولون اليد وقد ملك عليهم الفزع قلوبهم : ماذا ؟ أو يكون هذا الرجل الضئيل ذو النفس العفوية الودودة ، هذا الرجل الرشيق كالتمثال المتخذ من

الثلج ، أو يكون هذا حقاً ليو نيكولايفتش تولستوي ؟ وتتلاشى رعدة المهابة الأولى . ويتجرأ الفضول وقد لقي شيئاً من التشجيع على الارتفاع صوب وجهه .

غير أن الدم يتجمد فجأة في عروق الناظرين . فقد انطلقت نحوهم من وراء أدغال الحاجبين الكثيمة نظرة رمادية ، هي نظرة تولستوي ، تلك النظرة التي لم يُسمعَ بمثلها ، والتي لا تشي بها أية صورة مرسومة . والتي لا يتحدث عنها إلا من نظر إلى ذلك العملاق في جبهته في أي وقت من الأوقات . فهذه النظرة تسمّر كل إنسان . كطعنة سكين ، صلبة ، كالفلّاذ ، ومتوهجة ، ومن المستحيل أن يتحرك المرء أو يتملص ، بل لابد لكل امرئ أن يصبر وهو مقيّد بأغلالها في نوم مغناطيسي حتى تتغلغل هذه النظرة فيه فتبلغ منه آخر الأعماق . وإزاء الطعنة الأولى من نظرة تولستوي لا يوجد دفاع مضاد : فهي تخترق كالطليقة ، كل مدرّعات التصوّر ، وتقطع ، كالناس ، كل المرايا . وما من أحد يستطيع ، كما شهد بذلك تورجينييف وجوركي ومائة آخرون ، أن يكذب أمام نظرة تولستوي ، هذه الثاقبة المتغلغلة .

غير أن هذه العين لا تطعن بهذه القسوة وبذلك التفحص إلا ثانية واحدة ، ثم تعودا لفُرَحِيَّه إلى اللوبان ، وتلتمع التماعاً رمادياً ، وتتألق بابتسام متحفظ ، أو تتطامن إلى بريق لطيف يبعث على الارتياح . على أن كل تقلّبات الشعور لا تفتأ تمرّ عابثة بهذين البؤبؤين السحريين اللذين لا يهدآن كظل السحائب على الماء . فالغضب يستطيع أن يحولها بالشر المتصاعد إلى ومضة باردة وحيدة ، والسخيطة يستطيع أن يجمدها في بلّور نقي كالثلج ، والفضيلة تستطيع أن تغشيها

بالشمس حتى ينبعث فيهما الدفء ، والعاطفة تستطيع أن تلهبهما .
وهما يستطيعان أن يتسما عن نور داخلي ، وهذان النجمان الحافلان
بالأسرار ، من دون أن ينبس الفم القاسي بينت شسفة ، يستطيعان ،
عندما تحملهما الموسيقى على الذوبان ، أن ييكيا فتسحّ دموعهما سحاً
كعيني امرأة فلاح . وهما يستطيعان أن يستخرجا لأنفسيهما إشراقاً
من القناعة الروحية ، وأن يغشاهما الظلام متكدرين ، وتلقي الكتابة
بظلمة عليهما ، وأن ينسجبا فيكونا مستغلقين . وهما يستطيعان أن
يراقبا ، في برود وفي غير رحمة ، وأن يجرحا مثل مبضع جراح ، وأن
يتغلغلا بنورهما مثل نار « رونتجن » (*) وأن يغتسلا على القور من جديد
برذاذ المنعكس المتألق للفضول العايب – وإنهما لتتحدثان بكل لغات
الشعور ، هاتان العينان اللتان هما أفصح عيني أضواء من جبهة إنسان .
وكعهده دائماً ، يجد لهما جوركي أكثر الكلمات وصفاً إذ يقول : « كان
تولستوي يملك في عينيه مائة عين » .

ففي هاتين العينين ، وبفضلهما وحدهما ، يتسم محيا تولستوي
بالعبقرية . وكل طاقة الإضاءة عند هذا الإنسان البصير تبدو في جوانبها
الألف محشورة لم تبق منها بقية ، مثلما يجتمع جمال دوستويفسكي ،
الإنسان المفكر ، في قبة جبينه المرمية . وكل شيء آخر في وجه
تولستوي ، من لحية وغابة وشعر ، فليس إلا دثاراً ومجالاً للاحتماء ،
وقشرة للتحفة المطعمة المثلثة في تلك الحجارة المضبئة المغناطيسية السحرية
التي تشد عالماً إلى داخلها ، والتي تشع عالماً من داخلها ، هو أكثر
الأطياف الكونية التي عرفها قرننا دقة ، وما من شيء ينمو ، فلا تستطيع

(*) إشارة إلى رونتجن مخترع أشعة إكس المعروفة .

« المترجم »

هاتان العدستان أن تجلوه لأعيننا مهما يكن ضئيلاً : وهما تستطيعان أن تنفضاً عمودياً كالصقر على كل صغيرة ، كما أن لهما القدرة في الوقت ذاته على اختزال أمداء الكون في نظرة محيطية (*) وهما يستطيعان أن يستعرا في أعالي المجال الفكري كما يستطيعان أن يهيما في غيبه الروح في شفافية ، وكأنيهما في المملكة العليا . وإن لهما من اللهب والنقاء ما يكفي لجعل هاتين البلورتين (الكريستاليتين) المتوهجتين تشرئبان بنظرهما إلى الرب في حالة الوجد . وإن لهما من الشجاعة لما يجعلهما تنظران حتى إلى اللاشيء ، المبدوسي (*) ، نظرة فاحصة في جبهته التي تُحجّر الناظر إليها . وما من شيء يستحيل على هذه العين . بل ربما يستحيل عليها شيء واحد فحسب . وهو أن تكون عاطلة ، أن تغفو ، وتدخل في الغسق ، في البهجة الساكنة الصافية . في نعيم الحلم وحظوته . ذلك لأن هذه العين لا بد لها أن تنطلق إلى فريستها قسراً بمجرد أن يفتح الجفن ، فهي يقظانة لا ترحم ، خالية من الأوهام لا تلين . وهي ستطعن كل حنون . وتكشف النقاب عن كل أكذوبة وتنتهي بكل مبدأ إلى الانهيار : فأمام هذه العين الوفيّة للوقائع يغدو كل شيء عارياً . ومن أجل ذلك فمن المخيف دائماً أن يُشهر هذا الخنجر الرمادي القولاذي على نفسه ذاتها : عند ذلك يطعن نصله طعنة قاتلة قاسية تبلغ أعماق أعماق القلب .

ومن كان له مثل هذه العين أبصر إبصاراً حقيقياً وانتهت إليه الدنيا وكل المعارف . غير أن المرء لا يغدو سعيداً بمثل هاتين العينين الوفيتين للوقائع أبداً ، واليقظاوين أبداً .

(*) بانورامية

(**) Medusa في الاسطورة اليونانية غول هائل يحول من ينظر إلى رأسه إلى حجر

« المترجم »

الحَيَوِيَّةُ وَالنَّعْكَاسَةُ

إني لأود أن أعيش طويلاً ، طويلاً جداً
وان التفكير في الموت ليملؤني بدعراً شاعري
طفولي .

رسالة من أيام الشباب

صحةٌ بدائيةٌ . فقد صُنِّعَ ذلك الجسد لقرن من الزمان ، وعظام
صلبة مشبعة بالمشح . وعضلات مفتولة ، إنها لطاقة الدببة الحقيقية ،
فتولستوي الشاب يستطيع وهو راقد على الأرض ، أن يطوح ، بيد
واحدة ، بجندي ثقيل في الهواء . وأوتارٌ مرنة ، فهو يستطيع ، من دون
مسافة حافزة (١) أن يرتقي بالوثب في رياضة الجمباز أعلى الجبال
بسهولة ، وهو يسبح كسمكة ، ويركب الخيل مثل القوزاق ، ويقصر
العشب مثل فلاح — أما التعب فلا يعرفه هذا الجسم الحديدي إلا من
جانب الفكر . وكل عصب متوتر بأقصى طاقة اهتزازية . وهو في
الوقت نفسه مرنٌ وصلبٌ كنصلٍ من طليطلة ، وكل حاسة لديه
مجتلوة نشيطة ، وليس ثمة ثغرة في أي مكان أو نقيصة أو صدع ، أو
نقيصة أو عجز في برج الطاقة الحيوية . ومن أجل ذلك لا يتاح للمرض
خطير اختراقٌ لذلك الجسد المربع : ويظل جسد تولستوي على نحو
لا يصدق محصناً ضد كل ضعف ، مسوراً ضد الشيخوخة .

ولإنها حيوية لا مثيل لها : فكل فناني العصر الحديث يبدون إلى

جانِب هذه الرجولة التوراتية ذات اللحية المسترسلة ، البربرية الفلاحية ،
 كالنساء أو المستضعفين . بل ان أولئك الذين كانوا قريين منه من
 حيث العمل الإبداعي حتى عصر الآباء ، حتى هؤلاء شاخ جسدهم
 وأنهم كته روح الصيادين المنطلقة . أما جوته (الذي يعد أخصاً له من حيث
 الطالع . من خلال يوم الميلاد ذاته ، الثامن والعشرين من آب ، ومن
 خلال النظرة الإبداعية إلى العالم ، حتى السنة الثانية والثمانين ، على
 هذا النحو ذاته) فهو يقعد في الستين ، وقد أصابه منذ عهد طويل خوف
 الشتاء . واكثر بدنه ، عند نافذة مغلقة من الخوف . وفولتير يخربش
 بالقلم . وقد غدا متجمداً أقرب إلى أن يكون طائراً شريراً متوف
 الريش منه إلى إنسان ، على منصة الكتابة ورقة بعد ورقة ، متصلب
 الجذع ، مجهداً ، وقد غدا كالمومياء الآلية ، في الشارع المشجر في ،
 « كونيبرج » (*) على حين ما زال تولستوي الشيخ المتفجر بالصحة
 يغوص . بجسده المحمر من البرد وهو يرسل أنفاسه بعنف في الماء
 الثلجي ، ويكدح في الحديقة . ويعدو رشيقاً وراء الكرة في لعبة كرة
 المضرب ، ويغري الفضول ابن السابعة والستين بتعلم قيادة الدراجة ،
 وفي السبعين ينطلق كالرياح في أحذية التزلج على المسار المتألق كالمرآة .
 وفي الثمانين يشد عضلاته يوماً بعد يوم في جهد رياضي ، وفي الثانية
 والثمانين ينهال بسوطه على فرسه ، وهو على قيد شبر من الموت ،
 حين تمسك عن المسير بعد مسيرة عشرين كيلو متراً من الحبيب الحاد ،
 أو تمحرن . كلا ، فلنمسك عن المقارنة : فان القرن التاسع عشر لا يعرف
 نظيراً مماثلاً لهذه الحيوية الدنيوية الأصلية .

(*) عاصمة بروسيا الشرقية الواقعة في بولونيا الآن .

« المترجم »

بل إن ذوائب الشعر تبلغ سماء سنّي الشيخ البطريق ، وما من جذر قد تضعض بعدُ في شجرة البلوط الروسية العملاقة التي تغلّغت فيها العصارة حتى الشُعيرة الأخيرة ، والعين حادة حتى ساعة الموت : فالنظرة الفضولية تتابع من ظهر الجواد أشد الخنادب ضآلة وهو يزحف خارجاً من بين قشور الأشجار الرطبة ، والنسر في طيرانه بغير منظار مقرّب ، والأذن جليّة السمع والخياشيم العريضة التي تكاد تكون بهيمية ، تمتص المتعة ، وما يزال يملك الشيخ المسافر ذا اللحية البيضاء نوعاً من السكّر في مطلع العام ، عندما يتغلغل في أنفه فجأة الروث الحاد محتلطاً برائحة التراب إذ يذوب عنه الثلج ، وما يزال يذكر بوضوح ثمانين ربيعاً خلت ، فيتحمّس كلاً في ريعانه ، ويتمحّس نتاجه الأول المتدفق في اندفاع هذه الرائحة وهو يحس بهذا احساساً يبلغ من قوته وزلزلته أن جفنيه يغورقان فجأة . وتطأ ساقا العجوز الرعويان التريان في جزمة الفلاح التي تزن رطلاً ، الأرض الندية وطاً ثقيلاً ، هناء وهناك ، ولا تصاب اليد بالوهن أبداً في رجفة الشيخوخة ، ولا تظهر كتابة رسالته الوداعية حروفاً أخرى سوى الحروف الكبيرة الطفولية العائدة إلى سنوات الفتوة . وبصورة رائعة يظهر الفكر ثباتاً لا يتزعزع مثل أوتار عضلاته وأعصابه : فما زال حديثه يتفوق على كل حديث للآخرين ، فثمة ذاكرة دقيقة بصورة هائلة تستعيد كل تفصيل من التفاصيل الضائعة . وما زال الغضب يثير لدى الشيخ الطاعن رعشة في حاجبيه عند كل خلاف ، وما زال الضحك يشكل من شفّيته دائرة وهو يزجر ، وما زالت اللغة تتشكل تشكلاً تصويرياً ، وما زال الدم يتدفق مترعة به عروقه ، وحينما أنحى عليه أحدهم باللائمة وهو في السبعين لدى مناقشة حول « سوناتا كرويتسر » قاللاً إن من اليسر

عليه في سنة هذه أن يصدّ النزعة الشهوانية ، إذا عينُ الشيخ المفتول العضلات تهرق كبرياءً و غضباً ، وهو يقول إن هذا غير صحيح « فالجسد ما زال قوياً ، وما زلتُ مضطراً إلى الكفاح والمغالبة » .

ولا يفسر إبداعاً لا يعتريه الكلل إلى هذا الحد إلاّ حيوية لا تنزعزع على هذا النحو . فما من سنة واحدة تظل فارغة بوراً بالفعل وسط السنوات الستين التي حفل بها عمله العالمي . ذلك لأن فكره التصوري لا يستريح أبداً ، ولا ينام قط هذا الذهن اليقظان المتحفّز على نحو رائع ، أو يدخل في الغسق مُخلِداً إلى الراحة . أما الاعتلال الحقيقي فلا يعرفه تولستوي حتّى وهو يبلغ الشيخوخة . وأما الإرهاق فلا ينال ذلك العامل ذا الساعات العشر أبداً على نحو جدي . ولا تحتاج الحواس قط ، وهي المتوفرة دائماً ، إلى تصعيد ، ولم تحتج قط إلى تحريض بالمهيجات ، بالخمير أو القهوة ، فهو لا يبعث الحرارة في نفسه أبداً بواسطة المتعة أو متعة الجسد -- وإنما تتفجّر هذه الحواس التي أحسنت تربيته ، صحةً ، على التقيض من ذلك ، فهي معافاة جداً ، متوترة ، نضرة إلى حد بعيد ، حتّى إن أكثر اللمسات لطفاً يدفعها إلى التحليق وحتّى إن القطرة لتجعلها تفيض . على أن تولستوي يعدّ ، مع كل صحته الجبارة ، في الوقت نفسه ، رجلاً « رقيق الإهاب » ، وأنّى له أن يكون فناناً لو لم تكن له هذه القابلية القصوى للإثارة ! فلا يجوز أن تُمسّ أصابع البيانو إلاّ مساً حذراً بالقياس إلى أعصابه التي تمتاز بصحة مطلقة . ذلك لأن عنف تجاوبها يجعل من كل انفعال خطراً . ومن أجل ذلك فهو يخشى الموسيقى (مثل جوته ، ومثل أفلاطون ، تماماً) ، لأنها تثير الموجة العميقة على نحو خفيّ من موجات شعوره . وهو يعترف قائلاً : « الموسيقى تحدث فيّ أثراً رهيباً » . وبالفعل فبينما تجلس عائلته

جلسة ودية وهي تصغي إلى البيانو يأخذ منحراه في الارتعاش بصورة حادة وينكمش حاجباه بصورة دفاعية ، ويحس « بضغط غريب في العنق » - وفجأة يلتفت معرضاً لا يلوي على شيء ويخرج إلى الباب ، لأن عينيه تفيضان من الدمع . وهو يقول ذات مرة ، وقد أخذه الفزع تماماً من هيمتها عليه : « ما الذي تريده مني هذه الموسيقى » . أجل ، إنه يحس أنها تريد شيئاً منه ، فهي تهدد باستخراج شيء منه قد عقد العزم على ألاّ يسلمه أبداً ، وهو شيء يخبئه في خزانة أسرار المشاعر ، وإذا هو ينبجس في تخمّر جبار ، ويهدد بأن يطغى على السدود . فهناك شيء بالغ الجبروت يهاب قوته وإفراطه ، يبدأ في التحرك ، وهو يحس بنفسه ، وقد لمستها في داخلها العميق ، في داخلها العميق كلّ العمق ، موجة الشهوانية خلافاً لإرادته ، وجرفت في ثبات منحرف . غير أنه يكره (أو يخاف) ، بسبب افراط لا يعد معروفاً إلاّ لديه ، الفيض الدموي عنده . ومن أجل ذلك يلاحق « جنس » المرأة بكرهية غير طبيعية على نحو فريد بالقياس إلى إنسان معافى . ولا تبدو له المرأة « غير ذات ضرر » إلاّ « ما دامت مشغولة بنهام الأمومة ، وفي حالة الالتزام الأخلاقي ، أو في مهابة الشيخوخة » - أي فيما وراء نزعة الجنس ، التي أحسّ بها « وزراً ثقيلاً على الجسد طوال حياته كلها » . فالمرأة ، والموسيقا مثلها ، يعينان بالقياس إلى هذا المناوئ للمثال الاغريقي ، هذا المسيحي الفنان ، هذا الراهب المستبدّ ، الشرّ على إطلاقه ، لأن كليهما يصرفاننا ، بالحس الشهواني ، عن الخصائص الفطرية لدينا ، من شجاعة وتصميم وعقل واحساس بالعدالة ، ولأنهما يقوداننا ، كما سوف يعظ الأب تولستوي فيما بعد ، « إلى الخطيئة الجسدية » فالنساء أيضاً « يبتغين شيئاً منه » شيئاً يرفض أن يسلمه ، وهنّ أيضاً

يلا من شيئاً خطراً يخشى إيقاظه — وما هو ، إن تخمين هذا لا يحتاج إلى كثير من الفكر : فهنّ يلا من إحساسه الشهواني الخاص الهائل . فأما الموسيقى — فعندها تنحلّ عُرَى الإرادة : وإذا « الحيوان » يتمطى زاهضاً . وأما النساء — فيتعالى لزاءهنّ النباح المتعطش إلى الدم ، نباح كلاب الصيد المسعورة ، ويهزّ قضبان السياج الحديدية . ولا يستطيع المرء أن يستشعر الرجولة المدعورة في الخفاء عند تولستوي ، وسعار الانسان البهيمي فيه إلاّ عن طريق خوف الرهبان الجنونيّ عنده ، وعن طريق رعدة التعصب المذهبي حتى لزاء الحس الشهواني الصحي المرح الطبيعي الصريح ، وكان ذلك السُّعار ما يزال يجد متنفساً له أيام الشباب في أشدّ أشكال فيضه جموحاً — فهو يسمي نفسه « عاهراً لا يعتريه الكلال » بالقياس إلى تشيخوف — ليظل بعد ذلك حبيس الجدران قسراً ، خلال خمسين عاماً في ردهات الأقبية ، وهو يظلّ حبيساً ، ولكن ليس مدفوناً . أما أن الحس الشهواني ظلّ عند هذا المتمتع بالعافية المفرطة طوال حياته افراطاً ، فإن ذلك لم يكشف في عمله الأخلاقي الصارم إلاّ عن شيء واحد : وهو أن خوفه هذا الأبويّ الشاذ ، المسيحي المغالي ، المعرض ببصره قسراً ، والمزيج ، من « المرأة » ، من « المغنوية » إنما هو في الحقيقة خوف من شهوته الخاصة التي تبدو شهوة جامحة .

وإن المرء ليحسّ بهذا دائماً وفي كل مكان : فإن تولستوي لا يهاب شيئاً أكثر مما يهاب نفسه ، وقوته العجلاقة . فثمة ظل من الفزع من الجامح — البهيميّ في الحواس ، لا يفتأ يخيم على السعادة السكّري في بعض الأحيان ، سعادته بصحته المفرطة . ولا ريب أنه قد ألجم تلك الشهوة كما لم يلجمها ثان له ، غير أنه يعلم : إن المرء لا يكون روسياً بغيز عقاب ، أي إنساناً ، نموذجاً للشعب يمثل الافراط ، متعصباً

من متعصبي حالات الجموح ، وعبداً للحدود القصوى ، ومن أجل ذلك فان ذكاء إرادته ينهك جسده ، ومن أجل ذلك يشغل حواسه بصورة دائمة ، ويدعها تأخذ مداها ، ويمنحها ألعاباً غير ذات خطر ، فيعطيهها علفاً هوائياً وعلفاً للمتعة ، وهو ينهك عضلاته بجهد المحارب الوحشي ، بالمحسنة والمحراث ، ويرهقها بالألعاب الرياضية. ولكي يخلصها من السم ويجعلها غير ذات ضرر ، يزيح أخطار قوته من الحياة الخاصة فيخرج بها إلى الطبيعة ، وهناك يتدقق ما كانت الإرادة تكبته كبتاً شديداً في الحياة داخل المدينة تدفقاً فياضاً . ومن أجل ذلك كانت هواية الهوايات عنده الصيد : فهنا تستطيع كل الحواس أن تفتح للحياة ، الحواس المشرقة والمظلمة . فتولسوي قبل الرسالة ، تسكره رائحة عرق الخيول ، والانتعاش الناشيء عن ركوب الخيل الجريء ، والمطاردة والتسديد اللذان يشدان الأعصاب ، والخوف ، بل عذاب الوحش المدهوس النازف الشاخص بعينه المفقودتين (وهذا أمر لا يمكن إدراكه بالقياس إلى ذلك المتعصب المتعاطف فيما بعد) . وهو يعرف عندما يحطم جمجمة ذئب بضربة عصا كاسحة ، إذ يقول : « أنا أحس بشعور حقيقي بالسعادة أمام آلام الحيوان المحتضر » . وعند هذه الصيحة المنتصرة التي تتمثل فيها شهوة الدم يستشعر ههنا فحسب كل الغرائز الوحشية التي كان يكتبها في نفسه طوال عمره من الزمان (باستثناء سنوات جموح الشباب) . فحتى في الوقت الذي كان قد أمسك فيه عن الصيد منذ عهد طويل ، عن قناعة أخلاقية ، ما تفتأ يدها تحفان على غير إرادة في لفة إلى الرمي ، حين يرى أرنباً في الحقل ، غير أنه يجمع هذه الشهوة مثلما يجمع كل شهوة أخرى باصرار وتصميم ، وأخيراً تكتفي متعته الحسية في الجسدي بالنظر المجرد إلى الحي ومحاكاته .

ولكن يا لها من متعة ما تزال عنيفة تقوم على الدراية ! ففي كل مرة
يباعد بين شفتيه مباحدة عريضة ضحك سعيد حينما يمر بجواد جميل ،
وينقر ويربّت على صدره الحريري الدافئ ، ويدع الحرارة الحيوانية
الخفاقة تنساب في أصابعه بكاملها : فكل شيء حيواني صرف يثير
حماسه . وهو يستطيع أن يتأمل طوال ساعات بعينين مفتونتين رقصة
الفتيات الصبايا من أجل رشاقة الأجساد المهفهفة فحسب . وحينما
يقابله رجل جميل ، أو امرأة ، يظل واقفاً ، وينسى نفسه في الحديث ،
لمجرد أن ينظر إليهما نظرة المندهمش ، بصورة أفضل ، وليصبح
متحمساً « ألا ما أروع أن يكون الانسان جميلاً ! » . ذلك لأنه يحب
الجسد من حيث هو الوعاء للحياة الحيوية ، ومن حيث هو السطح
المتحسس للضوء ، ومن حيث هو غلاف الدم المتدفق تدفقاً حاراً .
وهو يحبه في كل جسديته المختلجة بحرارة ، من حيث هو . معنى الحياة
وروحها . بل إنه يحب ، من حيث كونه أعظم مغرم بالحيوان في
الأدب ، جسده كما يحب الفنان آله ، يحب الجسد على أنه أكثر صور
الانسان طبيعية ، ويحب نفسه ممثلة في جسده البدائي أكثر مما هي ممثلة
في روحه المتداعية ذات اللسانين . وهو يحبه في كل الأشكال والأوقات ،
من البداية إلى النهاية ، أما الرواية الواعية الأولى عن هذا الغرام الشهواني
القائم على حب الذات فيعود — وايس هذا بالخطأ الكتابي ! — إلى
السنة الثانية من عمره ! ، إلى السنة الثانية من العمر — وهذا أمر يحتاج
إلى تأكيد ، ليدرك المرء كيف تظل كل ذكرى عند تواستوي ، من
تحت مجرى الزمن المتدفق ، مرثية مشرقة دقيقة الملامح حادة الخطوط .
وعلى حين لا يكاد جوته وستندال يبلغون ، بما يسترجعون من خواطر
واضحة إلى السنة السابعة أو الثامنة ، فان تولستوي يحسن ، حتى وهو

في الثانية ، إحساساً متنوعاً متجمعاً بصورةٍ مركّبةٍ ويتناول كل الحواس
بمثل الدقة التي كانت بعد ذلك للفنان . وليقرأ المرء هذا الوصف لإحساسه
الأول بجسده : « وأجلس في حوض خشبي ، وقد غشيتني تماماً رائحة
سائل كانوا يدلّكون به جسدي ، وكانت رائحة جديدة عليّ غير أنّها
لم تكن مزعجة ، ولابد أن ما كنت أتلّقه كان ماء نخالة على أغلب
الاحتمالات ، وتحدث جدّة الانطباع أثرها في نفسي ، وألاحظ للمرة
الأولى ، وقد أخذني الإعجاب ، جسدي الصغير بأصلاعه المرئية من
الأمام عند الصدر ، والوجنتين الناعمتين الداكنتين ، وأكمام مربيّتي
المشمّرة ، وكذلك ماء النخالة الدافئ ، ورائحته ، على أن أقوى هذه
الأحاسيس كان الإحساس بالنعومة الذي كان يبعثه فيّ حوض الاستحمام
كلما مرت بيدي الصغيرة عليه . »

وبعد أن يقرأ هذا ، فليحلّل ويرتب هذه الذكريات المتصلة
بالطفولة وفقاً لمناطقها الحسيّة ليأخذ العجب حقاً إزاء يقظة الحواس
الدنيوية التي يدرك بها تولستوي العالم المحيط به ، وهو بعد في البرقة
الضئيلة لابن الحولين : فهو ينظر إلى الخادم ، وهو يشم النخالة ، وهو
قد بدأ يميّز الانطباع الجديد في نوعه ، وهو يتحسّس دفء الماء ،
ويسمع الضوضاء ، ويتلمّس بأصابعه نعومة الجدار الخشبي . وكل
هذه الأحاسيس المترامنة ذات الخيوط العصبية المتباينة تصب في التأمل
الذاتي للجسد ، ذلك التأمل الذي تشيع فيه روح واحدة من الإعجاب
بالجسد على أنه السطح الحساس الوحيد لكل أحاسيس الحياة . وعندئذ
يدرك المرء كيف تعلّقت بالحياة هنا في وقت مبكر الأفواه الماصّة للحواس ،
وبأي قوة وبأي وعي دقيق يتحوّل التغلغل المتنوّع للعالم لدى الطفل

تولستوي ، منذ ذلك الوقت ، إلى انطباعات واضحة ، وفي وسع المرء أن يقدّر الآن كيف يرهف البالغ كل انطباع أولاً ، وكيف سيصعّده من جهة أخرى . عند ذلك سوف يتوسّع هذا الارتياح الضئيل الطفولي العبيّ بالضرورة ، في جسده الضئيل ، في حوض الاستحمام الصغير ، إلى شهوة إلى الحياة جامحة تكاد تبلغ السّعار ، وتمزج ، مثلما يفعل الطفل بالضبط ، الخارج بالداخل ، والعالم بالأنا ، والطبيعة بالحياة ، في إحساس بالنشوة موحّد كالشيد . وبالفعل فإن انشاء الهوية هذا بالكون يتتاب الرجل في اكتمال نموه أحياناً مثل ثَمَلٍ كبير ، وليقرأ المرء فحسب ، كيف ينهض الرجل الجسيم أحياناً ، ويخرج إلى الغابة ، لينظر إلى العالم ، الذي اختاره من بين الملايين ، ليحسّ به إحساساً أكثر قوة ودراية من كل الآخرين ، وكيف يشدّ عضلات صدره فجأة ، في لفظة من لفظات الوجد ، ويطوّح بذراعيه مباحداً بينهما ، وكأنه يستطيع أن يمسك باللائهائي في هزيم الهواء الذي يحركه من الداخل ، أو كيف يركع لينشر إهاب حسّون وحيد وطثته قدم نشرأ لطيفاً رقيقاً ، أو ليتأمّل تأمّل المغرم ، لعب الفراشة المتألق ، ثم يتتحي بسرعة جانباً ، والأصدقاء يرقبونه ، لكيلا ينمّ عن الدموع التي اغرورقت بها عيناه . وما من أديب في العصر الحاضر ، ولا والت ويطمان ، أحسّ بالمتعة الملموسة في الأعضاء الأرضية ، الجسدية بمثل هذه القوة ، كهذا الإنسان الروسي ذي السّعار الحسّي المضارع لسعار بان(*) ، والحضور الكبير لإله من العصور القديمة ، وعندئذ يفهم المرء كلمته الفخورة الحماسية المفرطة : « إنما أنا طبيعة بلداتي » .

(*) Pan في الاسطورة اليونانية ، وثن يمثل اله الرعاة عندهم ، وينسب إليه مزمار الرعاة المسمى باسمه والذي يحدث صوته الرعب والفرع المفاجيء (Pahik) .

وإذا فهذا الرجل العملاق يضرب بجذوره في تربته المسقوفية(*)،
لا يترزعزع كشجرة بعيدة الدواب ، وهو ذاقه عالم ضمن عالم ، ومن
أجل ذلك لم يكن المرء يحسب أن شيئاً يمكن أن يززع دنيويته الجبارة ،
غير أن الأرض ذاتها تهتز أحياناً ، ويمسها الزلزال ، وهكذا يترشح
تولستوي أحياناً ، خارجاً من قلب الأمان الذي هو فيه ، في منتصف
العمر . وبغثة تصبح العين جامدة ، وتتداعى الحواس ، وتنتهي إلى
الفراغ . ذلك لأن شيئاً ما دخل مجال بصره ، شيئاً لا يستطيع إدراكه ،
شيئاً يظل خارج قوة الجسد وزخم الحياة . شيئاً لا يفهمه ، مهما توترت
الأعصاب كلها — هذا الشيء يظل غير قابل للإدراك بالقياس إليه ،
وهو إنسان الحواس . لأنه ليس بشيء من هذه الأرض ، ليس بمادة
يستطيع أن يمتصها ويندمج فيها ، بل يظل شيئاً يرفض أن يلمس ،
أو يوزن ، أو يسلك في النظام المتصل بالإحساس بالعالم ، ذلك الإحساس
المتعطش في كل الأوقات . إذ كيف يمكن إدراك الفكرة المفزعة التي
تلتهم فجأة المجال الكامل للظاهرة ، كيف يمكن تصور أن هذه الحواس
المتدفقة التي تتنفس يمكن أن تكون خرساً وبُكماً ، واليد العارية
من اللحم بلا شعور ، وأن هذا الجسد الحسن العاري ، الذي ما زال
الآن ينساب فيه دفء تيار الدم ، يمكن أن يكون فريسة للديدان ،
وهيكلاً بارداً كالحجر ؟ وما عسى أن يكون إذا اقتحم هذا عليه هو
أيضاً ، اليوم أو غداً ، هذا اللاشيء ، هذا الأسود ، هذا الوجود
الخلقي ، هذا الذي لا سبيل إلى رده ، إذا اقتحم عليه ، هذا الحاضر
اللامحسوس ، وهو الذي ما زال يتفجر بالعصارات والقوى ؟ لقد

(*) نسبة إلى موسكو ، وهي لفظة استعملها الجغرافيون العرب

كان الدم يتجمد في عروق تولستوي كلما دهسته فكرة الفناء . ويتم اللقاء الأول مع الطفل : فقد اقتيد إلى جثة أمه ، فاذا شيء يرقد بارداً جامداً ، وقد كان ما يزال حياةً بالأمس . ويظل ثمانين عاماً لا يستطيع أن ينسى هذه النظرة التي لم يكن يقدر في تلك الأيام على تفسيرها شعوراً وفكراً ، غير أن طفل الحول الخامس يطلق صيحة ، صيحة رعب مدوية ، ويهرب من الحجرة في رعب جنوني ، ومن خلفه كل آلهات الانتقام التي بعثها الخوف . وتظل تتنابه فكرة الموت على هذا النحو الصدامي ، وبهذه الصورة الخائفة حين يموت أخوه ، وأبوه ، وعمته : ففي كل مرة ترحف هذه اليد الجليدية باردة على عنقه ، وتحطم أعصابه .

ففي عام ١٨٦٩ ، وما زال قبل الأزمة ، ولكن قبلها بمجرد وقت ضئيل ، يصف الرعب الأبيض (La Blanche terreur) (*) في مثل هذه النوبة : « حاولت أن أرقد ، ولكني ما كدت أتمدّد حتى انتزعني رعبٌ نحو الأعلى ، وإنه لرعب ، رعب مثل ذلك الذي يكون قبل الانهيار ، فثمة شيء ما يمزق حياتي إرباً إرباً ، غير أنه لا يمزقها تماماً ، وأحاول أن أنام مرة أخرى غير أن الرعب كان حاضراً ، أحمر ، أبيض ، وكان ثمة شيء ما يتمزق في داخلي ، ويجعلني أتماسك مع ذلك . » لقد حدث الخطب الجلل : فقبل أن ينال الموت حتى باصبع واحد منه ، جسد تولستوي ، أي قبل موته الفعلي بأربعين عاماً ، كان الإحساس الأولي التمهيدي بالموت قد تغلغل في روح الحي لكبلا يتنابه الرعب بعدُ أبداً بصورة تامة . فالخوف الكبير يقعد ليلاً عند سريره ،

(*) ورد التعبير في النص الأصلي باللغتين الألمانية والفرنسية .

ويفترس من كبد سروره بالحياة . وهو يقيم بين أوراق كتبه ويقترض الأفكار السود المصابة بالعطن .

وإن المرء ليرى أن خوف تولستوي من الموت كان خوفاً متعالياً عن البشر مثل حيويته . وسيكون من التردد أن نسميه خوفاً عصبياً مما يمكن قياسه إلى الخوف الناشيء عن الإجهاد العصبي عند « نوفاليس » ، والغشاوة الكثيبة عند « ليناو » ، والخوف المرضي عند ادجار ألن بو ، أو نقيسه إلى الخوف الصوفي من المتعة - كلاً ، فهنا ينبعث خوف عارٍ على النمط الحيواني تماماً ، خوف بربري ، رعبٌ صارخ ، إعصار خوف ، فزع صادر عن حسّ الحياة المهشّم . ذلك أن تولستوي لا يفرّج من الموت بروح فيها بطولة الرجال ، بل مثل من أحرق بجديد متوهّج ، وهو يظل الآن مدى الحياة عبداً لهذا الخوف ، مرتعداً . يصرخ صراخاً حاداً ، ولا يتماسك . ويفرّغ خوفه شحنته في صورة انفجارٍ للفرع وحشيٍّ على الإطلاق ، في صورة صدمة - هي الخوف الأول المتحوّل إلى إنسان عند كل مخلوق . وهو لا يريد أن يدع هذه الفكرة تمسّه ، لا يريد ، ويرفض ، ويقذف بأطرافه في كل ناحية كالمخنوق ، وذلك أننا لا ينبغي لنا أن ننسى أن تولستوي يتعرّض للهجوم على نحو مفاجيء تماماً وفي وسط أمن لا مثيل له . فهذا الدبّ المسقوف يفتقر إلى أي حلقة للاتصال بين الموت والحياة - فالموت بالقياس إلى سليم سلامة بدائية هو مادة غريبة بصورة مطلقة ، على حين يتنصّب ، بالنسبة إلى الإنسان المتوسط ، فيما عدا هذه الحالة ، في العادة ، جسر مطروق كثيراً بين الموت والحياة : ألا وهو المرض . فأما الآخرون ، أولو الخمسين حولاً في المتوسط ، ففيهم جميعاً ، أو في معظمهم

قطعة من الموت كامنة فيهم ، ولا يعدّ ذنوّه بالقياس إليهم شيئاً خارجياً تماماً ، ولا مفاجأةً بعدُ : ولذلك لا يرتعدون على هذا النحو ، غير متماسكين إزاء قبضته الشديدة الأولى . فإن امرءاً مثل دوستويفسكي ، الذي يواجه بعينه المعصوبتين إطلاق الرصاص ، وهو مشدود إلى عمود ، ويخترّ مغشياً عليه في تشنّجات الصرّع كل أسبوع ، خليق أن يواجه فكرة الموت مواجهة أكثر تماسكاً ، من حيث تعوّده الألم ، من ذلك الذي ليس لديه فكرة عنه ، والذي يتفجّر صحة وعافية . ولذلك لم يكن ظل ذلك الخوف الانحلالي الكامل ، والذي يكاد يكون معيياً ، يجمّد الدم في عروق دوستويفسكي مثل تولستوي الذي كانت أوصاله تأخذ في الارتعاد لدى الشعور الأول باقتراب فكرة الموت . وبالقياس إلى تولستوي الذي لا يحسّ بآثامه إلا في الفيض والإتراع ، ويحس ، في « السِكر بالحياة » ، أن الحياة وحدها ذات قيمة كاملة ، كان أدنى تناقص في الحيويّة يعدّ نوعاً من المرض (فهو يسمي نفسه في السادسة والثلاثين « رجلاً شيخاً ») . ونتيجة لهذه الحساسية تخترقه فكرة الموت فتتغلغل في الأعماق كالطلقة . وليس يقدر على أن يخاف العدم بصورة متكاملة على نحو مطلق ، وبهذه الحدة ، إلا من كان يحس بالحياة إحساساً فيه كل هذه الحيوية . ولأن طاقة حيوية شيطانية حقاً تنصدّي هنا لخوف من الموت شيطانيّ بالقدر ذاته ، لهذا بالضبط ينشأ عند تولستوي مثل هذا الصراع البطوليّ العملاق بين الوجود والعدم ، وربما كان أكبر صراع في الأدب العالمي . ذلك لأن الطبايع العملاقة وحدها هي التي تقدر على المقاومة العملاقة : وإن رجلاً يعدل رجلاً ، وبطلاً رياضياً من أبطال الإرادة ، ليس من شأنه أن يستسلم ببساطة أمام العدم — فهو يستجمع قواه على الفور بعد الصدمة

الأولى ، ويشد عضلاته ليهزم العدو المنقض بغتة : كلاً ، فان حيوية
 فاضرة كحيويته لا تستسلم بغير كفاح . ولا يكاد يفوق من الصدمة
 الأولى حتى يتحصن بالفلسفة ، وينصب الجسور عالية ، وينهال على
 العدو الخفي بمنجنيقات من ترسانة منطقته ليكد حره . ويعد الإزدراء
 دفاعه الأول : « أنا لا أستطيع أن ألقى بالاً إلى الموت ، وذلك في المقام
 الأول لأنه شيء لا وجود له ما دمت أعيش » . وهو يسميه « غير قابل
 للتصديق » ويزعم متعالياً ، أنه لا يخشى الموت . وإنما يخشى الخوف
 من الموت فحسب « وما يفتأ يؤكد (خلال ثلاثين عاماً !) ، أنه لا
 يخافه ، ولا يفكر فيه بخوف . غير أنه لا يندع أحداً ، حتى ولا نفسه .
 ولأريب أن سور الأمان الحسي والروحي قد أخترق في أول عاصفة
 من هواصف عصاب الخوف . ولا يعود تولستوي يكافح ، منذ عامه
 الخمسين إلا على أنقاض ثقته بذاته ، تلك الثقة الحيوية السالة ، ويضطر ،
 وهو يرجع القهقري ، خطوة خطوة ، إلى التسليم بأن الموت ليس مجرد
 « شبح » أو « مسخرة طير » ، وإنما هو خصم جدير بأعلى درجات
 التقدير لا يستطيع المرء أن يرهيه بمجرد الكلمات ، وهكذا يحاول
 تولستوي أن يرى أليس من الممكن أن يستأنف حياته في داخل هذا
 المأزق ، ولما كان المرء لا يستطيع أن يقضي حياته مكافحاً ضد الموت ،
 أفلا يقدر على أن يعيش معه ؟ .

وبفضل هذا التهاون فحسب تبدأ مرحلة ثانية خصبة لتولستوي
 في علاقته بالموت . فهو ما عاد « يقاوم وجوده » ولا يستسلم إلى وهم
 إبعاده بالحكم — وعلى هذا يحاول أن يسلكه في نظام حياته ، وأن
 ينشئ علاقة داخلية بينه وبين إحساسه بالحياة ، وأن يزيل حدة نفسه
 ضد ما لا سبيل إلى اجتنابه ، وأن « يوطن النفس عليه » . فالموت لا

يُهْزَم ، وهذا أمر لا بد لعملاق الحياة أن يسلم به ، ولكن لا ينبغي له أن يسلم بالخوف من الموت : وعلى هذا فهو يوجه كل طاقته الآن ضد مجرد ذلك الخوف ، ومثلما ينام الترابيون(*) الأسبان كل ليلة في التوابيت ليقتلوا كل خوف في أنفسهم ، يمارس تولستوي ، من خلال تمارين يومية عنيدة الإرادة ، بطريقة الإيحاء الذاتي ، تذكراً للموت لا يهدأ ، فهو يرغب نفسه على التفكير في الموت بصورة ثابتة ، و « بكل طاقة روحه » من دون أن ينتابه الفزع منه ، فهو يفتح كل ملاحظة في مذكراته منذ الآن بالحروف الصوفية النائية (W. I. L) — (إذا كنت على قيد الحياة) (**) ، ويسجل في كل شهر ، خلال سنين ، عبارةً للتذكير الذاتي « أنا أقرب من الموت » وهو يوطن نفسه على أن ينظر إليه في عينيه . على أن التعود يقضي على الوحشة . ويهزم الخوف . وهكذا ينشأ ، خلال ثلاثين عاماً من الصراع مع الموت ، عن الوجود الخارجي وجوداً داخلياً ، وينشأ من العدو نوع من الصديق . فيدنيه منه ، ويدخله في ذاته ، ويحول الموت إلى جزء أساسي روحي من حياته ، وبذلك يجعل الخوف الأصلي « مساوياً للصفر » — « والمرء لا يحتاج إلى التفكير فيه ، غير أنه لا بد له أن يراود نصب عينيه . عند ذلك تكون الحياة أبهى وأجلّ شأنًا ، وأحفل بالثمرات والمباهج حقاً . لقد نشأت من المحنة فضيلة . فقد تغلب تولستوي (وذلك هو الخلاص الأبدي عند الفنان !) على خوفه باضفاء السمة الموضوعية عليه ، وأبعد عن نفسه الموت والخوف من الموت بصياغته في شخصيات أخرى من إبداعه . وهكذا يتحول ما كان يبدو في البداية مدمراً إلى مجرد

(*) نسبة إلى نظام ديز لا تراب في نورماندي بفرنسا ، المؤسس عام ١٦٦٣

Wenn ich Lebe (**)

تعميق للحياة ، ويدخل ، بصورة مباغلة إلى أقصى الحدود ، التصعيد الأعظم في نفسه . ويفضل بجنه المستفيض الخائف ، والموت المستبقي آلاف المرات في الخيال ، يتحول هذا الحيوي الأكثر شغفاً بالحياة إلى مصور الموت الأكثر خبرة ، وإلى أستاذ لكل أولئك الذين صوروا الموت قاطبة . فالخوف هو دائماً ذلك الذي يستبق الواقع ، وهو المجنح بالخيال ، فهو دائماً أكثر إبداعاً من المعافاة الباهتة الخالية من الإرهاف — فياه من خوف أصيل مرتعد ، مذعور ، متيقظ طوال تسنين ، إنه الميول المقدس وإنه الملقصوّر عند جبّار ! بففضله يعرف تولستوي كل أعراض انطفاء الجسد ، وكل لحظة ، وكل علامة ينقشها لإزميل ثاناتوس (١) في اللحم المحلل ، وكل رعدة وكل فزع في الروح الغارقة : ويشعر الفنان شعوراً قوياً أن معرفته الخاصة تندبه لأمر ما : فموت إيفان ايليتش وهو يصيح في عويل مروّع « لا أريد ، لا أريد » ، وانطفاء أخ ليفين المثير للرتاء . والأشكال المتعددة الجوانب لانطفاء الحياة في روايات « الموتات الثلاث » — كل هذا الإصغاء المتجه إلى الأسفل ، على الحافة القصوى للوعي ، وهو ما يعد أكبر منجزات تولستوي في علم النفس : ما كان ليخطر في البال من دون ذلك التزعزع الكارثي ، وهذا التوران والاضطرام الناجم عن الفزع الذي عانى منه بنفسه . فأكفي يصف تولستوي هذه الحالات المائة من حالات الموت كان لا بد له أن يكون عاش بصورة مسبقة موته الخاص حتى أدقّ خيوط الفكرة ، مئات المرات في روحه المزعزعة ، وعاش من بعد ذلك الموت : وعاش معه : فالخوف المستشعر بصورة مسبقة هو وحده الذي دفع بفنه من السطحي . من النظر المجرد والرسم الذي ينسخ عن

الواقع ، إلى أعماق المعرفة ، هذا الخوف وحده هو الذي علمه أن يجمع إلى خصوبة الواقع الحسي ، بأسلوب روبان ، هذا الضوء المنبثق من الداخل ، وكأنه ضوء ميتافيزيقي ، بأسلوب رامبرانت ، في وسط التظليل المأساوي ، ولأن تولستوي عاش الموت بصورة مسبقة ، وعلى نحو أكثر عنفاً من كل من عداه وهو في خضم الحياة ، فقد جعل الموت بالقياس إلينا جميعاً حياً كما لم يجعله ثانٍ له .

على أن كل أزمة إنما هي هدية القدر إلى الإنسان المبدع : وهكذا ينشأ في موقف تولستوي المتصل بفكره الديني ، آخر الأمر ، توازن جديد أعلى . فالتناقضات يتغلغل بعضها في بعض ، والصراع الرهيب بين شهوة الحياة ونقيضها المأساوي يتنحى ليفسح المجال لتفاهم حكيم متناسق . وبصورة موافقة تماماً لمكر سبينوزا يستقر الشعور المتطامن آخر الأمر في سباحة هوائية محضة بين الخوف والأمل ، أمل الساعة الأخيرة : « لا يحسن بالمرء أن يهاب الموت ، ولا يحسن به أن يرغب فيه . وإنما يجب على المرء أن يجعل عائق الميزان بحيث ينتصب المؤشر مستقيماً ولا ترجح كفة على أخرى ، وهذه أفضل شروط الحياة » .

وإذاً فقد تحقق الانسجام أخيراً في التنافر المأساوي . وما عاد الشيخ تولستوي يكن الضغينة للموت ويضيق به ذرعاً ، وما عاد يفر منه ، وما عاد يكافحه ، وإنما يحلم به مجرد حلم في التأملات الهادئة ، مثلما يخطط فنان وهو في حالة استرخاء ، لعمل حاضر غير مرئي . على أن الساعة الأخيرة هي ذاتها ، الساعة التي ظل يحشاها زمناً طويلاً ، تهيه من أجل ذلك رحمة كاملة : موتاً ، عظيماً مثل حياته ، وهو عمل أعمائه .

الفن

ليس هناك متعة حقيقية سوى تلك التي
تنبت عن الفن ، ففي وسع المرء أن ينتج
الأفلام والأحذية والخبز والأطفال ، أي
أن ينتج البشر . ولا توجد متعة حقة ،
لا تقاوم بالحواف والألم ووخز الضمير
والخجل .

إن كل عمل في لا يبلغ أعلى مراحل إلا حين ينسى المرء صبرورته
الفنية ويحس بجيائه واقعاً . وقد اكتمل هذا التبادل عند تولستوي مراراً
فلا يجرؤ المرء أبداً على أن يحسب أن هذه الأقاصيص متخيلة وأن
شخصياتها مخترعة ، وهي تتقدم نحونا حقيقة محسوسة بهذا القدر .
وحين يقرأ المرء لا يحسب أنه فعل شيئاً آخر سوى أنه رأى العالم الواقعي
من خلال نافذة مفتوحة .

ومن أجل ذلك فلو لم يوجد إلا فنانون من طراز تولستوي لانساق
المرء بسهولة إلى الرأي القائل إن الفن شيء بسيط جداً ، وأن الكتابة
الأدبية ليست شيئاً آخر سوى إعادة رواية الواقع ، ورسمه عن ورقٍ
شفاف ، دونما جهد فكري أعلى ، وأن المرء لا يحتاج ، وفقاً لذلك ،
إلا إلى صفة سلبية : ألا يكذب ؛ فلكل لأن هذا العمل ينتصب أمام
أبصارنا بدمية غلابة ، وبالطبيعة الفطرية الماثلة في منظر طبيعي ،

هادراً غنياً ، طليعةً مرة أخرى ، حقيقية كالأخرى : فكل تلك القوى الخفية اللازمة لإثارة الاهتمام وتوليد العاطفة المحتدمة والرؤى المزيّنة بالفوسفور تبدو في ملحمة تولستوي لا لزوم لها ولا وجود لها : فليس هناك شيطان سكران ، بل رجل صاح ، يحسب المرء أنه أخرج بمجرد النظر الموضوعي والمثابرة على النقل بالرسم ، نسخة عن الواقع دونما جهد .

غير أن كمال الفنان ينجح الحاسة المستمتعة في عرفان للجميل ، إذ ما عسى أن يكون أصعب من الحقيقة ، وأشقّ من الوضوح ؟ فالنصوص الأصلية تقدم دليلاً على أن ليو تولستوي لم يكن على الإطلاق يملك موهبة السهولة ، بل كان أحد العاملين الأكثر سمواً والأكثر صبراً ، وتعدّ نقوشه الهائلة عن العالم موزاييكاً فنياً حافلاً بالجهد ، مؤلفاً من حجارة صغيرة ذوات تلاوين صغيرة مأخوذة عن ملايين الملاحظات المنفردة الدقيقة . فقد جرى نسخ الملحمة الهائلة « الحرب والسلام » ، ذات الصفحات الألفين ، سبع مرات ، وكانت الفقرات المحتوية على الخطوط العريضة والملاحظات المتصلة بذلك تملأ صناديق عالية . وقد تم توثيق كل صغيرة في المجال التاريخي ، وكل تفصيل في المجال الحسي بعناية : فليكي يضيفي على وصف معركة بورودينو دقة موضوعية يظل تولستوي طوال يومين يحب أرض المعركة على فرسه ومنعه بطاقة هيئة الأركان ، ويسافر أميالاً بالخطوط الحديدية ليستقي من أي مشترك في الحرب ما زال على قيد الحياة تفصيلاً ضئيلاً تجميلياً . وينبش كل الكتب ، ويقلب المكتبات ، بل يطلب من الأسر النبيلة وخزائن محفوظاتها وثائق مفقودة ورسائل خاصة ، لمجرد أن يلتقط ذرة أخرى من الواقع . وهكذا تتجمع على مدى السنين الكريات

الزئبقية من عشرات الألوف ومئات الألوف من الملاحظات الدقيقة الضئيلة إلى أن ينساب بعضها في بعض شيئاً فشيئاً ، بلا آثار وصل ، في صورة متكاملة ، نقية ، كاملة . والآن فحسب ، بعد أن أنهى كفاحاً من أجل الحقيقة ، يبدأ الصراع من أجل الوضوح . فمثلما يفعل بودلير ، الفنان الغنائي ، بكل سطر من قصيدته ، تنقيحاً وتهذيباً وصقلًا ، يقوم تولستوي بتطريق نثره وتزيينه ويُلاحِمُ بين أجزائه في تعصب الفنان الذي لا يقبل شائبة ، حتى إن جملة واحدة غير مُحَكَّمة ، أو صفة غير منسجمة تماماً في وسط العمل ذي الصفحات البالغة عشرة آلاف تستطيع أن تحدث فيه من الاضطراب ما يجعله يُبْرِقُ ، فَرَعًا ، إلى مُضَيِّد الحروف في موسكو ، في أثر التصحيح المرسل ، ليقف آلات الطباعة . ليتمكن من تغيير إيقاع ذلك المقطع الصوتي غير المُرضي . ثم يُعَادُ طَرَحُ هذه الطبعة التجريبية الأولى مراراً في البوتقة الفكرية وتصهر مرة أخرى ، وتصاغ مرة أخرى . كلاً ، فإذا كان لفن أي فنان أن يكون خالياً من الجهد ، فإن فن هذا الفنان بالذات ، أي فن ذلك الذي يبدو أكثر الفنانين طبعيةً ، لم يكن خالياً من الجهد . فخلال سبع سنوات يعمل تولستوي ثماني ساعات ، بل عشر ساعات في اليوم . ولذلك فلا عجب أن هذا الرجل المتمتع بالصحة العصبية القصبوى ، هذا الرجل ذاته ينهار بعد كل رواية من رواياته انهياراً نفسياً ، ويتأب معدته العجز فجأة ، وقصاب حواسه بالدوار والتكدّر ، ويضطر إلى الخروج إلى الحلاء في العزلة المطلقة ، بعيداً كل البعد عن كل حضارة إلى السَهْب عند البشكير ، ليسكن هناك في الأكواخ ، وليستعيد التوازن النفسي مع لبن الجاموس . فهذا الكاتب الملحمي الهوميري ، هذا الطبيعي إلى الحد الأقصى ، هذا الراق كالماء ، وهذا الروائي

البدائي الذي يكاد يكون شعبياً ، هذا الكاتب بالذات يستكن فيه فنّان لا يكتفي ، معذب بصورة هائلة (وهل يوجد آخرون ؟) غير أن من أكبر النعم — أن مشقة الإبداع تظل غير مرئية في الوجود الكامل للعمل . ويبدو نثر تولستوي من حيث الفن كأنه صادر عن الأزل ، لا أصل له ، ولا عمر له كالطبيعة ، ولا سبيل إلى الإحساس به في وسط عصرنا ، ويبدو في الوقت ذاته خارج كل العصور . إذ أنه لا يحمل في أي مكان الطابع المميز لعصر معين . ولو أن أقاصيصاً مفردة من أقاصيصه لا تحمل اسم صائغها وقعت في يد امريء أول مرة لما جرؤ أحد على أن يحدّد في أي عقد ، بل في أي قرن أنشئت . فإلى هذا المدى كانت تعني القصص المطلق الذي لا زمان له . فالأساطير الشعبية مثل « الشيوخ الثلاثة » أو « كم يحتاج الإنسان من الأرض » كان من الممكن في الوقت نفسه أن تصاغ مع روث وأيوب ، قبل اختراع الطباعة بنحو ألف سنة ، وفي بداية الكتابة . وينتمي « صراع ايفان ايليتش مع الموت » (بوليكاى) أو « سكين الكتان » كذلك ، إلى القرن التاسع عشر مثلما تنتمي إلى القرن العشرين والقرن الثلاثين . ذلك لأن ما يجد هنا تعبيراً موافقاً لروح العصر ليس هو الروح المعاصرة ، كما هو الحال عند ستندال وروسو ودستوييفسكي ، بل الروح البدائية ، الشاملة لكل العصور ، والتي لا تخضع لتبدل — النسمة الأرضية ، الاحساس الأوّل ، الخوف الأوّل ، العزلة الأولى للإنسان أمام اللانهاية . ومثلما حدث داخل المجال المطلق للبشرية ، فإن تمكّنه الذي يطرد على مستوى واحد يحو الزمان ضمن المجال النسبي لمدة الإبداع ، إذ لم يكن تولستوي قط مضطراً إلى اكتساب فنه القصصي بالتعلّم ، كما أنه لم ينس أبدأ ، فعبقريته الطبيعية لا تعرف تقدماً ولا تراجعاً .

فمشاهد وصف المناظر الطبيعية الصادرة عن سن الرابعة والعشرين في « القوزاق » وتلك الأصبحة (١) المشرقة التي لا تنسى من أيام الفصح في « البعث » . المكتوبة في سن الستين ، أي بعد عمر بشري صاخب ، تنفّس النضارة الواحدة ذاتها ، نضارة الطبيعة المباشرة التي لا يعترها الذبول والتي يمكن تلمسها بكل الأعصاب ، فهو التجسد ذاته ، التجسد المنحوت الذي يمكن لمسه بالأنامل ، للعالم العضوي وغير العضوي . وإذا فلا وجود في فن تولستوي لتعلّم ولا لنسيان ، ولا لانحدار ولا لانتقال ، بل يحافظ هذا الفن طوال نصف قرن على الاكتمال الموضوعي ذاته ، فهو كالصخر ، جدياً وبقاءً على الزمن ، ثابت لا يقبل التغيير في كل خط من خطوطه . وهكذا تنتصب أعماقه في داخل الزمان الرخو المتغيّر .

غير أن هذا الاكتمال المطّرد على مستوى واحد ، والذي لا ينطوي ، من أجل ذلك ، على تأكيد لشخصه ، هذا الاكتمال بالذات هو السبب في أن المرء لا يكاد يحسّ بنفّس الفنان حاضراً مشاركاً في عمله الفني : فتولستوي لا يظهر متصوِّراً لعالم خيالي ، بل مجرد متحدث عن واقع مباشر . وبالفعل فإن المرء يتحرّج في بعض الأحيان من تسمية تولستوي شاعراً ، ذلك لأن الشاعر ، هذه الكلمة المتأرجحة تعني ، بصورة ليس فيها تعسف ، أن يكون المرء مجبولاً من جبلّة أخرى ، أن يكون صورة تصعيدية للإنساني ، ارتباطاً على نحو خفي بالأسطورة والسحر . فاما تولستوي فلا يعد بحال من الأحوال ، في مقابل ذلك ، إنساناً من نموذج « أعلى » ، بل إنساناً من هذا العالم بصورة كاملة ، ولا يعدّ

(١) جميع الصباح

متعالياً عن الأرض ، بل عنواناً لكل سمة أرضية . وما من مكان يتخطى فيه المنطقة الضيقة للملموس ، والواضح في مجال الحواس ، والذي يمكن أن تمسك به اليد ، ولكن ياله من كمال ضمن هذا المقياس ! فليس لديه سمات أخرى ، سمات فنية وسحرية تتخطى السمات العادية . غير أن هذه السمات ذات تركيز لا مثيل له : فهو لا يعمل عمله بصورة أكثر حدة إلا من الناحية النفسية . وهو يرى ، ويسمع ، ويشم ، ويحسّ بوضوح أكثر وفقاء أكثر وعلى مدى أبعد وأكثر دراية من الإنسان العادي ، ويتذكر ذكريات أبعد وأكثر منطقاً ، ويفكر بصورة أسرع وأصدق حذساً ، وأدق ، وموجز القول إن كل خاصية بشرية تشكل في الجهاز الكامل الوحيد لعضويته بحدة مضاعفة مائة مرة بالقياس إلى الطبيعة العادية . غير أن تولستوي لا يخلّق فوق حدود الشيء العادي (ولذلك لا يجرؤ إلاّ قليل جداً من الناس على أن ينسبوا إليه كلمة « العبقريّة » البدهية بالقياس إلى دوستويفسكي) . ولا يبدو أدب تولستوي قط أدباً تشيع فيه روح الشيطان أو روح ما لا يُدرَك . وأتّى يكون لهذا الخيال المرتبط بالأرض أن يخترع شيئاً من خارج مجال الحدث الموضوعي ، مما ليس له وجود خارج الإنسانيّ العام . ومن أجل ذلك سوف يظلّ فنه دائماً اختصاصياً ، موضوعياً ، واضحاً ، إنسانياً ، فناً تحت ضوء النهار ، واقِعاً مرفوعاً إلى أسّ(*) . ومن أجل ذلك يحسب المرء حينما يقصّ تولستوي أنه لا يستمع إلى فنان وإنما يسمع الأشياء تتحدث بذاتها . فالأشياء والحيوانات تخرج من عمله وكأنّها تخرج من مسكنها الخاص الدافئ . ويحس المرء أن ليس هناك أديب

(*) استعارة من الاصطلاح الرياضي المعروف (مثل $10 \approx 20$) .

« المترجم »

مشحون بالعواطف يدفعها ، ويحثها ويستفزها مثلما يجلد دوستوييفسكي شخصياته دائماً بسوط الحمى لتندفع بحرارة وهي تزحف إلى حلبة انفعالاتها . وعندما يقصّ تولستوي لا يسمع المرء نفسه . فهو يقصّ مثلما يتسنّم عمال المقالع ذروة مرتفع : ببطء واتزان وعلى مراحل ، خطوة خطوة ، دونما قفزات ، أو نفاد صبر ، من دون كلال ، من دون ضعف . ومن ههنا يأتي ارتياحنا الهائل بمرافقته . فالمرء يردد ، ويرتاب ، على أنه لا يتعب ، بل يرتقي خطوة خطوة ، على يده الحازمة ، كتل الجبال الضخمة في ملاحمه ، وتنمو النظرة العالية الشاملة مرحلة بعد مرحلة بأفق متسع . ولا تنطلق عجالات الأحداث إلاّ ببطء ، ولا تتضح النظرة البعيدة إلاّ بصورة تدريجية . غير أن هذا كله يتم باليقين الأصيل الذي لا يدع مجالاً للريب ، والذي يدع منظراً طبيعياً ينبثق مشرقاً من الأعماق ، شبراً فشبراً . فتولستوي يقصّ ببساطة تامة دونما توكيد ، مثل أولئك الملحميين في العصور الأولى ، من شعراء الأقاصيص وكتاب المزامير والحوليّات ، الذين كانوا يقصّون أساطيرهم ، حين لم يكن لنفاذ الصبر بعد وجود بين البشر ، وكانت الطبيعة غير منفصلة بعد عما فيها من مخلوقات ، ولم يكن ثمة نظام للرتب يميّز بين الإنسان والحيوان والنبات والحجارة في كبرياء ، وكان الشاعر ما يزال ينطوي على الخشوع والورع ذاتيهما تجاه الأصغر والأعظم شموخاً ، فليس عنده فرق بين الارتعاده المَحُولَة لكلب خلع مفصله ، وموت جنرال مثقل بالأوسمة ، أو سقوط شجرة ميتة قصمتها الريح . فالجميل والقيبح ، والحيواني والنباتي ، والنقيّ والملوث ، والسحري والبشري ، كل هذا ينظر إليه بنظرة الرسام ذاتها ، وهي مع ذلك نظرة تُشْرِبها روحاً — وإن المرء يلعب بالألفاظ لو أراد أن يميّز أبطيّع الإنسان أم يُؤنّسن

الطبيعة . ومن أجل ذلك لا يظل مجال من مجالات الأرضي موصداً دونه . ويتدرج إحساسه من جسد الرضيع الوردي إلى الجلد المسترخي لخصان مطرود من الخطيرة ، ومن الثوب القطني لقروية إلى بزة أشرف القواد العسكريين . وله في كل جسد ، وفي كل نفس ، معرفة متساوية تنبض بالدم ، فيها يقين لا يُدرك يقوم على أشد الأحاسيس خفاءً واتصالاً بالجسد . وكثيراً ما تساءلت النسوة وهن يرتعدن من الخوف ، كيف استطاع هذا الرجل أن يستنبط وصف أكثر أحاسيسهن الجسدية إخفاءً مما لا يمكن أن يشتركنه في معاناته ، وكأنه يستخرجه من تحت البشرة ، وهو الانقباض الشديد في الثدي من اللبن المنبجس لدى الأمهات ، أو البرودة المناسبة على نحو مريح على الذراعين العاريين لفنأة صبية تشهد الحفل أول مرة ، ولو أعطيت الحيوانات صوتاً تطلق من خلل العنان لدهشتها عن طريق الكلام لتساءلت : بأيّ حدس خفي استطاع أن يدرك شهوة التعذيب عند كلب صيد لدى الرائحة القريبة للكروان البري ذي المنقار الطويل ، أو مجرد الخاطرة الغريزية اللابسة لبوس الحركة عند حصان أصيل لحظة انطلاقه — وليقرأ المرء وصف ذلك الصيد في « أنا كارنينا » — فثمة أحاسيس تفصيلية ذات دقة خيالية فيها توقع لكل تجارب علماء الحيوان وعلماء الحشرات ، من بوفون إلى فابر، بصورة وصفية . ولا ترتبط دقة تولستوي في الملاحظة بأي شكل من أشكال التدرج ضمن الأرضي ، فليس عنده إثارة في حبه ، فنابليون في نظراته التزيهة ليس إنساناً أكثر من آخر جندي من جنده ، وهذا الأخير ، أيضاً ، ليس بالمهم ولا الجوهري أكثر من الكلب الذي يعدو خلفه ، ولا الحجر الذي يطؤه هذا بقدميه ، مرة أخرى . فكل شيء في مجال الأرضي ، من إنسان وجماد ، ونبات وحيوان ، ورجال

ونساء ، وشيوخ وأطفال ، وقادة عسكريين وفلاحين ، ينصبّ في أعضائه في صورة ذبذبة حسية بتوازن ضوئي كريستاليّ واحد ، ليتم إفراغه بالطريقة النظامية ذاتها . وهذا يضيف على فنه شيئاً من تناسب الطبيعة الأصلية في كل وقت . وعلى ملحمة ذلك الإيقاع الرتيب كرتابة البحر ، والذي يعدّ مع ذلك عظيماً يبعث في أذهاننا المرة بعد الأخرى اسم هومير .

وإن من يرى كل هذه الرؤية ، وبكل هذا الكمال ، ليس في حاجة إلى الاختراع ، ومن يلاحظ ملاحظة فيها هذا القدر من الشاعرية .. ليس في حاجة إلى أن يكتب من الخيال . ومن حيث كونه فنان البقطة المطلقة ، خلافاً لدوستويفسكي صاحب الرؤى والخيالات ، فانه لا يحتاج في أي مكان إلى تخطي عتبة الواقعي ليصل إلى ما يخرج على المؤلف ، كما أنه لا يستخرج أحداثاً من مجال للأحلام متعال عن العالم ، بل يحفر في التراب العام فحسب ، في البشر العاديين ، مناجمه الجريئة الجسورة . وفي الإنساني يستطيع تولستوي ، مرة أخرى ، أن يوفر على نفسه ملاحظة الطبائع المنحرفة والمرضية ، أو ابتداء مراحل جديدة فيما بين الرب والحيوان ، بين أريسل واليوشا ، بين الغيسلان والأخوة كارامازوف بصورة خفية كما فعل شكسبير ودوستويفسكي . فحتى ذلك الفتى الفلاح الأكثر اتصالاً بالحياة اليومية والأكثر ابتلاءً يتحول في ذلك العمق الذي لا يبلغه إلا هو ، إلى سرّ : ويكفي عنده مهبطاً للوصول إلى أعماق طبقات ممالك النفس فلاح بسيط ، جندي ، سكّير ، كلب ، حصان ، أي شيء ، وعلى وجه التأكيد أرخص مادة بشرية يتفق وجودها ، لا نفوس زائفة نفيسة : غير أنه

يحمل هذه الشخصيات المتوسطة تماماً شيئاً لا مثيل له من الناحية النفسية ، وذلك لا عن طريق تجميلها ، بل عن طريق تعميقها . فعمله الفني لا ينطق إلا بهذه اللغة الواحدة للواقع — وهذه حدوده — هذه اللغة ، ولكن بصورة أكثر كمالاً مما تحدث بها أديب قبله — وهذه عظمتة . فالجمال والحقيقة بعده أن عند تولستوي شيئاً واحداً بذاته .

وعلى هذا فهو — إذا أردنا أن نقول ذلك مرة أخرى وبصورة أوضح — الأكثر نظراً بين الفنانين قاطبة ، غير أنه لا ينظر نظرة الكهان ، وهو الأكثر كمالاً بين كل أولئك الذين يتحدثون عن الواقع ، غير أنه ليس بالأديب المخترع . وذلك أن تولستوي لا يستنبط أكثر أحاسيسه نقاءً عن طريق الأعصاب مثل دوستويفسكي ، ولا عن طريق الرؤى ، مثل هولدرن أو شيللي ، بل عن طريق الفعل المنسّق لحواسه ذات الذبذبة الشعاعية كالضوء . فهي ترسل أسرارها كالنحل بصورة ثابتة لتجلب إليها دائماً غبار طلع ملوناً جديداً من الملاحظة ، يتشكل بعد ذلك ، حين يختصر في الموضوعية العاطفية ، في صورة رحيق للعمل الفني سائل كالذهب . فحواسه وحدها ، حواسه المطوعة بصورة عجيبة ، وذات الرؤية الواضحة ، والسمع الواضح ، والأعصاب القوية ، واللمس الرهيف ، والموازنة الدقيقة ، والإحساس البالغ بالإرهاق ، والشم الذي يكاد يكون حيوانياً ، تعود عليه من كل ظاهرة بتلك المادة التي لا مثيل لها من جوهر الإحساس ، وهذه المادة تحول بعد ذلك الكيمياء الخفية لها الفنان الذي ليس له أجنحة ، إلى روح ، وذلك ببطء يماثل على وجه الدقة ما يفعله كيميائي يقطر المواد الطيارة من النباتات والأزهار بصبر . وبصورة دائمة تنشأ البساطة الهائلة عند

القاصّ تولستوي عن ذلك التعدد الهائل في الجوانب ، وهو التعدد الذي لا يمكن على الإطلاق حسابه وتقديره ، والمتشكل من ألوف مؤلفة من الملاحظات التفصيلية . فهو يبدأ ، كما يفعل الطبيب ، أول الأمر ، بمسح عام ، بمجرد لكل الخصائص الجسدية لدى الفرد قبل أن يطبّق عملية التقطير الملحميّة على عالم رواياته الكامل . وهو يكتب ذات مرة إلى صديق قائلاً : « أنت لا تستطيع أن تتصور أبداً كيف أستصعب هذا العمل التمهيدي ، أي ضرورة القيام بجراحة عامة ، أول الأمر ، للحقل الذي أنوي عندئذ أن أنثر البذار عليه . وإنه لمن الصعب بصورة رهيبة أن يفكر المرء ويظل يعيد التفكير مرة بعد أخرى في كل ما يمكن أن يحدث لكل الأشخاص الذين هم بعدُ في طور التكوّن في العمل الفني الكبير الوارد في الحسبان . وإنه لمن الصعب إلى حد رهيب أن ينظر المرء في إمكانيات هذا العدد الكبير من الأحداث ليعتار من هذه بعد ذلك واحداً من المليون . ولما كانت هذه العملية التي تعد آليّة أكثر منها خياليّة ، تتكرر لدى كل شخص على حدة ، فليقدّر المرء كم من هبّاءة تطحن في طاحونة الصبر هذه ثم يضطر المرء إلى إعادة ربطها . فكل تفصيل وكل إنسان ينجم عن ألف من التفاصيل ، وكل تفصيل من أشياء أخرى لا متناهية في الصغر . ذلك لأنه يفحص ، بعدالة عدسة التكبير الباردة التي لا تخطيء ، كل عَرَض من الأعراض المميزة للشخصية . فبأسلوب هولباين(*) ، بضربة ريشة في إثر ضربة ، قد يشكّل فماً ، وقد خطّ الحدود الفاصلة بين الشفة العليا والشفة السفلى مع كل أشكال الشلوذ الفردية ، ودوّن كل انقباض لزواوية الفم بدقة

(*) Holbein ، هانز هولباين (١٤٩٧ - ١٥٤٣) رسام ألماني عمل في بلاط هنري الثامن وزخرف ترجمة لوثر للانجيل .
« المترجم »

في حالات معينة من حالات التأثير النفسي ، ونوع الابتسامة مثل نوع تقطيع الغضب بطريقة الرسم . وعند ذلك فحسب يتم رسم لون هذه الشفة ببطء وتحسُّس ، اكتنازها أو صلابتها باصبع خفية . ونَحَتْ الظلمة الضئيلة الناجمة عن اللاحية المدببة التي تظللها بازميل الخير — ومع ذلك فهذا لا يؤدي إلا إلى الصورة الخام . أي مجرد التشكل اللحمي للشفتين والآن يتم استكمال الصورة بوظيفتها المميزة ، بإيقاع الحديث ، والتعبير النموذجي عن الصوت الذي يعد من الوجهة العضوية صوتاً خاصاً تجري مجانسته مع هذا الضم الخاص ، وهكذا يتم في أطلس وصفه التشريحي تحديد الأنف والوجنة والذقن والشعر بارهاف دقيق رهيب ، ويتم تعشيق كل تفصيل مع الآخر بأدق صورة ، وكل هذه الملاحظات . السمعية والصوتية والبصرية والحركية ، تجري الموازنة بينها مرة أخرى في المختبر غير المرئي للفنان . ومن هذه الحملة الرائعة من الملاحظات التفصيلية فحسب يستخرج الفنان المنظم عندئذ الجذر(*) ويتم ضغط الفيض المربك بغربال الاختيار الانتقائي — وهكذا ينشأ مقابل الملاحظة المبدرة تقييم للنتائج يقوم على الاقتصاد البالغ .

فعندما يثبت كل شيء حسي بدقة الهندسة بالذات ، ويكتمل الجسد ، عند ذلك فحسب يبدأ الغول (***) ، الإنسان المركب من الناحية البصرية، بالتنفس والحياة . فعند تولستوي يتم دائماً اقتناص الروح ، النفس ، الفراشة الربانية، بشبكة الملاحظات ذات النسيج اللطيف التي

(*) المقصود هنا عملية استخراج الجذر التربيعي أو غيره لعدد ما كما هو معروف في الرياضيات

(**) Golen في العبرية : الشج المرعب ، وهو تمثال على هيئة البشر من الصلصال

«المترجم»

لها ألف عين . أما عند دوستويفسكي ذي النظرة المشرقة ، وهو الطرف العبقري المقابل له ، فلا يبدأ إضفاء الطابع الفردي إلا بصورة معكوسة : أي بالنفس . فللروح عند هذا المقام الأول ، أما الجسد فيظل سائياً وخفيفاً فحسب ، كثوب الحشرة حول نواته النارية ذات الضوء النفّاذ ، بل إن النفس تستطيع في أشد ثوانيتها سعادة أن تحترق الجسد بنارها ، وترتقي ، وتحلّق في أثر الشعور ، في الوجد الخالص . أما تولستوي ذو النظرة الواضحة ، الفنان اليقظان ، فلا تستطيع النفس عنده أن تطير أبداً ، بل لا تستطيع ، حتى أن تتنفّس بحرية تامة إذ يظل الجسد دائماً معلقاً بالنفس مُحدّقاً بها ، قاسي القشرة ، ثقيلاً . ومن أجل ذلك لا يستطيع حتى أولئك المجنّحون إلى الحد الأقصى من الأبطال الذين يبتدعهم أن يخلّقوا عالياً نحو الله أبداً ، ولا أن يرتفعوا بأنفسهم أبداً عن الأرضي . ارتفاعاً تاماً ويتحرروا من العالم . بل يصعدون جاثين بشق النفس ، كالعنّالين ، خطوة خطوة ، وكأنهم يحملون أجسادهم على ظهورهم ، نحو التقديس والتطهير ، والارهاق ما يفتأ يعاودهم من العبء الثقيل والأرضيّة . وعند هذا الفنان الذي لا أجمحة له . ولا مريح عنده . يجري تذكيرنا دائماً بأننا نعيش على أرض محدودة ، وأن الموت يحيط بنا ، وأننا لا نستطيع الفرار ، ولا أن نهرب من العدم الزاحف الذي يحدق بنا ونحن في غمرة الحياة . وقد كتب تورجينييف ذات مرة إلى تولستوي يقول بأسلوب تنبؤي : « أتمنى لك مزيداً من حرية النفس . وهذا بالضبط ما يتمنّاه المرء للناس في رواياته ، مزيداً من حرية النفس . ومزيداً من طاقة التحليق النفسي ، وقدرة على التحرر من الموضوعيّ والجسديّ ، أو على الأقل ، القدرة على الحلم بعوالم أكثر نقاءً ووضوحاً . »

ومن أجل ذلك يود المرء لو يسميه فنّاً خريفيّاً . فكل معلّم من المعالم يتميّز بوضوح قاطع كحد السكين ، وحصاد ، من أفق السهوب الروسية الخالية من التلاك . والعيير المرّة ، عبير الذبول والزوال ، ينضح من الغابات الشاحبة . وفي المناظر الطبيعية عند تولستوي يشعر المرء دائماً شعوراً خريفيّاً ، فعماً قريب سيحل الشتاء ، وعما قريب يدخل الموت في الطبيعة ، وسرعان ما يكون كل الناس ، وكذلك الانسان الخالد فنياً ، قد استنفدوا آجالهم . إنه عالم بلا حلم ، وبلا جنون ، وبلا كذب ، عالم فارغ بصورة رهيبة ، بل هو عالم بدون ربّ — إذ أن تولستوي لا يدخل الربّ في عالمه إلاّ فيما بعد ، لحكمة تتصل بالحياة Lebens jaxsan ، مثلما فعل ذلك كانط لحكمة تتصل بالدولة . وليس لعالمه ضوء آخر سوى حقيقته الصارمة ، لا شيء سوى وضوحه الذي يعد كذلك صارماً . وربما يبدو المجال النفسي عند دوستويفسكي أول الأمر أشد ظلمة واسوداداً ومأساوية من هذا الوضوح البارد المطرّد على نسق واحد ، غير أن دوستويفسكي يمزّق أجواءه الليلية ببروق من الافتتان العاصف ، وتخرج القلوب ، مدة ثوانٍ على الأقل ، في سموات الرؤى . وفي مقابل ذلك لا يعرف فن تولستوي سكرّاً ولا عزاءً ، وإنما هو دائماً صاحب صحوة مقدسة ، شفاف ، لا يُسكر ، كالماء — وبفضل شفافيّتها الرائعة يستطيع المرء أن يطلّ بنظره على كل أعماقها . غير أن هذا التعرّف لا يترغ الروح أبداً بالغيابة عن العالم والافتتان الكاملين . بل يحمل فيه على الجذ والتفكير ، مثلما يفعل العلم بضوئه الحجري ، بموضوعيته الثاقبة ، غير أن فن تولستوي لا يُسعيد .

ولكن كيف أحسّ هو نفسه ، وهو أعلم الناس قاطبة ، بهذا الخالي من الرحمة والباعث للصحوة في عمل عينيه الصارم ، في فن ليس فيه بريق الحلم الذهبي الذي يضيفي جواً حميماً ، وليس فيه رفق الموسيقى ! ولم يكن يجب هذا في أعماق أعماقه ، لأنه لم يكن يستطيع أن يهب له وللآخرين معنى للحياة إيجابياً يبعث على السعادة . فما أشد ما ينطوي عليه سلوك الحياة كلها من يأس رهيب أمام هذا البؤس الذي لا يرحم : فالروح عنده آلية جسدية ضئيلة مختلجة في وسط ما يغلفها من سكون الموت في المكان ، والتاريخ عنده عَمَاءٌ لا معنى له من الوقائع المتواردة بطريق المصادفة . والانسان بجسده هيكلي متبدّل قد اكتسب بكساء الحياة الدافئ إلى أجل قريب ، وكل اضطراب الحياة هذا الذي لا تفسير له ولا نظام ، ليس له غاية كالماء الجاري ، أو الخضرة الداوية . أو يكون من غير المفهوم حقاً أن يُعرض تولستوي فجأة ، وبعد ثلاثين عاماً من تصوير الظلال ، عن فنه ؟ أو كان يتوق إلى تحقيق ذاته على نحو يفكّ به أغلال ذلك الثقل ويسرّ للآخرين الحياة ، إلى فن « يبعث في الناس مشاعر أسمى وأفضل » ؟ أتراه يريد ذات مرة أن يلامس قيثارة الأمل الفضية التي تأخذ ، عند أدنى اهتزاز ، ترن برنين الإيمان في صدور البشرية ، ويتملكه الحنين إلى فن يحرّر ويخلص من الضغط الثقيل لكل أرضي . ولكن هيهات هيهات ! فعيون تولستوي الرائقة في قسوة ، اليقظة المفرطة في اليقظة ، لا تستطيع أن تبصر الحياة كما هي أبداً إلا وقد أظلمت الموت ، مظلمة مأساوية . وإن يمكن قط أن يخرج من هذا الفن الذي لا يعرف الكذب ولا يريد الكذب ، بصورة مباشرة ، عزاء حقيقي للنفس . وكذلك ربما تستيقظ عند الطاعن في السن الرغبة في تغيير الحياة ذاتها طالما أنه لم يتمكن من

أن يرى الحياة الواقعية ويصورها في صورة أخرى غير الصورة المأساوية ، وفي تحسين البشر ومنحهم العزاء عن طريق مثال أخلاقيّ ، وبالفعل فإن تولستوي الفنان ، ماعاد يجد في مرحلته الثانية اكتفاء في تصوير الحياة ببساطة ، بل يلتمس لفنه ، بصورة واعية ، معنى ومهمة أخلاقية بوضعه في خدمة التهذيب الأخلاقي والسمو بالروح ، وما عادت رواياته وأقاصيصه الآن تترع إلى مجرد تصوير العالم ، بل إلى بنائه من جديد ، وإحداث أثر « تربوي » ، ففي تلك المرحلة يبدأ تولستوي نوعاً خاصاً من الأعمال الفنية يراد بها أن تكون « مُعديّة » ، أي تحذير القاريء من الظلم عن طريق الأمثلة ، والأخذ بيده في مجال الخير عن طريق القدوات الحسنة ، ويرتفع تولستوي المتأخر من مجرد شاعر للحياة إلى قاضٍ للحياة .

وهذا الميل المذهبي المرتبط بالغرض يتجلى منذ « آنا كارنينا » . فحتى هنا يفصل الأخلاقيون عن اللاأخلاقين في المصير . فأما فرونسكي وآنا الشهبان ، الكافران ، الأنانيّان في أهوائهما « فيعاقبان » ، ويلقى بهما في مطهر الاضطراب الروحي ، وأما كيتي وليفين فيرتقيان في درجات التطهير . ويحاول هنا المصورّ التزييه حتى الآن أن يتحزب أول مرة ، حيال الشخصيات التي يبتدعها لها أو عليها . وهذا الميل إلى إبراز المواد الأساسية في العقيدة بأسلوب تعليمي ، وكأنه يقرض الشعر بإشارات التعجب وعلامات التنصيص ، هذه الرغبة الجانبية المذهبية ، تبرز بصورة يزداد فيها نفاد الصبر باطراد . ففي رواية (سوناتة كرويتس) Kneutzensonala ، في « البعث » ماعاد يغشّي اللاهوت الأخلاقيّ العاري إلّا إهاباً شاعري رقيق . والأساطير تخدم الواعظ (بصورة رائعة !) وبصورة تدريجية لايعود

الفن عند تولستوي هدفاً أخيراً ، هدفاً في ذاته ، بل يتمكن من أن « يحب الكذبة الجميلة ، بمقدار ما تخدم الحقيقة » ، على أن الأمر ما عاد يتصل بتحقيق الحقيقي مثلما كان من قبل ، أي الواقع الحسي - النفسي ، بل بتحقيق حقيقة فكرية دينية أسمى أوحى إليه بها أزمته . ومنذ الآن لا يطلق تولستوي اسم الكتب « الجيدة » على الكتب ذات الصياغة الكاملة ، بل يطلقه حصراً على تلك الكتب التي تنمّي « الخير » (وإن تعارض ذلك مع قيمتها الفنية) والتي تعين في صياغة الانسان في صورة أكثر صبراً وحلماً ، ومسيحية ، وإنسانية ، ورقة ، بحيث يبدو له برتولد آورباخ الطيب المبتدل أهمّ من شكسبير « المؤذي » وعلى نحو يزداد مع الأيام ينزلق المعيار من يديّ الفنان تولستوي إلى يديّ العقائدي الأخلاقي ، ويراجع مصور البشرية ، الذي لا مثيل له ، واعياً خاشعاً ، أمام مصالح الإنسانية ، الأخلاقي .

غير أن الفن الذي يضيق ذرعاً ويغار ، شأن كل شيء ربّاني ، ينتقم لنفسه ممن يتنكّر له . فحيث يفترض فيه أن يخدم ، غير متحرر من سلطة تابع لها يقال إنها أعلى منه ، يفلت حتى من بين يدي الأستاذ جامحاً ، وبصورة خاصة في تلك المواضع التي يمارس فيها تولستوي الصياغة بأسلوب مذهبي ، ويبعث الدبول والشحوب على الفور في النزعة الحسية لدى شخصياته ، ويغيم ضوء وماديّ بارد من العقل ، كالضباب ، ويتعثر المرء ويتخبط في ألوان الاستطراد المنطقية ويتلمس طريقه بشقّ النفس نحو المخرج . ولئن سمّي فيما بعد « ذكريات الطفولة » و « الحرب والسلام » وهي روائع قصصه ، مزدرياً بها بدافع العصبية الأخلاقية ، « كتباً رديئة تافهة لا شأن لها » لأنها لا تشبع إلاّ مطلباً جمالياً ، أي « متعة من نوع منحط » - واسمع هذا ، يا أبوللو ! -

فإنها تظل في الحقيقة روائع أعماله ، وتظل الأعمال الأخلاقية الواعية
لهدفها هي الواهية . ذلك لأن تولستوي كلما استسلم « لتعسفه الأخلاقي »
وكلما ازداد بعداً عن العنصر الأصيل في عبقريته ، عن أصالة الإحساس ،
ازداد بعداً عن التجانس المطرد من حيث كونه فناً : فهو مثل ،
آنتيؤوس(*) ، يستمد كل طاقته من الأرض . وحيثما ينظر تولستوي
في الحسي بعينه الرائعتين الحادثتين كالما ، يظل عبقرياً حتى سن
الشيخوخة الأخير ، وحيثما يتلمس طريقه في الضبابي ، في الميتافيزيقي ،
تنخفض درجته بطريقة مخيفة . ويكاد يزلزل النفس أن نرى بأي اعتساف
يريد فنان أن يسبح ويطير في المجال الفكري على الإطلاق ، وهو الذي
كان مكتوباً له بحكم القدر ألا يسير إلا بخطوات ثقيلة على أرضنا
الصلبة ، وأن يكدر فيها ويفلح ، وأن يتعرف عليها ويصفها كما لم
يصفها غيره في عصرنا الحاضر .

وإن هذا لصراع مأساوي ، يتردد أبداً في كل الأعمال والعصور :
فما يفترض فيه الارتفاع بالعمل الفني ، أي العقلية المقتنعة الراغبة في
الإقناع ، تهبط بالفنان في أغلب الأحيان . فالفن الحقيقي فن أناني ،
وهو لا يريد شيئاً سوى ذاته وكماله . ولا يجوز للفنان المخلص أن يفكر
إلا في عمله ، لا في البشرية التي يوجهه إليها . وهكذا فإن تولستوي
يكون فناً كأعظم ما يكون الفنانون حينما يصوغ عالم الحواس بعين
نزهة لا تتأثر . وما إن يغدو المشارك في العواطف ويريد أن يساعد ،
ويصلح ، ويقود ، ويعلم ، من خلال عمله حتى يخسر فنه من قوة
تأثيره ، ويتحول هو نفسه ، من خلال قدره ، إلى شخصية أكثر
اهتزازاً من كل شخصياته .

Antoeus (*)

تصوير الذات

إن معرفة حياتنا تعني معرفة أنفسنا

إلى رومانوف ، ١٩٠٣

لقد كان نزيهاً توجه هذه النظرة الصارمة إلى العالم ، وكانت هذه النظرة نزيهة صارمة أيضاً ضد ذاتها ، فلم تكن طبيعة تولستوي تطيق غموضاً ، ولا شيئاً ضبابياً أو شيئاً تغشاه الظلال ، لا في داخل العالم الأرضي ، ولا في خارجه . وكذلك فإن ذلك الذي تعود بحكم كونه فنانياً أن يرى أدق رسم تخطيطي في خط شجرة أو في حركة مختلجة لكلب نحيف ، وذلك بدقة قسرية ، لا يستطيع أيضاً أن يرضى لنفسه أن يكون خليطاً باهتاً غامضاً . ومن أجل ذلك يتجه الدافع الأولي للبحث عنده ، بصورة لا تقاوم ، ودونما توقف ، ومنذ أبكر الأوقات ، نحو نفسه . ويكتب ابن التاسعة عشر في مذكراته قائلاً : أريد أن أتعرف على نفسي بصورة كاملة . وذلك أن إنساناً متعصباً للحقيقة مثل تولستوي لا يمكن أن يكون إلا كاتب سيرة ذاتية متحمساً .

غير أن تصوير الذات لا تخف حدته أبداً ، من حيث تعارضه مع تصوير العالم ، بصورة كاملة ، بانجاز فريد في العمل الفني . فالأنا الخاصة لا يمكن فصلها أبداً بصورة كاملة عن طريق الوصف التجسدي ، لأن ملاحظة المرة الواحدة لا تحسم أمر الأنا المتبدلة على نحو دائم ، ولذلك يكرر كبار المصورين لدواتهم صورتهم الخاصة طوال حياتهم .

وكلهم يبدأ أعماله الأولى أمام المرأة ، ولا يدعوها إلا حين تكل أبتديهم ، مثل دورر ، ورامبراندت ، وتيتسيان ، لأن الدائم الثابت يفتنهم ، شأن المتبدل التجاري ، سواء بسواء ، في شخصيتهم الجسدية الخاصة . وعلى هذا النحو بالضبط لا يفرغ تولستوي ، رسام الواقع الكبير ، من تصويره لذاته أبداً ، فما يكاد يجلو نفسه ، كما يعني ، في شخصية محددة ، ولتكن في صورة نيشليودوف أو ساريين أو بير أوليفين ، حتى لا يعود يعرف بعد في العمل الناجز محيّا الخاص . ولكي يمسك بالصورة المتجددة لا بد له أن يبدأ مرة أخرى . ولكن تولستوي الفنان كلما مدّ يده ، بغير كلال ، لاقتناص ظل نفسه هربت نفسه إلى مدى أبعد ، في مهرب روحي ، فهي مهمة جديدة دائماً وغير ناجزة ، يشعر عملاق الإرادة دائماً بما يغريه بتذليلها . وبذلك لا ينشأ عمل ضمن مجال هذه السنوات الستين من دون أن يتضمن الملامح الخاصة بتولستوي بأية صورة كانت ، وليس ذلك في عمل واحد يشمل وحده مدى هذا الرجل ، فلا يعطي تصويره الذاتي إلا جملة رواياته وأقاصيصه ومذكراته ورسائله ، غير أنه يغدو عندئذ صورة النفس الأكثر تعدداً في جوانبها والأكثر يقظة والأكثر استمراراً مما خلقه إنسان في قرننا .

ذلك لأن هذا اللامخترع ، هذا الذي ليس مؤهلاً دائماً إلا لأداء ما يعاني وما يحس ، لا يستطيع أبداً أن يخرج نفسه من مجال النظر . فلا بد له أن يسهر أغوار نفسه حتى الإنهاك ، دونما توقف ، مرغماً ، على رغم إرادته في الغالب ، وخارج إرادته اليقظ دائماً ، وأن يصغي إليها ، ويفسرها ، وأن يؤدي (نوبة الحرس) « تجاه حياته الخاصة » . وعلى هذا النحو لا تفتقر جمابسته لكتابة السيرة الذاتية لحظة واحدة ،

شأن مطرقة القلب في صدره، والأفكار وراء جبينه : فالكتابة عنده تعني توجيه الذات بالذات والحديث عنها . ومن أجل ذلك لا يوجد شكل من أشكال تصوير الذات لم يمارسه تولستوي ، من المراجعة الآتية للوقائع في الذاكرة ، والرقابة التربوية الأخلاقية إلى الشكوى المتصلة بالأخلاق ، والاعتراف النفسي ، وإذا فهو تصوير للذات في صورة إلحاح للذات وتشجيع لها ، وهي سيرة ذاتية في صورة عمل جمالي " وديني - كلاً " ، فالمرء لا ينتهي من وصف كل الأشكال والموضوعات الواردة في تصويره الذاتي كلاً على حدة . ونحن نعرف ابن السبعين من مذكراته معرفة لا تقل عن معرفتنا بابن الثمانين ، ونعرف أهواء شبابه ، ومأساة زواجه ، وأفكاره الأكثر خصوصية بمثل دقة أهل الدواوين والمحفوظات التي نعرف بها أكثر تصرفاته ابتداءً ، ذلك لأن تولستوي كان يبتغي هنا أيضاً أن يعيش حياته بالأبواب والنوافذ المفتوحة في تناقض تام مع دوستويفسكي الذي كان يعيش « بشفتين مطبقتين » . ونحن نعرف كل إشارة وخطوة عنه ، وكل طرفة من أكثر الطرف سطحية وأدناها أهمية خلال سنواته الثمانين ، بمثل الدقة التي نعرف بها صورته الجسدية من المستنسخات التي لا تحصى ، عند إصلاح الأحذية ، وأثناء الحديث مع الفلاحين ، وعلى الحصان ، وعند المحرثات ، ووراء المكتب ، وفي كرة المضرب ، ومع الزوجة ، والأصدقاء ، والحفيدة ، وأثناء النوم ، وحتى في الموت . وهذا الوصف الجسدي الفكري الذي لا مثيل له البتة ، وهذا التوثيق الذاتي ، يدوان فوق ذلك كأنهما مزودان بتواقيع مجاورة تمثل ذكريات وملاحظات جول مجمل بيته ، عن الزوجة والبنت ، وعن أمناء السر والمراسلين والزوار القادمين بطريق المصادفة: وأنا أعتقد أن في وسع المرء أن

ينشئ غابات ياستايا بوليانا مرة أخرى من الورق المتخشب في ذكريات تولستوي . ولم يحدث قط أن عاش أديب حياة مفتوحة بهذا القدر عن وعي ، وقلما انفتح امرؤ للناس محباً للبوح أكثر منه . وليس لدينا ، منذ عهد جوته ، شخصية موثقة توثيقاً لا يدع شيئاً ، إلى هذا الحد ، مثل شخصيته .

وهذا الالتزام بمراقبة النفس عند تولستوي يمتد بمداه إلى الوراء امتداد الوعي ذاته . فهو يبدأ حتى في جسد الطفل الوردي الذي يدب على الأرض قبل اللغة بزمن طويل ، ولا ينتهي إلا في السنة الثالثة والثمانين ، على سرير الموت ، حيث لا تعود اللغة تتمكن من الكلمة المقصودة . غير أنه لا يوجد ضمن هذا المجال الهائل ، من صمت البداية إلى صمت النهاية ، لحظة من دون حديث أو كتابة . فمذ التاسعة عشرة ، وكان طالباً لم يكذب يشب عن طوق المدرسة ، يشتري كراسه مذكرات . وهو يكتب فوراً على الصفحات الأولى قائلاً : « لم أمسك قط كراسه مذكرات لأنني لم أكن أقدر مدى فائدة مثل هذه الكراسه ، غير أنني سأكون ، وأنا مشغول بتنمية قدراتي ، بعد هذه المذكرات قادراً على متابعة مسيرة تطوري ، وينبغي للمذكرات أن تتضمن قواعد للحياة ، وفي المذكرات يجب أن ترسم تصرفاتي في المستقبل » . وبأسلوب تجاري تماماً يفتح لنفسه باديء ذي بدء حساباً عن واجباته ، وصفحة دائن ومدين للمقاصد والانجازات . أما رأس المال الداخل في الحساب ، أي شخصه ، فإن ابن التاسعة عشرة على بينة من أمره تماماً في هذا الصدد . فهو يقرر فوراً ، لدى الجرد الذاتي الأول ، أنه « إنسان خاص » ، وأن له « رسالة خاصة » ، غير أن ذلك الذي ما زال بين القوة والرجولة يقرر في الوقت نفسه دونما رحمة أي مقياس هائل للإزادة يجب أن

يستحدثه ليفرض على طبيعته الميالة إلى الحمول وإلى التقلب والشهوانية حياة أخلاقية حقة . وهكذا ينشئ لنفسه جهاز رقابة لكل عمل من أعمال النهار لكيلا يفقد قيراطاً من طاقته : وإذا فالمذكرات تفيد من حيث كونها حافظاً ، للنظر في نفسه من الناحية التربوية ، ومن أجل « أداء نوبة الحراسة تجاه الحياة الخاصة » — إذ لابد للمرء أن يردد كلمة توأستوي — وبصراحة لا مراعاة فيها ولا رحمة يوجز الفتى ، مثلاً ، نتيجة يوم : « من الساعة ١٢ إلى الساعة ٢ . حديث صريح أكثر مما ينبغي مع بيجيتشيف ، كنت مغروراً ، مخادعاً لنفسي . من الساعة ٢ إلى الساعة ٤ : رياضة بدنية : قليل من المثابرة والصبر . من الساعة ٤ إلى الساعة ٦ : تغذيت وقمت بجولات شراء غير ضرورية . لم أكتب في البيت : كسل . لم أستطع أن أقرر أينبغي أن أسافر إلى فولكونسكي ، كان حديثي هناك قليلاً : جبن . أسأت السلوك : نجبن ، غرور ، طيش ، ضعف ، كسل » . فبهذا البكور ، وبهذه القسوة الجريئة تمسك يد الفتى بخناق . وهذه القبضة الفولاذية لا تترسخ طوال ستين عاماً . فمثلاً كان تولستوي في التاسعة عشرة بالضبط ، كان تولستوي في الثانية والثمانين. ما زال يستحضر لنفسه السوط ، وبالذقة ذاتها ينهال على نفسه ، في مذكرات الشيخوخة ، بالشتائم « جبان ، فاسد ، خامل » ، حين لا يمثل الجسد المرهق امتثالاً كاملاً لنظام الإرادة الاسبارطي .

ولكن في ذلك الوقت ذاته تقريباً يتطلب الفنان أيضاً في تولستوي صورة خاصة به ، مثلما يتطلب الأخلاق المبكر النضج ، وفي سن الثالثة والعشرين يبدأ سيرة ذاتية في ثلاثة مجلدات — وذلك أمر فريد في الأدب العالمي ! وتعد نظرة تولستوي الأولى نظرة في مرآة عاكسة . والفتى لم يخبر الدنيا بعد في شيء . ومنذ الثالثة والعشرين يختار لنفسه المعاناة

الوحيدة ، طفولته الخاصة ، موضوعاً . وبمثل تلك السذاجة التي يمسك بها (دورر) ، ابن الثانية عشرة ، بقلم الرصاص يرسم وجهه الطفولي الضيق كوجه البنت ، والذي لم تحدّه المعاناة بعد ، على ورقة تهيأت له بطريق المصادفة ، على ذلك النحو بالضبط يحاول تولستوي ذو اللحية الرقيقة كالزغب ، وكان ملازماً في ذلك الوقت ، تعرض لضربة وهو مدفعي في حصن قوقازي ، يحاول بدافع الفضول ، أن يروي لنفسه « طفولته » و « سنوات فتوته » و « سنوات شبابه » أمّا لمن يكتب فذلك أمر لا يفكر فيه في تلك الأيام ، وكان أقل ما يخطر في باله الأدب والصحف والجمهور . وإنما كان يليّ على نحو غريزي دافعاً لتطهير الذات عن طريق التصوير ، وهذا الدافع الغامض لم تكن توضحه نية مرتبطة بغرض ، ولم يكن ينيره ، بالأحرى ، كما سوف يطالب فيما بعد ، « ضوء المطلب الأخلاقي » ، ويرسم الضابط الصغير في القوقاز لنفسه ، بدافع الفضول والملل ، وكأنه يرسم بالتلوين المائي ، صور موطنه وطفولته على الورق . وهو لا يعرف بعد شيئاً عمّا انبثق فيما بعد عن تولستوي باسم حركة جيش الشفاء ، و « الاعتراف » وإرادة « الخير » ، ولا يحشّ نفسه مشقة لصق إعلانات تحذيرية على نحو صارخ تتناول « فظائع شبابه » - كلاً ، فليس لأحد فائدة من ذلك ، وإنما ينبعث ذلك على سبيل الجحصر ، عن دافع اللهو البسيط لامرئ بين الفتوة والرجولة لم يعان على أي حال شيئاً سوى هذا ، أي كيف « انبثق من طفل صغير » كما يصف ابن الثالثة والعشرين تلك الحقبة من حياته ، والانطباعات الأولى . والأب والأم ، وذوي القرى ، والمربين ، والبشر ، والحيوانات والطبيعة . وهذا التأليف اللامبالي ما زال بعيداً بعد النجوم عن التحليل البعيد الغور للكاتب الواعي . ليو

تولستوي الذي سوف يشعر أنه يلتزم ، في سبيل مكانته ، بأن يقف أمام العالم موقف الثائب وأمام الفنانين موقف الفنان ، وأمام الله موقف المذنب ، وأمام نفسه مثلاً لتواضعه الخاص ، فذلك الذي 'يقص' ههنا ليس بشيء آخر سوى طالب كلية حربية حديث التخرج يحن في غمرة الغربة إلى بيئة الديار الحميمية ، إلى طيبة الشخصيات التي توارت منذ عهد بعيد . وعندما يحدث غير المتوقع ، وتُكسبه تلك السيرة الذاتية غير المقصودة ، اسماً ، يهمل تولستوي التمتة فوراً ، وهي « سنوات الرجولة » فالكتاب اللامع لا يستعيد إيقاع الكاتب الحامل الذكر أبداً ، ولم يُوفّق الأستاذ الناضج قط أيضاً إلى صورة ذاتية نقية إلى هذا الحد أكثر من هذه . ويستغرق الأمر نصف قرن إلى أن تشغل فكرة التصوير الذاتي المنهجي الكامل ، التي تناوها الفتى لاهياً ، الفنان مرة أخرى . وكل الأرقام عند تولستوي تغدو واسعة كالأرض الروسية — ولكن مثلما تبدلت المهمة بعدئذ نتيجة لتحوّله إلى الديني ، شأن كل أفكاره ، يوجّه تولستوي صورة حياته أيضاً نحو البشرية قاطبة ، ونحوها فحسب ، لتتطهر «بضعف نفسه » وهو يعلن النظرة الجديدة في صورة برنامج . وينخذ ابن الثمانين كل ضروب التمهيد ، بصورة مستفيضة ، لهذا التدبير الحاسم قائلاً : « إن وصف المرء الصادق قدر الإمكان لحياته الخاصة له قيمة كبيرة بغض النظر عن الإنسان الذي يؤديه ، ولا بد أن يكون فيه نفع عظيم للبشر . غير أنه ما يكاد يبدأ العمل حتى ينصرف عنه ، على الرغم من أنه ما زال ، دائماً ، يعد مثل « هذه السيرة الذاتية الأمانة على الحقيقة بصورة كاملة أكبر نفعاً . . . من كل هذا اللغو الفني الذي يملأ اثني عشر مجلداً من أعماله » والذي ينسب إليه الناس اليوم أهمية لا تستحقها البتة » ذلك لأن مقياسه للأصالة نما عنده بمعرفة حياته الخاصة بمرور

السنين . فقد عرف الصورة الكاملة ذات المعاني الكثيرة ، والبعيدة الغور ، والقدرة على التبدل ، لكل حقيقة ، وحيثما كان ابن الثالثة والعشرين ينطلق مسرعاً كمن يجري على سطوح ناعمة كالمرآة ، فان الباحث المطلع ، عن الحقيقة ، بعدئذ ، يحفل مروّعاً وقد غدا يشعر بالمسؤولية . فهو يخاف ضروب العجز والدناءة التي تتسلل إلى كل تاريخ خاص بصورة لا سبيل إلى تجنبها . وهو يخاف من أنها « حتى ذالم تكن كذبة مباشرة فان مثل هذه السيرة الذاتية خائفة أن تتحوّل إلى كذبة مع ذلك عن طريق الأضواء المسلّطة تسليطاً غير صحيح ، بالضوء القوي الموجه توجيهاً مقصوداً على ما هو جيد ، وبالتعتيم على ما هو سيء في داخلها » ويعترف بصراحة قائلاً : « ثم إنني حين قررت مرة أخرى أن أسجّل الحقيقة العارية والّا أخفي شيئاً من حياتي تولّاتي الخوف من الأثر الذي لابد أن يكون لمثل هذه السيرة الذاتية » غير أننا لا ينبغي لنا أن نبالغ في الشكوى من هذه الخسارة ، ذلك لأننا نعلم على وجه الدقة من كتابات ذلك الزمان ، أي « الاعتراف » أنه فيما يتصل بالحاجة إلى الحقيقة عند تولستوي لابد أن كل إرادة تتعلق بالتصوير قد تحولت دائماً منذ أزمته الدينية إلى شهوة متعصبة لخلد النفس كشهوة أولئك الذين يضربون أنفسهم بالسياط ، وجنحت بكل اعتراف إلى بحريج ذاتي متشنّج . فلم يكن تولستوي السنوات الأخيرة هذا يريد أن يصوّر نفسه ، منذ عهد بعيد ، بل كان يريد مجرد إذلال نفسه أمام الناس ، « أن يقول أشياء كان ينجّل من الاعتراف بها لنفسه » . وعلى هذا النحو فان هذا التصوير الذاتي النهائي ، بما فيه من تشهير شديد للبضروب « الدناءة والخطايا المزعومة » خليف أن يكون كما يبدو تشويهاً لحقيقة . ويضاف إلى ذلك أننا نستطيع أن نستغني عنه استغناء كاملاً ،

ذلك لاننا نملك على كل حال سيرة ذاتية اخرى هي في الحقيقة شاملة للحياة محيطة بالزمان ، لتولستوي ، وربما كلفت اكمل السير التي كتبها أديب عن نفسه عدا سيرة جوته ، وذلك في جملة أعماله ورسائله ومذكراته . فالملازم النبيل الصغير أو لينين في « القوزاق » الذي يهرب من كآبة موسكو وبطالتها إلى المهنة والطبيعة ليجد نفسه هناك ، يعد حتى في كل خيط من خيوط ثيابه ، وفي كل قسمة من قسّمات وجهه ، صورة أمينة لتولستوي : نقيب المدفعية الشاب . وأما بير بيزوخوف الغارق في التفكير ، الثقيل الدم ، في « الحرب والسلام » ، وأخوه فيما بعد ، الباحث عن الله ، والكادح كدحاً لا هباً من أجل معنى الوجود ، وهو النبيل الريفي ليفين في « آنا كارنينا » فهما حتى في الجانب الجسدي ، تولستوي الذي لا تخطئه العين عشية أزمته . ولن تخطيء عين أحد في التعرف ، من تحت طيلسان « الأب سرجيوس » على صراع المشهور من أجل القداسة ، وفي « العفريت » على مقاومة تولستوي الطاعن في السن لمغامرة شهوانية ، وفي الأمير نيشليودوف ، هذه الشخصية الأكثر ائماً للنظر بين شخصياته (فهي تنتقل بخطواتها في كل عمله) والشخصية الممثلة اربعة مدفونة في الأعماق من كيانه ، على تولستوي المثالي ، الذي يحمّله كل مقاصده وأفعاله الأخلاقية . بل إن ذلك المدعو « ساريزين » في « ضوء يسطع في الظلام » يستتر باهاب رقيق جداً ، ويثني بتولستوي في كل مشهد من مشاهد مأساته المنزلية بصورة يبلغ من كمالتها ان الممثل ما زال حتى اليوم يتخذ قناعه دائماً . على أن طبيعة واسعة بهذا القدر مثل طبيعة تولستوي كانت مضطرة إلى أن توزّع نفسها على عدد كبير من الشخصيات ، ومثلما كانت قصيدة جوته تماماً كان نثر تولستوي لا يعني شيئاً آخر سوى مذهب

عظيم وحيد متتابع عبر حياة بأكملها ، بتكامل صورة إلى صورة ،
 بحيث لا يكاد يوجد ضمن عالم النفوس ، هذا المتعدد الجوانب ، موضع
 واحد فارغ لم يُسبَر غوره ، أرض مجهولة ، وكل المسائل تجري
 مناقشتها ، من اجتماعية وعائلية ، وملحمة وأدبية ، ودينية وميتافيزيقية .
 ومنذ عهد جوته لم نعرف قط الوظيفة الفكرية الأخلاقية لأديب دنيويّ
 . معرفة كاملة شاملة ، شافية وافية ، بهذا القدر . ولأن تولستوي يمثل
 ضمن هذه الانسانية التي تبدو متعالية عن الانسانية ، مثل جوته بالضبط ،
 الانسان العاديّ المعافى ، النسخة الكاملة عن النوع ، (الأنا) الخالدة
 و (النَحْنُ) العالمية ، فاتنا نحن " بسيرته الذاتية - أضعاف ما نحن "
 لدى جوته - صورة مكتملة للحياة التي تكمل نفسها .

* * *

للأنمة والتبذل

ان أهم حدث في حياة إنسان هو
اللمحة التي يمي فيها أنه . وتنتائج هذا الحدث
يمكن أن تكون أكثر النتائج إساءة الخير
أو أشدها إثارة للفرح .

تشرين الثاني ١٨٩٨

إن كل تعرض للخطر يتحول إلى نعمة ، وكل عائق إلى عون وحافز
للشفاء في المجال الإبداعي لأنه يستفز طاقات مجهولة من طاقات النفس
استفزازاً عنيفاً . وما من شيء يغدو أشد خطراً على الحياة الأدبية من
الرضى والسبيل السهلة . ولم تكن مسيرة تولستوي الدنيوية تعرف مثل
هذا الاسترخاء الذي يحمل على نسيان النفس ، وهو السعادة للإنسان ،
وهو الخطر على الفنان ، إلا مرة وحيدة . ولم تهب نفسه النهمه
لذاتها ، في غمرة حجبته إلى نفسه ، راحة وقراراً إلا مرة واحدة .
ويعيش تولستوي ستة عشر عاماً ضمن حياة تبلغ ثلاثاً وثمانين سنة ،
وذلك مجرد الزمان الممتد من زواجه حتى اختتام كلتا الروايتين « الحرب
والسلام » و « أنا كارنينا » ، في سلام مع نفسه ومع عمله . ويصمت
كتاب اليوميات ، هذا المحضر الصغير لضميره ، ثلاثة عشر عاماً
(١٨٦٥ حتى ١٨٧٨) . ولا يعود تولستوي ، السعيد ، الغارق في
عمله ، يراقب نفسه ، بل يراقب العالم فحسب ، فهو لا يسأل ، لأنه

ينتج ، سبعة أطفال ، والعمالان الملمحيّان الأكثر قوة : ففي تلك الأيام ، وفيها وحدها ، يعيش تولستوي شأن كل الآخرين الذين لا يحملون همّاً ، في الأناثية الشريفة للعائلة من الناحية المدنية ، سعيداً راضياً ، لأنه متحرر من « السؤال المرعب ، من الـ (لماذا) » . « ما عدت أشغل فكري بوضعي (فقد ولّيت كل اشتغال بالتفكير) وما عدت أنقبّ في أحاسيسي — أما علاقتي بالعائلة فأحسّ بها فحسب ولا أنظر فيها . وهذه الحالة تكفل لي مقداراً فائقاً من حرية الفكر » . والاشتغال بالنفس لا يعوق الصياغة الفنية المتدفقة في الداخل ، والحراسة الصارمة أمام الأنا الأخلاقية تراجع وقد أخذها النعاس ، وتتيح للفنان حرية الحركة ، واللهو الحسيّ الكامل . ويغدو ليو تولستوي مشهوراً في تلك السنين . ويضاعف ثروته أربعة أضعاف ، ويربّي أطفاله ، ويوسّع داره ، غير أن إرضاء النفس بالسعادة ، وإشباعها بالمجد ، وتسمينها بالثروة ، كل ذلك لم يفتح لهذا العبقرى الأخلاقي على المدى البعيد . فهو سيعود دائماً من كل صياغة فنية إلى عمارته الحقيقي الأصيل المتصل بالصياغة الكاملة للنفس ، ولمّا لم يكن يرى أن هناك ربّاً يتفقد في المحنة ، فسوف يتصدّى لها بنفسه . ولمّا لم يهب له الخارج مصيراً فسوف يبتدع لنفسه مأساته من الداخل . ذلك لأن الحياة تريد دائماً أن تظل عائمة في الهواء — وما أخرى حياة شاحخة كهذه . بذلك ! فإذا ما نضب معين القدر من ناحية الدنيا نقّب الفكر لنفسه عن ينبوع متفجّر ، لكيلا تتوقف دورة الحياة . أما ما شهده تولستوي قريباً من عامه الخمسين ، وكان مفاجأة لا تفسير لها عند معاصريه ، أي إرتداده المفاجيء عن الفن ، وتوجهه نحو الدين ، فهذه الظاهرة لا يُنظر إليها على الإطلاق على أنها شيء غير عاديّ — وعبثاً يبحث المرء عن شذوذ .

في تطور هذا الانسان الذي هو أكثر البشر تمتعاً بالعافية — على أن ما يتجلى به شذوذه في هذا الصدد إنما هو مجرد عنف الإحناس، كما هو الأمر دائماً عند تولستوي . فالتحول الذي يقوم به تولستوي في العام الخمسين من حياته لا يجسد شيئاً آخر سوى حدث يظل غير مرئي عند أكثر الرجال بسبب المرونة الأقل : ألا وهو التلازم الذي لا بد منه للمضوية الجسدية — الفكرية مع الشيخوخة المقتربة ، السن الحرجة (*) عند الفنان .

« لقد توقفت الحياة وأصبحت موحشة » . على هذا النحو يصوغ بنفسه بداية أزمتة النفسية . فقد بلغ ابن الخمسين نقطة حرجية قاتلة ، حيث يبدأ الوهن يتطرق إلى طاقة التشكيل المثمرة في المصل ، وتهدد الروح بالانتقال إلى الجحود . وما عادت الحواس تندفع اندفاعاً تصويرياً كعهدها ، أما طاقة التأوين في الانطباعات فتغدو باهتة ، كذلك التي توجد في شعره ، وتبدأ تلك الحقبة الثانية ، المألوفة لدينا بالشكل ذاته عند جوته إذ يتسامى عبث الحواس إلى معصرة للمعاني ، ويتحول الموضوع إلى ظاهرة ، والصورة إلى رمز . ومثلما يحدث عند كل تبدل عميق في الفكر ، يمهّد هنا أيضاً أول الأمر توقعك طفيف للجسد لمثل هذه الولادة الجديدة . وثمة خوف من البرد ينتاب الفكر ، وخوف من الافتقار رهيب يثير الرعدة فجأة في النفس المضطربة ، ويسجل جهاز الهزات ذو الأعصاب المراهقة في الجسد على الفور زلزالاً يقترب (وهي الأوهام الصوفية عند جوته لدى كل تبدل !) . ولكن حين لا تقدر النفس على تفسير هذا الهجوم القادم من الظلام ، يكون الدفاع

(*) Klimakterium سن اليأس عند النساء ، والتعبير مجازي كما هو ظاهر «الترجم»

التلقائي قد بدأ في العضوية ، انقلاب في المجال النفسي — الجسدي ، بلا معرفة من الإنسان ولا إرادة ، وقاية طبيعية لا يمكن اختراقها . ذلك لأنه مثلاً ينشأ عند الحيوانات قبل هجمة البرد بزمن طويل ، وفجأة ، شعر شتويّ دافئ على الجسم ، على هذا النحو بالضبط ينشأ للنفس الانسانية في نقطة الانتقال الأولى إلى الشيخوخة ، بمجرد تخطي الذروة ، كساء واقٍ جديد* ناكز ، خلاف دفاعي صفيق . وهذا التغيير العميق من الحسي إلى الفكري ، الذي ربما كان منطاقة من خلايا العدد ، والذي يبلغ حتى الاهزازات الأخيرة الانتاج الابداعي ، هذه الحقبة الخاصة بالنس الحرجة(*) تتشكل في صورة هزة نفسية مرتبطة بالدم ومتأزمة ، كالبلوغ ذاته ، وإن لم يسمع لها صوت في الآثار الأساسية الجسدية فضلاً عن ملاحظته في الآثار الفكرية — هلم ، يا عالمي النفس وعلمائها ! وعند النساء ، في أفضل الأحوال ، حيث تحدث ظاهرة تراجع البنية الجنسية على نحو أشد خشونة وظهوراً سريراً بأشكال تكاد تكون ملموسة ، يمكن جمع ملاحظات منفردة ، وعلى النقيض من ذلك يظل تحول الذكور الأكثر اتساعاً بالاسمة الفكرية ، مع نتائج النفسية في انتظار إلقاء الضوء عليها من جانب علم النفس . ذلك لأن السن الحرجة(*) عند الرجال تكاد تكون باجماع الرأي ، الوقت المفضل للتحويلات الكبرى ، والثوب الواقي لضروب التسامي ، الدينية والأدبية والعقلية ، الذي يلفهم جميعاً حول الوجود الذي ينزف إذ يزداد ضعفاً ، وهو التعويض الفكري عن الحسية المتناقصة ، والإحساس المتعاطف بالدنيا مقابل الإحساس المتضائل بالذات والطاقة الحيوية المتراجعة . فهو إذًا متكامل تماماً مع البلوغ ، وعلى نحو مماثل له في خطره على الحياة عند

(*) انظر الحاشية السابقة

أولئك المعرضين للخطر ، ومماثل له في عنفوانه عند أولي العنفسوان ،
ومماثل له في إنتاجه عند أولي الإنتاج ، إذ تمهد السن الحرجة عند الرجال
بهذه الطريقة لحقبة نفسية إبداعية من لون آخر ، لغريزية صيفية فكرية
بين الارتقاء والانحدار . فنحن نلقى عند كل فنان ذي شأن لحظة الأزمة
التي لا مندوحة عنها ، ولكننا لا نلقاها بلايب عند طبيعة كالصلصال
الناري لها مثل هذه القدرة على التنقيب ومثل هذه السمة البركانية التي
تكاد تكون مدمرة ، مثلما هو الأمر عند تولستوي . ولو لاحظنا هذا
من مجال واقعي ، ومن منطلق الموضوعية المريحة ، لما بدا تولستوي
في عامه الخمسين في الحقيقة شيئاً آخر سوى رجل متجارب مع سنيّ
الشيخوخة : أي أنه يشعر بأنه يشيخ ، وهذا كل شيء ، كل معاناته ،
قثمة بضعة أسنان تتساقط ، والذاكرة تظلم ، وفي بعض الأحيان تخيم
ظلال من الوهن في الأفكار : ظاهرة يومية عند ابن الثمانين . غير أن
تولستوي ، هذا الإنسان الكامل ، هذه الطبيعة التي لم تُشرّع إلاّ أنهاراً
وفيوضاً ، يحسّ منذ النسمة الأولى لخريف العمر على الفور أنه ذبّل
واستحْصَدَ لمنجل الموت . وهو يحسب أنه « لا يقدر على الحياة إذا
لم يكن ثَمِلاً بالحياة » . فهو إذاً اكتئاب ناشيء عن إجهاد عصبي ،
ويستولي ذهول حائر على الرجل المتمتع بالعافية المفرطة . وهو لا يستطيع
الكتابة ، ولا يستطيع أن يسكر — « أنا نائم فكرياً ، ولا أستطيع أن
أستيقظ ، ولا أحس بالارتياح ، لقد يثست » — ويجزّ رواية « أنا
كارلينا المملّة الرتيبة » إلى نهايتها كما تُجرّ الأغلال ، ويتلون شعره
فجأة باللون الرماديّ ، وتقطعّ التجاعيد الجبهة ، وتثور المعدة ، وتنهين
المفاصل ، ويستغرق في التفكير متلبداً ، ويقول : « إنه ما عاد هناك
شيء يسره ، وما عاد يرجي من الحياة شيء ، وإنه سوف يموت قريباً » ،

وهو ينأى بجانبه عن الحياة بكل طاقاته . ويسجل كتاب اليوميات الملاحظتين المدونتين الحاسمتين ، إحداهما بُعِيد الأخرى : « الخوف من الموت » ، وبعد ذلك بأيام قوله : « يجب أن يموت وحده » . غير أن الموت — وقد حاولت أن أفصل القول فيه لدى تصوير حيويته — يعني بالقياس إلى هذا العملاق من عمالقة الحياة الفكرة الأشدّ هولاً من كل الأفكار المخيفة ، ومن أجل ذلك ترتعد مفاصله على الفور بمجرد أن تبدو بعض العُرى في حزمة طاقته الهائلة وقد أخذت تسترخي .

ولاريب أن العبقرى القائم بالتشخيص الذاتي ليس على خطأ تماماً حين يشم بخياشيمه الكارثة ، ذلك لأن شيئاً من تولستوي الأصلي يموت نهائياً في هذه الأزمة . وكان تولستوي حتى ذلك الوقت لم يسأل العالم أبداً عن معناه الميتافيزيقي ، وإنما كان يلاحظه كما يلاحظ الفنان نموذجه ، وكان العالمُ يَمَثُلُ أمامه مطيعاً حينما كان يرسم صورته ، ويدعه يداعبه ويمسك به بيديه المبدعتين . وفجأة يستحيل عليه هذا السرور البسيط ، هذا النظر التصويري البحت . وما عادت الأشياء تُسلم نفسها إليه تماماً ، وهو يحس أنها تخفي عنه شيئاً ، شيئاً ما وراءها ، أيّ سؤال . ولأول مرة يحس هذا الإنسان، ذو الموقف الواضح، بالوجود سرّاً ، وهو يستشعر معنى لا يستطيع أن يدركه بالحواس الخارجية المجردة — ويفهم تولستوي ، أول مرة ، أنه من أجل أن يدرك هذا الخلفي يحتاج إلى آلة جديدة ، إلى عين أكثر خبرة ، وأكثر وعياً ، إلى عين مفكّرة . وربما توضّح الأمثلة هذا التبدّل الداخلي على نحو أكثر عقلانية . فقد رأى تولستوي في الحرب مئات المرات أناساً يموتون ، ووصف نزيههم دونما تساؤل عن الحق والباطل . ، رساماً ،

شاعراً ، مجرداً بؤبؤ عاكس ، وشبكية حساسة للأشكال ، وهو يرى الآن في فرنسا رأس مجرم يسقط عن المقصلة فيكون له دوي ، وعلى الفور يثور فيه أوار أخلاقي ضد البشرية كلها . ولقد مر آلاف المرات بفلاحي قريته ، راكباً ، وهو السيد ، البارون . الشريف ، ولم يكن يبالي أن يغشي جواده في سيره الخبب أثوابهم بالغبار ، وكان يتقبل منهم تحية العبودية الدليلة على أنها أمر بدهي ، والآن يلاحظ أول مرة أنهم حفاة ، ويلاحظ فقرهم وحياتهم المروعة ذات الحق السليب ، ويطرح على ضميره لأول مرة السؤال : أيتق له ، هو نفسه ، أن يظل غير مهال إزاء عوزهم وكدهم . وكانت عربته الفارحة تطوي الأرض طياً في موسكو وهي تمر بجماعات المتسولين الذين يرتعدون من البرد من دون أن يحول رأسه نحوهم ، أو يصرف إليهم أقل انتباه . وكان الفقر والبؤس والقمع ، والعسكرية ، والسجون ، وسييريا ، بالقياس إليه وقائع طبيعية كالثلج في الشتاء والماء في البرميل ، والآن ، وفجأة ، يتعرف المستيقظ ، لدى إحصاء للسكان ، على وضع الطبقة العاملة الرهيب ، على أنه شكوى موجهة ضد محبوبته . ومنذ أن كف عن الإحساس بالإنساني على أنه مجرد مادة ينبغي « أن يدرسها ، ويلاحظها » ينهار نظام الحياة الهادئة التصويرية مطبقاً على نفسه ، فلا يستطيع من بعد أن ينظر إلى الحياة نظرة المصور الباردة ، بل يضطر إلى التساؤل بلا هوادة عن المعنى واللامعنى ، وما عاد يشعر بأي شيء إنساني انطلاقاً من ذاته ، في تركز حول الأنا ، أو انطواء على النفس ، بل على نحو اجتماعي ، أخوي ، منفتح : فقد « أصابه » وعي الجماعة ، بكل شيء ، كالمرض . وكان ينتهز قائلاً : « ليس من الواجب على المرء أن يفكر — فالتفكير مؤلم إلى حد لا يطاق » ولكن منذ أن تفتحت عين الضمير

هذه تغدو معاناة البشرية ، الألم الأول في الدنيا ، منذ الآن . وعلى نحو لا يتغيّر ، شأنه الأكثر التصاقاً به . ومن الخوف الصوفي من العدم ، من هذا الخوف بالذات ، تنشأ رعدةٌ إبداعية جديدة أمام الكون ، ومن استسلام الفنان الكامل تنجم له رسالة ، هي بناء عالمه مرة أخرى ، ولكنها تقاس الآن بالمقاييس الأخلاقية . فحيثما يؤمن بالموت تهيمن أعجوبة البعث . لقد نشأ ذلك التولستوي الذي تبجّله البشرية لا فناً فحسب ، بل من حيث هو أكثر البشر إنسانية .

ولكن في تلك الأيام ، في ساعة الانهيار المديونة مباشرة ، في تلك اللحظة المقلقة قبل « الصبحوة » (كما يسمي تولستوي حالته المضطربة فيما بعد ، متعزياً) لم يكن ذلك المباحث في تبدله يستشعر بعد حالة الانتقال . فقبل أن تنبثق فيه هذه العين الجديدة للضمير يشعر أنه أعمى تماماً ، وليس حوله إلا العماء والليل الذي لا مخرج منه . « فلم نعيش إذا كانت الحياة رهيبة إلى هذا الحد ؟ » على هذا النحو يتساءل التساؤل الخالد للكاهن العلماني . وفيهم نكدح إذا كان المرء لا يجهد نفسه إلا من أجل الموت ؟ ويتلمّس الجدران كيائس في قبة السماء المدلهمة ليعثر على مخرج في أي مكان ، أو نجوة بنفسه ، أو جذوة من النور ، أو بارقة من أمل كبارقة النجوم . وعندما يرى ألا أحد من الخارج يعد له يد العون والهدى ، عندئذ فحسب يحفر لنفسه نفقاً ، وفقاً لمخطط ، ومنهج ، خطوة خطوة . وفي عام ١٨٧٩ يكتب « الأسئلة المجهولة » التالية على صفحة من الورق :

أ — لماذا نعيش ؟

ب — أية علة ينطوي عليها وجودي ووجود أي امرئ من الآخرين ؟

- ج - أي غرض ينطوي عليه وجودي وكل وجود آخر ؟
- ء - ماذا يعني ذلك الانقسام بين الخير والشر ، ذلك الانقسام الذي أشعر به وما علة وجوده ؟
- هـ - كيف ينبغي لي أن أعيش ؟
- و - ما الموت ؟ - كيف أستطيع أن أنقذ نفسي ؟

« كيف أستطيع أن أنجو بنفسي ؟ كيف ينبغي لي أن أعيش » هذه صرخة تولستوي الرهيبة ينتزعها مخلب الأزمة حارّة من قلبه . وهذه الصرخة يتردد صداها الآن عبر ثلاثين عاماً إلى أن تعجز الشفتان . فأما الرسالة الخيريّة التي كانت تأتيه من الحواس فما عاد يصدّقها ، وأما الفن فلا يمنع عزاءً ، وأما سكّر الشباب فقد انتهى إلى صحوة قاسية ، ومن كل صوب يُقبّل البرد كالنهر المتدفّق . كيف أستطيع أن أنجو بنفسي ؟ وتظل هذه الصرخة تزداد سُعاراً باطراد . ذلك لأنه لا يمكن أن يتفق أن يكون هذا الذي لا معنى له في الظاهر ، بلا معنى بالفعل . فالعقل وحده لا يكفي إلاّ لمعرفة الحيّ ، فأما الموت فلا . ومن أجل ذلك تعوزنا طاقة نفسية أخرى لإدراك ما لا يمكن تناوله بالحواس . ولما كان لا يجدها في نفسه ، وهو إنسان الحواس ، غير المؤمن ، فإنه يخرّ على ركبتيه ، في غمرة الحياة ، Media in Vita فجأةً ، في خشوع بين يدي الربّ ، ويطرح معرفته بالدنيا ، تلك المعرفة التي أسعدته خمسين حولاً سعادة لا حد لها ، بازدراء ، ويسأله الإيمان بقلب مضطرب : « هَبْ لي الإيمان ، ياربّ ، وأوزعني أن أعين الآخرين على العثور عليه » .

المسيح الفتي

يا إلهي ، ما أصعب أن يعيش المرء بين
يدي الرب وحده - أن يعيش كما عاش البشر
الذين ألقى بهم في هاوية ، وكانوا يعرفون
أنهم لن يخرجوا أبداً ، ولن يعرف أحد
كيف عاشوا هناك - ولكن يجب على المرء ،
يجب عليه أن يعيش على هذا النحو لأن الحياة
كهذه هي وحدها الحياة . ألا فأعني يا رب !
«اليوميات ، تشرين الثاني ١٩٠٠»

« هب لي إيماناً يا رب » كذلك يجأر تولستوي بالدعاء ، وهو
يائس ، لربه الذي كان يحجده حتى ذلك الوقت . غير أنه يبدو أن
هذا الإله لا يتجلى لأولئك الذين يفرطون في الإلخاف عليه بالمسألة .
ذلك لأن تولستوي يحمل ضيق صدره المتسم بالاندفاع العاطفي ، وهو
النقيصة الأولى عنده ، حتى يدخله في العقيدة . فليس يكفي أن يطلب
إيماناً ، كلاً ، فلا بد أن يناله على الفور ، جاهزاً بين عشية وضحاها ،
ومطواعاً كفأس ، ليستأصل أجمة شكوكه بأسرها . ذلك لأن السيد
النبيل الذي تعود أن يتوالب الخدم من حوله في رشاقة وسرعة ، وقد
أفسده أيضاً تدليل الحواس ذوات الرؤية الواضحة والسمع الواضح ،
تلك التي كانت تتيح له كل علم من علوم الدنيا في مثل سرعة غمضة
العين ، هذا السيد لا يريد أن ينتظر صابراً ، وهو الرجل الذي لا يتماسك ،

وهو ذو المزاج والعناد . إنه لا يريد أن ينتظر ، غارقاً كالرهبان في
إصغاء مستديم إلى التسرب التدريجي للضوء العلويّ - كلاً ، بل ينبغي
أن تشرق الروح المدلهمة مرة أخرى على الفور كالنهار . فان فكره
المندفع الذي يشب فوق كل العقبات ، يريد أن ينطلق إلى « معنى الحياة » -
« أن يعرف الله » ، « أن يفكر في الله » كما يقول في جرأة تكاد تبلغ
الاستخفاف بالدين . ذلك لأنه يأمل أن يتمكن من اكتساب الإيمان ،
وأن يغدو مسيحياً ومتواضعاً ، وأن (يسكن في الله) ، بالتعلم ،
بالرشاقة والبراعة اللتين يتعلم بهما الآن ، وهو أشيب الشعر ،
الإغريقية والعبرية ، ويغدو فجأة عالماً من علماء التربية واللاهوت
أو عالماً في الاجتماع خلال ستة أشهر ، وفي أحسن الأحوال خلال
سنة عابرة .

ولكن أتى للمرء أن يجد إيماناً على هذا النحو المياغت ، إذا لم
يكن المرء يحمل في نفسه نواة من الإيمان ؟ وكيف يغدو المرء بين عشية
وضحاها رقيق القلب ، طيباً ، متواضعاً ، وفرانسيסקانياً وديعاً ،
إذا ظل طوال خمسين عاماً لا يقيّم العالم إلا بعين الملاحظ التي لا تأخذها
لومة لائم ، وهو عديمي واعٍ وروسيّ أصيل ، ولم يكن يحس ، في
ذلك العالم ، إلا بنفسه ، على أنها شيء مهم وجوهري ؟ وكيف يطوّع
المرء مثل هذه الإرادة الصلبة كالحجر فيحوّلها بلجسة واحدة إلى حب
للشئ ينطوي على الدمائية ، ومن أين يكتسب المرء الإيمان ، ونسيان
الذات إزاء قوة أعلى متعالية عن هذا العالم ؟ من البدهي أنه يلتئم
لدى أولئك الذين يملكون الإيمان أو يدعون على الأقل أنهم يملكونه ،
كما يقول تولستوي في نفسه : أي لدى الأمّ الأرثوذكسية ، الكنيسة .

وعلى الفور يلقي تولستوي بنفسه أمام الأيقونات ، على ركبتيه . فالرجل اللجوج (لا يمهل نفسه) ويصوم ، ويحج إلى الأديرة ويناقش الأساقفة والقسيسين الأرثوذكس وينهك أوراق الانجيل ثقلياً . وبظل يجهد نفسه ثلاثة أعوام ليكون مؤمناً راسخ الإيمان . غير أن هواء الكنيسة يسوق بخوراً فارغاً وصقياً إلى نفسه المرتعدة من البرد من قبل ، وسرعان ما يصفق الباب إلى الأبد ، بينه وبين التعاليم القائمة على الإيمان القويم ، خائب الأمل ، كلاً ، فالكنيسة لا تملك الإيمان الصحيح ، كما يتبين له ، أو الأخرى أنها قد تركت ماء الحياة يتسرب ، وضيئته ، وزورته . وهكذا يستأنف البحث : ربما يعرف الفلاسفة ، أساتذة الفكر ، شيئاً أكثر حول « معنى الحياة » هذا الخفي . وعلى الفور يبدأ تولستوي في انتفاضة وحشية ، وبصورة محمومة ، بقراءة كل الفلاسفة ، في كل العصور ، وهو يخلط بعضهم ببعض طولاً وعرضاً (بأسرع مما ينبغي لهمصمهم وإدراكهم) وكان شوبنهاور الأول ، الضجيج الأول لكل إظلام في النفس ، ثم سقراط وأفلاطون ، وكوفوشوس ، ولاوتسه ، والصوفيّين ، والرواقيين ، والريبيّين ، ونيثشه . ولكنه سرعان ما يطوي الكتب . فهؤلاء أيضاً ليس لديهم وسيلة أخرى في النظرة إلى العالم سوى وسيلته ، وسيلة العقل المفرط في الحدة ، وذي النظرة المؤلمة . وهؤلاء أيضاً ليسوا إلا نافذي صبر في تطلعهم إلى الرب ، وليسوا مستكينين إلى الله . وهم يبتدعون أنظمة للفكر ، غير أنهم لا يشيدون سلاماً للنفس المضطربة ، ويقدمون معرفة ، غير أنهم لا يمنحون عزاءً .

ومثلما يذهب مريض معذب أعيا العلم علاجه . بعاهته . إلى النساء اللواتي يعالجن بجذور النبات ، وإلى الحجامين في القرية ، يذهب

تولستوي ، يذهب أحفل الناس في روسيا بالفكر ، في العام الخمسين من حياته ، إلى الفلاحين ، إلى « الشعب » ، ليتعلم منهم ، آخر الأمر ، وهم غير المتعلمين ، الإيمان الصحيح . أجل ، هؤلاء الذين لم يتعلموا ، والذين لم تربك عقولهم الكتابة ، هؤلاء المساكين والمعذبون ، الذين يعملون بالسخرة دونما شكوى ، والذين يرقدون صامتين في ركن من الأركان كالبهائم يمدون بذرة الموت بالنماء ، هؤلاء الذين لا يرتابون لأنهم لا يفكرون ، أهل البساطة المقدسة ، لابد أنهم ينطوون على سرٍّ ما ، وإلا لما استسلموا على هذا النحو ولو أعناقهم ، ولابد أن يعرفوا شيئاً ، في بلادهم ، مما لا تعرفه الحكمة والفكر الثاقب ، وبفضله يعدّ هؤلاء ، المتخلفون في العقل ، متفوقين في الروح . « فالحياة التي نحياها خاطئة ، والحياة التي يحياها هي الصحيحة » - ومن أجل ذلك يتجلى الرب في حياتهم الصابرة ، على حين يبتعد الفكر وحب المعرفة مع اندفاعه « الشهواني الذي لا جدوى منه » ، عن ينبوع النور الحقيقي في القلب . ولو لم يكن لهم عزاء ، ولو لم يكن في داخلهم عشب شاف سحري لما استطاعوا أن يحملوا بهذا المرح حياة بائسة على هذا النحو : فلابد أنهم يخفون إيماناً ما . ويتملك الرجل الذي لا يكبح جماحه لجاج في تحصيل هذه الوسيلة السرية . ويقنع تواستوي نفسه قائلاً : من هؤلاء ، منهم فحسب ، من « الشعب الرباني » وحده يستطيع المرء أن يتعرف على الحياة « الصحيحة » ، على الصبر العظيم ، والانغماس في الحياة الشاقة ، والموت الأشق .

إذاً فهل إليهم ، وادخل في صميم حياتهم ، لتسترق السمع إلى السر الرباني لديهم ! واخلع عنك ثوب النبلاء ، وصي دار الفلاح الكادح الحسن وابتعد عن المائدة ذات المأكول اللذيذة ، وعن الكتب

التي لاحتاجة إليها : فما ينبغي للجسد أن يغذيه منذ الآن إلاّ الأعشابُ
البريئة ولبن الحيوانات اللطيف ، وما ينبغي أن يغذيّ العقل الفاوستي(*)
إلاّ التواضع والخِدر والذهول . وهكذا يقف ليونيكولايفتش
تولستوي ، سيد ياسنايا بوليانا (**)، وأكثر من ذلك : سيد الملايين
في الفكر ، في العام الخمسين من حياته ، بنفسه وراء المحراث ، ويحمل
على ظهره العريض كظهر الدببة ، جرة الماء من الينبوع ، ويدرس
الحبوب بين فلاحيه بعناد في العمل لا يتطرق إليه الكلال . وإذا اليدُ
التي كتبت « أنا كارينا » و « الحرب والسلام » تدخل الآن الخيط
في المخرز لتسلكه في نعلين خاطهما بنفسه ، وتكنس القمامة من الحجرة ،
وتخيط بنفسها الثوب الخاص . فهلُمّ واقرب ، متعجلاً ، هلمّ
واقرب ملتصقاً « بالإخوة » - وعلى هذا يأمل تولستوي ، أن يغدو
« شعبياً » بحركة واحدة من إرادته ، ويكونَ بذلك « مسيحياً ربانياً » .
وينزل في القرية إلى أولئك الذين ما زالوا نصف أفتان (ولدى اقترابه
منهم يمسكون بقبعاتهم من الخرج) ، ويدعوهم إلى البيت ، حيث
يسرون بأحدثهم الغليظة مرتبكين على الأرضيات العاكسة للضوء
وكأنهم على زجاج ، ويتنفسون الصعداء لأن « السيد » لا يريد بهم
شراً ، ولا يزيد الفوائد والإيجار أضعافاً كما كانوا يخشون - بل يريد
أن يتحدث معهم ، خصوصاً وبالذات ، عن الله - وإنه لأمر غريب :
فهم يهزون برؤوسهم في حرج - : دائماً عن الله . ويتذكرون ، وهم
الفلاحون الطيبون في ياسنايا بوليانا ، أنه فعل ذلك من قبل ذات مرة ،
وكان ذلك في المدرسة ، حيث قام السيد الكونت بتعليم الأطفال بنفسه

(*) نسبة إلى فاوست ، بطل جوته المعروف

(**) اسم المنطقة التي تقع فيها أملاك تولستوي

« المترجم »

(ثم اعتراه الملل) . ولكن ماذا يريد الآن ؟ ويصغون إليه في غير ثقة ، لأن ذلك العدمي المتكرر يندفع نحو « الشعب » في الحقيقة مثل جاسوس ، يقوم بالاستطلاع من أجل الاستراتيجية الضرورية لحملته نحو الرب .

غير أن هذه الضروب الشديدة من الاستطلاع لا تنفع إلا الفن والفنان — إذ يدين تولستوي بأجمل أساطيره لقصاصي القرية الريفيين ، وتكتسب لغته طابعاً حسيّاً وعصاره ، بصورة رائعة ، من الكلمة الفلاحية التصويرية البسيطة — ومع ذلك فإن سر البساطة يستعصي على التحصيل . وقد قال دوستويفسكي ، قبل الأزمة المرضية ، لدى ظهور « آنا كارينينا » عن ليفين ، الصورة المنعكسة لتولستوي : « في وسع مثل هؤلاء الناس ، مثل ليفين ، أن يعيشوا مع الشعب ما شاؤوا أن يعيشوا ، غير أنهم لن يصيروا شعباً أبداً . إن ظلمة النفس وقوة الإرادة ، مهما كانتا مزاجيتين ، لا تكفيان لإدراك الرغبة في النزول إلى الشعب ، وتحقيقها . وبذلك الطلقة النفسية في الصميم يصيب عقريّ الرؤى مركز التبدل في الإرادة عند تولستوي ، ويميط اللثام عن الفعل القسريّ المصطنع الذي لا يصدر عن حب فطري ينبض بالدم ، بل عن أخوة لتولستوي مع الشعب بدأت من محنته النفسية . ذلك لأنه مهما تظاهر بمظهر البسطاء والفلاحين بفعل إرادته ، فلن يستطيع تولستوي ، رجل الفكر أن يزرع نفسية الفلاح الكادح بدلاً من تأويله الواسع الذي يحيط بالعالم ، ولن يستطيع مثل هذا الفكر المتعلق بالحقيقة أبداً أن ينزل بنفسه قسراً ، وبصورة كاملة ، إلى إيمانيّة مشوشة مختلطة كإيمانية الفحّامين ، وليس يكفي أن يزج بنفسه بغتة في الزنزانة مثل فرلين ، ويصلي قائلاً : « يا رب . هب لي البساطة » وإذا نواة التواضع تزهت في الصلبر . فلا بد

للمرء أول الأمر أن يكون ويصير ما يدين به : فلا الارتباط بالشعب عن طريق سرّ التعاطف ، ولا إرضاء الضمير عن طريق التدبّر الكامل يمكن أن ينصبّ دفعة واحدة في النفس مثلما يحدث في تماسّ كهربائي . فأما اتخاذ ثوب الفلاحين وشرب « الكواس »(*) ، ودرّس الحقول ، فكل هذه الأشكال الخارجية من المساواة يمكن أن تتحقق بسهولة كسهولة اللعب ، كسهولة اللعب حتى بمعنى مزدوج — غير أن الفكر لا يمكن إخضاعه أبداً ، ولا يمكن الهبوط بيقظة إنسان وفق هواه ، عن طريق بُزّال كما يحدث المرء من ارتفاع شعلة الغاز . وتظل طاقة الإضاءة واليقظة في فكر كل إنسان المقياس الفطري الذي لا يمكن تغييره ، وهي تمثل سلطة فوق إرادته ، ومن أجل ذلك تعدّ واقعة خارج مجال إرادتنا ، بل إنها تلتهب مرتفعة بمزيد من الشدة والاضطراب ، كلما أحسّت أنها مهددة في واجبها المستقل المتمثل في الإشراف اليقظ . فكما أن المرء لا يستطيع ، بضروب العبث الروحي ، أن يرتقي ، برياضته ، إلّا درجة واحدة فوق مستوى معرفته الفطري ، إلى معرفة أعلى ، فكذلك لا يقدر الذهن بتأثير فعل مباغت من أفعال الإرادة ، إلّا على الارتداد درجة واحدة نحو البساطة .

ومن المستحيل إلّا أن يكون تولستوي ، هذا الفكر المتميز بالدراية وبعد النظر ، قد أدرك بنفسه ، وبسرعة ، أن الهبوط بمستوى التعقيد الفكري إلى بساطة نيتشويّة(**) ، لم يكن ممكناً حتى بالقياس إلى إرادة هائلة على هذا النحو كإرادته ، بين عشية وضحاها . فلم يقل الكلمة الرائعة امرؤ آخر سواه ذاته (فيما بعد ، بلاريب) : « إن

(*) شراب يشبه البيرة .

(**) نسبة إلى نيتشه

اقتحام الفكر بالقوة كاصطياد أشعة الشمس ، فمهما يُرد المرء أن يُعطّيها بشيء عكّت عليه . وعلى المدى الطويل لم يكن في وسعه أن يخدع نفسه حول ضالة قدرة ذهنه الرجوليّ الفظّ ، المعاند ، المكابر ، على تواضع خامل ثابت . ففي تلك الأيام ، لم يكن حتى الفلاحون ينظرون إليه أبداً نظرهم إلى واحد منهم حقاً ، لأنه كان يرتدي ثوبهم ، ويشاطرهم عاداتهم ظاهراً . ولم يفهم العالم هذا الفعل أبداً على أنه شيء آخر سوى تنكّر . بل إن أقرب الناس إليه بالذات ، زوجته وأطفاله ، و ، أصدقاءه الفعليين (لا التولستويين المحترفين) يرقبون إرادة الانحدار ، هذه المتشجّة القسرية عند « الأديب الكبير للشعب الروسي » بغير ثقة وبغير ارتياح (كذلك يدعو ، تورجينييف ، من سرير الموت ، إلى العودة إلى الفن) إلى عالم لا فكريّ مناقض لطبيعته . أما زوجته ، وهي الضحية المأساوية لصراعاته النفسية ، فتقول له في تلك الأيام الكلمة الأكثر إقناعاً : « لقد كنت تقول من قبل إنك مضطرب لأنك لا تملك الإيمان ، فما بالك الآن غير سعيد وأنت تقول إنك تملكه ؟ » - حجة بسيطة كل البساطة ، ولا سبيل إلى دحضها . ذلك لأنه ما من شيء يشير عند تولستوي ، بعد تحوله المذهبي ، إلى رب الشعب الذي وجدّه في إيمانه هذا القائم على انطلاقة النفس ، بل على النقيض من ذلك ، يحس المرء دائماً أنه ما يكاد يتحدث عن عقيدته حتى يخلّص من تردد في الاقتناع إلى يقين يقوم على الصراخ ، فكل أفعال تولستوي وأقواله في ذلك الوقت بالذات ، وقت التحول المذهبي ، لها إيقاع صراخ مزعج ، وفيها شيء من المباهاة ، والعنف ، والتزوع إلى الشجار ، والتعصب المذهبي . فتلك مسيحته تلوي كالنفر ، وتواضعه يرفع ذيل الطاووس تيهاً ، ومن كانت له أذنان أكثر إرهافاً أحس من خلال المبالغة الكامنة في تحقيره لنفسه شيئاً من كبرياء تولستوي القديمة ، إلا أنها الآن منقلبة إلى افتخار معكوس ، إلى التواضع الجديد . وبحسب المرء أن يقرأ الموضع

المشهور من اعترافه ، الذي يريد فيه أن « يبرهن » على تحوّل المذمبي ، وذلك بأن يبصق على حياته الخاصة السابقة ، ويقلّل من شأنها : « لقد قتلت في الحرب بشراً ، وأثرت مبارزات ، وبددت في الميسر الثروة التي كنت أبتزّها من الفلاحين ، وكنت أؤدّبهم بالضرب المبرّح ، وكنت أمارس الفجور مع النسوة الطائشات ، وأخادع الرجال ، كذب ، ونهب ، وخيانة زوجية . وكنت أمارس كل أنواع السكر والفظاظة ، واركتبت كل فضيحة ، ولم أدع جريمة إلا ارتكبتها » ولكيلا يغتفر له أحد هذه الجرائم المزعومة ، من حيث كونه فناناً ، يمضي في اعترافه الكنسيّ الصاخب قائلاً : « في أثناء هذا الوقت بدأت في الكتابة بدافع الغرور وحب الربح ، والكبرياء . ولكي أغتصب المجد والثروة كنت مضطراً إلى قمع الخير في نفسي والانحطاط بها إلى الخطيئة » .

وهذه كلمات اعتراف رهيبة ، بلا ريب ، وهي تهزّ النفس بانفعالها الأخلاقي ، ومع ذلك ، فهل وُجِدَ في تلك الأيام أي امرئ يزدري ليو تولستوي حقاً ، على أنه « وغد » كما يشير إلى نفسه في شهوة متعصبة إلى تحقير النفس ، لأنه استعمل بطاريته في الحرب على النحو الذي يمليه الواجب ، أو لأنه انغمس في الشهوات الجنسية بحكم كونه رجلاً شديد الفحولة خلال فترة العزوبة ، أي على أساس تلك الاتهامات الذاتية ، ويحتقره على أنه إنسان منحط آثم . أولاً تثور بالأحرى شبهة تتمثل في أن ضميراً مفرطاً في الاستثارة يخترع هنا آثماً بأي ثمن ، بدافع الكبرياء المتواضعة ، وأن نفساً مجنونة بالاعتراف تريد جرائم لا وجود لها على الإطلاق لتكسب بمثابة حمل الصليب على العاتق « — مثلما يلفّق أجير الدار في (راسكولنيكوف) لنفسه جريمة القتل — « ليبرهن »

على ذاته مسيحاً ؟ أولاً توحي هذه الرغبة ذاتها في البرهنة على الذات ، وهذا التحقير التشنّجي المرضيّ الصاحب كصخب الأسواق ، للذات عند تولستوي ، بعدم وجود تواضع متماسك يرسل أنفاسه على نحو متزن ، أو بعدم وجوده بعدد في هذه الروح المزعزعة ، بل ربما أوحى بوجود غرور معكوس مؤجّل على نحو خطير ؟ وعلى أية حال فإن هذا التواضع لا يسلك سبيل التواضع ، بل على النقيض من ذلك ، فما من شيء يمكن تصويره أكثر عاطفية وحماسة من هكذا الكفاح الزُهديّ ضد العاطفة والهوى . فما يكاد هذا اللجوج يصيب شرارة صغيرة غير ثابتة بعدد ، من الإيمان في نفسه حتى يريد على الفور أن يشعل بها البشرية كلها وهو يحاكي بذلك أولئك الأمراء البرابرة من الجرمان الذين ما تكاد رؤوسهم تبثّل بماء التعميد حتى يبادروا إلى الفأس ليسقطوا أشجار البلوط التي كانت مقدسة لديهم حتى ذلك الوقت . وإذا كان الإيمان يعني الاطمئنان في الله فإن هذا اللجوج الرائع لم يكن قط مؤمناً صبوراً ، ولم يكن هذا المتوهّج الذي لا يكفيه شيء عقط ، مسيحاً ، ولا يجوز أن يُعدّ هذا الباحث عن الرب ، وهذا المضطرب أبداً ، من المؤمنين إلاّ إذا سمينا التلهّف اللامحدود إلى التدينّس ، ديناً .

على أن أزمة تولستوي ترتفع ، بهذا النجاح الجزئي والوصول غير المؤكد ، إلى إيمان ، فوق المعاناة الفردية بصورة رمزية ، وإنه لمثال جدير بالنظر أبداً ، أن هذا الإنسان الذي بعد من أقوى البشر إرادة لم يتهيأ له أن يغيّر الجبلّة الأولى لطبيعته دفعة واحدة ، وأن يقلب جوهره الخاص إلى النقيض عن طريق فعل تتجلّى فيه الطاقة . فالصيغة المرسومة لحياتنا تقبل ضرورياً من التحسين والصقل والإرهاق ،

كما أن الحماسة للأخلاق نستطيع أن تصعد جانب التهذيب والأخلاق
 فينا بفضل العمل الواعي والدؤوب ، غير أنها لا تستطيع أبداً أن تمحو
 المعالم الأساسية لشخصيتنا ببساطة ، وتعيد بناء جسدنا وفكرنا وفقاً
 لنظام معماري آخر . وعندما يرى تولستوي أن المرء يستطيع « أن يقلع
 عن الأنانية كما يقلع عن التدخين » ، أو أن المرء يستطيع اكتساب
 الحب « بالغزو » ، وفرض الإيمان ، فإنما تتناقض عنده نتيجة متواضعة
 كل التواضع مع جهد هائل يكاد يكون جنونياً . ذلك لأنه ما من شيء
 يشهد أن تولستوي ، الإنسان الغضوب ، الذي « تشرق عيناه بمجرد
 أن يعارضه المرء معارضة ضئيلة فحسب ، قد غدا ، نتيجة لتحوّله
 المذهبي المفروض ، في تلك الأيام ، على الفور مسيحياً أكثر طيبة
 ورقة ولطفاً ، وأحسن معشراً ، و « خادماً للرب » ، وأنخأ لإخوته .
 فلقد غير تبدله من وجهات نظره ، وآرائه ، وأقواله ، غير أنه لم يغيّر
 صميم طبيعته — « بحسب القانون الذي دخلت به ، يجب أن تكون ،
 ولا تستطيع أن تهرب من نفسك » (جوته) — فانعدام المرح ، وحب
 العذوب يخيّمان بظلهما على نفسه المضطربة ، قبل « اللحظة » وبعدها .
 وذلك أن تولستوي لم يكن مفطوراً على الرضى . وربما لم « يهب »
 له الربّ الإيمان على الفور بسبب ضيق صدره بالذات ، فلا بد له بعد
 أن يكافح ثلاثين عاماً آخر ، حتى الساعة الأخيرة من حياته ، بغير
 هوادة . فدمشق لا تكتمل في يوم ، ولا في عام واحد : فحتى النفس
 الخامد الأخير لن يجد تولستوي ما يغنيه في أي جواب ، ولن يطمئن
 إلى أي عقيدة ، وسيحسّ بالحياة حتى اللحظة الأخيرة ، سرّاً رهيباً
 على نحو رائع .

وعلى هذا لا يتهماً لتولستوي جواب عن سؤاله عن « معنى الحياة » ،
 فقد أخفقت وثبته ، وهو الشامخ المتلهف ، نحو الرب . غير أن الفنان
 أعطي في كل وقت نجاة ، حينما لا يهيم على صراعٍ ما — فهو يستطيع
 أن يتنزع محنته من نفسه وي طرحها إلى البشرية ، ويحول السؤال القائم
 في نفسه إلى سؤال عالمي ، وهكذا يصعد تولستوي أيضاً صيحة الفزع
 الأنانية في أزمته ، وهي قوله : « إلامَ أصير ؟ » إلى السؤال الأكثر
 شموخاً ، وهو : « إلامَ نحن صائرون ؟ » ولما كان لا يقدر على إقناع
 ذهنه الخاص العنيد ، فهو يريد أن يقنع الآخرين . ولما كان لا يقدر
 على تغيير نفسه فهو يحاول أن يغيّر البشرية . وكل الإصلاحات العالمية
 تشكّلت من « الهرب من الذات » عند إنسان واحد مهتدٍ في نفسه يردّ
 السؤال الحرج ، ليزيحه عن صدره ، بطرحه على الناس جميعاً ، محولاً
 بذلك اضطراب كيانه إلى اضطراب في العالم (وهذا ما يعرفه نيتشه ذو
 البصر الأشد نفاذاً) . ولم يتحول قط إلى مسيحي فرنسيسكاني وورع ،
 هذا الرجل المتحمس على نحو رائع ، بعينه اللتين لا تقبلان خداعاً ،
 وبقلبه الربيّي القاسي والحرّ ، غير أنه قام ، بدافع معرفته بعذاب الإلحاد ،
 بأكثر المحاولات عصبية في عصرنا الحديث لإنقاذ العالم من المحنة
 العدمية ، ولجعله أكثر إيماناً بما كان هو نفسه عليه في تلك الأيام .
 « الخلاص الوحيد من يأس الحياة خروج المرء بالأنا إلى العالم » . ومن
 أجل ذلك تلقى (أنا) تولستوي ، هذه الملعونة المتلهفة إلى الحقيقة ،
 بما دهمها ، سؤالاً رهيباً ، على البشرية بأسرها ، نديراً وعقيدة .

الدروس ونقيضه

لقد دنوت من فكرة عظيمة كنت علياً
أن أصحي بحياي كلها من أجل تحقيقها.
وهذه الفكرة هي تأسيس ديانة جديدة ، ديانة
المسيح ، غير أنها متحررة من مبادئ العقيدة
وهياتها .

يوميات الشباب ، ٥ آذار ، ١٨٥٥

ويتمخذ تولستوي من كلمة الانجيل « لا تقاوموا الشر » حجر أساس
لمبدئه و « رسالته » إلى البشرية ، ويعطيها التفسير الإبداعي : « لا تقاوموا
الشر بالقوة » .

وفي هذه الحملة تكمن الأخلاق التولستويّة بأكملها : فلقد رمى
المناضل الكبير بالمنجنيق الحجري جدار القرن بكل العفوان الخطائي
والأخلاقي الكامن في ضميره المثقل بالتوتر والألم ، بقوة بلغ منها أن
الهزة مازالت حتى اليوم تتردد أمواجها في الهيكل الذي تصدّع شطر
منه . ومن المستحيل أن نسبر غور الأثر النفسي لهذه الرمية بكل مداه .
فالقاء السلاح الطوعي من قبل الروس بعد بريست — ليتوفسك (١) ،
واللاعنف عند غاندي ، ودعوة رولاند إلى السلام في غمار الحرب (٢) ،

(١) Brest - Litowsk المكان الذي تم فيه توقيع اتفاقية الهدنة بين روسيا السوفيتية
ودول المحور (ألمانيا ، النمسا ، تركيا العثمانية) في الحرب العالمية الأولى .
Rolland (٢)
« المترجم »

والمقاومة البطولية الصادرة عن أفراد لا يُحصَوْنَ ولا تعرف أَسْمَاؤُهُمْ
ضد قهر الضمير ، والنضال ضد عقوبة الإعدام — كل تلك الأحداث
المنعزلة ، والتي تبدو لا رابط بينها ، في القرن الجديد ، تدين باندفاعها
النشيط إلى رسالة تولستوي . فحيثما يُسْتَنْكَر العنف اليوم ، سواء
أكان وسيلة ، أم سلاحاً ، أم حقاً ، أم مؤسسة تدعي الصفة الإلهية ،
وبالتأكيد ، مهما يكن ما يحميه ذلك العنف ، ومهما تكن ذريعته ،
من حماية أمم ، أو أديان ، أو عرق ، أو ممتلكات ، وفي كل مكان
ترفض فيه أخلاقية قائمة على أسس إنسانية ، أن تسفك الدم — وفي
كل مكان ما يزال كل ثوري أخلاقي يستمد حتى اليوم طاقة مؤيدة
تأييداً أخوياً، من سلطان تولستوي وحرارة إيمانه. وفي كل مكان يشير
فيه ضمير مستقل إلى الحسّ الإنساني الأخويّ على أنه المربّع القضائي
الأخلاقي الوحيد بدلاً من الصيغ الباردة لدى الكنيسة ، ومطالب الدولة
المتلهّفة إلى السيطرة ، والتشريع الصديء الذي يعمل وفقاً لأنماط
ثابتة ، يحقّ له أن يستند إلى عمل تولستوي اللوثيريّ النموذجي الذي
يخاطب البشر بالمفهوم البشري ، حيث يتوجه كل امرئ ، في كل
حالة ، « بالقلب » .

والآن يقول تولستوي : « ولكن أي شرّ يجب علينا أن نقاومه
من دون عنف ؟ إنه ليس شيئاً آخر سواه ذاته ، أي العنف المطلق ، سواء
أكان يخفي عضلاته تحت الأثواب المنبرية العتيقة المتمثلة في الاقتصاد
القوني ، أو رفاه الأمة ، أو مطامح الشعب ، وأشكال التوسع
الاستعماري . وإن قلّس ، ببراءة فائقة غريزة السلطة وغريزة سفك
الدماء عند الإنسان ، بالتزوير ، إلى مُثُل فلسفية ووطنية ، فلا يجوز

لنا أن ننخدع . فحتى في أشد حالات التصعيد إغراءً ، لا تفيد ممارسة العنف دائماً إلا في مجرد تكريس متصاعد لمركز جماعة بذاتها بدلاً من المؤاخاة بين البشر ، وهي تخلد بذلك اللامساواة في العالم . فكل قوة تعني ملكاً ، امتلاكاً ، ورغبة في المزيد من الامتلاك . ومن أجل ذلك يبدأ كل انعدام في المساواة عند تولستوي من الملكية . ولم يكن من قبيل العبث أن ينفق النبيل الشاب ساعات مع برودون في بروكسل . وحتى قبل ماركس يطالب تولستوي قائلاً : « الملكية هي جذر كل الشرور وكل الآلام ، وخطر الصدام يكمن بين أولئك الذين يمتلكون الأملاك الواسعة ، وأولئك الذين لا يمتلكون شيئاً . ذلك لأن الملكية لا بد لها ، لكي تحافظ على ذاتها ، أن تكون بالضرورة دفاعية ، بل هجومية . فالقوة ضرورية لاقتناص الملكية ، وهي ضرورية لتوسيع الملكية ، وضرورية للدفاع عنها ، وهكذا تنشئ الملكية لنفسها الدولة حماية لها ، وكذلك تنشئ الدولة ، بدورها ، توطيداً لمركزها ، أشكالاً منظمة من قوة الذراع ، من الجيش ، والتشريع ، ومجمل النظام القهري الذي لا يفيد إلا في حماية الملكية » . ومن يسلك نفسه في نظام الدولة ويعترف بها ، يغدو في نفسه عبداً لمبدأ القوة هذا . وحسب إدراك تولستوي يفيد حتى أكثر أهل الفكر استقلالاً ، على ما يبدو ، في الدولة الحديثة ، في مجرد المحافظة على ملكية أفراد قلائل . بل إن كنيسة المسيح التي كانت « في دلالتها الحققة ترفع من شأن الدولة » تنصرف بتعاليمها المخادعة ، عن أكثر الواجبات اختصاصاً بها . والفنانون بدورهم ، هؤلاء الذين ولدوا أحراراً ، والذين ندبوا محامين عن الضمير . ومدافعين عن حق الإنسان . ينحتون في أبراجهم العاجية الصغيرة و « يبعثون النوم في الضمير » . والاشتراكية تحاول أن تكون

طبيعياً فيما لا شفاء له ، والثوريون الذين يريدون ، في معرفة صحيحة ، أن ينسقوا النظام العالمي من أساسه ، يستعملون بطريقة خاطئة ، حتى وسائل خصومهم الفتاكة ويخلدون الباطل حين يتركون مبدأ « الشر » من دون أن يمستوه ، بل يقدسونه : ألا وهو العنف .

وإذا فبناء على العقلية المتمثلة في هذه المطالب الفوضوية يعدّ أساس الدولة ونظامنا الاجتماعي السائد الراهن ، خاطئاً متداعياً . ومن أجل ذلك يرفض تولستوي كل الإصلاحات الديمقراطية ، والمُحِبَّة للإنسانية ، والسلمية ، والثورية ، لشكل الحكومة ، على أنها عبث لا طائل تحته . ذلك لأنه ليس هناك دوماً (١) ، ولا برلمان ، ولا ثورة بالأحرى ، تخلّص الأمة من « شر » العنف . وإن بيتاً أقيم على أساس متأرجح لا سبيل إلى دعمه ، ولا يستطيع المرء إلا أن يغادره ويبني بيتاً آخر . غير أن الدولة الحديثة تقوم على فكرة القوة ، لا على الأخوة ، والنتيجة التي لا سبيل إلى ردها عند تولستوي هي أن يحكم عليها بالانهيار . وكل تلفيق اجتماعي وتحرّري لا يزيد على أن يطيل صراعه المستميت ، وليست علاقة الدولة المدنية القائمة بين الشعب والحكومة هي التي يجب تغييرها ، بل لابد من تغيير البشر أنفسهم : فبدلاً من الانضغاط القسري عن طريق سلطة الدولة يجب توطيد دعائم الارتباط النفسي عن طريق التآخي مع كل مجتمع من مجتمعات الشعوب . ولكن ما دامت هذه الأخوة الدينية ، وهذه الأخوة الأخلاقية لا تحلّ بعدُ محل الصيغة الحالية للمواطن المقهور ، فإن الأخلاقية الحقّة ليست ممكنة ، فيما يبيّن تولستوي ، إلاّ في المجال الخفي غير المرئي لضمير الفرد .

(١) (Duma) مجلس النواب الروسي في العهد القيصري

ولما كانت الدولة تتطابق مع العنف فلا يجوز لإنسان أخلاقياً أن يتطابق مع الدولة . وما تمسّ الحاجة إليه إنما هو ثورة دينية ، وتبرؤ كل إنسانٍ ذي ضمير من كل مجتمع قائم على العنف . ومن أجل ذلك يضع تولستوي نفسه بخطوةٍ عزم وتصميم ، خارج الصيغ المتصلة بالدولة ، يعلن استقلاله الأخلاقي عن كل أمر إلزامي سوى أمر ضميره ، ولا يعترف بـ « تبعية شاملة لأي شعب أو دولة ، أو ولاء لأية حكومة » . ويخرج طوعاً من الكنيسة الأرثوذكسية ويتنازل ، عملاً بالمبدأ ، عن القضاء أو أية مؤسسة مطبوعة بطابع الدولة في المجتمع المعاصر ، لمجرد ألاّ يمسّ لصيغ « دولة العنف الشيطانية » . ومن أجل ذلك لا ينبغي للمرء أن يغترّ بالرقعة الانجيلية في مواضعه الداعية إلى الأخوة ، وبالتلويين المفرط في أسلوبه المتواضع على النحو المسيحي ، وبلاستناد إلى الإنجيل ، عن الجانِب المناوئ للدولة كل المناوأة ، في نقده الاجتماعي . فمذهبه في الدولة أكثر المذاهب المناوئة للدولة مرارة . وخروجه على البابوية الجديدة وعلى فكرة عصمة الملكية ، هو الخروج الأكمل لإنسانٍ فرد منذ عهد لوثر . بل إن تروتسكي ولينين لم يتجاوزا من الناحية النظرية كلمة تولستوي القائلة : « لا بد من تغيير كل شيء » خطوة واحدة ، ومثلما كان جان جاك روسو ، « صديق البشر » ، يحفر بكتاباته للثورة الفرنسية الأنفاق التي نسفت منها بعد ذلك الملكية في الهواء ، فإن أحداً من الروس لم يُزعزع الحصون الأساسية للنظام الرأسمالي القيصري زعزعة شديدة ، ويجعلها تستحصّد للعاصفة مثل هذا الثوري المتطرف الذي يطيب للناس عندنا ألاّ ينظروا إليه إلا رسولاً من رسل الرفق والوداعة ، وقد غرّتهم عنه لحية البطريك وشيء من سلاسة في مذهبه .

وبالطبع : فبالضبط مثلما كان روسو يستاء من ذوي السراويل (١) أي الفقراء (كان تولستوي خليقاً بلاريب أن يستاء من نهج البلشفية لأنه كان يكره الأحزاب - « أيما حزب من الأحزاب ينتصر ، فلا بد له ، لكي يحافظ على سلطته ، ألا يقتصر على كل وسائل العنف الموجودة فحسب ، بل يجب أن يخترع وسائل جديدة » ، كما يقول في كتاباته متنبئاً) غير أن الكتابة المخلصة للتاريخ سوف تبين أنه كان أفضل رائد لها ، وأن كل القنابل من كل الثوريين ما كانت لتحدث أثراً مخرباً مزلزلاً للسلطة في روسيا كالثورة العلنية لهذا الوحيد والأعظم ضد القوى التي كان يبدو أنها لا تغلب في وطنه : القيصرية ، والكنيسة ، والملكية . ومنذ أن اكتشف هذا الشخص الأكثر عبقريةً ، خطأ البناء من تحت الأرض في تركيب حضارتنا ، أي أن بناء الدولة عندنا لا يركز على الإنسانية ، وعلى المجتمع الإنساني ، بل على الوحشية ، وعلى التحكم في البشر ، ظل يطلق عقول قوته الصدامية الأخلاقية الهائلة طوال ثلاثين عاماً في هجمات ما تفتأ تتجدد على النظام الروسي العالمي . فكان بؤرة للثورة من دون أن يريد لها ، وكان « ديناميئياً » اجتماعياً ، وطاقاة أولية ابتدائية ، ناسفة مدمرة ، وكان بذلك من دون وعي منه ممثلاً لرسالته الروسية . ذلك لأنه لابد لكل تفكير روسي ، على الرغم منه ، أن يدمر أول الأمر تدميراً متطرفاً ، من الجذور ، لكي يبني - وليس من قبيل المصادفة أنه لم يسلم فنان من الردي سلفاً في أشد مهاوي العدمية اسوداداً ، وهي العدمية الأشد افتقاراً

(١) Die Sansoulotten تعبير يدل على حزب الديمقراطيين ، وكانوا يلبسون السراويل الطويلة أثناء الثورة الفرنسية خلافاً لما كان شائعاً من السراويل التي تبلغ الركبة فحسب وهذا التعبير كناية عن الفقر .
« المترجم »

إلى الضوء ولأشد افتقاراً إلى المخرج ، لينتزع ، بعد ذلك فحسب ، من اليأس الوجداني الأشد استيعاراً في حرارته ضرورياً جديدة من الإيمان ، لا مثلنا نحن الأوروبيين ، في إصلاحات متوجسة ، وحذر قائم على التطعيم المتورّع : بل ينطلق المفكر الروسي ، والأديب الروسي ، والرجل العملي الروسي ، إلى المشكلات بخشونة ، وبمثل عزيمة الاقتلاع الحقة عند قاطع الأشجار ، عزيمة التجاريب الخطيرة . فان رجلاً مثل روستوبشين لا يتردد ، من أجل فكرة النصر ، في إحراق موسكو . هذه الأعجوبة العالمية ، بأسرها ، وما كان تولستوي بأقل منه - وهو يحاكي هنا سافونارولا (١) - في الإقدام على طرح كل التراث الحضاري للبشرية ، من فن ، وعلم ، في المحرقة لمجرد تبرير نظرية جديدة أفضل . ومن الممكن ألا يكون تولستوي ، الخالم الديني قد وعى النتائج العملية لحملته المشابهة للحملة على الأيقونات (٢) ، ويبدو أنه لم يجرؤ قط على أن يحسب مقدار الأرواح البشرية التي سترهق مع الأنهار المفاجيء لمثل هذا البيان العالمي الممتد امتداد السماء - وكل ما في الأمر أنه كان يهز ، بكل طاقته النفسية ، وعناد قناعته ، أعمدة بناء الدولة الاجتماعي . وعندما يدفع مثل هذا الشمشون بقبضتيه يميل أضخم السقوف معه ويتداعى أيضاً . ومن أجل ذلك تظل كل المناقشات اللاحقة التي تتساءل إلى أي مدى كان تولستوي خليقاً أن يقرّ الانقلاب البلشفي أو يعاديه ، لا حاجة إليها إزاء الواقعة الصريحة ، وهي أنه ما من شيء شجّع الثورة الروسية فكرياً بهذا القدر مثل مواعظ تولستوي التكفيرية العصبية ضد الترف والملكية ، والكبسولات الناسفة في كتيباته ، وقنابل

(١) سافونارولا ، راهب من فلورنسا ، ثار على البابا وأنشأ في مدينته دولة دينية ،

أحرق عام ١٤٩٨ م

(٢) Bildersturm .

منشوراته . وما من نقد في ذلك الزمان أحدث أثره المهيّج للمشاعر والمخرب للعقائد في الجمهور العريض إلى هذا الحد ، حتى ولا نيتشه الذي كان ، بحكم كونه ألمانياً ، لا يتوجه إلّا إلى المثقفين ، وكان يسدّ على نفسه ، بأسلوبه الديونيزي^(١) الشعري ، الطريق إلى أي تأثير في الجماهير . وخلافاً لرغبته وإرادته ، يقف جسد تمثال تولستوي في كل العصور . في البانتايون^(٢) غير المرئيّ لكبار الثوريين والإقلايين ومبدي العالم .

وكان ذلك خلافاً لرغبته وإرادته ، لأن تولستوي عزل ثورته الدينية المسيحية ، وفوضويته^(٣) عزلاً واضحاً ، عن كل فعل أو عمل يقوم على العنف . فهو يكتب في « السابل الناضجة » قائلاً : « عندما نقابل الثوريين نخطيء الظن إذ نحسب أننا نتلاقى ، فهم ينادون ، ونحن ننادي : لا دولة ، لا ملكية ، لا تمييز ، وأشياء أخرى كثيرة . ومع ذلك يوجد هنا فرق كبير : فعند المسيحي لا توجد دولة — غير أن أولئك يريدون إبادة الدولة . وعند المسيحي لا توجد ملكية — غير أن أولئك يريدون إلغائها . وعند المسيحي يتساوى الناس جميعاً — غير أنهم يريدون تدمير التمييز . والثوريون يقاقلون الحكومة من الخارج ، غير أن المسيحية لا تقاقل أبداً ، بل تقضي على أسس الدولة من الداخل » . والمؤء يرى أن تولستوي لم يكن يقرّ إزالة الدولة بالعنف ، بل كان يرى إضعافها في سلطتها على نحو بطيء ، عن طريق سلبية أفراد لا يحصى عددهم ، وذلك بأن يتخلّص من قبضة مخالبيها جزئيّاً بعد جزئيّاً ،

(١) Dionysos إله الخمر والربيع والوجد عند اليونان

(٢) مقبرة عظماء فرنسا

(٣) الفوضوية ،ذهب سياسي يقوم على إلغاء سلطة الدولة ومؤسساتها

وفرداً بعد آخر ، ويطول ذلك إلى أن تحلّ عضويّة الدولة نفسها آخر الأمر نتيجة لاستنزاف قوتها . غير أن النتيجة الأخيرة تظل هي ذاتها : القضاء على كل سلطة. وكان تولستوي يخدم هذا الجهد طوال حياته بحماسة . وقد كان بالطبع يريد في الوقت ذاته تأسيس نظام جديد ، يريد أن يؤسس كنيسة رسمية للدولة ، وديناً للحياة أكثر أخوة ، وهو الإنجيل المسيحي الأول ، القديم الجديد ، المسيحي على طريقة تولستوي . ولكن لا بدّ ، لدى تقييم هذا العمل الفكري الإنشائي — والأمانة فوق كل شيء ! — من إحداث خط فاصل بالسكّين بين ناقد الحضارة العبري ، بين عبقرية العين الأرضية عند تولستوي ، وبين تولستوي المفكر ، الأخلاقي ، الباهت ، والذي لا يصل إلى شيء ، والمتقلب المزاج ، والمتناقض ، الذي ما عاد يكتفي في الستينات بدفع فتيان الفلاحين في ياسنايا بوليانا إلى المدرسة ، بل يريد أن يلقن أوروبا كلها الأبجدية الكبيرة للحياة الوحيدة « الصحيحة » و « تلك » الحقيقة التي تقوم على مستوى مفرّج من الاستهتار الفلسفيّ . وليس هناك احترام يوفّي تولستوي حقه ما دام مقيماً في عالمه الحسي ، وهو المولود بلا جناحين ، وما دام يحلل بأعضائه العبرية بنية الإنسان ، غير أنه ما يكاد يريد التحليق حراً في الغيبيّ ، حتى تعجز حواسه عن التوثّب ، والرؤية ، والامتصاص ، وتتخبط كل أذرع القنص هذه المصعّدة في الفراغ دونما جدوى ، حتى يكاد يصيب المرء الذعر لقصوره الفكري .

كلاً ، فليس من الممكن هنا رسم الحدود بالشدة الكافية : فقد كان تولستوي الفيلسوف النظري المنهجي يمثل نخبة ذاتية مؤسفة مثلما كان نيتشه ، العبري المقابل له ، في التأليف الموسيقي . وعلى وجه الدقة مثلما كانت موسيقية نيتشه ، المثمرة على نحو رائع ضمن الإيقاع

اللغوي ، قاصرة في مجال النغم المستقل ، أي في مجال التأليف الموسيقي قصوراً يدعو إلى الإشفاق ، كذلك كان عقل تولستوي الراجح يتوقف على الفور عندما يتجرأ على تخطي المجال النقدي الحسيّ إلى النظريّ ، إلى المجرد . وفي وسع المرء أن يوغل في أعماله كلّ على حدة ، مميزاً الورقة الراجعة والورقة الخاسرة . ففي منشوره الاجتماعي « ماذا نريد أن نعمل » ، مثلاً ، يصف القسم الأول ، أحياء موسكو الفقيرة وصفاً حسياً بصرياً يقوم على المعاناة ، ببراعة تبهر الأنفاس . ولم يتجلبّ قط نقد اجتماعي في تلك الأيام أكثر عبقرية في موضوع أرضي مما تجلّى به تصوير تلك الحجرات البائسة والبشر الضائعين : ولكن ما يكاد تولستوي المثالي ينتقل من التشخيص إلى العلاج ، ويريد أن يلقي دروساً في اقتراحات للإصلاح ، حتى يغدو كل مفهوم ضبابياً على الفور . فالمعالم تغدو باهتة ، والأفكار يتصادم بعضها مع بعض . وهذه القوضى تتصاعد من مشكلة إلى أخرى كلما ازداد تولستوي جرأة على التقدم ، ويعلم الله أنه يتقدم بشجاعة مفرطة ! فمن دون أي مران على الفلسفة ، وباستخفاف مفرغ ، يتناول في موجزاته كل المسائل المستعصية على الحل أبداً ، والتي تتعلّق في المحال بسلاسل أرتال النجوم ، ويحلّها فيجعلها هلامية كالجلاطين . فمثلما أراد تولستوي اللجوء خلال أزمته أن يلقي على نفسه الإيمان بسرعة كما يلقي المرء على نفسه معطفاً من الفراء . أن يكون مسيحياً متواضعاً بين عشية وضحاها ، يدع في هذه الكتابات المخصصة لثريّة العالم « غابة تنمو في مثل لمح البصر » . ثم إن تولستوي الذي كان في عام ١٨٧٨ مازال يصيح : « إن كل حياتنا على الأرض سخف » يجهّز بعد ذلك بثلاثة أعوام لاهوتاً دنيوياً ينطوي على حل لكل معضلات العالم . ومن البدهي أنه لا بد لكل تناقض في مثل هذه

التركيبات المستعجلة أن يحدث تشويشاً لدى المفكر العجول ، ومن أجل ذلك يظل تولستوي يلقي دروسه بأذنين مسدودتين ، متخطياً كل تناقض وهو يركض ، مبيحاً لنفسه الحل الشامل في سرعة تأثير الشبهات .
 فياله من إيمان متردد ما يفتأ يشعر أنه ملتزم أن « يبرهن » ، وباله من تفكير مائع بجانب للمنطق ما تكاد تعوزه الحجج حتى يطرح ، دائماً ، كلمة من كلمات الإنجيل في الوقت المناسب ، على أنها حجة أخيرة شاملة لا ترد ! كلاً ، كلاً ، كلاً - ليس في وسع المرء أن يحدد ذلك تحديداً شديداً بالدرجة الثانية : فموجزات تولستوي التعليمية تنتمي (على الرغم من بعض التفاصيل العبقريّة التي لا بد منها) - ولتشجع ! لتشجع ! - إلى أكثر كراريس التعصب المذهبي ازعاجاً في الأدب العالمي ، وهي أمثلة ممقوتة من تفكير مشوش مُعْجَل .
 متكبر عنيد ، بل غير مخلص ، الأمر الذي يهز النفس بوجه خاص في صدد إنسان باحث عن الحقيقة مثل تولستوي .

ذلك لأن تولستوي ، الأخلاقي النبيل النموذجي ، والفنان الأكثر أصالة ، هذا الرجل العظيم الذي يكاد يكون مقدساً ، يلعب بالفعل لعباً رديئاً وغير مقنع . فلنكني يدخل كل العالم الذي لا يتناهى فكراً ، في جعبته الفلسفية ، يبدأ بقطعة فنية من ألعاب الشعوذة السحرية ، وبيان ذلك أنه يبسط أول الأمر كل المشكلات إلى أن تغدو ضئيلة في متناول اليد كأوراق اللعب . فهو يحدّد أولاً ، بمنتهى البساطة ، « الإنسان » ثم « الخير » ، « فالشر » ، « فالخطيئة » ، « فالشهوانية » ، « فالأخوة » ، « فالإيمان » . ثم يخلط الأوراق بعضها ببعض في مرجح ، ويسحب « الحب » ورقة رابحة ، وإذا هو رابح . ففي ساعة ضئيلة من ساعات الدنيا نم

حل اللعبة العالمية بأسرها ، تلك اللعبة التي لا نهاية لها ولا حل ، والتي يبحث عنها ملايين الأجيال من البشر ، على المنصة في ياسنايا بوليانا ، وإذا الرجل الشيخ تتولاه الدهشة وتشرق عيناه ببريق طفولي ، وتفتر الشفتان الهرمتان عن ابتسامة سعيدة ويتعجب ، ويتعجب ، « ما أبسط هذا كله ! » أجل إنه لمّا لا يمكن تفسيره أن كل الفلاسفة ، وكل المفكرين الذين يرقدون منذ ألف عام ، في ألف تابوت ، في ألف بلد ، قد أنهكوا عقولهم على نحو يشوش ويعذب ، بدلاً من أن يلاحظوا أن « الحقيقة كلها كانت ماثلة منذ عهد طويل ، وواضحة وضح الشمس ، في الانجيل ، إذا ما افترض بالطبع ، أن يفهمها المرء فهماً صحيحاً . مثلاً فهمها هو ، ليونيكولا يفتش في العام ١٨٧٨ ميلاد المسيح ، للمرة الأولى منذ ثمانية عشر قرناً » ، ويقوم أخيراً بتطهير الرسالة الربانية من « الطلاء » (وهو يقول حقاً مثل هذه الكلمات المستخفة بالدين ، بنصها الحرفي !) غير أن كل الجهود والمتاعب قد انتهت الآن إلى غايتها — ولابد للناس أن يتبينوا الآن مقدار البساطة الهائلة في قضاء هذه الحياة : فما يزعج المرء يتم نبذه بلا تردد . ويتم إلغاء الدولة ، والدين والذن ، والثقافة ، والملكية ، والزواج ، ببساطة ، وبذلك يتم القضاء على « الشر » وعلى « الخطيئة » إلى الأبد . وعندما يقوم الآن كل فرد بجراثة الأرض ببلده ، وبخبز الخبز ، وصناعة أحذيته ، لا يعود للدولة ، ولا للأديان وجود ، وإنما هي دولة الرب على الأرض . وحينئذ يكون « الرب هو المحبة ، والمحبة غاية الحياة » ، وإذا فُبعداً لكل الكتب ، ولا تفكير ولا إبداع فكر بعد الآن ، وإنما تكفي « المحبة » ، ومن الممكن أن يتحقق كل شيء منذ القل ، « لو أراد الناس فحسب » . ويبدو المرء كأنما يبالغ حينما يؤدي المضمون الصريح للآهوت

الدينيوي عند تولستوي ، غير أن من المؤسف أن تولستوي نفسه هو الذي يبالغ على هذا النحو الممقوت في حماسه التي تحاكي حماسة الداخلين في دين جديد . فما أجمل الفكرة الأساسية في الحياة عنده ، وما أوضحها ، وما أبعداها عن المُحاجة ، وهي انجيل اللاعنف : فتولستوي يطالب إلينا جميعاً بالسَّلمة ، وهي تواضع فكري . وهو ينهنا إلى استباق الثورة من الأسفل لنتجنب الصراع الذي لا مَعْدَى لنا عنه في التمايز المتصاعد للطبقات الاجتماعية ، وذلك بأن نبدأها أطوعاً من الأعلى ، ونقطع طريق القوة عن طريق المودعة المسيحية الأصلية في الوقت المناسب . أما الغني فينبغي له أن يضعي بثروته ، وأما المثقف فينبغي له أن يضعي بكبريائه ، وأما الفنانون فينبغي لهم أن يغادروا برجهم العاجي . ويقتربوا من الشعب عن طريق تفهمه . وينبغي لنا أن نلجم أهواءنا ، و « شخصيتنا البهيمية » ، وأن ننمي فينا ، بدلاً من حب الأخذ ، القدرة على العطاء وهي قدرة أكثر قداسة . ولا ريب أنها مطالب نبيلة تتوخاها كل أُنجيل العالم منذ أقدم العصور ، وهي مطالب خالدة ، إذ يتكرر التماسها من أجل ارتقاء البشرية ، أبداً مرة بعد أخرى . غير أن اللجاج المفرط عند تولستوي لا يكفي بما تكثفي به ضروب الأديان ، إذ تطالب بها على أنها الحد الأقصى لإنجاز الفرد ، بل يطالب ، وهو اللجوج بصورة طاغية ، بهذه الوداعة على الفور ومن الناس جميعاً ، وهو غاضب ، وهو يطالب بأن نتخلي . إنزولاً على أمره الديني ، عن كل شيء فوراً ، ونسلمه ، ونضعي به ، لنكون مترابطين في المشاعر . ويطلب إلى الشباب (وهو في الستين) العفة (التي لم يمارسها بنفسه وهو رجل أبلأ) ، ومن رجال الفكر اللامبالاة ، بل ازدراء الفن والنزعة الثقافية (وقد كرس لهما حياته

بأسرها ، ولكي يقنعنا بسرعة كبيرة ، بسرعة البرق تماماً ، بمدى ضياع ثقافتنا في التفاهة . يدمر بلغماته الغاضبة كل عالمنا الفكري . ولمجرد أن يجعل العفة الكاملة أكثر إغراء بالقياس إلينا يبصق على كل ثقافتنا الراهنة ، وعلى فنانيها ، وعلى أدبائها ، وعلى تقنيتنا وعلومنا ، ويلجأ إلى أفحش ضروب المبالغة ، إلى الأباطيل الصارخة السمجة ، وهو في الحقيقة يشتم نفسه دائماً ويحقّرهما أولاً ، ليكون له منطلق حرّ إلى الهجوم على كل الآخرين . وعلى هذا النحو يسود وجه أنبل النوايا الأخلاقية بمكابرة وحشية لا يُبعد أيّ تصعيد مفرطاً بالقياس إليها ، ولا أيّ خلداع سمجاً . أم هل يعتقد امرؤ حقاً ، أن ليو تولستوي الذي كان طبيب خاص يفحصه بالسّماعة ويرافقه في كل يوم ، كان ينظر إلى الطب والأطباء على أنهما « من الأشياء التي لا ضرورة لها » ، وإلى القراءة على أنها « خطيئة » ، وإلى النظافة على أنها « ترف لا لزوم له » ؟ وهل قضى حياته ، وهو الذي تملأ أعماله رفّاً ، بالفعل طفليّاً إلا نفع فيه ، و « قمل ورق » ، وبالطريقة المبالغ فيها بأسلوب التقليد الخزلي ، بالفعل ، كما يصوّرها هو نفسه على النحو التالي : « أنا أكل ، وأثرثر ، وأستمع ، وأكل مرة أخرى ، وأكتب وأقرأ ، أي أنني أعود إلى الحديث والاستماع مرة أخرى ، ثم أكل مرة أخرى ، وألعب ، وأعود إلى الأكل والحديث مرة أخرى ، ثم أكل مرة ، وأذهب إلى النوم » أعلى مثل هذا النحو بالفعل نشأت روايتنا « الحرب والسلام » و « أنا كارنينا » ؟ أولاً تعني الموسيقى بالقياس إليه ، وهو الذي تفيض دموعه بمجرد أن يعزف عازف سوناتات شوبان ، شيئاً سوى « قربة الشيطان » ، مثل جماعة الأصدقاء ذات الأفق المحدود (١) ؟ أيعدّ

(١) Quaker جماعة دينية أسست في القرن السابع عشر في بريطانيا ، تؤمن بالصلة المباشرة بين المؤمنين والرب ، وتلني الطقوس الدينية ، وتنادي بالتعفف عن الشهوات ، والسلام العالمي « المترجم »

بتهوفن حقاً « محرضاً للشهوات » ومسرحيات شكسبير « سخفاً لاشك فيه » وعمل نيتشه « لغواً فظاً مفخماً على نحو فارغ » ؟ أم تعد أعمال بوشكين « لا تصلح إلاّ » ليستخدمها الشعب ورق لفافات ؟ وهل يعد الفن عنده ، وهو الذي خدمه خدمةً أروع من أي امرئ آخر ، بالفعل مجرد « ترف للعاطلين » ، وهل يكون الحياط جريشاً ، والحداء بيوتر عنده مرجعين عالميين أعلى من حكم لتورجينييف أو دوستويفسكي ؟ أكان يعتقد جاداً ، وهو نفسه الذي كان داعراً لا يعتره الكلال في شبابه ، ثم أنجب في سرير الزوجية ثلاثة عشر طفلاً ، إن كل عزب خليق أن يغدو ، بتأثير نداءاته ، دفعة واحدة خصيصاً ، ويَسْجُب نفسه ؟ فالمرء يرى تولستوي يبالغ كالمسعود ، ويبالغ عن ضمير غير نقيّ ، لكيلا يلاحظ المرء أنه أدلى « ببراهين » مفرطة في الوهن . وفي بعض الأحيان يبدو شعوراً أولياً ، بأن هذا السخف الصاخب يقضي على نفسه بنفسه عن طريق ذلك الغلو فيه بالذات ، محيماً بظلامه حتى في الأعماق الخرجة من وعيه . ويكتب ذات مرة قائلاً : « ليس لديّ إلاّ القليل من الأمل في أن يقبل الناس براهيني ، أو حتى في مجرد مناقشتها مناقشة جادة » وهو محقّ في ذلك على نحو رهيب ، ذلك لأن قليلاً جداً من الناس كانوا يستطيعون مجادلة هذا الذي يدعي التسامح أثناء حياته — وتقول زوجته متنهاة : « لا يستطيع المرء أن يقنع تولستوي ، ولا يسمح له حبه لنفسه أبداً أن يعترف بخطأ » . هذا ما ترويه أفضل صديقة له — ، وإنه لمن الحماقة أن يُقدّم امرؤ على الدفاع عن بتهوفن أو شكسبير في مواجهة تولستوي بصورة جدية . ومن كان يحب تولستوي فالأفضل أن ينفَضَّ عنه حين يبدأ الرجل الشيخ بالكشف عن عريه المنطقي كشفاً فاضحاً ، ولم يفكر أي رجل

يحسب له حساب ثانية واحدة ، أن يقف بالفعل تيار ألفي عام من
إضفاء الفكر على الحياة وقفاً مفاجئاً مثلما يعلق المرء
صنبور الغاز من أجل نزوات تولستوي هذه اللاهوتية ،
وأن يقذف بأقدس قيمنا إلى المزبلة . ذلك لأن قارتنا الأوروبية ،
التي لا يعدُّ أهلاً لها إلا مفكر مثل نيتشه ، وحيث لا يجعل أرضنا الثقيلة
فيها صالحة للسكنى حقاً إلا متعة الفكر ، هذه القارة الأوروبية لم
يكن يطيب لها - يعلم الله - أن تسمح نفسها فجأة ، وبأمر أخلاقي ،
أن تكتسب السمة الفلاحية ، والسداجة والسخافة ، Obschuerer
وأن تزحف طائفة مختارة ، إلى الخيمة الجلدية ، وأن تتنكر لماضي
فكري رائع على أنه خطأ « آثم » . لقد كان مما ينطوي على الاحترام
بما يكفي ، وسيكون كذلك دائماً ، ألا نخاطب بين تولستوي الأخلاقي
المثالي ، والمدافع البطولي عن الضمير ، وبين محاولاته اليائسة لتحويل
أزمة عصبية إلى فلسفة للحياة ، وتحويل الخوف المتصل بما يشبه سن
الياس عند النساء إلى اقتصاد قومي . وسوف نميز دائماً بين الدوافع
الأخلاقية النبيلة التي نشأت عن حياة هذا الفنان البطولية ، وبين التعويذة
الحضارية المتسمة بسمة الغضب الفلاحي لذلك الشيخ الهارب إلى النظرية .
لقد عمق جيد تولستوي وموضوعيته ضمير جيلنا على نحو لا مثيل
له ، غير أن نظرياته الاكتئابية تمثل محاولة اغتيال لبهجة الحياة ، ورغبة
رهبانية تقشفية في رد حضارتنا إلى مسيحية أصولية لا سبيل إلى إعادة
أفكارها ، اخترعها لإنسان ما عاد مسيحياً ، ولذلك فهو يعد فوق المسيحية .
كلاً ، نحن لا نعتقد أن « العفة تحدد مصير الحياة كلها » ، وأنه ينبغي
لنا أن نستترف الدم من شرايين عاطفتنا الدنيوية ، ونثقل ظهورنا بمجرد
الواجبات ، وكلمات الكتاب المقدس : ونحن لا نثق بمفسر لا يعرف

شيئاً عن طاقة السرور المثمرة والمنعشة للقوى ، من حيث كونه باعثاً واعياً للفقر والظلام في اللهب الحر لحواستنا ، وفي أشد ضروب هذا العبث تسامياً وسعادة : في الفن . ونحن لانريد أن ننزل عن شيء من منجزات الفكر والتقنية ، ولا عن شيء من تراثنا الغربي : لا ننزل عن شيء ، لا عن كتبنا ، ولا عن صورنا ، ولا عن مدننا ، ولا عن علومنا ، لا ننزل عن شبر ولا عن حبة من واقعنا الحسيّ المرثي لأي فيلسوف ، ولا سيّما لفيلسوف رجعيّ ، مكتئب ، يدفعنا إلى الأرض المقفّرة ، وإلى بلاده الدهن . ولا نستبدل بالخصوبة المربكة في حياتنا اليوم أية بساطة ضيقة ، مقابل أية سعادة عادية ، ونحن نؤثر بصراحة أن نكون « خاطئين » على أن نكون بدائيين ، ولأنّ نكون عاطفيين خير لنا من أن نكون أضياء وطيّين . ومن في خزانة أجل ذلك وضعت أوروبا كل ملف نظريات تولستوي الاجتماعية الملفّات الأدبية ببساطة ، في تقدير لإرادته الأخلاقية المثالية ، غير أنّها نبذتها اليوم وإلى الأبد . ذلك لأن المرتدّ إلى الوراء والرجعيّ لا يمكن قطّ أن يكون مبدعاً ، حتى ولو نهض به فكرٌ على هذا الجانب من الروعة ، ولا يستطيع كل ما يصدر عن الاضطراب النفسيّ الشخصي أبداً أن يحرّر الروح العالمية من الاضطراب : ولذلك نقول مرة أخرى وبصورة حاسمة : إن تولستوي ، مع كونه أقوى من قلب أرضية عصرنا بتقده ، لم يتحوّل ولا ببذرة واحدة ، إلى واضع لبذور مستقبلنا الأوروبي ، وهو يعدّ في ذلك روسيا خالصاً ، ويعدّ بصورة كاملة عبقرية عرقه وجنسه .

ذلك لأنه لا ريب في أن هذا قد كان هو المعنى والرسالة للقرن الروسيّ الأخير ، وهو نبش كل الأعماق الأخلاقية ، باضطراب

مقدس واندفاع للمعاناة لا يلوي على شيء ، والتنقيب عن كل المشكلات الاجتماعية وتعريفها حتى الجذور ، وليس هناك حد لتقديرنا للإنجاز الفكري الجماعي لفنانيه العباقرة . وحينما ننقب بزيد من العمق ، وحين نعرف كثيراً من الأمور معرفة أكثر حزماً وتصميماً ، وحين تلوح لنا مشكلات العصر ، ومشكلات الإنسان الخالدة بنظرة أكثر حزماً ومأساوية وقسوة من ذي قبل ، فانما ندين بهذا لروسيا ، وللأدب الروسي ، كما ندين له أيضاً بكل الاضطراب المبدع المؤدي إلى التحقق الجليد من الحقيقة القديمة . فكل تفكير روسي إنما هو اختصار للفكر ، وطاقمة متوسعة متوثبة ، غير أنه ليس بتصفيّة لأجواء الفكر مثل تفكير سبينوزا ومونتاني وبعض الألمان ، وهو يسهم إسهاماً رائعاً في توسيع آفاق العالم النفسية ، وما من فنان في العصر الحديث قلب أرض النفس حرائق ونبشها مثل تولستوي ودوستويفسكي ، فأما النظام ، النظام الجليد ، فلم يسبهما ، كلاهما ، في إنشائه ، وحيثما ينفسان عما في نفسيهما من فوضى خاصة ، وتردّ في هُوّة نفسية ، في صورة معنى للعالم ، عند ذلك ننفصل عن حلّهما . ذلك لأن تولستوي ودوستويفسكي ، كليهما ، ينقلان نفسيهما من الفزع الخاص ، وهما يتجاوزان العدمية التي فغرت فاها وما من جسر يُضرب فوقها للعبور ، من خوف أولي فطري إلى رجعية دينية ، وكلاهما يتشبث ، لكيلا يتردّى في هُوّته الداخلية ، تشبثاً عبودياً بالصليب المسيحي ويغشيان العالم الروسي بالغيوم في ساعة كان فيها برق نيتشه المطهر ينسف كل سموات الخوف القديمة ، ويضع في يد الإنسان الأوروبي الإيمان بقوته وحرّيته مثل مطرقة مقدسة .

ولمّا المسرحية خيالية : فتولستوي ودوستويفسكي ، هذان الإنسانان

الأشدّ بأساً في وطنهما ، كلاهما ينتابه الفزع ، وتتملكه رعدة
 رؤيويّة (١) ، فيخرجان من عملهما ، ويرفعان ، كلاهما ، الصليب
 الروسي ويستحضران ، كلاهما ، المسيح ، وكل منهما يدعو امرأ
 آخر ليكون منقذاً ومخلصاً لعالم مشرف على الغرق . وهما يقفان كراهبين
 لهائجين مفتونين من العصور الوسطى ، كلٌّ على منبره ، يناويء أحدهما
 الآخر في الفكر ، شأنهما في الحياة — فأماً دوستويفسكي فرجعيّ
 لدود ، ومدافع عن حكم النبلاء ، وداعية للحرب والإرهاب ، مفتون
 بسيكّر سلطان القوة المتصاعدة ، وعبد للقيصر الذي رجّ به في السجن .
 وهو عابد لمسيح امبرياليّ يغزو العالم . وقبائلته تولستوي ، يسخر ،
 في عصبية مماثلة ، مما يمجده ذاك ، وهما يستويان ، هذا في صوفيّته
 وفوضويّته ، وذاك في تدلّله الصوفي ، على حين يشهرّ تولستوي
 بالقيصر قاتلاً ، وبالكنيسة والدولة لصيّن ، ويلعن الحرب ، ولكن
 المسيح على شفّيته ، والإنجيل في يديه بصورة مماثلة — غير أن كليهما
 يدفع بالعالم إلى التواضع والبلادة ، على نحو رجعي بدافع رعب خفيّ
 في النفس المزعزعة . ولابد أن شعوراً أولياً تنبؤياً قد استكنّ في كليهما
 حتى أخذوا يصبّان خوفهما الرؤيويّ ، وهما يصرخان صراخاً شديداً ،
 على شعبهما . إنه الشعور الأوّل بنهاية العالم . ويوم الحساب . وهو
 المعرفة المستيقنة . بأن الأرض الروسية تحت أقدامهما . كلنت توافّة إلى
 الرّجفة الهائلة . إذ ما عسى أن يكون ذلك الذي يولّد الفقر ورسالة
 الشاعر ، إذا لم يكن هو هذا المتمثل في الإحساس المستقبقي بصورة
 تنبؤية ، بالنّازي في عصرنا ، وبالرعد في السحب ، وفي توتره وتمزّقه
 بالعذاب في مخاض الولادة في شكل جديد ؟ وهما يناديان بالتكفير

(١) نسبة إلى سفر الرؤيا

كلاهما معاً ، نبيّين غاضبين قد استشاطا حباً ، يقفان وقد لفّهما ضوء مأساوي ، عند باب نهاية للعالم ، وهما يحاولان مرة أخرى أن يُدفعوا المهوّل الذي غدا يرفّ بجناحيه في تضاعيف الهواء ، شخصيتين عملاقين من العهد القديم لم يرَ قرننا بعدُ مثيلاً لهما .

غير أنهما لا يقدران إلاّ على الشعور الأوّلي بما هو في حالة الصيرورة ، فأما تحويل مسيرة العالم فلا . فدوستوييفسكي يسخر من الثورة ، وإذا القنبلة التي تمزّق القيصر تنفجر بُعيد جنازته ، وتولستوي يدين الحرب ويطالب بالحب على الأرض : فلا تكاد الأرض تخضّر أربع مرات فوق تابوته وإذا اقتتال بين الإخوة كأشد ما يكون الاقتتال رهبة يسمّ العالم بمسيّم العار . أما شخصياته ، تلك الشخصيات التي تدمّ نفسها في فنه ، فتبقى على الزمن ، غير أن مذهبه تطير به أول نفخة ونسمة . أما انهيار دولته الربانية فلم يشهده بعد ، غير أنه أحس به إحساساً غامضاً ، وذلك أن الخادم يأتيه ، وهو في السنة الأخيرة من حياته ، بكتاب ، وهو جالس يهدوء في حلقة من الأصدقاء ، فيفتحه ويقرأ :

« كلاً ، يا ليونيكولايفتش ، لا أستطيع أن أوافقك على أن العلاقات البشرية يمكن إصلاحها عن طريق المحبة وحدها . فهذا أمر لا يقدر عليه إلاّ من حسنت تربيته ، أي أولئك الذين يتمتعون بالشبع دائماً . ولكن ماذا تريد أن تصنع حيال أولئك الذي يعانون من الجوع منذ الطفولة ، ويتضورون جوعاً طوال حياتهم وهم تحت نير الطغاة ؟ إنهم سيكافحون ويكلمحون ليتخلصوا من العبودية . وأنا أقول لك عشية موتك ، يا ليونيكولايفتش ، إن العالم سينفك بعدُ في الدم ،

ولن يكتفي الناس بقتل الأسياد أكثر من مرة ، دونما تمييز في الجنس ، بل سيقولون أبناءهم ويمزقونهم إرباً ، لكيلا تتوجس الأرض من هؤلاء أيضاً شيئاً من الشر . ويؤسفني أنك لن تشهد بعد هذا الزمان ، لتستطيع أن تكون بنفسك شاهد عيان على خطئك . أتمنى لك موتاً وادعاً » .

وما من أحد يعرف من كتب هذا الكتاب الحافل بالنُدُر . أكان تروتسكي ، أم لينين أم أي ثوري آخر من الثوريين المجهولين الذي أرموا في شلوسلبرج (١). لن نحيط بذلك علماً أبداً . ولكن ربما يعرف تولستوي في تلك اللحظة أن مذهبه كان دُخاناً وعبثاً مناقضاً للواقع ، وأن العاطفة المحتملة المستعيرة ستكون في كل زمان أقوى بين البشر من فضيلة الأخوة . وفي تلك اللحظة اكتسب حياته طابع الجلد — كما يروي الشهود — فأخذ الورقة وذهب بها مطرقاً إلى حجرته ، وعلى هامته العجوز رفةً باردة من ذلك الشعور المُسبِق .

* * *

(١) Sch Euesselbug بلدة صغيرة تبعد نحو ستين كم عن لينغراد كانت في عهد القيصرية موضع نزاع بين سيطرة السويديين وسيطرة الروس ، ولها حصن قديم قائم على جزيرة في نهر نيفا ، ويبدو أنه هو المقصود بالمدفن المشار إليه هنا «المترجم»

الكفاح من أجل الطبعة

ان كتابة عشر مجلدات في الفلسفة
أيسر من تحقيق مبدأ واحد بالممارسة.
اليوميات ١٨٤٧

على أن تولستوي الذي يثابر في تلك السنين مثابرة شديدة على تصفح
الانجيل، ما كان ليقرأ فيه هذه الكلمة التنبؤية من دون أن يتزعزع، وهي:
« من يزرع الريح يحصد العاصفة » ، ذلك لأن هذا المصير يتحقق الآن
في حياته الخاصة . فما من إنسان واحد . ولا سيما إنسان عملاق ،
يقذف باضطرابه الفكري في العالم من دون كفارة : فبالف وجه يتفاهم
الهباج في اندفاعه ارتدادية إلى صدره . ولسنا بقادرين اليوم أبداً ،
إذ فتر النقاش منذ عهد طويل ، على أن نقدّر أية آمال متعصبة ألهمت
رسالة تولستوي في نداءها الأول ، في العالم الروسي ، وفي العالم كله
من ورائه . ولا بد أنه كان غليظاً نفسياً ، بعثاً عنيفاً لضمير شعبي بأكمله .
وعبثاً تحظر الحكومة كتابات تولستوي المذهبية على عجل ، إذ روّعها
مثل هذا الأثر المخرب . فهذه الكتابات تتسلّل في نسخ بالآلة الكاتبة ،
من يدٍ إلى يد ، كما يتم تهريبها بفضل الطباعات الأجنبية . وكلما ازداد
تولستوي جرأة في مهاجمة عناصر النظام القائمة حتى ذلك الوقت ،
وهي الدولة والقيصر والكنيسة ، وكلما ازدادت مطالبته بنظام عالمي

أفضل لإخوته في الإنسانية ، ازداد توجهه قلب الإنسانية المفتوح لكل رسالة من رسالات الخلاص ، اندفاعاً نحوه . ذلك لأن علمنا الأخلاقي ظلّ ، على الرغم من الخطوط الحديدية والمذيع والبرقية ، وعلى الرغم من المجهر وكل السحر التقنيّ ، يحافظ على ترقّبه للخلاص ، ترقّب وضع أخلاقيّ أسمى ، مثلما كان الأمر بالضبط في أيام المسيح أو محمد (ص) أو بوذا . ففي نفوس الجماهير التواقّة أبداً إلى العجائب يعيش ويهتزّ بالحياة شوق ما يفتأ يتجدّد ، إلى قائد ومعلم . ولذلك فكلما توجه لإنسان ، فرد ، يبشرى إلى الإنسانية فائماً يمسّ عصب هذا الشوق إلى الإيمان . وينهال استعداداً للتضحية مُخْتَرَنٌ لا ينضب ، على كل من يستجمع شجاعته ، ويقف ، ويتجرأ على أن يقول أكثر الكلمات انطواءً على المسؤولية : « أنا أحيط علماً بالحقيقة » .

وهكذا تتوجه أنظار الملايين من النفوس ، في كل أنحاء روسيا ، عند نهاية القرن ، نحو تولستوي . ولما يكذب يعلن رسالته الرسولية . « فالاعتراف » الذي يعدّ بالقياس إلينا ، منذ عهد بعيد ، مجرد وثيقة نفسية ، يسكير الشباب المؤمن كأنما هو إعلان للرسالة . ويهتفون « وأخيراً قام رجل عملاق وحرّ ، وهو فوق ذلك أكبر أدباء روسيا ، بالإعراب عما كان حتى الآن مجرد شيء يشكو منه المحرومون ، ويتهمس به أنصاف الأقدان سراً : وهو أن النظام الراهن للعالم غير عادل ، وغير أخلاقيّ ، وهو من أجل ذلك غير قابل للبقاء ، ولا بد من العثور على صيغة جديدة أفضل . لقد اكتسب كل الساخطين حافزاً لم يكونوا يؤمنونه ، ولم يكن ذلك في الحقيقة من لدن أحد محترقي الكلام عن التقدم ، بل من فكر مستقل ونزيه لا يجرؤ أحد على أن

يرتاب في مصداقيته وإخلاصه ، وهم يسمعون أن هذا الرجل يريد أن يتقدم ضارباً المثل بحياته الخاصة ، وبكل تصرف في حياته الظاهرة للملأ ، فهو يريد أن يتنازل عن امتيازاته نبيلاً ، وعن ثروته رجلاً غنياً وأن ينتظم بتواضع في الجماعة الكادحة من الشعب الكامل بحكم كونه واحداً من المالكين والكبار . وتجول رسالة غلّص المحرومين حتى تبلغ الجهلة من الفلاحين والأميين . وإذا الحواريون الأوائل ياتشمون ، وتأخذ طائفة التولستويين بتحقيق كلمة أستاذهم وفق إيمان حربيّ ، ووراءهم يستيقظ ويتنظر جمهور المقهورين الذي لا يمكن تجاهله . رهكذا تنوق ملايين القلوب ، وتتعج ملايين الأبصار نحو تولستوي الداعية ، وتنظر نظرة المتلهّف إلى كل فعل ، وإلى كل صنيع في حياته التي غدت ذات شهرة عالمية . « لقد تعلّم هذا ، ولسوف يعلمنا » .

غير أن من الغريب أن تولستوي يبدو في الأصل كأنه لا يحس على الإطلاق فداحة المسؤولية التي يأخذها على عاتقه . ومن البدهي أنه كان واضح الرؤية بما يكفي ليحس أن من الواجب على المرء بحكم كونه مبشراً ألا يدع مثل هذا المذهب في الحياة ماثلاً على الورق حروفاً باردة ، بل يجب أن يحققه تحقيق القدوة ضمن حياته الخاصة . غير أنه يحسب أنه أدّى ما فيه الكفاية — وهذا هو خطأ بدايته — حين يشير إشارة رمزية فحسب إلى إمكان تحقيق مطالبه الجديدة ، الاجتماعية والأخلاقية ، في أسلوب حياته ، ويلوح من حين إلى آخر بإشارة استعداد مبدئي . فهو يلبس لباس فلاّح ليموّ الفرق الظاهري بين السيد والأجير ، ويعمل في الحقل بالمنجل والمحراث ، ويدع

ريبيين يصوره في هذا الوضع في لوحة زيتية ليستطيع كل امرئ أن يتحقق على نحو واضح جليّ: "إنني لا أحس بالعمل في الحقل، العمل الحشن الشريف من أجل القوت، عاراً، وما من أحد ينبغي له أن ينجل منه، وإلاّ فانظروا، ها أنذا، ليو تولستوي، بنفسه، وأنا من تعرفون جميعاً، أنا الذي ما كان ليحتاج إلى ذلك، والذي كان انجازه الفكري يعفيه كل الإعفاء، وأنا آخذ هذا على عاتقي بسرور. ولكيلا يصم نفسه بخطيئة الملكية بعد ذلك، ينقل ملكية أملاكه، المنقولة وغير المنقولة وكانت في تلك الأيام أكثر من نصف مليون روبل، إلى زوجته وأسرتة، ويرفض أن يتلقى من بعد ذلك مالاً أو ما هو بقيمة ائثال من أعماله، ويمنح الصدقات، ويهب لأكثر من يحدّثه من الناس بعداً عنه وأدناهم شأناً، وقتّه في زيارات ورسائل، ويقابل كل باطل وكل ظُلّامة على الأرض بحجة أخوية تنطوي على الشّهامة، ولكن سرعان ما يضطر مع ذلك إلى أن يبيّن أنه ما زال يُطلّب منه أكثر من ذلك. ذلك لأن الجمهور الكبير الفظّ من المؤمنين، أي ذلك «الشعب» الذي يبحث عنه بكل حواس نفسه، لا يجد غناءً في تلك الرموز الفكرية المقصودة المنطوية على إذلال النفس، بل يطلب المزيد من ليو تولستوي: التنازل الكامل، الذوبان الكامل في بؤسه وشقائه، فالمؤمنون والمقتنعون بحق لا يُوجدُهم دائماً إلاّ صنيع الاستشهاد — ومن أجل ذلك يوجد دائماً عند بداية كل دين رجل يتسم بالتضحية الكاملة بالنفس — أما الموقف التلمحيّ، الواعد فحسب، فلا يصنعهم أبداً. وكل ما فعله تولستوي حتى ذلك الوقت ليدعم مذهبه من حيث إمكان تطبيقه، لم يكن أكثر من مجرد لفظة تنطوي على إذلال النفس، وفعل رمزي بأسلوب ديني يمكن قياسه إلى ذلك الذي تفرّضه الكنيسة الكاثوليكية على البابا، أو على القيصر

ذي الإيمان القوي ، و أن يغسلا أقدام اثني عشر شيخاً في يوم أربعاء الغسل ، وبذلك يعلن ويؤمن للشعب أن أحقر الممارسات لا تحقير حتى أكبر مَنْ في الأرض . ولكن البابا ، أو امبراطور النمسا انسابيا ، لم يكونا لينزلا عن سلطانهما عن طريق هذا الفعل التكفيري المتكرر مرة في العام ، ويتحولوا إلى عبيد غُسْلٍ حقاً ، إلا بمقدار ما يغدو الأديب والنيل الكبير ، عن طريق هذه الساعة ، بالمخز والعمل ، حذاءً ، وعن طريق ساعتين من العمل في الحقل فلاحاً ، وعن طريق نقل ملكية الثروة إلى أهل بيته ، سائلاً حقيقياً . وقد كان تولستوي إنما يبين إمكانية تطبيق مذهبه ، غير أنه لم يطبقه . ولكن هذا بالضبط هو ما كان الشعب ينتظره من ليو تولستوي ، إذ لا تكفيه الرموز (عن غريزة عميقة) ولا يقدر على إقناعه إلا تضحية كاملة . ذلك لأن الأتباع الأوائل يفسرون دائماً مذهب أستاذهم تفسيراً أكثر دقة وحرفية وصرامة والتزاماً بالنص من المعلم نفسه . ومن أجل ذلك كانت خيبة الأمل العميقة ، إذ كان لابد لهم أن يلاحظوا ، وهم يحجون إلى نبي الفقر الطوعي ، أن فلاحي ياسنايا بوليانا ما يزالون يتقلبون في البؤس مثلما هي الحال بالضبط في مقار النبلاء الآخرين ، أما ليو تولستوي ، فما زال كعهده من قبل تماماً ، يستقبل الأضياف نييلاً في بيت أسياد وعلى طريقة السادة ، وبذلك ما زال ينتمي إلى « طبقة الناس الذي يسلبون الشعب ما هو ضروري عن طريق أساليب بارعة شتى » أما ذلك النقل للثروة الذي أعلن بصوت عال فلا يدخل أذهانهم على أنه تنازل حقيقي ، ولا عُدُّه على أنه فقر ، وهم يرون الأديب ما يزال يستمتع استمتاعاً كاملاً بكل أسباب الرفاهية الموجودة حتى ذلك الوقت ، وحتى ساعة الفلاحة وخصف النعل لا تقدر على إقناعهم

بجال من الأحوال . « أي إنسان هذا الذي يعظ بشيء ويفعل شيئاً آخر ؟ »
كذلك يغمغم فلاحٌ شيخٌ ساخطاً ، وأقصى من ذلك ما يعبر عنه الطلاب
والشيوخ الحقيقيون حيال هذا التذبذب الملتبس بين المذهب والفعل .
وشيثاً فشيئاً تنتاب خيبة الأمل من موقفه في منتصف الطريق ، حتى
أكثرَ الأتباعِ اقتناعاً بنظريته : فالرسائل ، والهجمات الغوغائية في
الغالب تذكره على نحو يزداد عنفاً باطراد : إمّا التبرؤ وإما تطبيق
المذهب أخيراً بنصّه الحرفي ، لا في مجرد أمثلة رمزية في المناسبات .

وأخيراً يتبين لتولستوي نفسه ، وقد أفرعه هذا النداء ، ما يثير
من ادعاء هائل للحق ، وأن ما يستطيع أن يبعث الحياة في رسالته
ليس بالقول الفصل ، وإنما هو مجرد حقيقة ، وليس مثلاً تحريضياً ،
بل مجرد قلب كامل لصياغة نمط الحياة . فمن يقف على المنبر متحدثاً
إلى الملأ بأذلاً للوعود في ذروة القرن التاسع عشر ، وقد سُلطَ عليه
ضوء المجد الساطع من مصباحه العاكس ، تحرسه ملايين الأزواج من
العيون ، لا بدّ له أن يقوم بالتنازل الحاسم عن كل حياة خاصة تنطوي
على التهاون ، ولا يجوز له أن يقتصر على الإشارة في المناسبات ،
عن طريق الرموز ، بل يحتاج من حيث كونه شاهداً عدلاً إلى فعل
التضحية الحقيقي . « فلن يكون المرء مسموعاً لدى الناس لا بدّ له
أن يزيد الحقيقة صلابة عن طريق المعاناة ، وخير من ذلك أن يكون
عن طريق الموت » . وهكذا يتنامى في وجه تولستوي ، فيما يتصل
بحياته الخاصة الترام لم يكن ذلك العقائديّ الرسوليّ يخطر له قطُّ ببال .
ويأخذ تولستوي ، وقد أخذته الرعدة والذهول ، وهو غير واثق
من قوته ، مروّعاً في أعماق نفسه ، الصليب على عاتقه ، وقد

شحنه بمذهبه ، أي أنه ينبغي منذ الآن أن يصوّر بكل سلوك في حياته مطالبته الأخلاقية بغير توقف ، وأن يكون في وسط عالم يهوى السخرية والثرثرة ، خادماً مقدساً لقناعته الدينية .

أما قولنا : « مقدساً » فقد قلناه على الرغم من كل سخرية باسمه :
فما من شك في أن المقدّس يبدو بادیء ذي بدء في عصرنا الفاقد للأحلام غير معقول ومستحيلًا بصورة كاملة ، فهو مفارقة تاريخية تنتمي إلى العصور الوسطى المنسية . غير أن الشعارات والقشرة الخشبية الحضارية لكل نموذج نفسيّ هما وحدهما اللذان يخضعان للزوال . فكل نموذج بذاته يعود أدراجه حسب دوره المتسلسل وعلى نحو قسريّ مرة بعد أخرى ، في لعبة التناظرات تلك التي لا يمكن تجاهلها ، والتي نسميها تاريخاً . فبأشياء ، وفي كل عصر ، سيضطّر أناس إلى أن يجربوا حياة مقدسة ، لأن الشعور الديني لدى البشرية ما يفتأ يحتاج إلى هذه الصورة النفسانية العليا من جديد ويوجد لها ، إلا أن تطبيقها الكامل لا بد أن يتبدّل من حيث الظاهر مع تبدل الزمن . على أن مفهومنا عن إشراق الحياة بالقداسة بفعل الحرارة الفكرية ما عادت له صلة بالشخصيات المنقوشة على الخشب ، شخصيات الأسطورة الذهبية ، وجمود آباء الصحراء المماثل لجمود الأعمدة ، ذلك لأننا قد فصلنا ، منذ عهد طويل ، شخصية المقدّس عن مقولة المجامع اللاهوتية ، والمجامع التي تنتخب البابا — « فالمقدس يعني بالنسبة إلينا اليوم مجرد « البطولي » ، بمعنى التضحية الكاملة بالحياة من أجل فكرة عاشها امرؤ ما على نحو ديني . ولا يبدو لنا الوجد الذهني ، والوحدة المتكررة للعالم عند نيّشه (*) ، أو الاستغناء الذي يهزّ النفس عند صقّال الماس بأمرّ دام(*) ، أقلّ بشير واحد من

(*) إشارة إلى الفيلسوف المعروف باروخ سبينوزا الذي مارس حرقة صقل الماس في

قبرة من حياته

« المترجم »

وجد امرئ متعصب يجلد نفسه بالشوك . فحتى فيما وراء كل معجزة ، في عالم الآلة الكاتبة والضوء الكهربائي ، في مدنا التي يمكن أخذ مقطع عرضي لها ، والمترعة بالإشراق ، والتي تفيض بشراً ، ما يزال المقدس الفكري في صورة شهيد الضمير ، ممكناً بعدُ حتى في هذه الأيام ، إلا أننا ما عدنا في حاجة إلى أن ننظر إلى هؤلاء الرائعين والناشرين نظرنا إلى معصوم عن الخطأ عصمة ربّانية ، وإلى امرئ لا سبيل إلى الطعن فيه من زاوية أرضية ، بل الأمر على النقيض : فنحن نحب هؤلاء المجريين العظام ، هؤلاء الممتحنين امتحاناً خطيراً بوجه خاص في أزماتهم وضروب صراعاتهم ، ونحن نحبتهم أعمق الحب ، لا على الرغم من كونهم غير معصومين بل لكونهم غير معصومين . ذلك لأن جيلنا ما عاد يريد أن يمجّد المقدسين لديه على أنهم مبعوثون من الله ، من عالم سماويّ أخروي ، بل على أنهم أكثر البشر قاطبة التصاقاً بالأرض .

ومن أجل ذلك يؤثّر في نفوسنا، من محاولة تونستوي الهائلة للوصول إلى الصيغة النموذجية لحياته أكبر تأثير بوجه خاص تذبذبهُ ، على أن كونه يعجز إنسانياً في اللحظة الأخيرة لبلوغ المراد، يبدو لنا أكثر زعزعة للنفس مما كانت قدسيته خليقة أن تكون بالنسبة إلينا ، وهكذا تبتدئ المأساة ! . ففي اللحظة التي ينهض فيها تولستوي بالمهمة البطولية المتمثلة في الخروج على أنماط الحياة التقليدية المرتبطة بالعصر . وتحقيق تلك الأنماط من الحياة التي يملئها ضميره ولا ترتبط بعصر من العصور ، تتحول حياته بالضرورة إلى مسرحية مأساوية أكبر من أية مسرحية رأيناها منذ عهد ترمّد فريدريش نيتشه واضمحلاله . ذلك لأن مثل

هذا الانعتاق القسري من كل العلاقات المتشابكة للعائلة ، وعالم النبلاء ، والأمل ، وشرائع العصر ، لا يمكن أن يحدث أبداً من دون أن يمزق مجموعة متضافرة من الأعصاب تضم آلاف الأعضاء ، ومن دون أن يصيب نفسه وذويه بأشد الجروح إيلاماً ، غير أن تولستوي لا يخاف الألم بحال من الأحوال ، بل على التقيض من ذلك ، فهو بحكم ، كونه روسياً أصيلاً ، وبالتالي متطرفاً ، يتعطش إلى العذاب الحقيقي بالذات على أنه البرهان الجلي على أصالته ، فلقد سئم الرفاهية في حياته منذ عهد طويل ، فالسعادة العائلية السطحية ، ومجد أعماله ، وتوقير أصحابه يثير اشمئزازه — ودونما وعي يتوق الإنسان المبدع فيه إلى مصير أكثر توتراً وأكثر تعدداً في جوانبه ، إلى امتزاج أعمق بطاقات البشرية الهائلة ، إلى الفقر والبؤس والمعاناة التي يدرك معناها الإبداعي منذ أزمته للمرة الأولى ، فهو يود^١ ، لكي يقيم الدليل على نزاهة مذهبه في التواضع بطريقة رسولية ، أن يعيش حياة أكثر البشر وضاعة ، من دون بيت ، ولا مال ، ولا أسرة ، ملوثاً بالأقدار ، مُتَصَبِّلِكاً ، مزدري ، مضطهداً من جانب الدولة ، مطروداً من الكنيسة . وهو يود^٢ أن يعاني بجسده وجوارحه وعقله ما يصفه في كتبه على أنه الصورة الأهم ، والصورة الوحيدة للإنسان الحق^٣ الذي يتزع إلى الروح : ألا وهو الشريد الذي لا يملك شروى نقيير ، والذي تُسْفِيه رياح القدر كورقة من أوراق الخريف . وتولستوي يسعى — حيث ينشئ التاريخ ، الفنان الكبير ، هنا مرة أخرى إحدى نقائضه (*) العبقريّة والساخرة — بمحض إرادته ، في الحقيقة ، وعلى الضبط ، للمصير

(*) **Anithese** جمع نقيضة ، وهي المرحلة الثانية من مراحل الجدلية المعروفة عند

هيجل (الديالكتيك)

الذي قُسِمَ لمنافسه دوستوييفسكي ، غير أن هذا كان مصيره ضد إرادته . ذلك لأن دوستوييفسكي يعاني كل صنوف المعاناة العلنية ، ومن قسوة القدر وكراهيته ما يودّ تولستوي أن يعانيه بصورة قسرية عملاً بمبدأ تربويّ ، وبدافع النزوع إلى الشهادة . فدوستوييفسكي يلصق المقر الحقيقي الذي يعذب ويحرق ويذهب بالمسرات ، كتميص كنتاور (*) ويحرق قدميه شريداً عبر كسل بلاد الأرض ، والسقم يبري جسده ، وجنود القيصر يشدّونه إلى « الخازوق » ، ويزجّون به في سجون سيبيريا - وكل ما يودّ تولستوي لو يعانيه إظهاراً لمذهبه في صورة شهيد لهذا المذهب ، على الإطلاق ، فقد قُسِمَ لذلك منه بافراط ، على حين لا يتتاب تولستوي المتعطّش إلى الآلام الظاهرة الجليّة قطرة من الاضطهاد .

ذلك لأن تولستوي لا يتاح له تأييد وتجلية لإرادته في المعاناة . يقنعان العالم ، في تلك الأيام . ففي كل مكان يأخذ عليه قدر متهكّم ساخر طريق الشهادة . فهو يودّ أن يكون فقيراً ، وأن يهب ثروته للبشرية ، وألاًّ يكسب مالاً بعدد من كتاباته وأعماله ، ولكن أسرته لا تسمح له أن يكون فقيراً ، فعلى رغم إرادته تنمو الثروة الكبيرة نمواً مطرداً في أيدي ذويه . وهو يودّ أن يكون وحيداً ، ولكن المجد يغرق بيته بكتّاب التقارير والفضوليين ، وهو يودّ أن يكون مزدريّ ، غير أنه كلما شتم نفسه وحقّرها وكلّما حطّ من شأن عمله الخاص بمزيد من الكراهية ، وأثار الشبهة في استقامته ، ازداد تعلّق الناس به دهابة . وهو يودّ أن يحيا حياة فلاح ، في أكواخ منخفضة يغشاها

(*) إشارة إلى القبيص المسموم الذي لبسه كنتاور الذي يقتله هرقل في الاسطورة الاغريقية .

«المترجم»

الدخان ، لا يعرفه الناس ، ولا يتعرض للتشويش ، أو سائحاً ومتسولاً يهيم على وجهه في الطرقات ، غير أن العائلة ، تحوطه بالرعاية ، ومما كان يعذبه أن تقدم كل أسباب الرفاهية الخاصة بالتقنية ، التي كان يذممها علانية ، دافعةً بها حتى إلى داخل حجرته . وهو يود أن يتعرض للاضطهاد ، والاعتقال ، ولا استعباد — « إنه لمّا يؤلني أن أعيش حراً » — ولكن السلطات تتفاداه بأيدي مخمليّة ، وتكتفي بجلد أتباعه وإرسالهم إلى سيبيريا ، وهكذا يلجأ إلى الحد الأقصى ، ويشتم آخر الأمر القيصر من أجل أن يعاقب أخيراً وينفى ويُدان ، وليدفع علانية ثمن الثورة القائمة على قناعته ، ولكن نيقولا الثاني يرد على الوزير الذي يرفع الشكوى بقوله : « أرجو ألاّ تمسّوا ليو تولستوي ، فليست لديّ النية في أن أجعل منه شهيداً » . غير أن هذا ، وهذا بالذات ، أي أن يكون شهيد مبدئه ، هو ما كان تولستوي يريد أن يكونه في السنوات الأخيرة على الإطلاق ، وهذا بالذات ما يرفض القدر أن يتيح له ، أجل ، فان عناية خبيثة على نحو صريح تتجلى لهذا الراغب في المعاناة ، لكيلا يتتابه أي ألم . وهكذا يضرب الهواء بأطرافه ، وهو في سجن مجده غير المرئي ، مثل جامع مجنون في زنازة مبطنة الجدران ، ثم إنه يبصق على اسمه ، ويتجهّم وجهه للدولة ، وللكنيسة ، ولكل القوى — غير أن الناس يستمعون إليه بأدب ، والقبعة في أيديهم ، ويدارونه بحكم كونه مجنوناً نبيل المجتد وغير ذي خطر . ولا يتاح له قطّ ذلك الفعل المرئيّ ، البرهان الحاسم ، الشهادة التي يُباهى بها . فبين إرادته في الصلّاب ، وتحقيق الإرادة ، وضع الشيطان المجدّ الذي يصدّ كل الضربات ، ولا يدع المعاناة تصل إليه .

على أن سوء ظن كل أتباعه وتهكّم خصومه وسخريتهم ينطويان

على سؤال ملحّ ، — لماذا لا يمزّق ليو تولستوي بارادة حازمة هذا التناقض المؤلم ؟ ولماذا لا يكتس البيت من كتاب التقارير والمصورين ، ولماذا يسكت على بيع كتبه من جانب العائلة ، ولماذا يلين جانبه لإرادة بيئته المرة بعد الأخرى بدلاً من أن يلين لإرادته ، وبينته هي التي تتطلب ، في استخفاف كامل بمطالبه ، وعلى نحو ثابت ، الثروة والراحة على أنهما أسمى متاعين في الأرض ؟ ولماذا لا يتصرّف أخيراً على نحو واضح وجليّ ، وفقاً لما يمليه ضميره ؟ أمّا تولستوي نفسه فلم يجب الناس عن هذا السؤال الرهيب أبداً ، ولم يعتذر قط ، بل على النقيض من ذلك ، فإن أحداً من الثرثارين العاطلين ، الذين كانوا يشيرون بأصابع قذرة إلى التناقض الواضح وضوح النهار بين الإرادة والفعل لم يُدِنْ وسَطِيّةَ سلوكه المتذبذبة ، أو بالأحرى إمساكه عن السلوك ، إدانةً أقسى مما فعل هو نفسه . ففي عام ١٩٠٨ يكتب في يومياته : « عندما سمعت نفسي تتحدث وكأنها امرؤ غريب : الإنسان الذي يعيش حياة البذخ ، ويأخذ من الفلاحين كل ما يستطيع أخذه ، ويعوز بالقبض عليهم ، وهو مع ذلك يدين بالمسيحية ويعظ بها ، ويوزع خمسة كوبيكات صدقة ، ويزحف مع كل أعماله الوضيعة ، مخجّباً وراء زوجته العزيزة — مثل هذا الإنسان ما كنت لأسميه مؤخره حيواناً ولقد كان يجدر بالناس أن يقولوا هذا لي أيضاً لأتخلص من ألوان الغرور في هذه الدنيا ، وأعيش للروح وحدها ، كلاً ، كلاً ، ما كان تولستوي في حاجة إلى امرئ يبصره بأوجه الالتباس الأخلاقي عنده ، فقد كان يمزّق فيها نفسه . وعندما بطرح ، في اليوميات ، السؤال على ضميره ، كفضيب فولاذي محمّى أحمر متوهج ، قائلاً : « قل يا ليو تولستوي ، هل تعيش وفقاً لمبادئ مذهبك ؟ » يجيب البأس

المنطوي على غضب مكبوت : « كلا ، فأنا أموت من الحجل ، أنا آثم ، وأستحق الازدراء . لقد كان من الواضح عنده تماماً أنه ليس هناك من الوجهة المنطقية والأخلاقية ، وفقاً لمجمل تعاليمه ، إلاّ نمط وحيد من أنماط حياة التقشف . ممكن لديه : وهو أن يغادر منزله ، ويتزل عن لقيه النبيل وعن فنه ، ويضرب في الأرض الروسية متسولاً . غير أن هذا العقائدي لم يستطع قط أن يحزم أمره متجهاً نحو هذا التصميم الأخير الأكثر ضرورة ، والمقنع الوحيد . غير أن هذا السري في ضعفه الأخير ، وهذا القصور عن التطرف المبدئي ، إنما يعني عندي الجمال الأخير في تولستوي . ذلك لأن الكمال لا يكون ممكناً على الدوام إلاّ فيما وراء الإنساني . وكلّ قديس ، حتى رسول الوداعة لابدّ له أن يكون قادراً على القسوة ، ولا بدّ له أن يطرح المطلب المتعالي عن البشرية ، واللاإنساني تقريباً على تلاميذه ، حتى يختلفوا الأب والأم ، والزوجة والولد وراءهم غير آبهين ، من أجل القداسة . فالحياة المنطقية ، الكاملة ، لا سبيل إلى تحقيقها ، دائماً ، إلاّ في الفراغ الحالي من الهواء ، فراغ الفرد المنعزل ، فأما في الإرتباط والتواصل فليست القداسة بالممكنة أبداً : ومن أجل ذلك ينتهي طريق القديس في كل العصور في الصحراء منزلاً ومستقراً هو الوحيد الملائم له ، وكذلك لم يكن بدّ لتولستوي أيضاً . طالما أنه يريد أن يحقق أقصر النتائج في مذهبه عن طريق الممارسة ، أن يحلّ ارتباطه أيضاً بالأوساط العائلية الأكثر ضيقاً وحرارة والتصاقاً ، مثلما فعل مع الكنيسة والدولة . من أجل فكرته المجردة . فلأنّ يصبر متنهداً مثلاً ، على أن يُظلمه سقف واحد ثقيل ، في حياة مشتركة ، بالحسد فحسب ، خير له من أن يخاصم الأولاد . ويدفع الزوجة إلى الانتحار . ويراجع يائساً

أمام أسرته في المسائل الحاسمة ، كتلك المتصلة بالوصية وبيع الكتب ، ويؤثر أن يأخذ المعاناة على عاتقه ، بدلاً من أن يسبب الآلام للآخرين . ويقرر ، وهو يتألم ، أن من الأفضل أن يكون إنساناً عاجزاً بدلاً من أن يكون قديساً قاسياً كالصخر .

ذاك لأنه يكدر على نفسه ، وعليها وحدها ، أمام الملأ ، كل مظاهر الفتور والافتقار إلى الضربة الحاسمة ، إلى حد كبير . فهو يعرف أنه يحق لكل صعلوك أن يسخر منه ، ولكل مخلص أن يرتاب فيه ، ولكل واحد من أتباعه أن يوجهه ، ولكن هذا ، وهذا بالذات ، يتحول الآن إلى نوع عظيم من الصبر عند تولستوي ، في كل هذه السنوات القائمة ، فهو يتقبل الاتهام بالازدواجية وشفتاه مطبقتان إطباقاً محكمًا من دون أن يعتذر في تلك الأيام . ويكتب عام ١٨٩٨ في يومياته ، وقد اهتزت نفسه ، قائلاً : « قد يكون وضعي أمام الناس خاطئاً ، وربما كان هذا بالذات ضرورياً » وعلى نحو بطيء يبدأ في التعرف على مغزى محنته ، وذلك أن استشهاد هذا بدون نصر ، وهذه المعاناة من الظلم من دون دفاع أو اعتذار قد أصبحت بالقياس إليه أكثر وحشية وأثقل وطأة مما كان خليقاً أن يكون الاستشهاد في السوق ، وهو ذلك الاستشهاد الآخر ، المسرحي الذي يطلبه من القدر مشوقاً إليه طوال سنين . « لقد وددت في كثير من الأحيان أن أعاني ، وأنحمل الاضطهاد ، ولكن هذا يعني أنني كنت كسولاً ، وأنني كنت أريد أن أدع الآخرين يعملون من أجلي ، وذلك بأن يعذبوني ، بينما لم يكن عليّ إلا أن أعاني » . فهذا الأقل صبراً بين البشر قاطبة ، والذي كان يسره أن يلقي بنفسه في العذاب دفعة واحدة ، وكان خليقاً أن يحرق نفسه على خازوق التضحية فداء لمبدئه ، يتبين له أنه قد فرض عليه

امتحان أقصى بكثير ، وهو الاحتراق على النار الداخنة ببطء : ازدراء الجاهلين ، والاضطراب الأبدي لضميره الواعي . فما أعظمه من عذاب للضمير لا يتوقف ، بالقياس إلى امرئ يراقب نفسه بهذا القدر من اليقظة ولا يمكن الكذب عليه ، أن يضطر في كل يوم إلى الإعراف من جديد ، بأنه ، أي ليو تولستوي ، الإنسان الأرضي ، وهو في بيته الخاص وفي حياته الخاصة ، لا يقدر على تلبية المطالب الأخلاقية التي يطرحها ليو تولستوي الرسول على ملايين البشر ، وأنه على الرغم من ذلك لا يكف ، وهو مدرك لعجزه ، عن استئناف الدعوة إلى هذا المذهب مرة بعد مرة ! وأنه ، وهو الذي ما عاد يصدق نفسه ، بما زال يطالب الآخرين دائماً بالإيمان والإقوار ! وههنا ينزّ الجرح ، الموضوع المتقيح في ضمير تولستوي . وهو يعلم أن الرسالة التي حملها على عاتقه قد تحولت منذ عهد بعيد إلى دور ، إلى مسرحية للتواضع ، تُمثل أمام العالم مرة بعد أخرى دونما توقف . على أن تولستوي لم يكذب على نفسه قط ، ولكن مجرد كونه أدرك ضروب عجزه عن الضربة الحاسمة ، ومواقفه بصورة أدق حتى من إدراك ألد أعدائه ، هذه المسألة بالذات جعلت من حياته مأساة صميمية . ومن أراد أن يعرف أو يحس إحساساً مبدئياً فحسب ، إلى أي جلد كان الإشمترار من الذات ، وتدمير الذات يسبب الألم لهذه النفس المعلقة المجنونة بحب الحقيقة ، فليقرأ تلك الأقصوصة التي عُثِر عليها في مخطّاته ، وهي « الأب سيرجيوس » . فمثلما تسأل القديسة تيريزا ، وقد روعتها الرؤى كاهن الاعتراف ، في خوف ، أكانت هذه النبوءات رسالة إليها من الرب حقاً ، ولم يرسلها خصمه ، الشيطان ، ليتحدى كبرياءها . على هذا النحو بالضبط يسائل تولستوي نفسه في تلك الأقصوصة

أُكَّان تعليمه وسلوكه أمام الناس ربانياً حقاً ، أي ذا مصدر له صلة بالأخلاق والمروءة ، أم كان صادراً عن شيطان الغرور ، عن حب الشهرة والاستمتاع بالبخور . ففي تورية شفاقة جداً يصف من خلال ذلك القديس وضعه الخاص في ياسنايا بوليانا ، فمثلما يرحل إليه حتى المؤمنون ، والفضوليون ، والحجاج المعجبون ، كذلك يرحل إلى ذلك الراهب الذي يصنع العجائب ماثلاً للتائبين والمعجبين ، ولكنه يسائل نفسه ، مثل تولستوي نفسه ، في وسط ضجيج أتباعه ، وهم الممثلون الأبدال(*) لضميره ، أيعيش بالفعل ، وهو الذي يمجّده الناس جميعاً على أنه قديس ، بقلب مقدّس ، وهو يسأل نفسه : « إلى أي حد يحدث ما أفعله ، من أجل الرب ، وإلى أي مدى يكون ذلك من أجل البشر ؟ » ويحيب تولستوي عن نفسه بنفسه من خلال الأب سير جيوس إجابة مدمّرة :

« كان يحس في أعماق نفسه ، أن الشيطان كان قد استبدل بعمله من أجل الرب عملاً آخر ، لا يقصد إلاّ إلى الشهرة بين الناس . كان يحسّ هذا ، إذ أنه بمقدار ما كان يطيب له ألاّ يزعمه أحد من خلوته أصبحت هذه الخلوة الآن عذاباً بالقياس إليه . وكان يشعر أن الزوار يُشْقِلُون عليه ، ويكلفونه جهداً ، ومع ذلك فقد كان في أعماق أعماق يستمتع بهم ، وتسره المدائح التي يغدقونها عليه ، ولم يكن يبقى لديه لتقوية الروح والصلاة إلاّ وقت يقلّ باطراد ، وكان مما فكر فيه أنه يشبه مكاناً كانت قد انفجرت فيه عين ، عين ضعيفة من الماء الحى ، تنطلق منه وتصبّ فيه ، غير أن الماء لا يستطيع أن يتجمع الآن ، إذا ما ازدحم الظامئون عليه ، وتدافعوا بالمناكب .

(*) جمع البديل

وداسوا كل شيء بأقدامهم ، فلم يبق إلاّ الوسخ . . . والآن ما عاد لديه حب ، ولا تواضع . ولا طهارة .

أو يستطيع امرؤ أن يتدع لنفسه إدانة أشدّ هولاً من هذا اللدحض الحاسم للذات ، الذي يراد منه القضاء إلى الأبد على كل إمكانية لاكتساب السمة الربانية ؟ فهذا الإقرار يحطّم تولستوي إلى الأبد الرّوسم (*) المضروب في كتب القراءة للرجل المقدس في ياسنابا بوليانا ، فالضمير الممزق يبدو مزعزعا في رجل خائر مُقَدِّقَل ، ينهار تحت عبء المسؤولية التي ألغاهها بنفسه على عاتقه ، بدلاً من هالة القديس . على أن إعجاب العالم ، وإضفاء تلاميذه الطابع السماوي عليه في تسابق على خدمته ، ومواكب القاصدين في كل يوم على حدة ، وكلّ هذه الأصوات المؤيِّدة الصاخبة المُسَكِّرة لم تقدر على أن تخلع هذا الفكر السيء الظن ، وهذا الضمير النزيه ، عن مقدار ما في هذه المسيحية المنفتحة انفتاحاً أدبياً من مظاهر مسرحية ، وعن مقدار ما كان يستكنّ في ضروب الإذلال الخاص من حب للشهرة . ومع ذلك فإن تولستوي الذي لا يشبع في قسوته على نفسه ، يرتاب ، في هذا التشريح الرمزي ، حتى في اخلاص إرادته الأولى ، فهو يعود إلى التناؤل ، بخوف شديد ، على لسان بديله : « ولكن ألم تكن توجد على الأقل نية مخلصنة لخدمة الرب ؟ » وإذا الجواب يوصد كل أبواب القداسة مراراً : « أجل ، لقد كانت موجودة ، ولكن كل شيء ملوث تغشّيه الشهرة المتنامية ، ليس هناك رب لمن عاش مثلي على هذا النحو ، من أجل الشهرة أمام الناس . » لقد ضيَّع الإيمان بكثرة الحديث والتمثيل المأساوي للإيمان . فالوقوف التمثيلي أمام أدب أوروبا المحتشد ، والاعترافات الكنسية

(*) الروسم (الكليشية)

التي تثير الإشفاق بدلاً من التواضع الصامت . جعل تقديسه الكامل مستحيلاً ، كما يشعر تولستوي بذلك ويقربّه في رؤية المستبصر . ولن يقترب الأب سيرجيوس ، أخوه في الضمير ، من ربّه إلاّ حين يعرض عن الدنيا والشهرة والغرور . وإنها لكلمته حين يدعه يقولها مشوقاً في نهاية رحلته الثابتة : « أنا أريد البحث عنه » .

« أنا أريد البحث عنه » — هذه الكلمة وحدها تنطوي على أكثر الإرادات أصالة عند تولستوي — فقدّره الحقيقي : ألاّ يكون مكتشفاً للرب . بل باحثاً عن الرب فحسب . لم يكن قديساً ، ولا نبياً متقدماً للعالم ، بل لم يكن حتى صائغاً لنمط حياته شريفاً صريحاً كل الصراحة : لقد ظل دائماً إنساناً ، عظيماً في بعض اللحظات ، وفي اللحظات التالية يعود غير أصيل ومغرووراً . إنه إنسان له نقائص ، وفيه ضروب من العجز والازدواجية ، غير أنه يعي هذه النقائص دائماً وعياً مأساوياً ، ويحسّ في السعي نحو الكمال بحماسة لا نظير لها . لم يكن قديساً ، بل إرادة مقدسة ، ولم يكن مؤمناً ، بل طاقة إيمانية جبارة ، وكان صورة ، لا للرباني الذي يستقر في ذاته بهلوء ، متماسكاً مكتملاً ، بل رمزاً لبشرية لا يجوز لها قط أن تستريح راضية ، في طريقها ، بل لابد لها أن تكافح بغير هوادة من أجل الصياغة الأنقى ، في كل ساعة ، وفي كل يوم .

* * *

يوم من حياة تولستوي

في الأسرة أشعر بالكآبة لأنني لا
أستطيع أن أضاير أهلي مشاعرهم ، فكن
ما يسرهم ، من الامتحانات المدرسية ،
والنجاح في الدنيا ، والمشتريات ، كل هذا
أعده شقاء وشرأ عليهم أنفسهم ، غير أني
لا يجوز لي أن أقول ذلك . بل يجوز لي ذلك
بالطبع ، وأقوم به أيضاً ، غير أن كلماتي
لا يدركها أحد .

« اليوميات »

على هذا النحو أصورّ لنفسي ، بفضل شهادات أصدقائه ، واستناداً
إلى كلمته الخاصة ، يوماً واحداً من ألف يوم ليليو تولستوي .

عند الفجر : النوم ينقطع تياره رويداً رويداً ، عن جفني الرنجل
الشيخ ، فيفيق وينظر حواليه — لقد لوّن ضوء الصباح النوافذ ، ويقبل
النهار . ومن الظل القائم ينبعث التفكير عالياً ، والشعور الأوّل الذي
يبعث السعادة مع الدهشة : أنا ما زلت حيّاً . ففي مساء الأمس ،
تمدد على سريريه ، شأنه في كل ليلة وهو يسلم مستكيناً بأنه قد لا يقوم
مرة أخرى . وعلى ضوء المصباح المتراقص كان قد كتب في يومياته
أمام تاريخ النهار المقبل الحروف الثلاثة التي تختصر عبارة « إذا كنت
حيّاً » ، ومن المدهش أن نعمة الحياة وهبت له مرة أخرى ، فهو

يعيش . وما زال يتنفس ، وهو معافى . ويمتصّ بالرئتين المفتوحتين
 الهواء . وبالعينين الرماديتين النهمتين الضوء ، وكأنهما تحية الربّ :
 إنه لأمر رائع أن يظل المرء على قيد الحياة ، وأن يكون معافى ، وينتصب
 الشيخ على قدميه شاكراً . ويتعرّى ، ويضفي انسكاب الماء ذي البرودة
 الجليدية احمراراً حسناً على الجسد الذي يحتفظ بحالة جيدة ، وبولع
 رياضيّ يخفض الشطر الأعلى من جسده ويرفعه إلى أن تنتهت الرئتان ،
 وتفرق المفاصل ، ثم يسحب القميص والثوب المنزلي على البشرة المدلوكة
 حتى الاحمرار . ويفتح النوافذ ، ويكنس الحجرة بيديه ، ويرمي
 بأعواد الخشب المتقصّفة في النار التي تتعالى فرّقعتها متسارعة ، فهو
 خادم نفسه وأجير نفسه .

ثم ينزل إلى حجرة الإفطار ، فاذا صوفيا أندرييفنا ، والبنات ،
 وأمين السر ، وبعض الأصدقاء ، قد اتخذوا أماكنهم . وفي الإبريق
 يثرّ الشاي . وعلى منصة عالية يتقدم إليه أمين السر بالكومة
 الملونة من الرسائل والمجلات والكتب ، وقد ثبتت عليها بالدبابيس
 قسائم الإعادة المجانية ، من القارات الأربع ، وينظر تولستوي باستياء
 إلى البرج الورقي ، ويفكر في نفسه : « بنحور وإزعاج . تشويش
 على كل حال ! ينبغي للمرء أن يظل وقتاً أطول وحيداً مع نفسه ومع
 الله ، لا أن يؤدي دائماً دور محور الكون ، وأن ينأى بنفسه عن
 كل ما يزعج ويشوش . وما يجعل المرء مغروراً ، متكبراً ، محباً للشهرة ،
 مفتقراً إلى الأصالة . وإنه لمن الأفضل أن يدفع المرء بهذا كله إلى المدفأة
 لكيلا يضيع حياته ، ولكيلا يكدر نفسه بالكبرياء » . غير أن الفضول
 أقوى ، فهو يقلّب مع ذلك المجموعة المتباينة المتراكمة المختلطة من

الالتماسات والشكاوى ، والتوسلات ، والاقتراحات المتصلة بالعمل .
والإعلام عن الزيارات والأحاديث الفارغة ، بأصابع رشيقة لها حفيف .
فهذا واحد من البراهمة يكتب من الهند قائلاً إنه أخطأ في فهم بوذا ،
وهذا مجرم يروي من السجن قصة حياته ويلتمس النصيحة ، وثمة فتيان
يتوجهون إليه وقد اختلطت عليهم الأمور ، وأصحاب التماسات في
يأسهم ، كل هؤلاء يندفعون إليه متذللين ، كما يقولون ، على أنه
الوحيد الذي يستطيع أن يساعدهم ، إلى ضمير العالم . وتزداد التجاعيد
على جبهته عمقاً ، ويفكر قائلاً : « أيّ امرئ استطيع أن أساعد ،
أنا الذي لا أعرف كيف أساعد نفسي ، فمن يوم إلى آخر أتبه وأنا
أبحث لنفسي عن معنى جديد لأحتمل هذه الحياة التي لا يُسبّر غورها ،
وأتحدث حديث المتغطرسين عن الحقيقة لأخدع نفسي ، فيا عجباً لهم ،
يأتون جميعاً ويصرخون : يا ليونيكولا يفتش ، علمنا الحياة ! ألا
إن ما أفعل لكذب وتبجح وعمل بهلواني ، فأنا في الحقيقة مستهلك
منذ عهد بعيد ، لأنني أهدر نفسي هدرأ ، وأسكبها على نحو مستمر
لكل الألوف ، والألوف المؤلفة من البشر ، بدلاً من أن استجمع
قواي في نفسي ، ولأنني أتكلم ، وأتكلم ، وأتكلم ، بدلاً من أن
أظل صامتاً ، واستمع إلى الكلمة الأصلية من أعماق أعماقي في جو
السكون ، غير أنني لا يجوز لي أن أخيب الناس في حسن ظنهم ، فلا بد
لي من أن أجيبهم » . ويمسك بكتاب مدة أطول ويقرؤه مرتين ، وثلاثاً :
وهو كتاب طالب يحتقره مُغضباً ، لأنه يدعو إلى الماء ويشرب الخمر .
ويقول إنه آن الأوان ليترك أخيراً منزله ويهب أملاكه للفلاحين ، ويغدو
هائماً على وجهه في بلاد الله . ويفكر تولستوي في نفسه
قائلاً : إنه على حق ، فهو ينطق عن ضميري ، ولكن أتني لي أن

أشرح له ما لا أستطيع أنا أن أفسره لنفسي ، وأنتى لي أن أدافع عن نفسي وهو يتهمني باسمي ؟ » . ويأخذ هذا الكتاب الواحد معه ، ليحجب عنه على الفور ، وينهض الآن واقفاً ليدخل حجرته . وعند الباب يدركه أمين السر ويذكره بأن مراسل « التايمز » قد أبلغ عن موعد حديث صحفي عند الظهر ، فهل يريد أن يستقبله ، ويتجههم وجه تولستوي ، ويقول : « دائماً هذا التطفل ! ما عساهم يريدون مني : مجرد أن ينظروا محمّلين في حياتي . فما أقوله يوجد في كتاباتي ، وكل من يستطيع القراءة قادر على فهمها » . ولكن نقطة ما من نقاط الضعف تُشليس قياده بسرعة ، فيقول : لا مانع لديّ ، . . . ولكن نصف ساعة فقط . وما يكاد يتخطى عتبة حجرة المكتب حتى يغمغم ضميره : « لماذا تراجعت مرة أخرى ، مازلت دائماً ، بشعري الأشيب ، وأنا قيد شبر من الموت ، أسلك سبيل الغرور وأصرف نفسي إلى لغو الناس ، وما يفتأ يعاودني الضعف كلما ألحقوا عليّ ، فمتى أتعلم أخيراً أن أتوارى وألزم الصمت ! ألا فأعني يا إلهي ، أعني ! » .

وأخيراً يخلو إلى نفسه في حجرة المكتب . وعلى الجدران العارية يتدلّى منجل ، ومشط فلاحه ، وفأس . وعلى الأرضية الملمّعة بالشمع يشتصب كرسي ذو مساند ، ثقيل ، أقرب إلى جُلُود منه إلى مثابة راحة ، أمام المنصة الغليظة ، فهي حجرة بين حجرة الرهبان وحجرة الفلاحين . ومن النهار الأخير ما زال يرقد المقال الذي أنجز نصفه ، على المكتب ، بعنوان « أفكار حول الحياة » وينظر نظرة عابرة إلى كلماته ، فيشطب ويبدّل ، ويبدأ من جديد . وتظل الكتابة الطفولية الغليظة السريعة تتعثر . « أنا طائش جداً ، أنا لجوج جداً . كيف أستطيع أن أكتب عن الله حينما أشعر بأنني لست على بينة من أمر هذا المفهوم ،

وحين لا أكون أنا راسخ القدم بعدُ ، وأفكاري تتذبذب بين يوم وآخر . وكيف ينبغي لي أن أكون واضحاً ومفهوماً عند كل الناس عندما أتحدث عن الله الذي لا سبيل إلى التعبير عنه ، وعن الحياة التي تستعصي على الفهم أبداً ؟ فما أقوم به ههنا يتجاوز طاقتي . يا إلهي ، لكم كنت مطمئناً من قبل ، حين كنت أكتب أعمالاً أدبية ، وكنت أعرض الحياة للناس ، كما وضعها الله أمامنا ، لا كما أتمنى ، أنا الرجل الهرم المشوش الباحث ، أن تكون عليه حقاً . أنا لست قديساً ، كلاً ، لست كذلك ، وما كان ينبغي لي أن أعلم الناس : وإنما أنا مجرد امرئ زوّده الله بعينين أجلى رؤيةً وحواساً أفضل مما زوّده الآلاف لكي يمجّد عالمه ، وربما كنت أكثر أصالة وأفضل في تلك الأيام حين كنت أخدم الفن فحسب ، الفن الذي ألعنه الآن بحماقة شديدة . ويتوقف ، وينظر حواليه ، على غير إرادة منه ، كأن أحداً يمكن أن يصغي إليه ، حين يُخرج الآن من درج خفيّ الأقصيص التي يعمل فيها الآن سرّاً (لأنه سخر من الفن وازدراه علانية ، على أنه « شيء لا لزوم له » ، و « خطيئة ») وها هي ذي الأعمال المخبوءة عن الناس ، والمكتوبة سرّاً ، « حاجي مراد » ، و « القسيمة المزوّرة » . ويقلب فيها ، ويقرأ بعض الصفحات ، وتسري الحرارة في العين . « أجل ، لقد أحسنت كتابة هذا » ويشعر بذلك ، ويقول « هذا جيد ! وذلك لأنني أصف عالمه ، فمن أجل ذلك وحده بعثني الله ، لا لأخمن أفكاره . ألا ما أجمل الفن ، وما أنقى الإبداع وما أشدّ إيلاام التفكير ! وما أعظم سعادتي في تلك الأيام حين كنت أكتب تلك الأوراق ، فقد كانت الدموع تنهمر من عينيّ أنا ، حين كنت أصف الصباح الربيعي في « السعادة النموذجية » وفي الليل دخلت

عليّ صوفيا أندرييفنا وعيناها تنوهجان ، وعانقتني : فقد كانت مضطربة
إلى الإيماءك عن النسخ وتقديم الشكر إليّ . وكنا سعداء طوال الليل ،
وطوال الحياة . غير أنني لا أستطيع العودة بعد الآن ، ولا يجوز لي بعدُ
أن أخيب آمال البشر ، بل يجب أن أواصل السير على الطريق الذي
بدأت به ، لأنهم يأملون في معونتي في محنتهم النفسية . لا يجوز لي أن
أتوقف ، فأيامي معدودة » . ويتنهد ، ويردّ الأوراق المحبوبة من
جديده إلى مخبئها في الدرج . ويستأنف الكتابة مثل كاتب بالأجرة ،
صامتاً ، مغنيّاً ، في الموجز النظري ، مقطّب الجبين ، مخيّ الذنن
انحناءاً يجعل اللحية البيضاء في بعض الأحيان تمرّ على الورق فيكون
لها خفيف .

وأخيراً حان وقت الظهيرة ! حسبي ما عملتُ اليوم ! ولأدع
الريشة : ويثب واقفاً وينزل على السلم بخطواته الرشيقة القصيرة
كالزوبعة . وهناك يكون سائس الخيل قد أعدّ « ديليرد » ، مهرته
الأنثيرة ، وما هي إلاّ دفعة إلى السرج وإذا القامة المحنية عند الكتابة
يشدّت عودها ، ويبدو أكبر ، وأقوى ، وأكثر فتوةً وحيوية ، حين
يندفع منتصباً في جلسته ، خفيفاً طلق الأسارير كرجل من القوزاق ،
على الفرس الضيق النعال ، إلى الغابة . وتتماوج اللحية البيضاء وتنحني
في وجه الرياح العاصفة ، ويفتح شفّتيه مبعداً بينهما في نشوة ليمتصّ
بخار الحقول إلى جوفه على نحو أقوى ، وليحس بالحياة ، وبالعنصر
الحَيّ في الجسد الذي بلغ الشيخوخة ، وتسري نشوة الدم المستثار بالهزة
سكرّاً دافئاً حلواً في شرايينه إلى رؤوس أصابعه ، وحتى صيوان الأذن
الهادر ، وحين يتقدم في الغابة الفتية راكباً يتوقف بغتةً ليرى ، وليرى

مرة أخرى ، كيف تلتنع البراعم ذات الأوراق المتضامة وهي تتفتحُ
لشمس الربيع ، وترك في السماء خضرة رقيقة مرتعشة لطيفة كالوشني .
وبغمرة حادة من فخذة يسوق الفرس إلى شجر البتولا ، وتلاحظ عينه
الصقريّة بانفعال كيف تسير النملات على اللحاء طولاً ، إحداهما
وراء الأخرى ، جيئة وذهاباً كسلسلة مجهرية من دلاء البثر ، فمنهنّ
محمّلات ، منتفخات البطون ، وأخرياتٌ ما زِلْنَ يمسكن بنشارة
الشجر بقرونهنّ الدقيقة كسلاسل صائغ . ويقف البطريرك الشيخ
بلا حراك طوال دقائق وهو متحمس ، وينظر إلى الضئيل الضئيل في
الكبير المائل ، وتسيل الدموع دافقة في لحيته . ألا ما أروع هذا ، فمنذ
أكثر من سبعين عاماً ما تفتأ هذه المرأة الطبيعية التي يتجلّى فيها الله
تعود رائحة من جديد ، صامتة ناطقة معاً ، مترعة أبدأً بصور جديدة ،
حيّة في كل وقت ، وأكثر حكمة في سكونها من كل الأفكار والأسئلة .
ويرسل الفرس من تحته أنفاسه في زحير ، فيفيق تولستوي من ذهوله
المتفكّر ويغمز المهرة غمزاً قوياً بفخذه على جنبها ، لكيلا يحس الآن ،
في هزيم الرياح ، بالصغير واللطيف فحسب ، بل بجموح الحواس
واسْتِيعَارِها ، ويعلّو . ويعلّو ، ويعلّو على فرسه ، سعيداً مستريحاً
من التفكير ، يعلّو نحو عشرين كيلو متراً ، إلى أن يعلّو العرق اللّماع
جنب المهرة أبيض مزبداً ، ثم يوجهها إلى طريق العودة في نجيب هاديء ،
وعيناه مترعتان بالضوء ، وصدره منشرح ، فهذا الرجل الشيخ .
المفرط في الشيخوخة . سعيد مسرور كهده وهو فتي في الغابات
ذاتها ، على الطريق المألوف ذاته منذ سبعين عاماً .

ولكن الوجه الذي تملوه الشمس يكفهّر فجأة على مقربة من القرية .
فقد فحصت نظرته الخيرة الحقول : في وسط مجال أملاكه حقل مهمل .

معطل ، قد خرب سياجه ، وبدا أن الشمس قد أحرقت نصفه ،
والأرض غير محروثة . ويتقدم بفرسه مغضباً ليستعلم الخبر ، وتبرز
من الباب امرأة حافية ، شعناء الشعر ، خافضة البصر ، متسحخة ،
وطفلان ، أو ثلاثة ، صغار ، أنصاف عراة ، يندفعون خائفين متعلقين بأسمال
ثوبها ، ومن الناحية الخلفية ، من الكوخ المنخفض الذي يعلوه الدخان ينبعث
صوت طفل رابع أيضاً ، ويسأل عن سبب التخريب مقطباً جبينه ،
وتنطق المرأة ، وهي تُعَوِّل بكلمات لا رابط بينها ، فزوجها في
السجن منذ ستة أسابيع ، وهو معتقل بسبب سرقة حطب . فكيف
ينبغي لها أن تدبّر الأمور من دونه ، وهو القوي النشيط ، على أنه لم يفعل
ذلك إلاّ عن جوع ، والسيد يعلم ذلك بنفسه : المحصول الرديء ،
والضرائب الباهظة ، والإيجار . ويشرع الأطفال ، حين يرون أمهم
مُعَوِّلَةً ، في العويل معها ، ويضم تولستوي يده على عجل في جيبه ،
ويناولها قطعة من النقود ، ليقطع عليها السبيل إلى أي مناقشة أخرى ،
ثم ينطلق على فرسه مسرعاً كالحارب ، وشيأه قاتم ، وقد طار سروره .
« هذا ما يحدث إذاً على أرض — كلاً على الأرض التي وهبتها لزوجتي
وأبنائي . ولكن ما لي أخفي دائماً ، بجنب ، وراء زوجتي ، اطملاعي
وذني ؟ إنها تمثيلية كاذبة أمام العالم ، ولم يكن ذلك النقل للملكية عبثاً ،
فمثلما شبت أنا من جهد الفلاحين يمتص الآن أهلي مالهم من هذا
الفقر ، ولاني لأعلم أن كل قطعة من الآجر في البناء الحديد للمنزل الذي
أقيم فيه قد شويت من عرق هؤلاء الأتقان ، ومن جسد هم المتحول
إلى حجر ، ومن عملهم . فكيف جاز لي أن أهب لزوجتي وأبنائي
ما لم يكن لي ، أرض أولئك الفلاحين الذين يحرثونها ويهيؤونها . لقد
كنت جديراً أن أحجل من الله الذي أدعو ، أنا ليو تولستوي ، الناس

إلى العدالة دائماً باسمه ، أنا الذي يطل البؤس عليه في كل يوم من النافذة » .
 وغدا محيّا طافحاً بالغضب ، ويزداد إظلاماً حين يمرّ الآن على فرسه
 بالأعمدة الحجرية ، وهو يدخل « مقر السادة » ، ويندفع الخادم ببزّته
 الرسمية وسائس الخيل من الباب ، ليساعده على النزول عن الفرس .
 وينطق خجله المنطوي على آثام للذات ساخراً مغضباً وهو يقول :
 « عبيدي » .

وفي حجرة الطعام الفسيحة ينتظره الخوان الطويل ذو الغطاء الأبيض
 الزهري وعليه عدة الطعام الفضية : والسيدة النبيلة ، والبنات ، والأبناء ،
 وأمين السر ، وطبيب العائلة ، والفرنسية ، والانكليزية ، وبعض
 البحيران ، وطالب ثوري يشغل وظيفة مدرس خصوصي ، ثم ذلك المراسل
 الصحفي الانكليزي : ويستخدم لغط الخليط الواسع من البشر مرحاً مختلطاً
 بعضه ببعض . وحين يدخل الآن ينقطع الضجيج بالطبع على الفور
 في خشوع ، ويحيّي تولستوي الضيوف ، ويجلس إلى المائدة من دون أن
 ينطق بكلمة . ولكن حين يقدم إليه الخادم ذو البزة الرسمية الآن أطباقه
 النباتية المنتقاة — من الهليون ، وهو سلعة من البلاد الأجنبية محضرة
 بأدقّ الأساليب — يضطر إلى التفكير في المرأة ذات الأسماك ، الفلاحة
 التي منحها عشرة كوييكات . ويجلس مقطباً وينطوي على نفسه .
 « ليتهم أرادوا أن يفهموا فحسب ، أنني لا أستطيع ولا أريد أن أعيش
 على هذا النحو ، يحيط بي الخدم بملابسهم الرسمية ، مع أربعة أصناف
 تقدّم للغداء ، بأواني الفضة مع كل الكماليات على حين لا يملك الآخرون
 أهمّ الضروريات ، وإنهم يعرفون جميعاً أنني لا أطعم منهم إلا في
 هذه التضحية الواحدة ، هذه الواحدة فحسب . وهي أن يتخلوا عن

الترف . هذه الخطيئة الفاضحة المرتكبة بحق البشرية التي أرادها الله متساوية ، غير أنها ، هي التي تعد زوجتي ، والتي كانت خليقة أن تشاطرنى أفكارى كما تشاطرنى سريري وحياتي ، هي التي تتصدى لأفكارى تصدّي العدو ، وهي جاثمة على عنقي كحجر الرعى ، عبثاً على ضميري ، تجرني إلى حياة مزيفة كاذبة ، ولقد كان ينبغي لي منذ عهد طويل أن أصرم الحبال التي توثقني بها . فما الذي يجمع بيني وبينهم بعد ؟ يزعمونني في حياتي وأزعجهم في حياتهم . فأنا امروء لا لزوم له هنا ، عبء على نفسي وعليهم جميعاً » .

ويرفع بصره بروح عدائية على غير إرادة منه ، في غمرة غضبه ، وينظر إليها ، إلى صوفيا أندرييفنا ، زوجته . يا إلهي ، لكم تقدمت بها السن ، ومشت الغضون عبر جبهتها أيضاً ، وشوه الهمم فمها المتداعي أيضاً ، وتغمر قلب الشيخ فجأة موجة هادئة ، ويفكر في نفسه قائلاً : « يا إلهي ، لكم تبدو قائمة ، وما أشد كآبتها ، وهي التي أدخلتها حياتي فتاة صبيّة ضاحكة بريئة ، وقد انقضى الآن عمرٌ بشريٌّ ، أربعون ، خمس وأربعون عاماً ، ونحن نعيش معاً . أخذتها فتاة ، وكنت رجلاً نصفاً ، وولدت لي ثلاثة عشر طفلاً ، أما أعمالي فأعانتني على إخراجها كما أرضعت أولادي . وأنا ، ماذا صنعت منها ؟ امرأة يائسة ، مجنونة تقريباً ، مفرطة في العصبية ، يضطر المرء إلى حجز المنومات عنها لكيلا تودي بحياتها ، ولطالما اقيمت من الشقاء عن طريقي ، وهاهم أولاء أبنائي ، أنا أعرف أنهم لا يحبونني ، وهاهن أولاء بناتي اللواتي أستهلك شبابهن ، وهاهم أولاء أمناء السر الذين يدونون كل كلمة ، ويلتقطون كل كلمة من كلماتي كما تلتقط العصافير روث الخيول ، وقد أعدوا البلسم والبخور في الصندوق ليحافظوا على موميائي لمتحف البشرية ، وهناك

هذا المتبجح الفارغ ومعه كراسته ينتظر سأشرح له « الحياة » — ألا إن هذه المائدة لخطيئة بحق الرب وبحق الحقيقة ، وهذا البيت لا سر له ولا طهارة إلى حد فظيع ، وأنا الكذاب أجلس مطمئناً في هذه البلحيم وأشعر بالدفء والارتياح ، بدلاً من أن أقفز ، وأمضي في طريقي . ولو قد كنت ميتاً لكان خيراً لي ، ولكان خيراً لهم ، فأنا أعيش أطول مما ينبغي ، وحياتي ليست حياة حقبة بالدرجة الكافية : لقد حان أجلي منذ عهد طويل .

ويقدم إليه الخادم ذو البزة الرسمية طبقاً من جديد ، فواكه حلوة يحيط بها زبد الحليب ، مبردة في الجليد ، وينحني الطبق الفضي جانباً بحركة غاضبة من يده ، فتسأله صوفيا أندرييفنا بخوف « أليس الطعام جيداً ؟ ، أهو ثقيل عليك ؟ » .

ولكن تولستوي يجيب بمرارة فحسب : « إن ما يُثْقِلُ عليّ فيه أنه جيد جداً » .

وينظر الأولاد باشمتراز ، وتبدو على الزوجة الدهشة ، أما المراسل الصحفي فمجهتد : فمن الواضح أنه يريد المحافظة على المبدأ .

وأخيراً انتهى الطعام ، وينهضون ، ويدخلون قاعة الاستقبال ، ويتناقش تولستوي مع الثوري الشاب الذي يعارضه بنجاعة وحيوية على الرغم من كل توقيده له . وتبرق عين تولستوي ، ويتحدث باندفاع ، بكلمات قصيرة لاهية ، وهو يكاد يصرخ ، وما تزال كل مناقشة تبعث فيه حماسة لا سبيل إلى التحكم فيها كما كان الصيد ولعبة المنضرب يفعلان من قبل ، وبمرة واحدة يضبط نفسه وهي في جموحها ويقسرها على التواضع ويُطامنُ صوته بالقوة ، قائلاً : « ولكن ربما كنت

مُطْطاً ، فقد نثر الله أفكاره بين البشر ، وما من أحد يعرف أن تكون أفكارك أم أفكارى هي التي ينطق بها الله » ومن أجل أن يصرف النظر عن الموضوع ، يصبح بالآخرين قائلاً بمرح « لنذهب قليلاً إلى الحديقة » .

ولكن مازالت هناك وقفة قصيرة ، فتحت شجرة الدردار القديمة جداً ، قبالة درج القصر ، عند « شجرة البؤساء » ، ينتظر الزوار من الشعب ، من أصحاب الالتماسات وأصحاب العصبية ، « المظلومين » ، تولستوي ، فقد ارتحلوا عشرين ميلاً ابتغاءاً للنصيحة أو شيء من المال . وهم يقفون هنا مُجهّدين قد لوّحتهم الشمس وعلا الغبار أحديتهم . وحين يقترب « السيد » ، أو « البارين » الآن ينحني بعضهم حتى الأرض على الطريقة الروسية ، وبخطوة سريعة منطلقة يقبل عليهم تولستوي قائلاً : « أليكم أسئلة ؟ » . « أود أن أسأل أيها المسبّئ . . . » . ويقاطع تولستوي مغضباً : « لستُ مستنيراً ، ما من أحد يعد مستنيراً إلاّ الله » . ويدير الفلاح المسكين قبعته فزعاً وينطق مستعجلاً بأسئلة شائكة : هل يفترض بالفعل أن الأرض ستكون للفلاحين الآن ، ومتى سيحصل على قطعه من الحقل لنفسه . ويجب تولستوي بصبر نافذ ، فكل شيء غامض يسبب له المرارة . ثم يحين دور موظف في الغابات مع أسئلته التي لا تنتهي عن الله ، ويسأله تولستوي أيستطيع القراءة ، وحين يجيب بالإيجاب يأمر له بكتيب « ماذا ينبغي لنا أن نعمل » ، ويودّعه . ثم يتدافع نحوه المتسولون أحدهم وراء الآخر ، ويصرفهم تولستوي بسرعة ، بقطعة من خمسة كوبيكات ، وقد نفذ صبره ، وحين يلتفت يلاحظ أن الصحفي قد التقط له صورة أثناء توزيع الصدقات ، ويكفّه وجهه من جديد ، قائلاً : « هكذا يصوروني ، تولستوي ، الفاضل ، المتصدق ، مع الفلاحين ، الرجل ..

النبيل ذا المروءة . ولكن من أتيح له أن يرى ما في قلبي عرف أنني لم أكن قطّ فاضلاً ، وإنما كنت أحاول أن أتعلم الصلاح ، ولم يشغلني شيء في الحقيقة سوى نفسي . ولم أكن قطّ ذا مروءة . ففي كل حياتي لم أمتنع الفقراء نصف ما ضيعت فيما مضى في لعب الورق في ليلة واحدة بموسكو . ولم يخطر ببالي قط أن أبعث إلى دوستويفسكي الذي كنت أعرف أنه كان يعاني من الجوع بالمائتي روبل التي كانت خليفة أن تنقله شهراً أو ربما إلى الأبد . ومع ذلك أسمح للناس أن يحتفلوا بي ويمجدوني على أنني أنبل لإنسان ، وأعرف في قرارة نفسي على وجه الدقة أنني لست إلا في بداية البداية .

وتلح عليه الرغبة في نزهة في الحديقة ، وهكذا يعدو الشيخ الضئيل الرشيق بلحيته التي تخفق في الهواء ، فلا يكاد الآخرون يستطيعون اللحاق به . كلا ، الآن لا حديث كثير بعد ، بل هو الإحساس بالعضلات ومطاطعة الأوتار ، والنظر إلى لعب البنات لعبة المضرب ، إلى براعة اللعبة الجسدية الرشيقة ، وهو يتابع باهتمام كل حركة ، ويضحك فخوراً عند كل ضربة ناجحة ، ويتحوّل مزاجه الكئيب إلى مزاج طلق فهو يثرثر ، ويضحك ، ويتجول بحواس أكثر هدوءاً وصفاءً خلال المستنقع الذي تعبق رائحته طرية ، ولكنه يعود بعدئذ إلى حجرة العمل ، فيقرأ قليلاً ، ويستريح قليلاً ، وفي بعض الأحيان يحس بتعب حقيقي ، وتثقل ساقاه ، فإذا رقد هكذا وحده على الأريكة ذات الجلد المشمع ، وعيناه مغمضتان ، وشعر بالإنهاك والكبر ، فكّر في هدوء : « إنه لشيء جيد هكذا : فأين الزمن ، الزمن المخيف ، حين كنت ما زلت أرهب الموت ، وكأني أمام شيخ ، وكنت أريد أن أتوارى عنه وأجعله . أما الآن فما عدت أنجشاه ، بل إنني لأحس بالارتياح

إذ أغدو قريباً منه على هذا النحو . ويستند إلى الوراء ، وتحتدم الأفكار في الخطوة . وفي بعض الأحيان يدون بقلم الرصاص كلمة على عجل ، ثم ينظر أمامه زمناً طويلاً نظرة جادة ، وإنه أشيء جميل ، هذا المحيّا للرجل الشيخ ، تحدق به سحائب التفكير والحلم ، وحده مع نفسه ومع أفكاره .

ثم ينزل في المساء بعد ذلك مرة أخرى إلى وسط المتحدثين ، أجل ، فقد أنجزَ العمل ، ويسأل الصديق جولدنفاريز ، عازف البيانو أيسمح له أن يعزف شيئاً . « حباً وكرامة ! » . ويستند تولستوي إلى البيانو وقد أظّل عينيه بيديه ، اثلاً يرى أحد كيف يمسه سحر الإيقاع الموزون . ويصغي والجفنان مغمضتان ، والصدر يتنفس تنفساً عميقاً . إنها مدهشة هذه الموسيقى التي يمجدها بهذا الصوت المرتفع ، إنها تنسكب فيه رائحة ، تحرك في النفس كل ما هو رقيق ، وتجعل النفس ، بعد كل الأفكار الصعبة ، طيبة ، رقيقة . ويفكر في نفسه بهدوء : « كيف كان يجوز لي أن أشتتر منه ، من الفن ، وأين يكون العزاء إن لم يكن فيه ؟ فكل تفكير ينتهي إلى الإحلام ، وكل معرفة تحدث اضطراباً . وجود الله ، في أي مكان آخر نشعر به بوضوح أشد مما نشعر به في صورة الفنان وكلمته ؟ إنما أنتمأ أخواني ، يا بهوفن وشوبان ، وأنا أشعر الآن بنظراتكما تستقران فيّ تماماً ، وقلب الإنسانية يخفق فيّ : فاغفرا لي ، يا أخوتي ، أنني كنت أشتتر منكما » . وينتهي العزف باتفاق مدوّ ، ويصفقون جميعاً ، وكذلك يفعل تولستوي بعد تردد قصير . لقد تماثل للشفاء كل اضطراب فيه ، وبضحكة رقيقة يدخل في الوَسَط المُجْتَمِع ويستمتع بحوار جيد ، وأخيراً يهب حوالية شيء كالمرح والسكينة ، ويبدو اليوم المتعدد الجوانب وقد انتهى بصورة كاملة .

ونكنه يخطو مرة أخرى ، قبل أن يذهب إلى السرير ، إلى مكتبه ،
 فقبل أن ينتهي اليوم سيعقد تولستوي محكمة أخيرة بنفسه ، وسيطالب
 نفسه ، كعهده دائماً ، بالحساب عن كل ساعة ، وكذلك عن كل حياته .
 فهذا كتاب اليوميات يرقد مفتوحاً ، وعين الضمير تطل عليه من
 الصفحات البيض . ويراجع تولستوي في ذهنه كل ساعة من النهار ،
 ويحكم . فهو يفكر في الفلاحين ، في الثؤس الذي يعود لئمه عليه ،
 والذي مرّ به راكباً ، من دون أن يساعد إلاّ بقطعة نقدية صغيرة تافهة ،
 ويتذكر أنه كان ضيق الصدر مع السائلين ، ويتذكر الأفكار الشريرة
 حيال زوجته ، وكل هذه الذنوب يدونها في كتابه ، كتاب الإتهام ،
 وبقلم غاضب يدون الحكم : « كنت خاملاً مرة أخرى ، مشلوك
 النفس ، لم أفعل خيراً . كافيّاً ! لم أتعلّم بعد أداء الصعب ، وحبّ
 الناس من حولي بدلاً من حب البشرية : أعني يا رب ، أعني ! » .

وبلي ذلك تاريخ اليوم التالي ، والرمز الخفي المعبر عن قوله : « إذا
 كنت حياً » والآن أصبح العمل ناجزاً ، وقد عاش مرة أخرى يوماً
 إلى نهايته ، وينتقل الشيخ مخني الكتف إلى الحجرة المجاورة ، ويخلع
 صيداره وحذاءه الغليظ ذا العنق ، ويلقي بجسده ، بالجسد الثقيل في
 السرير ، شأنه دائماً ، في الموت أولاً . وما زالت الأفكار ترفرف
 بأجنحتها ، وثناياها الملونة ، في اضطراب فوقه ، ولكنها تتلاشى شيئاً
 فشيئاً ، كانهراشات في الغابة ، في ظلمة تزداد عمقاً باطراد ، وقد
 أوشك التعاس أن يخيم عليه بخدره . . .

وإذا شيء هناك بغتةً - وينهض فزعاً - ألم تكن هذه خطوة ؟
 أجل ، فهو يسمع خطوة قريبة ، هادئة متوجّسة ، خطوة في المكتب ،

وإذا هو يشب ، بغير صوت ، نصفَ عاري ، ويضغط بعينه المتوقدتين على ثقب المفتاح . أجل ، هناك ضوء في الحجرة المجاورة ، فقد دخل شخص ما ومعه مصباح ، وهو ينقّب في منصة الكتابة ، ويقلب في اليوميات التي تعد أكثر أعماله سرية ، ليقراً الكلمات ، اللغة الرديئة لضميره . إنها صوفيا اندرييفنا ، زوجته ، فهي رصداً له حتى في سره الأخير ، إنهم لا يدعونه جيداً ، حتى مع الله ذاته . ففي كل مكان ، في كل مكان من بيته ، وفي حياته ، وفي نفسه تنقلب أوضاعه من لهفة الناس وفضولهم . وترتعد يده من الغضب ، وإذا هو ممسك بالمزلاج ليقتمح الباب بغتة وينقض ، على زوجته التي تخونه . غير أنه يلجج غضبه في اللحظة الأخيرة : « ربما كان هذا مفروضاً عليّ في صورة امتحان » . وهكذا يجرّ قدميه عائداً من جليد إلى سريريه ، أخرس ، مبهور النفس ، وهو يصغي إلى ما في داخل نفسه وكأنه يصغي إلى يثر ناضبة ، وهكذا يرقد ليونيكولايفتش تولستوي أعظم الرجال وأقوامهم في عصره ، يقظاناً وقتاً طويلاً ، قد خانه أهل بيته ، وأضناه الشك وهو يرتعد برداً في وحدته .

* * *

الحسم والتألق

لكي يؤمن المرء بالخلود لا بد له أن
يعيش هنا حياة خالدة .

اليوميات ، ٦ ا.ار ، ١٨٩٦

في عام ١٩٠٠ ، حين كان ليو تولستوي في الثانية والسبعين ، تجاوز
عتبة القرن . ويواجه الشيخ البطولي اكتماله منتصب القامة في الفكر
وهو مع ذلك شخصية أسطورية . ويضيء حياً الرحالة العالمي الشيخ
على نحو أعذب من ذي قبل ، من اللحية البيضاء كالثلج ، والبشرة
التي تميل إلى الإصفرار شيئاً فشيئاً كرق يتخلله الضوء تعلوه كتابة
من تجاعيد وخطوط ، وثمة ابتسامة رضية صبورة يطيب لها أن تعشعش
حول الشفة الواحدة ، وقليلاً ما ينتصب الحاجب الكثيف في الغضب .
فهذا الآدم الشيخ الغضوب ينبيء عن مزيد من الروية والصفاء . فأخوه
الذي لم يكن يعرفه طوال حياته إلا مندفعاً لا يكبح جماحه ، يقول
مندهباً : « لكم أصبح طيباً ! » . وبالفعل فإن الحماسة الشديدة تأخذ
في الفتور . فقد أجهد نفسه في الصراع ، وأرهق نفسه تعذيباً . ويغشي
بريق جديد من الطيبة عيانه في ضوء المساء الأخير . وإنه لمن المؤثر
أن يلاحظ المرء هذا الذي كان بالأمس شديد الظلمة : ويبدو كأن
الطبيعة لم تفعل فعلها بهذه الشدة طوال ثمانين عاماً إلا ليتجلّى آخر الأمر
جماله الأكثر خصوصية في هذه الصورة الأخيرة ، وهو السموّ العظيم ،

الحكيم ، المتسامح عند الشيخ . وفي هذه الصيغة المتألفة تدخل الإنسانية المظهر الخارجي لتولستوي في ذاكرتها . وعلى هذا النحو ستحفظ أجيال وأجيال ميماء الوقور المطمئن في نفسها بخشوع .

فالكبير وحده ، الكبير الذي يضعف الصورة البطولية للناس ويمزقها ، يضيف على وجهه القاتم جلالاً كاملاً ، فقد أصبحت القسوة سمواً ، وتحولت الحماسة إلى فضيلة وإدراك أخوي شامل . وبالفعل فإن المناضل الشيخ ما عاد يريد إلا السلام ، « السلام مع الله ومع الناس » ، بل السلام مع أعدائه ، مع الموت . فلقد ولّى ذلك الخوف القاسي ، المرعب ، البهيمي ، من الموت ، وانتهى على نحو لطيف . فالرجل الذي بلغ من الكبر عتياً يواجه الفناء الوشيك بنظرة هادئة واستعداد حسن . « أنا أفكر في أن من الممكن ألا أكون غداً على قيد الحياة » وفي كل يوم أحاول أن أجعل من هذه الفكرة أكثر اتسافاً مع نفسي ، وأن أوطن نفسي عليها باطراد . ومن الرائع أنه منذ أن تلاشى هذا الكفاح ضد الخوف عن ذلك المشوش وقتاً طويلاً تعود القدرة التصويرية لتحتشد من جديد . فمثلما يعود جوته ، الشيخ ، في ضوء المساء الأخير بالذات ، من تسليته العلمية (*) ، إلى « شغله الأساسي » ، يتجه لتولستوي ، الداعية ، الأخلاقي ، في العقد القليل الاحتمال لذلك ، وهو العقد الواقع بين العام السبعين والعام الثمانين ، إلى الفن مرة أخرى ، وهو الذي تنكّر له عهداً طويلاً . وينبعث ، مرة أخرى ، الأديب الأكثر شموخاً في القرن الماضي ، رائعاً كما كان فيما سلف . فحين يعبر الشيخ القوس الهائل من حياته في وثبة دائرية جريئة ، يستعيد

(*) يشير الكاتب هنا إلى محاولات جوته في الدراسات العلمية، ومنها دراسته حول نظرية الألوان .

« المترجم »

تجربة من سنوات القوزاق ويستقي منها صيغة القصيدة الإلياذية « حاجي مراد » التي تُصانصِلُ بالسلاح والحرب - وهي أسطورية بطولية ، بسيطة وعظيمة ، يرويها كما كان يفعل في أكثر أيامه كمالاً . قمأسة « الجثة الحية » وروائع القصص ، مثل « بعد الحفلة الراقصة » و « كورنيي فاسيليف » وكثير من الأساطير الصغيرة ، تشهد شهادة مجيدة على عودة الفنان من المزاج المريض للأخلاقي ، وعلى نقائه . وتوازن النظرة المهيبة للشيخ الطاعن في السن قدّر الإنسان الذي يززع النفس أبداً موازنة نزيهة لا تخطيء . لقد عاد قاضي الحياة أديباً من جديد . وفي اعترافات الشيخوخة الرائعة عنده ، ينحني معلم الحياة الذي كان فيما سلف مغامراً ، بخشوع أمام استحالة البحث في الإلهي ، والفصول اللجوج المتعج نحو مسائل الحياة الأخيرة يهدأ متحولاً إلى إصغاء متواضع إلى موجه اللاهية التي يزداد صخبها قريباً على نحو مطرد . لقد أصبح ليو تولستوي حكيماً حقاً في السنوات الأخيرة ، غير أنه لم يتعب بعد ، وما يفتأ ، وهو الفلاح الدنيوي الأصيل ، يتخلل ، في اليوميات ، أرض الأفكار التي لا تنضب ، حراثة ، إلى أن يسقط للقلم من اليدين الباردتين .

ذلك لأن هذا الذي لا يتعب ، لا يجوز له بعد أن يستريح ، وهو الذي فرض عليه القدر نزعة إلى الكفاح من أجل الحقيقة حتى اللحظة الأخيرة . وثمة عمل أخير ، هو الأكثر قداسة ، ما زال ينتظر الاكتمال ، وهذا العمل ما عاد يمت إلى الحياة بصلة ، بل يتصل بموته الخاص الوشيك ، وستكون صياغته على نحو لائق ومثالي ، جهد الحياة الأخير عند هذا المصور العملاق ، وإليها يوجه الطاقة المحتشدة توجيهاً رائعاً ، ولم يدع تولستوي في أي عمل من أعماله الفنية على هذا المدى الطويل

وبهذه الحماسة مثلما أبدع في موته الخاص : فهو يريد ، بحكم كونه فناناً أصيلاً لا يرضى باليسير ، أن ينقل إلى البشرية هذا العمل الأخير بالذات ، الذي هو أكثر أعماله إنسانية على الإطلاق ، نقيّاً لا شائبة فيه .

. وهذا الصراع من أجل موت نقيّ ، كامل ، لا كذب فيه ، سيكون المعركة الحاسمة في حرب السبعين عاماً من أجل الأصالة عند هذا الذي لا سلام عنده ، وسيكون في الوقت ذاته الصراع الأحفل بالتضحيات — ذلك لأنه يتجه ضدّ دمه . فثمة عمل أخير ينتظر الإنجاز ظل يتفاداه مرة بعد أخرى ، طوال حياته بتهيب لم يصبح قابلاً للتفسير لدينا إلاّ الآن : ألا وهو التخلص النهائي من أملاكه بصورة لا تقبل النكوص . فقد كان تولستوي دائماً وأبداً ، يراجع شأنه في ذلك شأن بطله كوتوسوف الذي يودّ تجنب المعركة الفاصلة ، ويأمل أن يهزم الخصم الرهيب ، في انسحاب استراتيجيٍّ دائم ، كان تولستوي يتراجع عن الاعتماد الحاسم على ثروته فزِعاً ، ويهرب من ضميره الملاحح إلى « حكمة الإحجام » . وقد لقيت كل محاولة للتنازل عن حقه في أعماله ، حتى من بعد انتهاء حياته ، أعنى مقاومة من جانب العائلة ، وكان هو أضعف من أن يتغلّب عليها بالعنف عن طريق تصرف وحشيٍّ ، وكان في الحقيقة إنسانياً أكثر مما ينبغي : وهكذا ظل طوال سنين يقتصر على ألاّ يقرب مالاّ بنفسه ، ولا يستعمل شيئاً من عائداته ، وهو يتهم نفسه في قوله : « ولكن كان يكمن وراء هذا التجاهل ظرف يتمثل في أنني كنت أنفي كل ملكية من الناحية المبدئية ، ولم أكن أعنى بأملكي بدافع الشهور الزائف بالحجل أمام الناس ، لكيلا يتهمني الناس بالتناقض » فهو يؤجل ، مرة بعد أخرى ، وبعد التجارب غير المثمرة ، والمتبينة

أشد التباين، والتي شهد كل منها مأساة في المجال الأضيّق من قبَل ذويه،
الحسَمَ الواضح والمُلزِم لوصيته ، من تلقاء نفسه ، وإلى أجل غير
مسمى . ولكن في عام ١٩٠٨ ، في العام الثمانين ، حين تستفيد العائلة
من اليوبيل من أجل طبعة كاملة لأعماله تخرجها برأسمال كبير ، ما عاد
في وسع العدو العلني لكل ملكية أن يظل مكتوف الأيدي . وفي العام
الثمانين يضطر تولستوي إلى خوض الصراع الحاسم ، على أعين الناس ،
وهكذا تصبح ياسنايا بوليانا ، محجة روسيا ، مسرحاً لصراع وراء
الأبواب الموصدة بين تولستوي وذويه يزداد احتداماً وفضاعة إذ يدور
حول شيء تافه ، حول المال . ولا تفيد حتى الصرخات المدوية في
اليوميات إلاّ باجاء قاصر عن رهبته . وهو يتنهد في هذه الأيام قائلاً :
« ألا ما أصعب التخلص من هذه الملكية القلوة الآثمة (٢٥ تموز ،
١٩٠٨) ، ذلك لأن نصف العائلة يتجاذب هذه الأملاك بأظافر ناشبة
كالمخالب ، مشاهد من الروايات الرديئة من أفطع الأنواع ، وأدراج
محطمة ، وخزائن مقلوبة الأمتعة ، وأحاديث يُسترق السمع إليها ،
ومحاولات لنزع الأهلية ، تتناوب مع لحظات مثناة في مأساويتها
مع محاولات انتحار الزوجة ، وتهديدات تولستوي بالهرب . ويفتح
جحيم ياسنايا بوليانا أبوابه ، كما يقول تولستوي . ولكن تولستوي يجد
في هذا العذاب الأقصى التصميم الأقصى في نهاية الأمر . فقبل بضعة
أشهر من موته ، يقرّر أخيراً ، من أجل نقاء هذا الموت وبلاغته ،
ألاّ يسمح بعدُ بضروب من الالتباس والغموض ، وأن يترك للعالم
من بعده وصية تنقل ملكيته الأدبية ، على نحو لا يقبل التأويل ، إلى
البشرية بأسرها . وما تزال هناك حاجة إلى أكلوبة أخيرة لإنجاز هذا
الصدق . وذلك أنه لما كان يشعر أنه عرضه لاستراق السمع والمراقبة

في البيت فان ابن الثانية والثمانين يخرج على ظهر فرسه فيما يبدو أنه نزهة فروسية بريئة في غابة جرومونت المجاورة ، وهناك ، على أرومة شجرة - أكثر اللحظات مسرحية في قرننا - يوقع تولستوي أخيراً ، بحضور ثلاثة شهود مع الفرس ذات الزحير ، تلك الورقة التي تشهد لإرادته بالسلطة النافذة وسريان المنعول فيما وراء حياته .

والآن تمّ اطّراح اغلال القدمين وراءه ، فهو يعتقد أنه قد قام بالعمل الحاسم ، ولكن العمل الأصعب ، والأهم ، والأكثر ضرورة ، ما زال في انتظاره . ذلك لأنه ما من سر يبقى على حاله في هذا البيت الذي يعجّ بالناس ذوي الضمائر التي يسعدها الحديث ، وسرعان ما تحسّ الزوجة ، وسرعان ما تعلم العائلة أن تولستوي أقدم على التصرف في ماله سرّاً ، ويأجلون في التنقيب عن الوصية في المصناديق والخزائن ، ويبحثون في اليوميات ليعثروا على أثر ، وتهدد السيدة النسيبة بالانتحار إذا لم يكفّ مساعده البغيض تشيركوف عن زيارته . هنالك تبيّن لتولستوي أنه لا يستطيع هنا ، في غمرة الانفعال والتلهّف على الربح ، والكراهية ، والاضطراب ، أن يصوغ عمله الفني الأخير ، الموت الكامل . ويتملك الخوف الرجل الشيخ من أن تتمكن العائلة ، « من وجهة فكرية ، من القضاء على تلك الدقائق الثمينة التي قد تكون أروع الدقائق » . وينبثق من جديد ، دفعة واحدة ، من أعماق شعوره ، تلك الفكرة القائلة إنه لابد من ترك الزوجة والأولاد ، والأملاك والربح ، كما يطالب الانجيل ، سعيّاً وراء الكمال ، وابتغاءاً للقداسة . ولقد سبق أن هرب مرقين ، أولاهما عام ١٨٨٤ ، ولكن طاقته انهارت في منتصف الطريق . وفي تلك الأيام أرغم نفسه على العودة إلى زوجته التي كانت تعاني من المخاض ، وولدت له طفلة في الليلة ذاتها - وهي

ابنته الكسندرا ذاتها ، تلك التي تقف الآن إلى جانبه ، وتحرس وصيته ، وهي على استعداد أن تكون مساعدة له في الطريق الأخير . وبعد ثلاثة عشر عاماً ، أي في عام ١٨٩٧ يخرج مرة ثانية ، ويترك لزوجته تلك الرسالة الخالدة ، وفيها عرض لما يرغبه عليه ضميره : « لقد عزمت على الفرار . أولاً : لأن هذه الحياة تزداد وطأتها عليّ ثقلاً باطراد مع تقدم السنين ، وشوقي إلى الوحدة يزداد شدة مع الأيام . وثانياً : لأن الأولاد قد ترعرعوا الآن ، وما عاد وجودي في البيت ضرورياً . . . والمسألة الرئيسية هي أن كل إنسان متدين في سن الشيخوخة يحس بالرغبة في تكريس سنواته الأخيرة لله ، لا للعبث واللعب ، والضرب ورياضة المضرب . مثلما يفرّ الهنود إلى الغابات إذا ما بلغوا عامهم الستين — وهكذا فإن نفسي تتوق الآن ، وقد دخلت عامي السبعين ، بكل قوتي ، إلى السكينة والوحدة ، لأعيش في انسجام مع ضميري ، أو — إذا لم أوفق في ذلك تماماً — لأفرّ من التنافر الصارخ بين حياتي وعقليتي » .

ولكنه عاد في تلك الأيام أيضاً بدافع الإنسانية الخالصة . فقد كانت قوته تجاه نفسه ذاتها ليست بلاشدة . كما ينبغي أن تكون ، ولم يكن النداء قوياً بعدُ بدرجة كافية . فأما الآن ، وبعد ذلك الحرب الثاني بثلاثة عشر عاماً ، وبعد ذلك الحرب الأول بثلاثة عشر عاماً مضروبة في اثنين ، فيتنامي بصورة أكثر إيلاءاً مما سلف ، التزويج الهائل إلى الضرب في الأرض العريضة . ويحسّ الضمير الحديدي أن قوة لا يسبر غورها تجتذبه اجتذاباً جباراً مغناطيسياً . وفي تموز ١٩١٠ يكتب تولستوي في اليوميات الكلمات التالية : « لست أملك إلاّ الفرار ، وإني لأفكر الآن في ذلك تفكيراً جاداً . فأظهر الآن مسيحتك ، فاما هذه اللحظة وإما لا أبداً . وما من أحد هنا في حاجة إلى وجودي . فأعني يا إلهي ،

وعلمني ، فأنا لا أريد أن أحقق إلاّ أمراً واحداً ، هو إرادتك ، لا إرادتي . ولإني لأكتب هذا وأسائل نفسي : أو يكون هذا أيضاً حقاً بالفعل ؟ أولست أظاهر أمامك فحسب بهذا ؟ ألا فعونك ! عونك ! عونك ! . ولكنه مازال يتردد ، ومازال الخوف على مصير الآخرين يصدّه ، ويظل يفزع حتى من رغبته الآئمة ، ويصغي وهو يرتعد منكفئاً على نفسه ، لعلّ نداءً يأتيه من الداخل ، أو رسالة من الأعلى ، تأمره أمراً لا يُردّ حيث مازالت الإرادة تتردد وتتهيب . وهو يعترف في اليوميّات بخوفه واضطرابه ، وكأنّما يجثو على ركبتيه ، في صلاة أمام الإرادة التي لا يُسبّر غورها ، والتي أسلم نفسه لها ، وهو واثق من حكمتهما . وهذا الانتظار في الضمير الملتهب يشبه الحمى ، وهذا الإصغاء في الفؤاد المزعزع يشبه ارتعاده هائلة واحدة . وإذا هو يحسب أن القدر لا يسمعه ، وأنه أسلم نفسه لما ليس له معنى .

هنالك ، في الساعة الملائمة ، وفي أصبح الساعات ، ينبثق صوت في داخله ، هو الصوت الأول القديم في الأسطورة : « قم ، وانهض ، وخذ معطفك ، وعصا الترحال ! » ويتنفّض ، ويخطو نحو كماله

* * *

الرجوع إلى الله

لا يستطيع المرء أن يدنو من الله إلا
وحيداً !

« اليوميات »

في الثامن والعشرين من تشرين الأول ١٩١٠ ، وربما في الساعة السادسة صباحاً ، حين كان الليل ما يزال مدهمماً بين الأشجار ، كانت بضع شخصيات تتسلل بطريقة غريبة إلى قصر ياسنايا بوليانا ، وتصل المفاتيح ، وتفتح مزاليج الأبواب بطريقة لصوصية ، ويقوم الخوذي بشدّ الخيل إلى العربة بحذر شديد لكيلا يحدث ضجة ، وفي حجرتيه يلوح ظلالٌ يضطربان ، وهما يتلمسان كل أصناف الطرود ، ويفتحان الأدراج والخزائن ، ومعهما مصباحا جيب مستوران ، ثم ينسلان من خلال أبواب تنفتح بضغط لا يحدث صوتاً ، ثم يتعرنان وهما يتهاامسان ، يجذوران الأشجار الموحلة ، ثم تجري عربة بهدوء ، متجنباً الطريق الموجود أمام باب المنزل ، إلى الخلف ، خارجة من باب الحديقة .

فماذا يحدث هنا ؟ هل اقتحم اللصوص القصر ؟ هل يقوم رجال شرطة القيصر أخيراً بقلب مسكن هذا المشتبه به كثيراً ، رأساً على عقب ، لإجراء تفتيش ؟ كلا ، لم يقتحم المكان أحد ، وإنما هو ليو نيكولايفتش تولستوي ، يقتحم كلاً ، لا يصحبه سوى طبيبه ، خارجاً من سجن حياته . لقد توجه النداء إليه ، في إشارة

حاسمة لا تُنْقَض . وقد باغت زوجته مراراً في الليل ، وهي تفحص أوراقه خلصة وبصورة هستيرية . وها هو ذا التصميم قد انبثق بغتة فيه قوياً كالفلاذ ، وصيدامياً ، وهو التصميم على أن يغادرها ، على أن يهرب من تلك « التي هجرت روحه » ، إلى أي مكان ، إلى الله ، إلى ذاته ، إلى موته الخاص المقسوم له ، وفجأة لبس المعطف مسرعاً فوق قميص العمل ، ووضع قبعة خشنة ، ولبس الخذاء المطاطي ، ولم يأخذ معه شيئاً آخر من أملاكه ، إلا ما يحتاج إليه الفكر لينتقل إلى البشرية : دفتر اليوميات ، وقلم الرصاص ، والريشة . وفي محطة القطار يكتب بخط مستعجل رديء رسالة أخرى إلى زوجته ، ويبحث به إلى البيت عن طريق الحوذي : « لقد صنعت ما يصنع الشيوخ في سني في العادة ، وأنا أخاف هذه الحياة الدنيوية لأقضي الأيام الأخيرة من حياتي في عزلة وهذوء » . ثم يصعدان ، وعلى المقعد الملوث بالزيوت في عربة بالدرجة الثالثة يقعد ليو تولستوي ، اللاجئ إلى الله ، متدثراً بالمعطف ، لا يصحبه إلا طبيبه .

ولكن ليو تولستوي ما عاد يسمى نفسه بهذا الاسم . فمثلما خلع كارل الخامس ، سيد العالمين ، من قبل ، كل شارات السلطة طوعاً ليدفن في تابوت الاسكوريال ، نبذ تولستوي اسمه وراءه أيضاً ، كما فعل بماله وبيته ومجده . فهو يسمى نفسه الآن ت . نيكولايف ، وهو اسم مخترع لا مريء يريد أن يخترع لنفسه حياة جديدة مع الموت النقي والصحيح . لقد انخلت الآن كل الأواصر ، فهو يستطيع الآن أن يكون الرحالة في مناكب الأرض الغريبة ، خادماً للتعاليم والكلمة المخلصة . وفي دير شاماردينو يودع أخته ، رئيسة الدير ، ويجلس

شخصان عجوزان متداعيان معاً بين رهبان لطفاء ، وقد صفت نفسه بالهدوء والعزلة المُسْكِرَة . وبعد أيام قلائل تلحق به ابنته ، الطفلة التي ولدت في تلك الليلة التي كان فيها الحرب الأول الذي انتهى إلى الإخفاق . ولكنه يضيق ذرعاً حتى هنا ، في الهدوء ، فهو يخاف أن يتمّ التعرف عليه وأن يلاحق ويدرك ، ويُطرح مرة أخرى في هذه الحياة الغامضة الزائفة في بيته . وكذلك يوقظ ابنته في الساعة الرابعة صباحاً من الحادي والثلاثين من تشرين الأول ، بغتة ، وقد لمست مراراً لإصبع خفية ، ويلجّ في ابستناف السفر ، إلى أي مكان ، إلى بلغاريا ، إلى القوقاز ، إلى الخارج ، إلى أي مكان لا يصل إليه فيه المجد ولا الناس ، إلى حيث الوحدة ، أخيراً ، إلى نفسه ، إلى الله .

ولكن خصم حياته الرهيب ، وخصم تعاليمه ، وهو الشهرة ، الشيطان المعبّد والمُغوي ، مازال متمسكاً بضحيته . فالعالم لا يسمح « لصاحبه » تولستوي أن يكون تبعاً لإرادته الخاصة الأصيلة الحكيمية . فما يكاد الطريد يقعد في العربة المقفلة ، وقد دفع بالقبعة حتى جبينه حتى عرف أحد المسافرين المعلم الكبير ، وإذا الحضور جميعاً يعرفونه دفعة واحدة ، وإذا السرّ فاش ، وإذا الرجال والنساء يزدهمون من الخروج على باب العربة لبروه ، فالصحف التي يحملونها تورد تقارير تملأ أعمدة عن الحيوان الثمين الذي فر من السجن ، وإذا أمره ذائع ووضعه منقلب . ويقف المجد مرة أخرى ، هي المرة الأخيرة ، في طريق تولستوي إلى الكمال . وتَصير أسلاك البرق إلى جانب القطار الهادر بالرسائل ، ويتم لفهام كل المحطات من قبل الشرطة وتعبئة كل الموظفين . وفي المترو يطلبون قطارات استثنائية ، ويطيرون المراسلون

من موبسكو ، ومن بطرسبرج ، ومن نيشينج - نوفجورود ، ومن كل مسارب الرياح الأربعة ، نحو الوحش المارب . ويبعث المجمع الكنسيّ المقدس بكاهن ليمسك بالنادم . وفجأة يصعد إلى القطار سيد غريب ، ويظل يروح ويحيي في قناع متجدد أبداً وهو يمر بالعربة المقبلة ، فهو من الشرطة السرية : - كلاً ، ما كان المجد ليدع سجينه يهرب . وما ينبغي لتولستوي ولا يجوز له أن يخلو إلى نفسه ، فالناس لا يطيقون أن يتمي إلى نفسه وبحق تقديسه .

لقد انقلب وضعه ، وأُحيط به ، وما من دغل يستطيع أن يلقي بنفسه فيه . وحين يبلغ القطار الحدود ، سيحييه موظف بقبة مرفوعة بأدب ويحظر عليه العبور . فحيثما أراد أن يستريح سيتصدى له المجد ، عريضاً ، كثير الأفواه ، صاخباً ، ولا يستطيع الإفلات ، فالمخلب يشبث به . ولكن ابنته تلاحظ فجأة كيف يُزكزل جسد أبيها الشيخ صقيع من الرعدة الباردة وحين تُستنفد قواه يستند إلى المقعد الخشبيّ الصلب ، ويتنجس العرق من كل مسام هذا المرتعد ويقطر من جبهته . فثمة حمى انبثقت من دمه ، وقد دهمه المرض لينقله ، وسرعان ما يرفع الموت عباءته القائمة ايحجبه عن المطاردين .

وفي أستاوفو ، وهي محطة قطار صغيرة ، يضبطرون إلى التوقف ، فهذا المصاب بمرض الموت ما عاد يستطيع المضي في الطريق . ولم يكن ثمة نُزُل أو فندق ، أو حجرة من حجرات الأمراء تؤويه ويقدم ناظر المحطة حجرة عمله القائمة في مبنى المحطة المتمثل في بيت خشبي ذي طابق واحد . وقد تولاه الحجل (وهي منذ ذلك الوقت محجة للعالم الروسي) . ويدخلون بهذا المرتعد من البرد ، وإذا كل ما كان يحلم

به "حق" فجأة..، فهنا الحجر الصخرة ، منخفضة رطبة ، مفعمة بالدخان والفقر ، والسرير الحديدي ، وضوء مصباح النفط الضئيل -- لقد ابتعد عنه الترف والزفاهية اللذان هرب منهما ، أحياناً مرة واحدة . ففي الموت ، في اللحظة الأخيرة يغدو كل شيء . كما أرادت . إرادته الأعمق بالقبض : "نقياً" ، لا خبث فيه ، ويضع الموت نفسه بصورة كاملة ، تحت تصرف يد الفنان ، رمزاً جليلاً . وفي أيام قلائل يتطاول البنيان الزائع لهذا الموت ، دعماً جليلاً لمذهبه ، إذا ما عاد يتعرض لحسد الناس ، أو إزعاجهم وسعيهم بالفساد ، في بساطته الأرضية . وعبثاً يتف له المجد في الخارج ، أمام الباب المؤنسد ، بالمرصاد ، الأهدأ بشفتيه المتعطشتين ، وعبثاً يتزاحم المرسلون والفضوليون والجواسيس ورجال الشرطة والدرك والكاهن الذي أرسله المجمع الكنسي والضباط المدين عيبتهم القبيحة ، وينتظرون ، فاشغافهم الصارخ اللبني لا حياة فيه ، ما عاد يقدر على أن يفعل شيئاً ضد هذه الوحشة الأخيرة التي لا سبيل إلى إزعاجها ، فليس هناك إلا ابنته تقوم بالحراسة ، وصديق له ، والطبيب ، ويلفّه بالصمت حب هادئ ومتواضع . وعلى منضدة السرير ترقد كراسة اليوميات ، وسيلته الكلامية إلى الله ، ولكن البدين المحمومتين ما عادتا قادرتين على الإمساك بالقلم ، فهو يملئ من رثة لاهثة ، بصوت آخذ في الانطفاء ، على ابنته ، أفكاره الأخيرة ، ويسمي الله « ذلك الكل » الذي لا تحده حدود ، الذي يشعر الإنسان حياله بأنه جزء محدود والمتجلى في المادة والزمان والمكان » ويعلن أن اتحاد هذه المخلوقات الأرضية بحياة كائنات أخرى لا يتم إلا عن طريق الحب . وقبل موته بيومين يهدف كل حراسه لإدراك الحقيقة العليا ، التي لا تدرك ، وبعد ذلك فحسب يخيم الظلام شيئاً فشيئاً على هذا الدماغ المشع .

وفي الخارج يتراحم الناس في فضول ووقاحة . على أنه ما عاد يشعر بهم . وأمام النوافذ تنطلّع زوجته ، صوفيا اندرييفنا ، من خلال دموع عينيها المغرورقتين ، نحوه وقد أذلّها الندم ، لترى حياته عن بعد مرة أخرى ، وهي التي ارتبطت به ثمانية وأربعين عاماً : غير أنه ما عاد يعرفها . وتزداد أشياء الحياة غرابة باطراد عند هذا الإنسان الذي هو أوضح البشر نظراً ، ويزداد سريان الدم في العروق المنهارة قتامة وتعترأ ، وفي ليل الرابع من تشرين الثاني ينهض مرة أخرى ، ويتنهد قائلاً : « ولكن الفلاحين – كيف يموت الفلاحون إذا ؟ » . وما تزال الحياة الهائلة تغلب الموت الهائل . وفي السابع من تشرين الثاني فحسب ينزل الموت بالخالد . وتتردد الهامة التي تلفّها الأسنة المستعرة البيض غائصة في الوسادة ، وتنظفي العينان ، اللتان رأتا العالم رؤية أحاطت به علماً أكثر من كل ما عليهما . والآن فحسب يدرك الباحث اللجوج أخيراً حقيقة كل حياة ومعناها .

* * *

الرسالة الأخيرة

لقد مات الإنسان ، ولكن علاقته
بالعلم تضي في إحداث أثرها على الناس ،
لا على النحو الذي كانت عليه في الحياة
فحسب ، بل على نحو أشد بكثير ، ويتصاعد
أثره بمقلانيته وحب ، وينمو ككل شيء
حي دونما توقف ودونما نهاية
رسالة .

لقد سمى مكسيم جوركي تولستوي ذات مرة إنساناً إنسانياً :
وهذه كلمة لا تفوقها كلمة ، ذلك لأنه كان إنساناً معنا جميعاً ، صبيغ
من الطين الهش ذاته ، وقد علقته به ضروب العجز الأرضية ذاتها ،
غير أن معرفته بها كانت أعمق ومعاناته منها أكثر إيلاًماً . لم يكن ليو
تولستوي من نوع مخطف ، بل كان أعلى من الآخرين الذين هم في
مثل سنه الزمني ، على أنه كان أكثر إنسانية من معظم الناس ، وأحسن
أخلاقاً ، وأرهف إحساساً ، وأكثر يقظة وحساسية — وكأنه النسخة
الأولى الأشد نقاءً لتلك الصورة الخفية الأولى في ورشة صانع الكون
الفنان .

غير أن هذه الصورة للإنسان الخالد الذي يكمن في أعماقنا نحن
جميعاً ولها مخطط يلوح كالظل ولا يمكن تمييزه في الغالب ، هي التي

يختار تولستوي أن يجعل شغل حياته الإعراب عنها إعراباً كاملاً قدر
الإمكان ، في غمار عالمنا المشوش - وهو عمل لا يمكن إنهاؤه ، ولا
تحقيقه بصورة كاملة أبداً ، ويعد من أجل ذلك بطولياً بصورة مضاعفة .
وكان يلتبس الإنسان في أجلى مظاهره الخارجية بفضل مصداقية الحواس
التي لا مثيل لها ، وقد التمس في المجال الخفي لضميره الخاص وهو
لا يمكن غوصاً في الأعماق التي لا يبلغها المرء إلا بأن يجرح نفسه . ولقد
نقّب هذا العبقرى المثالي الأخلاقي ، بجذّ عابس ، وبقسوة لا ترحم ،
عن النفس بغير تحفظ ، ليحرّر تلك الصورة المأخوذة عن صورتنا
الاضطربة الكاملة ، من قشورها الأرضية ، ويعرض للبشرية بأسرها ،
عيها الأكبر نبلاً ، والأقرب إلى الربانية . ولم يكن هذا المصور
الذي لا يخاف ، يهدأ قط ، ولا يسالم نفسه قط ، ولا يضيفي على فذه قط
تلك المتعة البريئة المتمثلة في مجرد العبث بالأشكال ، بل يعمل ثمانين
عاماً في هذا العمل الفني الرائع ، ألا وهو الوصول بالنفس إلى الكمال
عن طريق تصوير النفس . ومنذ عهد جوته لم يجعل أديب نفسه
والإنسان الخالد في الوقت ذاته ، على هذا النحو .

غدير أن هذه الإرادة البطواية التي تنزع إلى التهذيب الأخلاقي
للعالم عن طريق الامتحان ، كما تنزع إلى أن تطبعة بطابع نفسه الخاص
لا يبدو أنها انتهت مع أنفاس هذا الإنسان الفريد . فالمدافع القوي في
شخصيته يستمر في إحداث أثره في الخي وهو يصنوخ ، ويتابع الصياغة
بشبات . وما زال بعض الشاهدين على أرضيته ، الذين نظروا في هذه
العين الرمادية القاسية كالفضولاذ وهم يرتعدون ، موجودين حيث تمس
الحاجة إليهم . ومع ذلك فقد تحول إنسان تولستوي منذ عهد يعيد إلى

أسطورة ، وأصبحت حياته أسطورة سامية للبشرية ، وكفاحه ضد نفسه مثلاً لحيلنا ولكل جيل . ذلك لأن كل ما فكر بالتضحية به ، وكل ما أنجزه انجازاً بطولياً إنما قام به على أرضنا الضيقة من أجل الناس جميعاً . وإنما تكتسب البشرية من كل عظمة إنسانٍ بعداً جديداً أعظم . ولا يشعر الفكر الباحث بحدوده وقوانينه إلاّ من خلال التعرف على ما هو حقيقي في حرارته الداخلية . ولا يمكن إدراك روح البشرية إدراكاً أرضياً إلاّ بفضل الصياغة الذاتية انفانيتها ، بفضل عبقرية الشخصية .

* * *

ستندال

ماذا كنت ؟ وما عساي ؟ اكون ؟ اني
لبحرجي ان اقول ذلك .
ستندال ، « هنري برولار »

الولع بالكذب والطرب للحقيقة

أحب الأشياء إلى نفسي أن أوتدي قناعاً
وأن أغير اسمي .

رسالة ..

قل من كذب وأوقع العالم في الخيرة بحماسة أكثر مما فعل ستندال ،
وقل من قال الحقيقة بصورة أفضل وأعمق مما قالها

فالإعبيـه التنكـرية وأضاليله تعدُّ بأعداد الكتاب ، وقبل أن يفتح
المرء كتاباً تقفز الألعبـة الأولى نحوه من الغلاف أو من المقدمة ، ذلك
لأن المؤلف هنري بيل لا يقرّ أبداً بيسر وبساطة باسمه الحقيقي . فحيناً
يتخذ لنفسه بصورة تصفية سمةً من سمات التقدير الخاصة بالنبلـاء ،
وحيثما يتنكر في ثياب « سيزار بومبيـه » (١) ، أو يضيف إلى الحروف
الأولى من اسمه H. B. إضافة تنطوي على لغز ، وهي A. A. ، التي
لا يتهياً ، حتى لـشيطان ، أن يخبّر من ورائها العبارة المتناهية في
التواضع ، وهي « Ancien Auditear » ، وهي بالعربيّ الفصيح :
« مراجع حسابات الدولة سابقاً » . فهو لا يحسّ بالأمان إلّا في الاسم
المستعار . وفي الإخبار الكاذب فـذات مرة يتنكر في قناع متقاعد
نمساوي ، ومرة أخرى في قناع ضابط سابق في سلاح الفرسان ، وأحب
ما يكون ذلك إليه باسم ستندال ، الذي ينطوي على لغز بالقياس إلى

César Bombet (١)

أهل بلده (والمأخوذ عن بلدة بروسية صغيرة أصبحت خالدة عن طريق مزاجه الكرنفالي) . وإذا حدد تاريخاً ففي وسع المرء أن يقسم أنه لا يصح . وإذا روى في مقدمة « دير بارم » إن هذا الكتاب كتب عام ١٨٣٠ ، وذلك على بعد مائتين وألف من الأميال من باريس فإن هذه المعايبة لا تمنع أن يكون قد كتب هذه الرواية في الحقيقة عام ١٨٣٩ ، وكان ذلك في الحقيقة في وسط باريس . وحتى في الوقائع تتعثر المتناقضات مختلطاً بعضها ببعض على نحو مرح . ففي سيرة ذاتية يروي متبجحاً أنه كان في واغرام ، وأسبرن ، وإيلر ، في ميدان المعركة ، ولا يصح من هذا كلمة واحدة ، ذلك لأن اليوميات تبرهن بصورة لا تدحض : إنه كان في الساعة ذاتها بالضبط ما يزال جالساً مستريحاً في باريس . وفي بعض المرات يتحدث عن حديث طويل وهام مع نابليون ، ويأله من مصيبة ! فني المجلد الثاني يقرأ المرء الاعتراف الأكثر قابلية للتصديق بدرجة هائلة : « ما كان نابليون ليتحدث إلى مجانين من طرازي » . وإذا فلابد للمرء مع ستندال أن يتناول كل ادعاء على حدة بأصابع حذرة ، وأن يكون أكثر ما يكون المرء سوء ظن حيال رسائله التي يؤرخها تاريخاً مغلوطة بصورة مبدئية خوفاً من الشرطة كما يقال ، ويوقعها كل مرة باسم مستعار آخر . فإذا كان يقوم بنزهة متمهلة في روما فلا بأس في أن يخبر أن أورفيتو هي مكان الإرسال. وإذا كان يكتب من بيزانسون كما يقول ، فقد كان بالفعل في ذلك اليوم في جرينوبل . وفي بعض الأحيان يكون عدد السنين ، وفي أغلبها يكون الشهر ، موضوعاً بصورة مضللة ، ويكاد التوقيع يتخذ صورة القاعدة المطردة على هذا النحو . ولكن هذا الذي كان يدفعه إلى مثل هذه الحماقات لم يكن ، كما يرى بعض الناس ، مجرد الخوف من مجلس

الشرطة النمساوية ، بل كان ولعاً فطرياً أصيلاً بالخداع ، وإثارة الدهشة ، وتغيير الوضع . والتخفي . وذلك أن ستندال يتقاذف يده الألفاظ والأسماء المستعارة مثاماً يتقاذف امرؤ نصل سفود لامع حوالتي شخصه لا لشيء إلا لكيلا يدنو منه فضولي أقرب مما ينبغي ، ولم يكن قط يخفي هذا الميل العارم إلى المكر والخداع . وحين يتهمه صديق بمرارة في رسالة قائلاً إنه كذب كذباً شائناً ، يذبل ، مطمئن النفس حاشية كتاب الشكوى بقوله : « حقاً » « صحيح ! » . وبمحياً طلق وسرور ساخر يلفتق في أوراقه الثبوتية أرقاماً مزيفة عن سنوات الخدمة ، واتجاهات موالية تعادي آل بوربون حيناً وتعادي نابليون حيناً آخر ، وتعج كل كتاباته ، المطبوع منها والخاص ، بالمغالطات كبيض السمك في المستنقع . وكان آخر مغالطاته — وهذا هو الرقم القياسي في الميل إلى الكذب ! — ما كتب بناء على رغبة عبّر عنها في وصيته ، بل نقّش في المرمر ، على شاهدة قبره ، في مقبرة مونمارتر . وهناك مازال المرء يقرأ حتى اليوم التفضيل التسالي : آرّيجوييل ، من ميلانو ، المثوى الأخير لللك الذي عمّد باسم هنري بيل بالعربي الفصيح ، والذي وُلد في المدينة الريفية جرينوبل (الأمر الذي يغيبه !) . لقد أراد أن يقدم نفسه حتى إلى الموت مقتنعاً : فلبس ، حتى له ، لبوساً رومانسياً .

واكن مع ذلك ، وعلى الرغم من ذلك : فقليل من الناس من قدّم إلى العالم حقيقة اعترافية عن نفسه ذاتها بمقدار ما أعطى هذا الفنان الكبير المتكبر . وكان ستندال يعرف إذا اقتضى الأمر كيف يكون مخلصاً للكمال بمقدار ما كان يحب الكذب فقد أفصح عن تجارب وملاحظات ذاتية معينة حميمة إلى أقصى الحدود ، بصوت عال متعمد ،

وبجراً زائدة ، وبصراحة مذهلة أول الأمر ، بل خيفة في الغالب ، ثم تغدو بعد ذلك غلاظة مسيطرة ، وهي ملاحظات يوارىها الآخرون مسرعين وهي عند عتبة الوعي ، أو يدعونها تخفي بما يشبه السحر . ذلك لأن ستندال كان لديه من الشجاعة ، بل من الوقاحة ، في صدد الحقيقة بمقدار ما كان لديه في صدد الكذب . فهو يقفز هنا ، مثلما يقفز هناك ، بجراً فريدة ، فوق كل حواجز الأخلاق الاجتماعية ، وينترق كل حدود الرقابة الداخلية وحواجز طرقها ، وعلى كونه خجولاً في الحياة ، رعيدياً أمام النساء ، فإنه ما يكاد يتناول القلم حتى تتولاه الشجاعة ، وعند ذلك لا تعوقه « عوائق » ، بل على النقيض من ذلك ، فحيثما يجد مثل هذه المعوقات في داخله ، يمسك بها ، ويستخرجها من نفسه ليشرحها بأكبر مقدار من الموضوعية . على أن ما كان يعوقه في الحياة أكثر من كل ما عداه ، كان هو بالضبط ما يتمكن منه على أفضل وجه في علم النفس . وعلى هذا النحو افتتح بالحدس ، في عام ١٨٢٠ ، وبنجاح عبوري حق ، بعض المغاليق المستعصية في آلية النفس التي لم يحللها علم النفس التحليلي ، ولم يعد تركيبها ، إلا بعد مائة عام ، بأجهزته الفنية المعقدة — وذلك أن عقلية في علم النفس ، تلك العقلية الفطرية المدربة تدريباً رياضياً تستنبق بجملة واحدة منها العلم الذي يتقدم مترياً ، بمقدار قرن . ولا يعتمد ستندال في ذلك على مختبرات سوى ملاحظته الخاصة . فوسيلته الوحيدة كانت وما زالت فضولاً حاداً بصورة قاطعة ، مصقولاً صقلًا بالغ الإرهاف . فهو يلاحظ ما يحس ، وما يحس به فهو يعبر عنه من جليد صريحاً جسوراً . وكلما كان أكثر بجراً كان أفضل ، وكلما كان حزيناً بصورة أكبر كان أكثر اندفاعاً وأحب الأشياء إليه أن يتعمق البحث في أكثر مشاعر اختفاء

وانزواء . وحسبي أن أذكر ، كم من مرة ، وبأية عصبية ، يفخر
بكراهيته لوالده ، وكيف يروي متهاكماً أنه أجهد نفسه شهراً كاملاً
سدى من أن أجل أن يحس بألم لدى خبر وفاته . أما الاعترافات الأكثر
إيلاماً ، والمتصلة بعوائقه الجنسية ، وضروب إخفاقه المتواصل مع
النساء ، وأزمات غروره الذي لا حدود له ، فكل هذا يعرضه بدقة
موضوعية ، وقياس كقياس الآلة أمام القاريء ، مثل بطاقة هيئة أركان
الحرب . وهكذا يجد المرء لدى ستندال روايات معينة تتميز بالصراحة
ذات الخصوصية والدقة المتناهيتين موصوفة ببرود كالوصف السريري
لم يرفع لإنسان قبله صوتاً لحنجرته بها ، أو يفصح عنها بدافع الإقشاع
الناجم عن الضغط . وهذا هو عمله . ففي بلّور ذكائه الرائق الشفاف ،
البارد الجليدي بصورة أنانية ، توجد بعض المعارف النفيسة للغاية ،
مما خرجت به النفس ، متجمدة بصورة ثابتة إلى الأبد ، وباقية محفوظة
للعالم من بعده . ولولا هذا الأستاذ الأكثر تفرّداً في التنكّر ما كنا لنعرف
هذا المقدار عن حقيقة دنيا المشاعر وعالمها السفلي . ولئن كان هناك
من يقف مرة واحدة فحسب ضد نفسه بصراحة ، فقد كان هو كذلك
دائماً . ولئن كان هناك من يخمس سرّه الخاص تخميناً فقد باح به للناس
جميعاً .

* * *

الصورة

أنت دميم ، ولكن لك طالماً حسناً
العم جانويون للقي هنري بيل

الظلام يسود الشقة الصغيرة تحت السطح في شارع ريشليو . وهناك
شمعتان من الشمع تتقدان على المكتب ، فمند الظهيرة يكتب يستنهض الى
في روايته . والآن يطوح بالريشة بعيداً بحركة واحدة : حسبي اليوم
هذا ! والآن الى الانتعاش ، والخروج ، والطعام الجيد ، وإلى المجتمع ،
والحديث المرح ، وبعث النشاط في النفس عن طريق النساء ! .

ويأخذ أمهته ، فيرتدي ثوبه ، ويرجّل ناصيته : والآن نظرة
أخرى سريعة في المرأة ! وينظر إلى نفسه ، وعلى الفور تشد تقطيعه
هائلة زاوية الفم فتميل بها : كلاً ، إنه لا يعجب نفسه . ياله من وجه
كوجه الكلاب الضخمة ، خشن يفترق إلى الورقة ، مستنير أحمر .
بوزيجوازي مكنز ، ولكم يستقر الأنف ذو المنخرين العريضين غليظاً
على نحو بغيفض ، مكوراً كالبعضة بشكل مستعرض في وسط هذا الوجه
الويقي ! أجل لقد كانت العينان خليقتين ألا تكونا على هذا الجانب
من السوء ، فهما صغيرتان ، سوداوان ، برأقتان ، مترعتان بضوء
الفضول المضطرب ، غير أنهما تستقران على غمق مفرط ، وهما
مفرطتان في الضالة تحت الحواجب الكثيفة في الجهة الثقيلة المربعة .

ولو أنه كان صينيّاً في الكتيبة لسخر الصينيون منه . فماذا بقي في هذا الوجه من خصلة جميلة ؟ وينظر ستندال إلى نفسه مستاءً . ما من شيء جميل ، وما من شيء رقيق ، أو في قسماته روح حيّة ، وإنما كل شيء ثقيل ، غوغائيّ ، بورجوازية خبيثة في مرارة . ومع ذلك فقد يكون الرأس الكرويّ الذي تحفّ به لحية سمراء كالإطار ، أفضل ما في هذا الجسد المزعج . ذلك لأن الرقبة تتكتّل كالحوصلة مع مبتدأ الذقن تماماً ، وتغدو مفرطة في القصر . أمّا ما دون ذلك فهو يؤثر ألاّ يجرؤ على النظر إليه أبداً . ذلك لأنه يمتّ كرسّه الثقيلة المنتفخة والساقين المفرطين في القصر والخالين من الجمال ، واللذين يحسلان كل هذه الكتلة الثقيلة ، كتلة هنري بيل ، بجهد جعل زملاءه في المدرسة يسمونه دائماً « البرج المتنقل » . وما يزال ستندال يبحث في المرأة عن أيّ عزاء . لإنهما اليدان على كل حال ، أجل ، فقد يستقيم أمرهما ، فهما رقيقتان رقة نسائية ، مَرَّتَان ، لهما أظافر حادة مصقولة مُلْس ، فهما تنضجان بشيء من الفكر والنبل ، وكذلك البشرة ، الحساسة كبشرة البنات ، الرقيقة ، فهي خليفة أن توحى بعقلية لطيفة وبشيء من النبل والحسّ المرهف . ولكن من عساه يرى ويلاحظ في رجل مثل هذه السمات الصغيرة الأنثوية ؟ فالنساء يتساءلن دائماً عن الوجه والقامة ، وهذان ، كما يعرف منذ خمسين عاماً ، يتسمان بسمة العوامّ على نحو لا يخرج منه . فقد كان أوغسطين فيلون يسمّي وجهه وجه عامل في صناعة ورق الجدران ، وكان مونسلية يميّزه بأنه « دبلوماسي » له وجه صيدليّ » ولكن مثل هذه الملاحظة ذاتها تبدو محامية له ، لأن ستندال يحكم الآن بنفسه ، وهو يحملق باشمتراز في زجاج المرأة الذي لا يرحم قائلاً : « وجه جزّار إيطالي » .

ومع ذلك فياليت هذا الجسد الهائل المكتنز كان على الأقل خشناً رجولياً ! - فهناك نساء يألفن الأكتاف العريضة ويجدين في بعض الأوقات قوزاقي أكثر مما يجدين ذو الأناقسة . على أن مما يبعث على الازدراء ، كما يعلم ، أن هذه القائمة الفظة الفلاحية ، وهذا الامتلاء الأحمر بالدم ليس عنده إلا شكلاً تشبيهاً وعموماً للجسد . فتَحَتَ هذه الكتلة الضخمة التي تمثل الرجل تهتز وترتعش حزمة من الأعصاب ذات الحساسية المتناهية في الرقة ، بل تكاد تكون حساسية مرضية ، وقد عجب منه كل الأطباء إذ رأوا فيه « وحشاً من وحوش الحساسية » . فيالها من مصيبة ! نفس كهذه ، مثل نفس الفراشة ، قد حُبِكت في نسيج هذا القدر من الامتلاء والشحم : لا بد أن كابوساً ما قد استبدل في المهد جسداً بروح ، فما أكثر ما ترتعد النفس المفرطة في الحساسية إلى درجة المرض وترتعش لدى كل إثارة تحت إهابها الخشن . فما هي إلا نافذة مفتوحة في الغرفة المجاورة وإذا رعدة حادة تغمر البشرة التي تتخللها الشرايين الدقيقة كرهاذ المطر ، وما هو إلا باب ينطبق وإذا الأعصاب تنتفض في اختلاجة عارمة ، وما هي إلا رائحة كريهة وإذا هو ينتابه الدوار ، وما هو إلا القرب من امرأة وإذا هو يعتريه الارتباك والخوف ، أو يغدو ، بدافع الخوف المقلوب ، فظاً غير مهذب . فياله من مزيج يستعصي على الفهم ؟ فقيم هذا اللحم الكثير ، وهذا الشحم الكثير وهذه الكرش الكبيرة ، وهذا الهيكل العظمي الغليظ كهياكل الحوذيين ، حول شعور رقيق النسيج ، قليل الاحتمال ، وقيم هذا الجسد الثقيل ، البغيض ، الضخم حول نفس معقدة قابلة للاستثارة إلى هذا الحد ؟

ويُعرض ستندال عن المرأة . هذا المظهر الخارجي لا خلاص منه ، فهو يعرف ذلك منذ صباه . وهذا الأمر لا يجدي فيه خياط ساحر في فنه ، وهو الخياط الذي ركّس له مشدّاً تحت الصُدَيْرِيّ يردّ البطن المتدليّ إذ يضغظه ببراعة نحو الأعلى ، وأعدّ له سراويل رائعة تبلغ الركبة من حرير لبون ، ليختفي قصر سساقيه المضحك ، ولا يجدي كذلك شيئاً دواء الشعر الذي يضيفي سمرة قائمة قوية رجولية على سالفه اللذين علاهما الشيب منذ عهد بعيد ، ولا يجدي فتيلاً ذلك الشعر المستعار الأثيق الذي يحمي الجمجمة الصلحاء ، ولا البزة القنصلية الموشاة بالذهب والأظافر المصقولة اللامعة بصورة لطيفة . فهذه الوسائل والأساليب الصغيرة تسعف وتصيل قليلاً فحسب ، فهي تخفي الشحم والتداعي ولكن ما كان لامرأة أن تلتفت نحوه في الشوارع العريضة ، لن تلتفت إليه أبداً بالوجد المتمكّن ؛ مثلما التفت السيدة دي رينال إلى صاحبها جوليان ، أو السيدة دي شامبيلير إلى صاحبها لوسيان لوفان ، ناظرة في عينيه . كلا ، فهنّ لم يلاحظنه قط ، حتى ولا حين كان ملازماً شاباً ، فأنتى له ذلك الآن ، وقد استكنت النفس في الشحم ، وخذدَ الكبير جبينه ، هيهات ، هيهات ! فليس للمرء بوجه كهذا الوجه سعادة مع النساء ، وليس هناك سعادة سواها !

ولذا فلم يبق إلا شيء واحد : أن يكون ذكياً ، مرناً ، جذاب الفكر ممتعاً ، وأن يصرف الانتباه عن الوجه بتحويله إلى الداخل ، وأن يخطف البصر ويغوي عن طريق المفاجأة والحديث ! « فالمواهب تستطيع أن تعزّي عن الافتقار إلى الجمال » (١) ، والبراعة تستطيع على كل :

(١) هذه العبارة وردت في الأصل بالفرنسية ، لا بالألمانية.

حال أن تحل محل الجمال . ولابد للمرء مع كل هذا الطالع السيء أن يستحوذ على النساء انطلاقاً من الفكر طالما أنه لا يقدر على بعث الحرارة في حونسهن عن طريق الجمال ، وإذاً فليكن كئيهاً مع العاطفيات ، ساخرأ مع المستهترات ، وعلى التقيض من ذلك أحياناً ، وليكن يقطأ على الدوام ، حاضر البديهة دائماً . « سل امرأة تنلها » (١) وليدرك كل نقطة ضعف بذكاء ، وليتظاهر بالحرارة حين يكون هو نفسه بارداً ، وبالبرود حين يكون ملتهبأ ، وليخادع بالتبدل ، وليُرِيك بالحيل ، وليظهر دائماً أنه مختلف عن الآخرين . وعليه قبل كل شيء ألا يضيع فرصة ، ولا يخشى إخفاقأ ، لأن النساء ينسبن في بعض الأحيان وجه رجل من الرجال ، وإن قبلت تيتانيا (٢) نفسها في ليلة صيف فريدة ذات مرة رأس حمار .

ويضع ستنال قبعة الزي الشائع ، ويتناول القفازين الأصفرين ويجرب ابتسامة باردة ساخرة على المرأة . أجل هكذا يجب أن يظهر مساء اليوم عند السيدة دي ت . ساخرأ ، متهكأ ، مستهترأ ، بارداً كالحجر : فالهم أن يدهش ، ويثير الاهتمام ويخطف الأبصار ، وأن يدع الكلمة تهبط كقناع خاطف على هذه السيما المزعجة . وليخدع بقوة ، وليجتذب إليه الانتباه باللفتة الأولى ، فهذا هو الأفضل ، وليخف جبينه الداخلي وراء بعض ضروب التبجح . وحين ينزل على الدرج يكون قد دبّر في نفسه مدخلاً صاخبأ : فسوف يبلغ عن نفسه اليوم عن طريق الخادم على أنه السيد التاجر سيزار بوميه ، وبعد ذلك فحسب

(١) هذه العبارة ودرت في الاصل بالفرنسية لا بالمانية .

(٢) Titania ملكة الجن وزوجة أو يرون ملك الجن في الاسطورة الشعبية

« المترجم »

الفرنسية

يدخل بنفسه وهو يتظاهر بحركات تمثيلية بأنه تاجر صوف ثرثار صخب ،
لا يدع لأحد مجالاً للحديث ، وسوف يظل يتحدث عن صفقاته
الخيالية بصورة متألقة جريئة إلى أن يستحوذ على الفضول الضاحك
بصورة شاملة وتألف النساء وجهه ، ويبي ذلك نوادر كالمفرقات ،
قوية ومرحة ، ترخي أعنة عقولهن ، وزاوية مظلمة تساعد على إحاطة
بدانته بالظل ، وبضعة أقداح من شراب البنش : وربما ، ربّما تراه
النساء في منتصف الليل ، فاتناً .

* * *

سيرة حياة المصنوع

١٧٩٩ . تتوقف عربة البريد الذاهلة من جرينوبل إلى باريس لتغيير الخيل في نيمور . هناك مجموعات هائلة ، وإصاقي ، ومجلات : فبالأمس وجه الجنرال الشاب بوناپرت في باريس الضربة القاضية إلى الجمهورية ، وداس على الاتفاقية ، وجعل نفسه قنصلاً . وكان كل المسافرين يتناقشون بحماسة ، ولكن فتي في السابعة عشرة ، عريض المنكبين ، أحمر الوجنتين ، يظهر قليلاً من الانتباه . فما عسى أن تعني الجمهورية أو القنصلية بالقياس إليه ، فهو راحل إلى باريس ، يدرس في مدرسة الصنائع كما يقال ، ولكن ليتخلص ، في الحقيقة ، من الريف ، ويجرب الحياة في باريس . باريس ! وعلى الفور يمتلئ الوعاء العملاق لهذا الاسم بسيل من الأحلام . فباريس تعني الترف ، والأناقة ، والتحليق ، واللاتريف (١) ، والحرية ، والنساء قبل كل شيء ، النساء الكثيرات . فسوف يتعرف على أي صبية جميلة لطيفة أنيقة (ربما تشابه تلك الممثلة ، فيكتورين كابي) في جرينوبل ، التي أحبها بنجمل ، من بعيد) فجأة ، بطريقة رومانسية ، وسوف ينقلها من داخل العربة المحطمة بأن يلقي بنفسه في وجه الخيل المتوقدة جموحاً .

(١) يقصد الكاتب كل مباحج المدينة الكبيرة التي لا تتوفر في الريف .

« المترجم »

وسوف يقوم بأي شيء عظيم ، كما يحلم ، من أجلها ، وستكون حبيبته .

وتواصل عربة البريد سيرها المتعثر ، وتدوس بعجلاتها هذه الأحلام السابقة لأوانها بغير رحمة . ولا يكاد الفتي يلقي نظرة على المنظر الطبيعي ، ولا يكاد يتحدث إلى مرافقيه بكلمة . وأخيراً يتوقف حوذي البريد عند الطريق الرئيسية ، وتدرج العجلات هادرة في الأزقة ذات الأرض المحدودة ، وهي تدخل الشعاب الضيقة القذرة بين المنازل العالية العفنة من رائحة الأطعمة الفاسدة والفقير المدقع . ويرى خائب الأمل أرض أحلامه وقد تولاه الفرع . هذه إذاً هي باريس . « أوليست باريس شيئاً سوى هذا ؟ » . وسيظل يردد هذه الكلمة فيما بعد : بعد الشجار الأول ، ولدى عبور الجيش ممر سان برنار وفي ليلة الغرام الأولى ، وسيظل الواقع يظهر أمام هذا التطلع الرومانسي المفرط ، كالجأ ، باهتاً ، بعد الأحلام الجائعة على هذا النحو .

ويتزلونه أمام أي فندق يصادفهم في شارع سان دومينيك . وهناك في حجرة السقيفة بالطابق الخامس ، ذات الكوة بدلاً من النافذة ، وهي مباعة للكتابة الغاضبة ، يسكن هنري بيل الصغير الآن بضعة أسابيع ، من دون أن يلقي نظرة على كتبه في الرياضيات ويتسكع ساعات بطولها في الشوارع وهو يلاحق النساء بنظراته : ما أشد إغراءهن في زيّ العنري الحديد القادم من روما ، وكيف يعابثن المعجبين بهن وهن مقبلات عليهم ، ويعزفن كيف يضحكن ، ضحكاً جذاباً سهلاً ، غير أنه لا يجرؤ على الدنو من واحدة منهن ، وهو الفتي البليد الذي لا براعة لديه ، في معطفه الريفي ، فأناقته قليلة جداً ، وجرأته أقل منها بعد .

بل إنه لا يجرؤ على التقدم إلى الفتيات النهمات إلى المال اللواتي يتمسحن بأعمدة مصابيح الزيت على نحو رخيص. ، ويحسد الزملاء الأكثر جرأة وقد تولاه الغيظ. وليس له صديق ، ولا مجتمع ، ولا عمل : فهو يحلم متبرماً في انتظار مغامرات رومانسية في الشوارع القذرة ، وقد ذهل عن نفسه تماماً ، حتى إنه ليواجه في بعض الأحيان خطر التعرض للدهس من عربة .

وأخيراً ، وبعد أن أنهكه الجهد والجوع ، بعد الحديث ، والقيظ ، والهواجس الداخلية ، يقوم بزيارة لأقربائه الأغنياء ، آل دارو ، فيلاطفونه ويدعونه إلى الدخول ، فيدخلونه منزلهم الجميل ، ولكنهم يرجعون في أصولهم إلى الريف - وتلك خطيئة موروثه عند هنري بيل ! - وهذا ما لا يغتفره لهم ، ويعيشون حياة بورجوازية ، أغنياء ميسورين ، في حين يخفق في الهواء كيس نقوده المهلهل ، وهذا ما يبعث فيه الشعور بالمرارة ، ويجلس معهم إلى المائدة علواً خفياً لهم ، متبرماً ، صامتاً ، بليداً يخفي رغبته المتحرقة إلى الملاطفة وراء العناد المتبرم الساخر . ويبدو كبار آل دارو كأنهم يقررون في أنفسهم انه جليس مزعج ناكر للجميل . وفي وقت متأخر من المساء يعود بطل العائلة بدير دارو (الكونت فيما بعد) مجهداً متعباً ، منطوياً على نفسه من وزارة الحرب ، وهو اليد اليمنى للجبار بونابرت . وكان المحارب يحكم الميل المستكن في أعماق أعماقه يود لو كان رفيقاً لهذا الأديب الصغير (الذي يحسبه ، لأنه يحيط نفسه بجدران من الصنم ، غيباً بليداً ، ويحسبه قبل كل شيء جاهلاً كالبهيمة) : ذلك لأنه يترجم في ساعات فراغه هوراس ، ويكتب مقالات فلسفية ، وسيقوم فيما بعد

(حين يخلع البزة الرسمية ذات مرة) بكتابة تاريخ للبندقية . غير أنه يعيش الآن لمهمات أجل شأناً في ظل بونابرت ، وهو حيوان عمل لا يتعب أبداً . فهو يرسم في الليل والنهار ، في المجلس السري لأركان الحرب العامة ، خططاً وتقديرات ، ويكتب رسائل لا يعرف أحد لأي غرض تُكتب . على أن هنري الصغير يكرهه على وجه الخصوص لأنه يريد أن يساعده على التقدم إلى الأمام ، ذلك لأنه لا يريد التقدم إلى الأمام ، بل يريد الانكفاء على نفسه .

ولكن بير دارو ينادي الكسلان ذات يوم قائلاً إن عليه أن يصحبه إلى وزارة الحرب ، إذ إن عنده وظيفة له . وكان هنري الصغير البدين يضطر الآن تحت سوط دارو إلى كتابة رسائل ، ورسائل ، ورسائل ، ومقالات وتقارير ، من الساعة العاشرة صباحاً إلى الواحدة ليلاً حتى تننّ عظام أصابعه ، وهو لا يعرف بعد . لم كل هذه الكتابة المحمومة ، ولكن العالم سيعرف ذلك عما قريب . ومن دون أن يدري بشيء يسهم في الحملة الإيطالية التي تبدأ بمارينجو وتنتهي بامبراطورية ، وأخيراً ييوج « المصمم » بالسر : فقد أعلنت الحرب ، ويتنفس الصغير هنري بيل الصعداء ، الحمد لله ! الآن يضطر عفريت التعذيب إلى الانسحاب إلى مقر القيادة ، وقد انتهى التعذيب الممض بكتابة الرسائل ، ويتنفس الصعداء : فالحرب أحب إليه من المضي بعد في هذا الذي هو أكثر الأشياء إثارة للفرح في الدنيا : وهو يتمثل في كلا الأمرين ، اللذين يمتقنهما أشد المقت : العمل والملل .

١٨٠٠ ، أيار . مؤخرة جيش بونابرت الإيطالي عند لوزان .

نفر من ضباط سلاح الفرسان يتدافعون بخيولهم متجمعين ويأخذون

في الضحك حتى تراقص مجموعات الريش على خوذاتهم . ثمة منظر مضحك : ها هو ذا فتى بدين قصير الساقين يقعد القرفصاء على مُهرة شَموس وقد أنشَب أصابعه فيها في غير براعة كقرد ، في ثياب نصفها مدني ونصفها عسكري ، وهو يعارك الدابة العنيدة التي تريد أن تدع الفارس البليد يتمرّغ في الرغام وكان سيفه الضخم المشدود بصورة مائلة إلى بطنه يتأرجح بصورة دائمة وهو يضرب المؤخرة ويحتك بالفرس المسكينة إلى أن تنتصب أخيراً على رجلين وتطوح بالفارس المسكين ، في انتفاضة غير مقصودة على الإطلاق ، عبر الحقول والوهاد .

ويستمتع الضباط بذلك استمتاعاً ملوكياً . وأخيراً يأمر النقيب بورلفير فهاه في نبرة إشفاف قائلاً : « اركبها ، وساعد هذا الأهل ويهرول الفتى في إثرها هرولة شديدة ، وينهال على المهرة الغريبة ببضعة أسواط قوية إلى أن تهدأ ، ثم يمسك بأعنتها ، ويُعزّ المستجد إليها وقد علت وجهه حمرة قانية من الغضب والحجل . ويسأل النقيب بانفعال : « ماذا تريد مني ؟ » وقد جعل الخيالي الخالد يحلم بالاعتقال أو المبارزة ، ولكن النقيب الميال إلى التهكم يتحوّل فجأة إلى التهذيب الشديد حين يسمع أن الأمر يمسّ ابن عم لدارو الجبار ، ويعرض عليه صحبتته . ويسأل المتطوع المرتاب أين كان يمارس نشاطه قبل هذا : ويحمرّ هنري قائلاً في نفسه : ليس في وسع المرء ، بلاريب ، أن يعترف لهذا المفتقر إلى الحسن الفنيّ انه وقف داعم العين في جنيف أمام المنزل الذي ولد فيه جان جاك روسو . وعلى ذلك يتظاهر بالحزم والعزم والجسارة ، ويمثّل دور الجريء ، في صورة بعيدة جداً عن المهارة حتى ينال إعجابهم جميعاً . ويعلمه الضباط أول الأمر ، بأسلوب تتجلى فيه روح الزمالة ، الفن الرفيع

المتمثل في الإمساك عند الركوب بالأعنة إمساكاً صحيحاً بين الإصبع الثانية والثالثة ، وأن يتمنطق سيفه بصورة مستقيمة ، وسوى ذلك من بعض أسرار الحياة العسكرية ، وعلى الفور يحس هنري بيل بنفسه جندياً وبطلاً .

فهو يحس بنفسه بطلاً ، أو لا يسمح ، على الأقل ، أن يشك امرؤ آخر في شجاعته ، فهو يؤثر أن بعض على لسانه حتى ينقطع ، على أن يطرح سؤالاً غير لبق أو يندّ عن شفتيه أنين من الخوف . وبعد العبور المشهور في العالم لمرسان برنار يلتفت في فتور وهو على متن جواده ويسأل النقيب بلهجة تنطوي على الازدراء تقريباً سؤاله الخالد : « أكان هذا كل شيء ؟ » . وحين يسمع بعض المدافع تدوي يتظاهر مراراً بالدهشة قائلاً : « أهذه هي الحرب ، أو ليست شيئاً سوى هذا ؟ » وعلى أية حال فقد سمّ رائحة البارود ، وزال عنه الآن نوع من العذرية تجاه الحياة ، فهو يستحث فرسه بمزيد من الإلحاح منطلقاً بسرعة إلى إيطاليا ، اتزول عنه العذرية الأخرى ، وليخوض مغامرات الحرب القصيرة الأجل ، وهو في طريقه إلى مواجهة مغامرات الشهوة التي لا تنتهي .

١٨٠١ ، ميلانو . موكب عند الباب الشرقي .

كانت الحرب قد بعثت النساء في البيمونت من أسيرهن . فهن يخرجن منذ أن دخل الفرنسيون البلاد ؛ كل يوم في عربات منخفضة في الشوارع المتألقة تحت السماء الزرقاء ، ويوعرن إلى الحوذي بالتوقف ، ويتجاذبن أطراف الحديث مع عشاقهن أو أصحابهن ، ويتسمنن لضباط الشبان دونما حرج وهن ينظرن في عيونهم ، ويمارسن عبثاً له دلالاته بالمراوح والأزهار .

ويطل ضابط صف في السابعة عشرة بنظره في شوق ، وقد انحسر في الظلال الضيقة ، على النساء الأنيقات . أجل اتدأ أصبح هنري يبل فجأة ضابط صف مع فرسان الكتبية السادسة من دون أن يسهم في معركة واحدة ، ففي وسع المرء وهو ابن عم دارو الجبار أن يصل إلى أمور شتى ، وكان شعر ذيل الفرس الأسود المميز لجنود سلاح الفرسان الفرنسيين يخفق ويتموج متديلاً من المعدن الأبيض ، والسيف الكبير وراء معطف الفرسان الأبيض يصل صليلاً قوياً يبعث على الخوف . وعلى وقع أقدام حذائه العسكري يرن المهمازان : حقاً إنه ل يبدو في مظهر عسكري ، هذا الفتى الصغير البدين ، المكتنز الذي كان كذلك بالأمس القريب .

والحق انه كان خليقاً أن يلزم سرية وأن يساعد في مطاردة النمساويين وراء نهر المنشيو ، بدلاً من أن يتسكع هنا وينقر بلاط الشارع بسيفه الكبير ، وينظر إلى النساء بشوق . ولكن ابن السابعة عشرة لا يجب ما هو غوغائي ، فقد اكتشف أن « الطعن بالسيف لا يحتاج إلا إلى أقل مقدار من الفكر » وحين يكون المرء ابن عم دارو العظيم فهو يؤثر أن يظل في المنطقة المتألقة من ميلانو بدلاً من مواصلة الحراسة الليلية الشاقة ، إذ لا يوجد في المعسكر العلوي مثل هاته النسوة الجميلات ليبتغي إليهن الوسائل ، وقبل كل شيء لا يوجد سلم للألحان ، السلم الرباني للألحان بأوبراته السيناروزية (١) والقيان ذوات المكانة الرفيعة . فهناك ، لا في خيمة أو في أي مكان ، أو في

(١) نسبة إلى الموسيقي سيماروزا (١٧٤٩ - ١٨٠١) عاش في نابولي والبندقية ، مؤلف أوبرات هزلية .

وكر من أوكار المستنقعات في أعالي إيطاليا ، ينصب هنري بيل مقر قيادته الحقيقي . وهو الأول دائماً عند المساء حين تسطح الأضواء في الشرفات في الطوابق الخمسة من دار سكالا على نحو تدريجي ، وتدخل النساء « أكثر من نصف عاريات » تحت الحرير الخفيف وهن ينحنين للزيّات الرسمية متألّقات بأكتافهن البيض . ألا ما أجمل النساء الإيطاليات ، وما أشدّ مرحهن ودلّهن ، ولكم يسعدهن أن يستمتعن بما جاء به بونابرت إلى إيطاليا من الفتيان الأحداث البالغين خمسين ألفاً من الباعثين على الألم لدى الأزواج في ميلانو ، مُزيجاً للعبء عن كواهلهم .

ولكن يا للأسف ، ما من واحدة منهن قد فكرت حتى الآن أن تختار من بين هؤلاء الخمسين ألفاً ، هنري بيل ، من جرينوبل . وأتى لأنجيلا بيترا جروا الممثلة ، ابنة تاجر الأقمشة ، الملفوفة القوام التي ، كان يسرها أن تكشف عن صدرها الأبيض أمام الضيوف ، وأن تدفئ شفيتها على شوارب الضباط ، أن تعرف أن هذا الرأس المستدير ذا العينين السوداوين المضبوطتين المضيقتين — فهي تسميه بالصيني على سبيل الدعابة ، وبشيء من اللامبالاة — مقيم بها حباً ، وأنه يحلم بها في النهار والليل كما يحلم المرء بمعبود لا سبيل إليه ، وهي التي لا تعدّ قاسية القلب على الإطلاق ، وأنه سيخلدها يوماً ، وهي الزوجة المائلة إلى البدانة والمنتمية إلى الطبقة الوسطى ، عن طريق حبه الرومانسي ؟ ولاريب أنه كان يأتي كل يوم ممثلاً دور الفرعون مع الضباط الآخرين ، فيجلس صامتاً خجولاً في الركن ، ويشحب حين تتحدث إليه . ولكن هل ضغط في تلك الأيام على يدها ، أو دفع بركبته في هدوء إلى ركبته ، أو كتب إليها قطّ رسالة ، أو همس في أذنها بكلمة « تعجبيني » ؟

ولما كانت انجيلا ذات الصدر الممتلئ تألف الإشارات الواضحة الأخرى من ضباط سلاح الفرسان الفرنسيين فإنها لا تكاد تلقي بالاً إلى ضابط الصف الصغير ، وهكذا يضيّع ذلك القليلُ البراعة الحظوةَ لديها من دون أن يدري كم كان يسرها أن تهبّ حبها طوعاً لكل راغب . ذلك لأن هنري بيل مازال على الرغم من سيفه الكبير وحذائه العسكري خجولاً كما كان في باريس ، ومازال الدون جوان الحامل عندياً . ففي كل مساء يقرر الإقدام على العاصفة الكبيرة ، فيكتب لنفسه بعناية في كراسه ملاحظاته دروس زملائه الأكبر سناً حول كيفية التغلب على فضيلة امرأة بصورة ملموسة ، ولكن كازانوفا النظري ما يكاد يغدو قريباً من انجيلا الحبيبة المقدسة حتى يُجفّل على الفور ، ويرتبك ويحمر كفتاة . ولكي يغدو رجلاً يقرر أن يضحي آخر الأمر بعنبريته ، وتقدم نفسها إليه ، هيكلًا للتضحية ، واحدة غير معينة من المحترفات في ميلانو ، (وهو يكتب ضمن ملاحظاته فيما بعد قائلاً : « لقد نسيت تماماً من كانت وكيف كانت) غير أن من المؤسف أنها ترد عطاءه الأول بعطاء دنس على نحو خطير ، إذ ترد إلى الفرنسي العلة التي يقال إن جماعة القائد الأعلى البوربوني قد جاؤوا بها إلى إيطاليا والتي تسمى منذ ذلك الحين العلة الفرنسية . وهكذا يظل سادس مارس الذي كان يلتمس الخدمة اللطيفة من فينوس ، يقدم القرايين طوال سنين للإله عطارد الصارم .

١٨٠٣ ، باريس . مرة أخرى في شقة السقيفة بالطابق الخامس ، ومرة أخرى بالملابس المدنية . لقد طرح السيف والمهمازين والأعنة وشارة الملازم جانباً ، فقد لقي ما يكفيه من تمثيل دور الجندي ، ما يكفيه إلى حد الانهيار — « أنا ثمل من هذا » فلم يكد المجانين

يظنون بهنري بيل أنه يأخذ الخدمة في مقر الوحدة في القرى القذرة
 مأخذ الجدّ وينظف فرسه ويؤدي واجب الطاعة ، حتى توارى عن
 الأنظار . كلاً ، فإن الطاعة ليست من شأن هذا العنيد ، وإنما سعادته
 القصوى « ألا يأمر أحداً ، وألا يكون تحت إمرة أحد » ، وهكذا
 كتب الى الوزير رسالة قصيرة يطلب صرفه من العمل ، وفي الوقت ذاته
 رسالة الى الأب البخيل الممعن في البخل يرجو منه أن يوجد بشيء من
 المال . على أن الأب ، الذي يشتهر به هنري في كتبه أشدّ تشهير (والذي
 يبدو أنه يحب ابنه بتلك الطريقة السيئة البليدة ذاتها التي يحب بها ذلك
 النساء) ، ذلك الأب « النخل » كما يسميه هنري دائماً في خواتمه
 ساخراً ، يبعث بالفعل بالنقود في كل شهر ، ولم تكن كثيرة قطعاً ،
 ولكنها كافية مع ذلك ليستطيع المراء أن يصطنع حلة لابأس بها ،
 ويشترى ربطات عنق فاخرة وورقاً أبيض للكتابة ليكتب عليه مسرحيات
 هزلية . فهناك تصميم جديد : هنري بيل ماعد يريد دراسة الرياضيات ،
 بل يريد أن يغدو كاتباً مسرحياً .

وهو يفعل ذلك أول الأمر عن طريق التردد الكثير على دار .
 الكوميديا الفرنسية ليتعلّم على يدي كورني وموليير ، وبلي ذلك معاناة
 ثانية ، ذات أهمية بالغة بالقياس إلى كاتب مسرحي في المستقبل : فلا بدّ
 للمرء أن يكتسب معرفة بالنساء ، ولا بدّ له أن يحب ، وأن يتعرض .
 للحب ، وأن يجد روحاً جميلة ، « روحاً عاشقة » . وعلى ذلك يغازل
 أديل زينوفيه ، ويستمتع باللذة الرومانسية للعاشق البائس حتى الثمالة ،
 ومن حسن حظه أن الأمّ الممثلة (كما يدوّن في اليوميات) تنقع غلته
 بضع مرات في الأسبوع بطريقة أكثر أرضية . وهذا حب يُستمتع

ويعلم ، ولكنه ليس ، على أية حال ، بالحب الحقيقي الكبير المحتدم
الأوار ، وكذلك يبحث بحثاً دؤوباً عن المحبوب السامي . وأخيراً
تملك عليه مشاعره المحتدمة أبداً ، « لواسون » وهي ممثلة صغيرة في
دار الكوميديا الفرنسية . وتتقبل مغازلاته من دون أن تسمح له بالمزيد أول
الأمور ، ولكن هنري لا يحب حباً أفضل من ذلك الذي يكون حين
تمتنع عليه امرأة ، ذلك لأنه لا يحب إلا الممتنع ، وسرعان ما يستعير
ابن العشرين لهيباً .

١٨٠٣ مرسيليا ، تبدل مفاجيء ، لا يكاد يُصدق

أهذا هو هنري بيل حقاً ، الملازم السابق في الجيش النابليوني ، وزير
النساء الباريسي ، الذي كان بالأمس القريب أديباً ؟ أهذا هو حقاً ،
هذا الكاتب ذو الصلار الأسود في الطابق الأرضي الضيق من مؤسسة
(مونييه وشركائه ، للسلع الواردة من المستعمرات ، بالجملة والمفرق)
الذي يقعد هنا على مقعد الكتانة في هذا الزقاق القذر الى اليسار من ميناء
مرسيليا ، في هذا القبو العفن الذي تفوح منه رائحة الزيت والتبن ؟ أهـي
حقاً تلك النفس المتسامية التي كانت بالأمس فحسب تنظم أسمى الشاعر
في أبيات مقفأة ، وهي التي تستهلك هنا اليوم الزبيب والقهوة والسكر
واللبن ، وتكتب مذكرات الى الزبائن ، تسلم للوظفين في دوائر
الجمارك ؟ أجل إنه هو ، الرأس المستدير ، للرأس العنيد ، فهل
تذكر تويستان في صورة متسول ليقرّب من الحيلة أيزولده ، وهل
ارتدت بنات الملك شاب الأجراء لمجرد اللحاق بالفارسى للعلم في
الحملة الصليبية . على أن هنري بيل قام بعمل أكثر بطولة من ذلك ،
فقد أصبح معلوماً في محل نجاري للسلع الولودة من المستعمرات .

أصبح معاون خبّاز ، وأجيراً في دكان ، ليصبح فتاته لواسون التي التزمت بالعمل هنا في المسرح . وماذا يضير المرء اذا اغبرت أصابعه نهاراً بالسكر والدقيق ، اذا كان يستطيع أن يأتي في المساء بمثلة من المسرح ويذهب بها عشيقته الى مخدعه ؟

فياله من زمان رائع ، وياله من إشباع رائع ! على أن المؤسّف أنه ما من شيء يعد أكثر خطراً على الرومانسيّ من الاقتراب المفرط من مثله . هنالك يكتشف المرء أن مرسيليا ، مدينة الجنوب التي كان يحلم بها ، إنما هي في الحقيقة ريفيّة بتأثير التصرفات الصاخبة للجنوبيين ، مثل جرينوبل بالضبط ، وأن شوارعها متنة قدرة كشوارع باريس ، وفي وسع المرء أن يحصل على الخبرة المخيبة للآمال ، حتى وهو يعيش مع معبودة قلبه ، ومفادها أن هذه المعبودة جميلة بالفعل على أية حال ، ولكنها غيبة غباء فائقاً ، وسيبدأ المرء في الملل ، بل إنه سيكون مسروراً آخر الأمر حين يتم إبلاغ المعبودة ذات يوم في المسرح بالصرف من الخدمة ، وتتلشى كسحابة عائدة الى باريس : ويبرأ المرء أخيراً من وهم ليبحث لنفسه غداً عن الوهم التالي .

١٨٠٦ ، براونشفايج ، تغيير متكرر في الزي .

بزة رسمية من جديد ، ولكنها ماعدت تلك الحياة العسكرية الخشنة ، حياة « ضابط الصف » الذي لا يحظى بالاحترام إلاّ لدى البائعات المتجولات الملحقات بالجيش وعاملات الخياطة . فالآن تحرّ قبعات وجهاء الألمان باحترام من رؤوسهم حين يخطو ممثل مدير الجيش الكبير ، السيد المدير هنري بيل ، مع السيد فون شترومييك ، أو أي ممثل آخر لامع ممن يمثلون المجتمع في براونشفايج ، في

الشوارع ، ولكنه ماعاد هنري بيل ، اذ يحلو للمرء أن يدخل تصحيحاً صغيراً ، فهو يوقع منذ أن أصبح في ألمانيا ، وفي مكانة رفيعة كهذه ، باسم : هيرفون بيل « هنري دي بيل » ، والحق أن نابليون لم ينعم عليه بالنبالة ، بل لم يمنحه حتى وسام جوقه الشرف الصغير أو ماسوى ذلك من زينة عُرْوَة الثياب ، ولكن هنري بيل يلاحظ ، وهو امرؤ سريع الملاحظة ، أن الألمان الطيبين يتهافتون على الألقاب تهافت العصافير على الدابوق (١) ولاريب أنه لا يريد أن يكون شأنه في مجتمع النبلاء ، حيث تغري الشقراوات الحسان المثيرات بالرقص ، شأن المواطن العادي فثمة حرفان من هذه الحروف الأبجدية يضيفان بصورة سحرية قدسية خاصة على البزة الفاخرة .

لقد رُسِمَت للهري بيل في الحقيقة مهمات شاقة ، إذ ينبغي له أن يستخرج بشق النفس سبعة ملايين أخرى في صورة إسهام في الجهد الحربي من الأبرشيات التي نهبها الناهبون حتى شعبوا ، وأن يحافظ على النظام ، وأن ينظّم ، وهو يفعل ذلك ببراعة كما يبدو ، وبسرعة ، باليد اليسرى ، على أنه يدع اليد اليمنى خالية ليلعب بالبيار ولتتمرّن على الرماية ببندقية الصيد ، ومن أجل هو أكثر رقة . ذلك لأن ألمانيا أيضاً تنطوي على أنوثة مستعدّة ، فهو يستطيع حيال امرأة شقراء ونبيلة أن يفرّغ حاجاته الأفلاطونية إلى الحب ، أما الحاجات الأكثر خشونة فتفرّغها صديقة متطوعة لأحد أصدقائه تتحلّى باسم جميل ، هو « كنابل هوبر » ، إذ تسلّيه في الليل . وكذلك أعد هنري لنفسه مقاماً مريحاً، فمن دون أن يحسد كل المارشالات والجنرالات الذين كانوا

(١) الدابوق مادة لزجة تطلّى بها أغصان الأشجار لالتقاط صغار الطير

يظنخون حساءهم البسيط على شمس اوسترلitz وينا ، يجلس هادئاً
في ظل الخرب ، ويقرأ الكتب ، ويأمر من يترجم له الأشعار الألمانية ،
ويكتب من جديد رسائل رائعة الجمال إلى أخته بولين ، متطوراً ،
بالأطراد في زيادة معرفته وبراعته ، إلى فنان للحياة ، ورحالة متأخر
إلى كل ميادين المارك ، ومثقف غير متخصص ، في كل الفنون ،
فهو يزداد جرأة وخلواً إلى نفسه كلما اتسعت معرفته بالعالم وكلما
تعلم أن يلاحظه على نحو أفضل ..

١٨٩٠ ، فينا ، ٣١ أيار ، كنيسة السكوتلاندين ، مظلمة ونصف
فارغة ، في الصباح الباكر .

على القعد الطويل الأول يجنو بضعة من الرجال الضيلين الشيوخ
والنساء الضيالات العجائز في ثياب حداد سود يلوح عليها الفقر :
هؤلاء أقرباء الأب الطيب هايدن من روهز آو . « فقد قتلت الشيخ
المرتعد الذي أحنّت الريح قامته ، زعباً القنابل الحارقة التي لعنت
فجأة في مدينته الحبيبة فينا : ومات ملحن النشيد الشعبي مينة وطنية
وهو ينطق بالكلمات التالية متلعثماً : « حفظ الله الامبراطور فرانتس ! »
واضطروا إلى الذهاب بالجدد الخفيف خفة الأطفال من البيت الصغير
في ضاحية جو ميندورف ، في غمار حلبة الجيش الزاحف ، إلى
المقبرة مسرعين مستعجلين . والآن يقيم موسيقبو فينا في كنيسة
السكوتلاندين لأستاذهم صلاة احتفالية على روحه بصورة متأخرة ،
وقد تجرأ عدد كبير على الخروج من المنزل في المناطق المحتلة ، على
شرفه ، وقد يكون بينهم أيضاً ذلك الغريب الأطوار القصير الساقين

الذي له رأس " كراس الأسد ، مشوش مضطرب ، وهو الهر فان
 يتهوفن ، وربما كان ينبغي بين الأولاد هناك في الجوقة غلام صغير
 في الثانية عشرة من ليشتنثال يدعى فرانتس شوبرت ، ولكن ما منه
 أحد يلتفت إلى الآخر الآن ، ذلك لأن ضابطاً فرنسياً يبدو رفيع المكانة
 يدخل فجأة بزيه الرسمي الكامل يصحبه سيد آخر في ملابس التشريفات
 الرسمية المطرزة الخاصة بالأكاديمية . فيستفص الحاضرون جميعاً مدعورين
 على غير إرادة منهم : أو يريد الدُخلاء الفرنسيون آخر الأمر أن يمنحوا
 الناس هنا من أداء تكريم أخير للأب الطيب الرقيق هايدن ؟ كلا ،
 على الإطلاق ، فان الهر فون بيسل ، مدير حسابات الجيش
 العظيم يظهر بصورة خاصة تماماً ، فقد سمع في مكان ما من مقر القيادة
 أن جناز موتسارت سيعزف لهذا الحفل ، وهذا المستعبد للحرف الذي
 تحيط به الشكوك خليف أن يجتاز مائة ميل على فرسه من أجل الاستماع
 إلى موتسارت أو سيماروزا ، ذلك لأن أربعين إيقاعاً من هذين الأستاذين
 المحبوبين تعدل عنده أكثر من معركة مدوية في تاريخ العالم تذهب
 بأربعين ألف قتيل ، ويتخذ مجلسه في مقعد الكتيبة ويستمع إلى الموسيقى
 الآخذة في الارتفاع الآن . على أن الغريب أن الجناز لا يوحى إليه
 بشيء ، فهو يراه « صاحباً أكثر مما ينبغي » ، إنه ليس « صاحبة »
 موتسارت ، الخفيف كأنه المجنح الذي لا ينقله شيء . فحيثما يتخطى
 الفن الخط الواضح الغنائي تماماً ، وحينما يجرو على الارتفاع فوق الصوت
 الإنساني ، في الأصوات الأكثر جموحاً وانطلاقاً للعناصر الخالدة ،
 يغدو غريباً بالقياس إليه ، وحتى في المساء ، في مسرح كيرتنتور ،
 لا يفهم « دون جوان » إلا رويداً رويداً . ولو أن جاره في الحجر ،
 السيد فان يتهوفن (الذي لا يعرف عنه شيئاً) ، أطلق العنان ذات مرة

لرياح طبعه الشمالية تدوي في وجه ستندال لما كان فرعه من هذا العَماء
المقدس أقلّ مسن فرع أخيه الكبير في الأدب في فايمار ، الهير
فون جوتّه .

ويتهيئ القداس ، ويخرج هنري بيل من الكنيسة وعليه سيماء البشر ،
متأثّقاً في البزّة الرسمية والروح المعنوية العالية ، وهو يخطو بمحاداة
القبور ، ويحد فيينا ، هذه المدينة الجميلة النظيفة ساحرة ، وكذلك أهبا
الذين يصنعون الموسيقى الجيدة من دون أن يمزقوا أنفسهم بالتشدد والتثقيب
إلى هذا الحد كما يفعل الألمان الآخرون قُبائلتهم في بلاد الشمال ، والحق
انه كان خليقاً أن يذهب إلى مكتبه وأن يُعنى بتموين الجيش الكبير ،
ولكن هذا يبدو ذا أهمية ثانوية بالقياس إليه ، فابن العم دارو يعمل
كحصان ، أما النصر فسيحظى به نابليون على أية حال : فالحمد لله
الذي خلق مثل هؤلاء الغربي الأطوار الذين يسهّلون العمل : ففي وسع
المرء أن يعيش على حسابهم عيش اليسار . وهكذا يفضل ابن العم بيل ،
الذي ربّي براعة منذ صباه على الفن الشيطاني ، فن نكران الجميل ،
الوظيفة الأكثر دعة ، وهي تسليّة السيدة دارو في فيينا عن جنون زوجها
بالعمل ، فهل يستطيع المرء أن ينتقم لنفسه من محسن انتقاماً أفضل من
أن يكون محسناً تجاه زوجته شعوراً وملاطفة ؟ ويخرجان راكبين معاً
إلى المتنزه ، وتنشأ علاقات حميمة شتّى في حجرة الخلوة التي دمرتها
الرماية . ويشاهدان المتاحف وحجرات الكنوز وقصور النبلاء الريفية
الجميلة ، وينطلقان حتى هنغاريا في عربات وثيرة تجرها الخيل على
حين يخطّم الجنود جماجمهم عند واجرام (١) Wagram ، وينضح

(١) موقع في سهول النمسا انتصر فيه نابليون على النمساويين .

الزوج الشجاع دارو عرقاً كالخبر ، أما ما بعد الظهيرة فللحب ، وأما المساء فلمسرح كبير تشرنوبور ، وأحب شيء إليه موسارت ، والموسيقا إلى الأبد . وشيئاً فشيئاً يدرك الإنسان الغريب الأطوار وراء ثياب الحاكم أن معنى كل حياة وحلاوتها يكمنان بالقياس إليه في الفن .

١٨١٠ حتى ١٨١٢ ، سنوات تألق الامبراطورية .

الحياة تزداد روعة باطراد . فهو يحوز المال وليس له وظيفة ، وقد أصبح — دونما استحقاق ، يعلم الله ! — بفضل أيادي النساء الناعمة ، عضواً في مجلس الدولة ، ومديراً لتجهيزات البلاط ، ولكن من حسن الحظ أن نابليون لا يحتاج إلى مستشاريه حاجة جدية ، فلديهم الوقت وفي وسعهم أن يكثرُوا من الخروج إلى التزهات ، كلاً ، بل يستطيعون أن يتزفوا على العربات ! ذلك لأن هنري بيل يمسك الآن — وقد انتفخ كيس نقوده بهذه الأموال الواردة فجأة من الوظائف — بزمام عربته الخاصة المتأثقة بطلائها الجديد ، وهو يتناول طعامه في « الكافيه ديفوا » ويتعامل مع أفضل الخياطين ، وله علاقة مع زوجة ابن عمه ، كما ينفق ، فوق ذلك ، (وهذا مثل شبابه الأعلى) على راقصة تدعى بيراتر . فما أغرب أن ينال المرء من السعادة لدى النساء في سن الثلاثين أكثر مما ينال في سن العشرين ، ولكم يستعصي على التفسير أنهن يزبدن تعلقاً كلما تظاهر المرء بالبرود . الآن تبدأ باريس ، التي بدت قبيحة جداً للطلاب المسكين ، تنال إعجابه على نحو بطيء ، وتصبح الحياة جميلة حقاً ، وأجمل ما في الأمر أنه يحوز المال ، وأنه يحوز الوقت ، بل الوقت الكثير ، حتى انه يكتب ، لمجرد متعته الخاصة وحدها في الحقيقة ، وليتذكر إيطاليا الحبيبة ، كتاباً

في « تاريخ التصوير » عن ذلك العالم . على أن كتابة المؤلفات في تاريخ الفن تعد متعة مستعنية للغاية ، لا يترتب عليها شيء ، ولا سيما حينما يوضح المرء نفسه عن طريق نسخ ثلاثة أرباع العمل ببساطة عن كتب أخرى وملء الباقي بالطرائف والخواطر بطريقة مهلهلة ، فيألفها من سعادة ، أن يقترب المرء مما هو فكري وهو مجرد مستمتع ! ويفكر هنري بيل في نفسه : ربما أمكن للمرء ذات مرة ، حين يشيخ ، أن يكتب كتاباً ليقترض الزمان المضائع والنساء الضائعات ، ولكن فم يفعل ذلك منذ الآن : فالحياة ملزالت أغنى وأخصب وأجمل من أن يتداركها المرء على منصة الكتابة ! .

١٨١٢ حتى ١٨١٣ ، لإزعاج طفيف ، نابليون يخوض الحرب مرة أخرى ، وهذه المرة على بعد بضعة آلاف من الأميال : ولكن روسيا ، البلاد النائية المنطوية على المغامرة تغري الرحالة القسوي أبداً : فيألفها من فرصة فريدة ، أن يشاهد المرء ذات مرة الكرملين وأهل موسكو أيضاً ، وأن يضرب في الأرض ناحية الشرق على حساب الدولة ، ومن البدهي أن يكون ذلك في المؤخرة ، بصورة مريحة ، وبدون خطر ، كعهده في إيطاليا ، وألمانيا ، والنمسا . وبالفعل فهو يأخذ معه حقيبة كبيرة من ماري لويزا ، مملوءة بالرسائل إلى الزوج العظيم ، ويكلف تكليفاً رسمياً بانيضان البريد السري في عربات مستعجلة ، وزحافات مكسوة بالفراء ، حتى موسكو . ولما كانت الحرب تغدو من منظور قريب — كما يعرفها من الخبرة — مملّة على الدوام إملالاً قاتلاً بالقياس إليه ، فانه يأخذ معه بصفة شخصية بعض الأشياء للمتعة الخاصة ، منها نسخة من مجلدات المخطوطات التي نشر لكتّاب « تاريخ التصوير » في مجلد مغربي أخضر ، ومسرحيته الهزلية التي كان قد بدأ بها منذ سنوات ، والتي يجنّد

المرء مكاناً يعمل فيه خالياً إلى نفسه خيراً من مقر القيادة؟ ثم ان تكلماً (*)
سيأتي إلى موسكو آخر الأمر ، والأوبرا العظيمة ، ولن يشعر المرء بالملل
الشديد ، وبعد هذا : متغير جديد ، وذلك هو النساء البولونيات
والروسيات . . .

وفي الطريق لا يحطّ بيل رحاله إلا حيث توجد مسرحية : فحتى
وهو في الحرب ، وهو على سفر ، لا يستطيع الاستغناء عن الموسيقى .
وفي كل مكان لابد للفن أن يكون رفيقه . ولكن مسرحية أكثر إثارة
للدهشة تنتظره بعد في روسيا : فهذه موسكو ، حاضرة من جواهر
العالم ، تحترق ، مشهد شامل متكامل لم يبصر أديب أبدع منه منذ عهد
نيرون ، إلا أن هنري بيل لا ينظم القصائد بهذا الحافز الوجداني ، وقلما
تذيع رسائله شيئاً حول هذا الحدث المزعج . فمنذ عهد طويل لا يعدّ الصدام
العسكري في العالم عند هذا المستمع الرقيق أكثر أهمية من عشر إيقاعات
موسيقية ، أو كتاب ينطوي على ذكاء : وان الاختلاج الرقيق في القلب
ليهره أكثر مما يهره القصف المدفعي لبورودينو (١) ، ولم تكن له بعد
إلا عناية قليلة بتواريخ أخرى سوى تاريخ حياته الخاصة ، وهكذا
يصطاد لنفسه من الحريق الهائل مجموعة لأعمال فولتير مجلدة تجليداً
جميلاً ويفكر باصطحابه معه : تذكاراً لموسكو . ولكن الحرب هذه
المرّة تطأ حتى هذا المولع بمحطات الاستراحة ، بساقيها الصقيعيتين ،
على أصابع قدميه ، وطأً شديداً . فعلى هر بيريسينا (٢) كان مراجع
الحسابات بيل ما يزال لديه وقت ليقوم بحلاقة كاملة (من حيث كونه

(*) فرانسوا جوزيف تالما (١٧٦٣ - ١٨٢٦) ، باريس ، كان الكاتب المسرحي
المفضل في عهد نابليون .

(١) مكان قريب من موسكو انصر فيه نابليون على الروس (١٨١٢)
(٢) رافد لنهر الدنيبر ، إلى الشرق من مدينة منسك لقي نابليون خسائر كبيرة عند
عبوره لدى تفهمه عن موسكو « المترجم »

الضباط الوحيد في الجيش الذي يفكر بمثل هذه الأشياء) وإذا هو يعبر بأقصى سرعة على الجسر الآخذ بالانهيار ، وإلاّ ساءت عاقبته . أما اليوميات ، و « تاريخ التصوير » وفواتير الجميل ، والفرس ، ومعطف الفراء وغرارة الأمّعة ، فتطل للقفزاق ، وينجو بنفسه إلى بروسيا وليس على جسده إلاّ أبواب ممزّقة ، متسخاً ، منهكاً ، قد تشقّق جلده من البرد . ويكون تنفسه الأول الأوبرا مرة أخرى : فكما يلقي الآخرون بأنفسهم في الحمام يلقي هو بنفسه على القور في الموسيقى لينعش نفسه . وهكذا فإن الحملة على روسيا ، وإبادة الجيش العظيم لا تشكل عند هنري بيل شيئاً أكبر بكثير من فترة توقف بين أمسيّتين ، أو هما أمسية « كليمنزيا دي تيتو » في كونجزبرج (١) عند العودة ، وأمسية « الزفاف السري » في درسدن عند الخروج إلى الميدان .

١٨١٤ حتى ١٨٢١ ، ميلانو ، باللباس المدني من جديد ، لقد شبع هنري بيل ، بصورة نهائية من الحرب ، فكل معركة تبدو ، عن قرب ، مثل الأخرى ، والمرء يرى الشيء ذاته في كل معركة ، أي أنه « لا يرى شيئاً » . لقد شبع من كل المهمّات والوظائف ، ومن الأوطان والمذابح ، ومن الأوراق والضباط . وإذا شاء نابليون أن يعمد ، في جنونه الهمجى بالحرب ، إلى غزو فرنسا مرة أخرى ، فلا بأس ، ولكن ليفعل ذلك منذ الآن بدون مساندة السيد بيل مزاجع الحسابات الذي لا يريد شيئاً آخر سوى ألاّ يأمر أحداً وألاّ يطيع أحداً ، والذي لا يرغب إلاّ فيما هو طبيعي إلى أقصى الحدود ، وهو مع ذلك

« المترجم »

(١) عاصمة بروسيا الشرقية

أصعب الأشياء على الإطلاق : أن يعيش آخر الأمر ، وفي النهاية ، حياته الخاصة .

فقبل ثلاث سنوات ، بين اثنتين من حروب نابليون المألوفة، انطلق في إجازة إلى إيطاليا ، جذلان مبهجاً كطفل ، وفي جيبه ألفا فرنك : أما الآن فقد بدأ عنده ذلك الحنين إلى موطن صباه الذي ما عاد يفارق بيل الشيخ حتى الساعة الأخيرة . وكان صباه يسمى إيطاليا : إيطاليا وأنجيلا بيترا جرّوا التي أحبها خوف ووجل وهو ضابط صف صغير والتي يضطر الآن إلى أن يدخلها في تفكيره بصورة عفوية منذ أن جعلت العربية تدرج منحدرة في الأزقة الضيقة . وفي المساء يصل إلى ميلانو فيزيل الغبار بسرعة عن وجهه ويديه ، ويرتدي ملابس أخرى ، ثم ينطلق إلى موطن قلبه ، إلى دار سكالا ، لاستماع الموسيقى ، وبالفعل فإن « الموسيقى تبعث الحب » كما يقول .

ومنذ الصباح التالي يسرع إليها ، ويبلغ عن قدومه ، فتظهر ، وهي مازالت جميلة ، وتحبّه بأدب، ولكن من دون معرفة . فيقدّم نفسه : هنري بيل ، ولكن الاسم لا يوحى إليها بشيء ، عند ذلك يأخذ في تكبيرها بجوانفيل والرفاق الآخزين : وأخيراً يشرق الوجه الحبيب الذي ظل يحلم به آلاف المرات ، عن ابتسامة : « آه ! . أنت الصيني » - فهذا اللقب التهكمي المنطوي على الازدراء هو كل ما تعرفه انجيلا بيتراجروا بعد عن عاشقها الرومانسي : وما من شك في أن هنري بيل الآن ما عاد ابن السابعة عشرة ، وما عاد امرأاً متخاذلاً فسلاً ، فهو يفضي إليها بهواه السالف والحاضر على نحو ينطوي على جرأة ورغبة . فتعجب منه قائلة : « ولماذا لم تقل لي هذا ؟ » فقد كانت

خليفة أن تجود عليه بذلك الشيء المبطل الذي لا يكلف امرأة على هذا الجانب من الشهامة شيئاً يذكر . ولكن من حسن الحظ أنه مازال في الوقت متسع . وسرعان ما يتمكن الروماني ، بعد أحد عشر عاماً بالطبع . من الإيعاز بتطريز تاريخ ذلك الانتصار الغرامي على أنجيلا ييتراجروا . (٢١ ايلول ، في الساعة الحادية عشرة والنصف ظهراً) على حملات سراويله .

ولكنهم يدقون الطبول مرة أخرى ، يستدعونهم إلى باريس . ويضطر مرة أخرى . هي الأخيرة ، أن يتولى الإدارة لهذا الريف الكورسيكي المجنون بالحرب . ليدافع عن الوطن ، ولكن من حسن الحظ - أجل ، من حسن الحظ ، ذلك لأن هنري بيل ، الفرنسي القاسد ، يكاد يموت فرحاً وسعادة بانتهاء الحرب ، ولو كان ذلك بهزيمة - ومن حسن الحظ أن الأباطرة الثلاثة يزحفون على باريس . الآن يستطيع أخيراً ، وبصورة نهائية ، أن يسافر إلى إيطاليا ، حراً إلى الأبد ، من كل وظيفة ووطن . ولقد كانت سنوات رائعة ، فرَّغ فيها للموسيقا ، وللنساء ، والحديث ، والكتابة ، والفن فحسب . كانت سنوات مع العشيقات اللواتي يخادعن بالطبع بمخادعة فاضحة مثل أنجيلا ، تلك المفرطة في الكرم ، أو اللواتي يرفضن بدافع الورع . مثل ماثيلدا الجميلة ، ولكنها كانت مع ذلك سنوات يحسّ فيهنّ المرء احساساً يزداد مع الأيام . بذاته الخاصة ، ويتعرف عليها ، وتغتسل نفسه في كل أمسية بالموسيقا في دار سكالا حتى تطهر من جديد ، وفي بعض الأحيان يستمتع بالحديث إلى أنبل شعراء العصر ، اللورد بايرون ، ويستطيع أن يستجمع في نفسه كل جمال الأرض ، من نابولي إلى رافينا وكل خصب المثقفين ذوي العقلية

الفنية . لم يكن يدن بالولاء لأحد ، ولم يكن أحد يعترض سبيله ، بل كان سيد نفسه ، وعما قريب أستاذ نفسه . ألا إنها لسنوات الحرية التي لا مثيل لها ! « فلتعيش الحرية ! » .

١٨٢١ ، باريس . عاشت الحرية ؟ كلاً ما عاد يجدي الحديث عن الحرية في إيطاليا . فالسادة النمساويون والسلطات النمساوية يعترضهم العُطاس على نحو خطير عند هذه الكلمة ، ولا ينبغي للمرء أن يكتب الكتب أيضاً . ذلك لأن الكتب ، حتى وإن كانت منتحلة انتحالية خالصاً مثل « رسائل حول هايدن » ، أو منقولة بثلاثة أرباعها عن مؤلفين آخرين ، مثل « تاريخ التصوير الزيتي الإيطالي » و « روما ، وفلورنسا ، ونابولي » ، إذ تنثر فيها بغير علم من أحسد ، بين السطور ، أنواع شتى من الملح والبهار مخترش أنوف السلطة النمساوية وسرعان ما يكتب موظف الرقابة الصارم ، فابروشييك (وما كان في وسع المرء أن يخترع اسماً أجمل ، ولكن هذا هو اسمه بالفعل ، يعلم الله !) لدى وزير الشرطة سيد لنتسكي في فيينا ، تقريراً يتضمن مواضع لا يحصرها تستوجب المراقبة ، وعلى هذا النحو يتعرض المرء بسهولة ، من حيث كونه مفكراً حراً وجواب آفاق ، لخطر اعتقاله من قبل النمساويين على أنه عضو في جمعية الفحاميين (١) ، ومن قبل الإيطاليين على أنه جاسوس — وإذا فخير له أن يسلك سبيل الحذر الشديد ، وقد خسروهما من أوهامه . ثم إن الحرية تحتاج شيئاً آخر : ألا وهو المال ، وهذا الأب النخلى (وقلماً يلقب بيل أباه لقباً أكثر تأدباً) قد يسيّر الآن

(١) Karbonari جمعية سياسية سرية أسست عام ١٧٩٦ ، في جنوب إيطاليا ،

لمقاومة السيطرّة النمساوية على البلاد

« المترجم »

بصورة نهائية كم كان أحرق غيباً حين لم يخلف لابنه النهيم حتى ربيعاً صغيراً متواضعاً : وإذا فاني أين ؟ أما جرينوبل فالمرء يفتنق فيها ، وأما الرحلات الترفيهية الجميلة المريحة في بحرنها وراء الحزب فقد ولّى عهداً مأسوفاً عليه منذ أن التصقت الرؤوس البوربونيه الضعيفة بمدينة كسلي على العملات ، وإذا فليعد إلى باريس ، إلى شقة السقيفة ، والآن فليتحول إلى عمل ما كان حتى الآن مجرد استمتاع واستجمام : كتابة الكتب ، الكتب ، الكتب .

١٨٢٨ ، باريس . صالون مدام دي تراسي ، زوجة الفيلسوف . منتصف الليل . وقد هبط الاحتراق بالشموع إلى أسفلها ، والسادة يلعبون لعبة من ألعاب الورق ، أما مدام دي تراسي ، وهي سيدة عجوز ، فهي تثرثر على الأريكة مع مركيزة وصديقة لها ، غير أنها لا تصغي بكل أذنيها إلى الحديث ، بل تُرهف أذنها بين حين وآخر في اضطراب . فمن هناك ، في الخلف ، من الحجرة الأخرى عند المدفأة يئنأه أصوات مربية شتى ، وضحكة نسائية حادة ، وصوت زعيق حاد عميق لسيد ، ثم ضحكات متلممة من جديد « كلاً » ، بالطبع ، هذا شطط كبير » ثم تنطلق هذه الضحكة الخاصة وتختنق بسرعة . وتنتاب مدام دي تراسي حالة عصبية : لا ريب أن هذا هو ، مرة أخرى ، بيل الفطيع الذي يروي للسيدات نكات فاضحة . وهو فيما عدا ذلك إنسان ذكي مرهف الحس ، نبذ ، ومسل ، غير أن اصطحاب الممثلات ، ولا سيما هذه الإيطالية ، مدام باستا ، قد أفسد سلوكه ، وتعتذر ، وتهرع ، بخطوات متقاربة ، إلى هناك ، لتأمر بالتزام أصول اللياقة . حقاً ، ها هو ذا واقف ، قد اختفى تماماً في ظل المدفأة ، وإنما

يفعل ذلك لإخفاء البدانة بلاريب ، وفي يده قدح من شراب البنش ، وهو يصوغ النوادر المبهجة التي تجعل المقتنع يحمر خجلاً ، وتبدو السيدات على أهبة الفرار ، فهن يتصاحكن ويحتججن ، غير أنهن يتراجعن مع ذلك وهن مأخوذات بالقصاص الجذاب ، وقد أخذهن الفضول والإثارة مرة بعد أخرى . وهو يبدو كالساثير (١) ، أحمر مكتنزاً ، برّاق العينين ، طيب القلب ، ذكياً . أمّا الآن ، إذ تدنو مدام دي ترامي فيمسك عن الحديث بسرعة تحت نظرهما الصارمة ، وتنتهز السيدات الفرصة السانحة ليتوارين متصاحكات .

وسرعان ما تنطفئ الأضواء . ويواكب الخدم الضيوف ومهم القناديل تقطر وهم ينزلون على الدرج : وهناك ثلاث عربات أو أربع في الانتظار ، وتصعد السيدات مع رجالهن ، ويتخلف بيل وحده سائحاً . ما من واحدة تصطحبه ، وما من واحدة تدعوه . أما رواية النوادر فمسألة يصلح لها صلاحاً لا بأس فيه ، وأما فيما عدا ذلك فلا شأن له عند النساء . لقد صرمت حبلته الكونتيسة كوريال . أمّا الإيفاق على راقصة كما كان الحال بالأمس فأمر يحتاج إلى المال : والشيخوخة تزحف ببطء . وينقل الخطو مستاءً وهو يتجه صوب مسكنه في شارع ريشيليو تحت مطر تشرين الثاني . ما العمل إذا ما اتسخت الثياب ، والحياط لم يستلم أجره بعد . ويتنهّد بعحق وهو يقول : لقد ولّى أفضل ما في الحياة ، وقد ينبغي للإنسان في الحقيقة أن يضع حداً لها . ويصعد الدرج في مزاج نكيد (وحتى التنفس يغلو الآن صعباً بالقياس إلى رقبته الصغيرة) إلى الطابق الأعلى ويشعل النور ويقلب في الأوراق

(١) Satyr أو Silen (الساثير) كان يتخذ الرومان الهة للغابات وكانوا

ينسبون إليه الولع بالقصف والمزلة والانهمك بالملذات . « المترجم » .

والخسائيات . موازنة كثرية ! لقد استهلكت الثروة ، والكتب لا تعود
 بشيء . فكتابت « الحب » ببيع منه الآن بعد سنين سبع وعشرون نسخة ،
 ببساطة . (وقد قال له ناشره بالأمس ساخراً : « ربما يطيب للمرء أن
 يسميه كتاباً مقدساً لأن أحداً لا يجروء على مسه » . وعلى هذا يبقى
 لديني خمسة فزنكات من المعاش في اليوم ، قد تكون كثيرة بالقياس
 إلى في إنجلترا غض الإهاب ، غير أنها قليلة إلى درجة تستدر العطف
 بالقياس إلى سيند بلدين طاغين في السن يحب النساء والحرية . والأفضل
 أن يضع المرء حداً لهذا . ويتناول هنري بيل ورقة من القطع الكبير .
 ويكتب للمرة الرابعة في هذا الشهر الكثيب . وصيته . « أنا الموقع أدناه
 أوصي لابن عمي رومان كولومب بما أمليته في فندي في ٧١ ، شارع
 ريشيليو . وأنصح به أن أنقل مباشرة إلى المقبرة سعد وينغي . إلا ، تبلغ
 تكاليف دفني أكثر من ثلاثين فرنكاً » وثمة استدراك يقول : « أتمنى
 الصنيع من رومان كولومب عن كل المتاعب التي أسببها له . وأرجو
 منه قبل كل شيء ألا يحزن بسبب هذه الحادثة التي لا يمكن تجنبها » .
 « هذه الحادثة التي لا يمكن تجنبها » - غداً سيفهم الأصدقاء الغبارة
 الحذرة حين يتم استدعاؤهم ، وتكون الرضاصة مستكنة بين عظام
 المتح بدلاً من أن تكون في المدفن الحرفي ، ولكن من حسن الحظ
 أن هنري بيل متعب هذا اليوم ، ويستهل بالتخاره يوماً آخر ، وفي
 الصباح التالي يأتي الأصدقاء ويشئون فيه المرح . ولدى تجوال أحدهم
 في الغرفة يرى ورقة كبيرة بيضاء على المنصة ، عليها عنوان « جوليان »
 فيسأله في فضول : ماذا يعني هذا ؟ فيجيب سيندال قائلاً إنه أراد
 أن يكتب رواية : ويبت الأصدقاء فيه الشجاعة قائلين إنه متحمس
 جداً ، وبالفعل يبدأ بالمؤلف ، ويتم شطب عنوان « جوليان » ويستبدل

به اسم سيغلو خالداً فيما بعد ، هو « الأحمر والأسود » . وبالفعل
فان هنري بيل ينتهي منذ ذلك اليوم ، فقد بدأ يحل محله رجل آخر ،
إلى الأبد : وهو ستندال .

١٨٣١ ، سيفيتافيتشيا ، تبدل جديد .

الزوارق المسلحة بالمدايع تطلق طلقة احتفالية ، والرايات ترفرف
بشدة ، وهي تؤدي التحية إذ يصعد من الباخرة الآن سيد مكتنز الجسم
في بزة الدبلوماسية الفرنسية الفخمة . احترام ! — هذا السيد ذو السرة
المطرزة والسراويل المخططة هو قنصل فرنسا ، السيد هنري بيل ، فقد
أعانه مرة أخرى ، انقلاباً ، على الارتقاء ، وكما فعلت تلك الحرب فيما
سلف فقد فعلت ذلك الآن ثورة تموز ، فالآن يسجدي عليه ما سلف
من كونه متحرراً يمارس معارضة صلبة ضد البوربون الأغبياء . لقد
عين ، بفضل الشفاعة النسائية النشيطة ، على الفور قنصلاً في الجنوب
الحبيب ، وكان ذلك في الحقيقة في تريستا ، ولكن المؤسف أن السيد
ميتزنش (١) أعلن هناك أن مؤلف الكتب المزعجة غير مرغوب فيه ،
ورفض منحه التأشيرة . وعلى هذا يضطر إلى تمثيل فرنسا في سيفيتا
فيتشيا ، وهو أمر أقل بهجة ، ولكنها إيطاليا على أية حال ، وهو
يحصل على دخل مقداره خمسة عشر ألفاً من الفرنكات .

أوليس هناك بدءاً للمرء أن يخرج له ألا يعرف على الفور أين تقع
سيفيتا فيتشيا على الخارطة ؟ كلا ، أبداً ، إذ تعد هذه البلدة الأكثر
بؤساً بين كل المدن الإيطالية ، فهي مباءة خبيثة بيضاء كلنية ، فيها
حرارة إفريقية تثير الحمى ، وميناء ضيق تغشاها الرمال يرجع إلى

(١) هو المشهور خطأ باسم « متزنخ » وزير خارجية النمسا ومستشارها في ذلك العهد

أيام السفن الشراعية الرومانية القديمة . فهي بلدة مجذبة مقفرة مملئة خاوية
« ويكاد المرء يَسْتَفْتِق (١) من الملل » . وأفضل ما يعجب هنري بيل في
محطة المنفيين هذه الطريق البري إلى روما ، لأن طوله سبعة عشر ميلاً
فحسب ، ويقرر السيد بيل على الفور أن يستفيد منها أكثر مما يستفيد
من امتيازاته . وقد كان ينبغي له في الحقيقة أن يعمل ، وأن يصوغ
التقارير ، وأن يمارس الدبلوماسية ، غير أن الحمير في وزارة الخارجية
لا يقرأون تقاريره على الإطلاق ، فقيم يبذل الفكر لهؤلاء الفنانين
القاعدين — وعلى هذا فمن الأفضل أن يفرض كل الملفات على الوغد
ليسيما خوس كافتا نجلو تافيرنير ، مرؤوسه ، وهو حيوان خبيث
يكرهه ويضطر إلى تدبير وسام جوقة الشرف له لكي يلتزم الصمت
تجاه غيابه المتكرر . ذلك لأن هنري بيل يحلو له هنا أيضاً أن يستخف
بوظيفته ، وذلك أن المكر بالدولة التي تعين أديباً في مثل هذا المستنقع
الطغي ، يبدو بالقياس إليه واجباً عليه الشرف على أناني شريف . أولاً
يحسن المرء في الحقيقة صنْعاً لو أنه شاهد المتأخف في روما ، أو انطلق
في عربته المجلجلة إلى باريس بدلاً من أن يتبلد هنا ببطء وعلى نحو
مؤكد ؟ وهل يستطيع المرء أن يذهب دائماً إلى بائع العاديات ذاته ،
هذا السيد بوتشي ، وأن يثرثر مع هذا المملّ الشبيه بالنبلاء ،
ذاته ؟ كلا ، فان المرء يؤثر عند ذلك أن يتحدث إلى نفسه ، وأن
يشترى لنفسه من المكتبات القديمة بضعة مجلدات من الحوليات ، ويحرّر
أجملها في صورة أقاصيص ، وأن يروي لنفسه ، وهو في الخمسين
التي بلغها الآن ، كيف أنه مازال شاباً في نفسه . أجل ، هذا هو

(٢) بمعنى يموت ، ويستعمل للحيوان خاصة ، وهو هنا مجاز كما هو ظاهر .

« المترجم »

الصواب : فليكني ينسى المرء الوقت يرتدّ ببصره إلى ذاته نفسها .
على أن هذا الفتى الحجلول الذي كان بالأمس ، والذي يصفه ، يبدو
لذلك القنصل البدين بعيداً إلى حد يحمله وهو يكتب على الاعتقاد بأنه
» يقوم باكتشافات حول امرئٍ آخر « وهكذا يدون هنري بيل ،
أو ستندال ، شبابه ، يدونه بالرموز ، لكيلا يدري امرؤ من كان
هذا المسمى ه . ب ، أو هنري بيل ، في كراريس غليظة ، وينسى
هو نفسه من نفسه الناس جميعاً ، في اللعبة الفنية لتجديد شباب النفس
القائمة على تعزيتها بالمخادعة .

١٨٣٦ حتى ١٨٣٩ ، باريس .

انبعاث من جديد — شيء رائع ! — عودة إلى الضوء مرة أخرى .
ألا بارك الله في النساء ، فكل خير يأتي من قِبَلهنّ — فلقد ظلمنّ
طوال هذا الوقت يَتملّقن الكونت دي موليه الذي أصبح الآن وزيراً ،
حتى رضي أن يغض الطرف عن الحقيقة المعادية للدولة ، وهي أن السيد
هنري بيل الذي يعد بلاريب قنصلاً في سيفيتا فيتشيا في الحقيقة ، قد
مدّد إجازته ذات الأسابيع الثلاثة ، بوقاحة وهدوء تامّين ، إلى ثلاث
سنوات ، ولم يفكر في العودة إلى وظيفته . أجل ، فهذا القنصل يقعد
ثلاث سنوات مرتاحاً في باريس بدلاً من الإقامة في مستنقعاته ، ويدع
الوغد اليوناني يكدر هناك بدلاً منه ، ويتقاضى راتبه هنا ، فلديه الوقت
والمزاج الطيب ، وفي وسعه أن يعود إلى المجتمع ، مرة أخرى ، مستقيماً
في طلب الغرام . وفي وسعه أن يعمل ما يشاء ، ولاسيما ما يبلو له أجمل
ما في الحياة ، وهو أن يغلو ويروح في حجرته بالفندق ويملي رواية
«دير بارم» . ذلك لأن المرء يستطيع مع الراتب العالي ، ومن دون عمل أن

يشتمل ترف الكثانة ضد الاتجاه العالم ، وأن يكتب رواية دونما تزويق وتنميق ، ذلك لأنه أصبح حراً آخر الأمر . وليس هنري بيل سماء أخرى فوق الأرضين سوى سماء الحرية .

ولكن هذه السماء سرعان ما تنهار . وذلك أن حاميها الوزير ، الكونت دي موليه ، اليقظ المتروقي - وقد كان في ذلك الوقت خليقاً أن ينصب له تمثالاً ! - قد أسقط ، ويأتي إلى وزارة الخارجية فرعون جديد ، هو المارشال العسكري (سول) الذي لا يعرف شيئاً عن رجل يدعى ستندال ، بل يعرف مجرد السيد القنصل هنري بيل ، في لائحة ذوي المراتب ، يتقاضى راتباً لتمثيل فرنسا في الدونة الكنسية ، وبدلاً من ذلك يختلف إلى مسارح باريس متمتعاً بها منذ ثلاث سنوات . ويعجب السيد الجنرال من ذلك أول الأمر ، ثم يستاء من الموظف الكسول الذي ينهك في شؤون حياته بدلاً من أن ينهك في الملفات ، وعلى الفور يصمم مرسوماً صارماً ينص على انرحيل دونما تأجيل ، ويرتدي هنري بيل بزته الرسمية متدماً ، ويخلع ثوب الأديب ستندال . ويضطر ابن الرابعة والخمسين إلى الخروج في حرارة الصيف اللاحقة ، متعباً ، مكرهاً ، إلى المنفى ، وهو يشعر أنها المرة الأخيرة .

١٨٤١ ، باريس ، ٢٢ آذار .

رجل ضخم ثقيل يجرّ قدميه بجهد في الشارع المشجر المحبوب . ولكن أين تلك الأيام الجميلة حين كان ما يزال يصوب بصره إلى النساء ، وهو يدور العصا المزخرفة في يده في دك كزير النساء : أما الآن فتتوكل الذراع المرتعشة مع كل خطوة على الخشب الصلب . لشدة ما تقدمت السن بستندال في السنة الأخيرة . فالعينان اللتان كانتا من قبل متوهجتين ،

ترقدان خامدتين تحت جفنين ثقيلين يغشاها ظل يميل إلى الزرقة ، وثمة ارتعاشات عصبية تختلج حوالي شفتيه . وقبل بضعة أشهر أصابته النوبة أول مرة ، في استعادة مؤلمة للذكرى ذلك العطاء الغرامي الأول في ميلانو ، وقد فصدوه وعذبوه بالمراهم والأخلاط ، وأخيراً أقرت الوزارة للمريض بالعودة من سيفيتا فيتشيا . ولكن ما عسى أن يجديه الآن باريس ، وماذا يجديه مقال بلزك المتحمس عن « دير بارم » وماذا يغني البرعم الأول من المجد الآخذ في التناهي على وجل ، رجلاً « مسّ العدم ذات مرة ، وما هو ذا الموت يتقرّاه (١) بأصابه العظيمة . ويجر الظل الكتيب ساقه متناقلاً منهكاً متابعاً طريقه إلى مسكنه ، لا يكاد يرفع الطرف إلى العربات اللامعة السريعة ، وإلى المنتزهين الذين يرثرون متمهلين ، وإلى المومسات المفضلات بأثوابهن ذوات الخفيف — وثمة بقعة سوداء من الكتابة تتابع الزحف بطيئة في غمرة تضارب الأضواء الخاطفة في الشارع المزدهم عند المساء .

وفجأة يحدث تجمع ، وازدحام فضوليّ . لقد انهار السيل البلدين قبيل سوق الأوراق المالية ، وهو يرقد الآن هنا وقد جمحظت عيناه جامدتين ، وازرق وجهه . لقد أصابته الضربة الثانية ، القاتلة ، ويخضعون عن الرجل الذي يحشرج بضعف ياقته التي تأخذ بخناق ، ويحملونه إلى الصيدلية ، ثم يصعدون به إلى حجراته بالفندق ، تلك الحجرة المزروعة بأوراق وملاحظات وأعمال بدأ بها وكراريس لليوميات لا حصر لها . وعلى إحداها كتبت الكلمة التنبؤية الغريبة : « لا أجد شيئاً مضحكاً في أن يموت المرء في الشارع ، طالما أن المرء لا يفعل ذلك عامداً » .

(١) تقرأ التي جس بأصابه ليختبر صلابته .

١٨٤٢ . الصندوق .

صندوق خشبي ضخم ، حمولة رخيصة ، تنتقل متعثرة من سيفيتا فيتشيا ، عبر إيطاليا ، إلى فرنسا ، ويجرّونها إلى رومان كولومب ، ابن خال ستندال ومنفذ وصيته الذي يودّ ، بدافع الورع ، (إذ من عساه يهتم بعددُ بامر الميت الذي وفّرت له الصحف ستة أسطر بالضبط في ركن الوفيات !) أن يصدر طبعة كاملة لأعمال هذا الغريب الأطوار . ويأمر بفتح الصندوق بالطريقة - ربّاه ، ما هذه الكميات من الورق المكتوب بحروف كالشعر الجعّد برموز وإشارات سرّية ، وما هذه الكومة التي خلّفها رجل الكتابة الملول ! ويقتنص بعض الأعمال الأكثر يسراً والأفضل خطأً وينسخها ، ثم يتعب حتى هذا الأكثر وفاءً . ويكتب على رواية « لوسيان لوفان » عبارة يائسة : « لا يمكن عمل شيء بصيحتها » ، وكذلك ينحّي السيرة الذاتية « هنري برولار » جانباً على أنها غير صالحة ، وتظل على هذا طوال عقود من الزمان . فما عساه يفعل الآن بكل هذا « الركام » ، بكل هذه الكومة التي لا حاجة إليها ، وهذه النفاضة من القصاصات ؟ ويعمد كولومب إلى حزم كل شيء من جديد في الصندوق ، ويبعث به إلى كروزيه ، صديق ستندال في أيام الضبا ، ويبعث كروزيه بالصندوق من جديد إلى المكتبة العامة في جرينوبل ، مئواها الأخير . وهناك يتم ، وفقاً لتقليد مكتبيّ قديم جدلاً ، إلصاق رقعات من الورق ذوات أرقام على كل كراسة ، وتختم بقوة وتسجّل عليها عبارة : « ليرقد بسلام ! » وبصطف الآن ستون مجلداً من القطع الكبير ، هي إنجاز حياة ستندال ، وهي حياته التي صاغها بنفسه ، مدفونة دفناً رسمياً في حجرة الأموات الكبيرة الخاصة بالكتب ، وهي تلم الغبار من دون أن يكدر صفوها مكدر ، وذلك أن أحداً لا يخطر على باله طوال أربعة عقود أن يلوث أصابعه بالسفر الضخم الهاجع .

١٨٨٨ ، باريس ، تشرين الثاني .

الشعب يزداد عدداً ، والمدينة يتسع مداها . فباريس تعدّ الآن ثمانية ملايين من السيقان التي لا تريد أن تسير دائماً : وعلى هذا تضع شركة النقل العام خطة لخط جديد إلى مونمارتر ، غير أن المؤسف أن عقبة مزعجة تعترض الطريق ، هي المقبرة ، مقبرة مونمارتر . على أن التقنية تعرف ما تصنع إزاء هذا الوضع السيء ، فسوف يبنون جسر عبور للأحياء فوق الأموات . وبالطبع فليس للمرء في هذا الصدد مندوحة عن تحويل بعض القبور . وفي هذه المناسبة يعثرون في النسق الرابع ، والرقم الحادي عشر ، على قبر مهجور مهمل تماماً ، نقشت عليه عبارة مثيرة للفضول : (١) « أريجو بيل ، من ميلانو ، عشت ، كتبت ، أحببت » . أو إيطالي في هذه المقبرة ؟ نقش غريب ، ورجل غريب ! ولكن امرءاً ما يمرّ مصادفةً ويتذكر أنه كان هناك ذات مرة كاتب فرنسي أراد أن يُدقّق باعلام كاذب . ويؤسسون على وجه السرعة لجنة ، ويجمعون شيئاً من المال لشراء لوحة مرمرية من أجل شهادة القبر . وهكذا يتألق الاسم الضائع فجأة من جديد فوق الجسد الرميم ، عام ١٨٨٨ ، بعد ستة وأربعين عاماً من النسيان .

ومن المصادفات الغريبة في العام ذاته ، حين كان الناس يتذكرون قبره ويستخرجون الجثمان مرة أخرى من الأعماق ، أن أستاذ لغة بولونيا شاباً ، هو ستانيسلاس ستريينسكي ، عرّج في طريقه على جرينوبل ، واعتراه الملل هناك إلى درجة لاحد لها ، فجعل ينقّب ذات مرة في المكتبة العامة . وإذا هو يرى أوراقاً قديمة شتى مكتوبة بخط اليد ، من

(١) « Arrigo Beyle , Milanese, visse, Serisse, amoy »

القطع الكبير ، قائمة في الركن ، ويشرح في القراءة فيها ، وفك رموزها .
وكلما أمعن في القراءة ازداد اهتماماً بمادة القراءة ، ويبحث فيعثر على
ناشر ، ويظهر إلى النور كتاب اليوميات ، وهو السيرة الذاتية لهنري
برولار ، ولوسيان لوفان ، وبهما يظهر ستندال الحقيقي أول مرة .
ويتعرف معاصروه الحقيقيون بحماسة على الروح الأخوية . ذلك لأنه
لم يقصد بعمله معاصريه الفعلين القرينين منه في الزمان ، وإنما قصد
أولئك المعاصرين من الجيل القادم التالي . ويتردد مراراً في كتبه قوله :
« سأكون مشهوراً في ١٨٨٠ » وكانت هذه في تلك الأيام كلمة عاجز
سابقة في الفراغ ، وهي الآن واقع مباغت . ففي الساعة التي يستخرج
فيها جثمانه من الأرض ، في هذه الساعة ذاتها ينتفض عمله من ظلال
الفناء : لقد أعلن ذلك الذي ليس بأهل للتصديق فيما سوى ذلك ، عن
انبعاثه بدقة تبلغ حتى إلى السنة ، أديباً دائماً ، وفي كل كلمة من كلماته ،
غير أنه كان في هذه الكلمة الواحدة رسولاً أيضاً .

* * *

للناس والعالم

ما كان في وسعه أن يتألم الإعجاب فقد
كان مختلفاً اختلافاً كبيراً.

. لقد أخذ هنري بيل الانقسام الثنائي الإبداعي عن أبويه منذ الولادة ،
ففيهما بالذات يتلاءم شطران متباينان في النوع تلاؤماً رديئاً . وذلك
أن شيروبان بيل - ولا يفكرنَّ المرء عند هذا الاسم الأول بموتسارت ،
كلاً ، أبدأ - الأب ، أو « النخل » ، كما يسميه هنري ، ابنه
وعدوه الألد ، دائماً على سبيل التخابث ، يمثل البورجوازيّ الريفي
العنيد ، البخيل ، ذا الذكاء الحاد ، المتحجّر في صورة نقود ، بكامل
أبعاده ، كما قذف به فلوير وبلزاك ، بقبضة غاضبة ، صوب جدار
الأدب : فان هنري بيل لم يرث عنه القامة فحسب ، القامة الضخمة
المكتنزة بالدهن ، بل الجنون الأناني بالذات ، في دماغه ودمه ، أيضاً .
أما الأم هنرييت جانبيون فهي ، في مقابل ذلك ، تنحدر من الجنوب
الروماني وتعد رومانية أيضاً إذا أخذ الجانب النفسي بعين الاعتبار .
ولقد كان خليقة أن يقرض فيها لامارتين الشعر أو يسلكها جان جاك
روسو في تربيته العاطفية (١) ، فهي ذات طبيعة موسيقية رقيقة وإحساس
متلذّذ للمتعة ، ونزعة حسية جنوبية . ولهذا المتوفاة في وقت مبكر

(١) اشارة إلى كتاب « التربية العاطفية » لروسو .

يدين هنري بيل بجموحه في مجال الشهرة وعنفوان الإحساس ، وحساسية الأعصاب المؤلمة التي تكاد تكون أنثوية . ولما كان كلا هذين التيارين المتعارضين يتجاذبان على نحو متواتر ، فقد ظل هذا النتاج الغريب اشخصيتين متصارعتين متأرجحاً طوال حياة بأسرها بين تراث الأب وتراث الأم ، بين الواقعية والرومانسية : ومن أجل ذلك سوف يكون أديب المستقبل هنري بيل دائماً منطوياً على جانبيين ، وذا عالمين .

وهذه السمة الوجدانية تتحدّد عند هنري الصغير منذ وقت مبكر : فهو يحب أمه (بل يفعل ذلك بنضج عاطفي مبكر على نحو خطير متسم بالجموح . كما يستلم هو بذلك) ، ويكره أباه كراهية تنطوي على الغيرة والازدراء ، والبرود الأسباني ، والانغلاق الساخر على النفس ، والملاحقة التي تشبه ملاحقة محاكم التفتيش : ولا يكاد علم النفس التحليلي يجد في أي مكان عقدة أوديبية مطروحة بأسلوب أدبي ، أكثر اكتمالاً ، مما يجد في الصفحات الأولى من السيرة الذاتية لستندال ، وهي « هنري برولار » . ولكن هذا التوتر السابق لأوانه ينقطع بغتة ، لأن الأم تموت عن ابن السابعة . فأما الأب فيعده الغلام في نفسه ميتاً بمجرد أن يغادر جرينوبل في عربة البريد وهو في السادسة عشرة : ومنذ هذا اليوم يحسب أنه قد فرغ منه ودفنه في نفسه بالصمت والكراهية والازدراء . ومع ذلك فحتى لو صبّ عليه الماء القلويّ صبّاً ، وغمره بكلسن مطفاً من الاستخفاف ، يظل الأب البورجوازي بيل ، الموضوعيّ العنيد ، ذو الحسابات الباردة طوال خمسين سنة أخرى حياً تحت جلد هنري بيل ، متابعاً تجواله في دمه ، وتظل أصول كلا العرقين التفسيريين ، أصول آل بيل ، وأصول آل جانيون ، العقل الموضوعي والعقل الرومانسي ، تتضارب خمسين عاماً أخرى بغير انقطاع من دون أن يستطيع أحدهما القضاء

على الآخر قضاءً تاماً . ففي دقيقة يكون ستندال ابن أمه الحق ، وفي الدقيقة التالية ، بل في الدقيقة ذاتها غالباً ، يكون ابن أبيه ، وهو خجول متهيب تارة ، وساخر قاس كالحجر تارة أخرى ، وهو رومانسيّ جامع حيناً وذو حسابات سيء الظن حيناً آخر — بل ان الساخن والبارد يندفعان محتكّين ويصبان أحدهما في الآخر ، حتى في البرهة الحاطقة بين ثانية وأخرى . فالشعور يطغى على العقل ، والذهن يصدّ الاحساس فجأة من جديد . ولا ينتمي هذا النتائج القائم على التعارض أبداً انتماءً تاماً إلى المجال الأول ، كما أنه لا ينتمي قط انتماءً تاماً إلى المجال الآخر . وقلّما جرى في الحرب الخالدة بين الفكر والشعور خوض معارك أجمل من المعركة النفسية الكبيرة التي نسميها ستندال .

ولكن لنفترض في الوقت نفسه إنها ليست بالمعركة الفاصلة ، ولا بالمعركة القاضية ، فان ستندال لم ينهزم ، ولم يتمزّق من جرّاء تناقضاته : فزاء كل مصير مأساويّ حقيقيّ تقوم هذه الطبيعة الأبيقورية بحماية حالة معينة من التهاون الأخلاقيّ ، أو فضولٍ يقظ يراقب ببرود . ويظل هذا الفكر الواقعيّ اليقظ طوال حياة بأسرها يتفادى كل القوى المخربة والشيطانية ، بحذر . ذلك لأن الوصية الأولى التي يملئها ذكاؤه هي المحافظة على الذات ، ومثلما كان ستندال في المجال الفعليّ ، في الحرب النابليونية ، يعرف في كل وقت كيف يظل في المؤخرة ، بعيداً عن الضربة ، فهو يؤثّر أن يختار في معركته النفسية أيضاً موقف الملاحظ المطمئن ، على موقف المقاتل المضمّم على الموت أو الحياة . فهو يفتقر افتقاراً كاملاً إلى تلك التضحية الأخلاقية الأخيرة بالذات ، وهي التي توجد عند رجل مثل بسكال أو نيتشه أو كلايست ، أو لئلك الذين 'أزفَعُوا' كل صراع لديهم بضويرة قسرية إلى نقطة فاصلة في حياتهم .

فأما هو ، أي ستندال ، فيكنفي ، حين يعاني من صراعه معاناة شعورية ، بالاستمتاع بهذا الصراع من حيث هو مسرحية جمالية ، وذلك من موقع الأمان الفكري . ومن أجل ذلك لا تزعزع التناقضات كيانه زعزعة كاملة أبداً على أنه لا يكره حتى ثنائيته هذه كراهية جدية ، بل يحبها فوق ذلك فهو يحب ذهنه الدقيق المرهف كاللماس على أنه شيء قيم جداً لأنه يمكنه من فهم العالم ، ولكن ستندال يحب من ناحية أخرى عنفوان شعوره ، وفرط حساسيته لأنهما يفصلان بينه وبين عفونة الحياة اليوسية المبتذلة وبلاذتها . وكذلك فهو يعرف أيضاً عن كلا حداثتي كيانه الخطر المرتبط بهما ، فأما ذلك المرتبط بالذهن فلذلك أنه يُبرّد أسمى اللحظات ويذهب بما فيها من سكر ونشوة ، وأما ذلك المرتبط بالحس فلذلك أنه يغري بالتمادي فيما هو مائع ضبابي وغير حقيقي ، ويفسد بذلك الوضوح الذي هو شرط حيوي بالقياس إليه . ولذلك فهو يحب قبل كل شيء أن يكتسب إلى جانب كل من نوعي النفس خاصة النوع الآخر : ويجتهد ستندال دونما توقف ، في جعل شعوره واضحاً بطريقة ذكية ، وفي إضفاء العاطفة بدورها ، على العقل — فهو طوال حياة بأسرها رجل الفكر الرومانسي ، والرومانسي المفكر ، وقد استكن كلاهما تحت الجلد المتوتر الحساس ، ذاته .

وإذا فكل معادلة عند ستندال تخرج دائماً بعدد ذي مرتبتين ولا تخرج قط بوحدة مدوّرة: ففي ثنائية العالم هذه وحدّها يحقق ذاته على نحو كامل. وهو يدين دائماً بأقوى لحظاته لهذه التداخل والتجاور في تناقضه الأصيل ويقول ذات مرة عن نفسه: « لولا انفعاله لكان بلا فكر » (١)

(١) وردت هذه العبارة في النص الاصل بالغة الفرنسية :

Lorsqu'il n'avait pas d'émotion il était sans esprit

ومعنى هذا أنه لا يستطيع أن يفكر تفكيراً سليماً من دون أن يتعرّض لاستثارةٍ شعورية، غير أنه لا يستطيع ، كذلك، أن يشعر شعوراً دقيقاً من دون أن يقيس على الفور نبضة قلبه الالفعالية فهو يمجّد من ناحية ممارسة الأحلام على أنها الشرط الأكبر قيمة لشعوره الحيويّ (١) « لقد كان ما أحببته أعظم الحب هو الأحلام » (١) ومع ذلك فهو لا يستطيع أن يعيش بدون نقيضها، اليقظة (« أولارؤيتي الواضحة لانهار عالمي كله » (٢)) ومثلما أقرّ جوته ذات مرة على نفسه ، بأن هذا الذي يسميه الناس عموماً بالمتعة « يحوم دائماً عند ممرّدٍ بين النزعة الحسية والعقل » فكذلك بالاضبط لا يحسّ ستندال بهجمال العالم المعقول إلاّ عن طريق التمازج الناري بين الفكر والدم . وهو يعلم أن الكهرباء النفسية لا تصدر إلاّ عن الاحتكاك الدائم بين تناقضاته ، وعن ذلك التوفّر والتوهج في مسارات الأعصاب ، وتلك الحيوية المتوترة الواخزة ذات الصوت المسموع ، والتي مانزال نحسّ بها اليوم بمجرّد أن نلمس كتاباً أو ورقة استندال . فبفضل وثبة الحيوية هذه التي تعبّر من قطب إلى قطب ، وبها وحدها، يستمتع بحرارة طاقة كيانه الإبداعية والمولدة للنور . وتقوّم غريزة تصعيد الذات اليقظة دائماً عنده بتوظيف كل انفعال من أجل المحافظة على هذا التوتر الشديد . ومن بين ملاحظاته العديدة الممتازة في المنطق الخاص لعلم النفس يبدي ذات مرة الملاحظة الرائعة ، وهي أنه لا بد من تمرين الطاقات النفسية وتصعيدها وتدريبها تدريجاً كاملاً بدون توقف ، مثلما تحتاج عضلات أجسامنا إلى الرياضة المستمرة لكيلا تسترخي . وقد مارس ستندال هذا العمل المادف إلى الكمال

Ce que J'ai le plus aimé, est anéanti

(١)

Ce que J'ai le plus aimé, était la rêverie

(٢)

على نحو أكثرَ مثابرةً من أي عمل آخر ، فهو يرمى ويحترق كلتا
النهائيتين من كيانه بغير توقف من أجل النضال في سبيل المعرفة ، بحب
مماثل لذلك الذي يوليه فنان لآلته ، وجندي لسلاحه ، ولا ينقطع اشتغاله
بتدريب أناته النفسية . ولكي يحافظ على التوتر العالي لشعوره ، على
« التأهب المعنوي » (١) بصورة كامنة يبعث الحرارة في قدرته على
التوسّع ككل مساء في دار الأوبرا عن طريق الموسيقى ،
ويثير نفسه بحكم كونه رجلاً مسنّاً بصورة قسرية بالدخول في علاقات
غرامية متجددة أبداً . ولكي يعزّ ذاكرته التي يلمس فيها آثاراً من
الضعف ، على الدقة ، يفرض على نفسه تمارين خاصة ، فهو يصقل
قدرته على الإحساس ، مثلما يصقل موسى حلقاته كل صباح ، وذلك
على خطوط ملاحظته لذاته . وهو يُعنى في كل يوم بادخال « بضعة
مكعبات من الأفكار الجديدة » عن طريق الكتب والأحاديث ، ويملاً ،
ويثير ، ويحدث توتراً ، ويحكم قيادة نفسه موجهاً إياها نحو حدة تزداد
إرهافاً على نحو مطرد ، وما يفتأ يرهف عقله ، ولا يتّ عن صقل
شعوره .

وبفضل هذه التقنية الخبيرة المصقولة للوصول بالنفس إلى الكمال
يبلغ ستندال درجة من إرهاف الحس النفسي غير مألوفة البتة ، سواء
من الناحية الذهنية أم من الناحية الحسية ، وقد يضطر المرء إلى الرجوع
عقوداً من الزمان إلى الوراء في الأدب العالمي ، من أجل العثور على
شعور مماثل لهذا الشعور في رقة إحساسه وحدة ذهنه في الوقت ذاته ،
وعلى نزعة حسية تبلغ هذا القدر من رقة البشرة وارتعاش الأعصاب

(١) « érectisme morale » وردت بالفرنسية في النص الأصلي

مفتزنة بعقل صاف كالماء وبارد كالماء ، ولكن ما من شك في أن المرء لا يجعل نهايات أعصابه تدنو كل هذا الدنو تحت البشرة رقيقة مرتعشة ، وبهذا القدر من الخبرة والاستمتاع ، بدون عقاب . فالرقة ترتبط دائماً بسهولة التعرض للإصابة ، وما يعد نعمة بالقياس إلى الفن يكاد يغدو دائماً محنة عمر بالقياس إلى الفنانين . فما أشد ما يعاني ستندال ، هذا الكيان الفائق التنظيم ، من العالم المحيط به ، وما أشد غربته وسأمته في وسط زمانٍ صاحب بيعث على الأسى ! فمثل هذا الدوق الذهني لا بد له أن يحس بكل نزعة مُجانبية للفكر على أنها إهانة ، ولا بد لنفسه على هذا الجانب من الرومانسية أن تشعر ببلادة الحس والحمول الأخلاقي في الحياة المتوسطة على أنهما كابوس . ومثلما تشعر الأخيرة في الأسطورة بالحمصة تحت مئات من الريش الزغبية والأغطية ، يشعر ستندال شعوراً مؤلماً بكل كلمة زائفة ، وكل لفظة كاذبة . فكل رومانسي زائف ، وكل مبالغ فيه مضخم ، وكل ما هو عائم ضبابي بصورة تنطوي على الجبن ، يفعل فعله في غريزته الخبيثة كفعل الماء البارد في سنٍّ مريضة . ذلك لأن شعوره إزاء الاستقامة والطبيعية ، ومقدرته الفكرية يعانيان معاناة واحدة من الإفراط والتفريط في كل إحساس غريب — « ان ما أمقته أشد المقت إنما هو العامي والمفتعل — يعانيان من المبعذل بمقدار ما يعانيان من النفس . وان عبارة وحيدة ، إذا كانت مزوقة بالشعور أكثر مما ينبغي لها ، أو كانت متفجرة بالشمال الباعثة على الأسى ، يمكن أن تفسد عليه كتاباً ، وان حركة بليدة يمكن أن تفسد أجمل مغامرة شهوانية . وهو يتأمل ذات مرة معركة نابليونية وهو مأخوذ ؟ وذلك أن فوضى الاقتتال التي يهزها رعد المدافع ويعلوها هيب تراقص الألوان المبالغ عند غروب الشمس في السحائب الدموية .

تحدث في نفسه الفنية أثراً لا يقاوم كالخدر العصبي . فهو يقف هناك ويرتعد منفعلًا في ارتعاشة تنطوي على مشاركة في الإحساس . هنالك يخطر ببال جنرال إلى جانبه ، لسوء الحظ ، أن يعبر عن هذه المسرحية الآسرة بكلمة ذات أثر كبير ، فيقول لجاره باعجاب : « إنها معركة عمالقة » . وعلى الفور تسحق هذه الكلمة الباعثة للأسى بصورة فظة . كل إمكانية للمشاركة الحسية عند استدال ، فيسرع إلى الابتعاد بغتة وهو يلعن ذلك اللفظ بمرارة وخيبة ، مأخوذاً ، وذلك لأن ذوقه . يثور كلما أحسّ حلقه ذو الحساسية المفرطة بأدنى طعم جانبيّ لعبارة ، أو كذب في التعبير عن شعورٍ ما . فالتفكير غير الواضح ، والكلام الذي لا تجده حدود ، وكل عرض للملصقات ونشر للإحساس . يسبب عند هذا العبث في الحساسية على الفور ميلاً إلى الانهيار الجمالي . ومن أجل ذلك لا يستطيع أن يستسيغ أيضاً من كل فنّ معاصريه إلا قليلاً . جداً ، لأنه كان في تلك الأيام مزوّقاً تزويقاً رومانسياً ذا حلالة خاصة (شاتوبريان) وتزويقاً بطولياً زائفاً (فيكتور هيجو) ، ومن أجل ذلك لا يحتمل ولا يطيق إلا القليل جداً من الناس . غير أن هذا الفيض من الحساسية المفرطة لا يتجه ضده هو ذاته على نحو أقل . فحيثما يضبط نفسه متلبساً بأدنى انحراف في الإحساس ، بتصعيد في الوتيرة لا ضرورة له ، يحنوح إلى العاطفيّ أو الضبابيّ الجبان أو عدم الاستقامة ، يضرب نفسه بنفسه على أضنابعه مثل معلم مدرسة صارم . . وذلك أن عقله . يلفظ والصارم دائماً يتسلل في أثره حتى يبلغ أكثر الأحلام انحرافاً ، ويتزعزعه منه كل مطاوي الخجل من دون مراعاة لأي اعتبار . وقلماً ربّ فنان نفسه . على الاستقامة تربية أساسية إلى هذا الحد ، وقلماً أشرف مراقب للنفس بهذه القسوة على أكثر مُشعّرجاته ومتاهاته خفاءً .

ولما كان ستندال يعرف نفسه بهذا القدر فإنه يعرف هو نفسه أكثر من أي امرئ آخر أن هذه الحماسية المفرطة في الأعصاب والفكر تُعد عبقريته وقصيلته وخطره . « إن ما يمس الآخرين مساً رقيقاً يصيبني حتى في دمي » (١) ، وذلك من حيث غرط الحساسية . ومن أجل ذلك يحس ستندال بالآخرين « Les autres » بصورة غريزية ، ومنذ عهد الصبا ، على أنهم التقيض القطبي لأناه ، من حيث كونه متميلاً إلى عرق غريب من أعراق النفس . وقد آتس الفتى الصغير والثقل منذ مرحلة مبكرة جداً هذا الاختلاف في نفسه في جرينوبل ، حين كان يرى رفاقه في المدرسة يروحون ويجيئون صاخبين في سرور لا تشوبه أفكار ، وكانت معرفة ضابط الصف الغرّ هنري بيل بهذا فيما بعد ، في إيطاليا أكثر . إذ كان يعجب بالضباط الآخرين إعجاباً يقرن بالشعور بالسعد والعجز عن تقليدهم إذ يطوّعون نساء ميلانو ، ويعرفون كيف يصلصلون بسيفهم في تبحّج واعتداد بالنفس . غير أنه كان في تلك الأيام ما يزال يخجل من كونه أكثر نعومة ، ومن أشكال حرجه وإرهاق حسّه على أنها نقيصة في الرجل ، وعيب يستحق الرثاء ولقد حاول طوال سنين أن يتغلّب على طبيعته — وانه لأمر مضحك للغاية ، وعيلاً يحاول — وأن يقلّد الغوغاء الصخّابين في تبحّجهم ، لمجرد أن يبدو مشابهاً لهؤلاء الرفاق ويحدث انطباعاً لديهم . ولا يكشف ذلك الانفعالي إلا بصورة تدريجية ، وبجهد شديد ، وبألم مبرّح ، جاذبية كثيفة في اختلافه الذي لا شفاء له : ويستيقظ عالم النفس . لقد اعترى ستندال فضول أزاء نفسه بصورة تدريجية ، وهو يبدأ في اكتشاف نفسه .

(١) في الأصل بالفرنسية :

Ce que ne fait qu'effleurer les autres me blesse Jusqu'au sang .

ففي أول الأمر يقرر أنه مختلف عن الآخرين وأدق تنظيمياً وأرهف حساً وأوضح سمعاً. فما من أحد حواليه يشعر شعوراً عارماً بهذا القدر، وما من أحد يفكر بهذا الوضوح، وما من أحد رُكِّب من جبلة غريبة حتى غدا قادراً على أن يحسّ بأدق الأشياء، ولا يبلغ، على الرغم من ذلك، أدنى شيء في المجال العملي. ولا بد أن يوجد، بلا ريب أناس آخرون من هذا النوع الغريب من «المخلوق المتفوق». وإلا فكيف استطاع أن يفهم مونتانيي، هذا الفكر اللاذع، العميق الذكاء، والذي يزدرى كل شيء عريض خشن، إذا لم يكن موافقاً لنمطه، وكيف استطاع أن يشعر مثل موتسارت إذا لم تكن تسوده سماحة النفس ذاتها. وعلى هذا يبدأ ستندال في نحو الثلاثين عاماً يحسّ أنه ليس بالنسخة غير الموفقة من الإنسان، بل هو مخلوق خاص ينتمي إلى ذلك العرق النادر النبيل جداً من «المخلوقات ذوات الامتياز» التي توجد بصورة مختلطة هنا وهناك في أشد الأمم والأعراق والأوطان تبايناً، مثلما يتفق وجود الحجارة الكريمة في كتل الأخلاط العادية، وهو يشعر معهم أنه في وطنه (لا مع الفرنسيين، فهو ينبذ هذا الانتماء مثلما ينبذ المرء ثوباً غداً مفرطاً في الضيق)، في وطن آخر، غير مرثي، مع أناس أولي أعضاء نفسية أكثر دقة وأعصاب أكثر ذكاءً، مع أولئك الذين لا يتجمعون في كتل غليظة وشئلل تجمعها مصالح العمل، بل يبحثون من حين إلى آخر برسول إلى الزمان. فهو يكتب لهم وحدهم، لأولئك «السعداء القلائل»، لأولئك المتمتعين بحنة السمع ودقة البصر، لأصحاب الفهم السريع، الذين يستطيعون أن يقرأوا من دون توقعات، وأن يفهموا كل إشارة ولحظة بغريزة القلب — هؤلاء يكتب كتبه متجاوزاً قرنه، ولهم وحدهم يروح في كتابته، النموذجية، بأسرار إحساسه. وماذا يعني، منذ أن تعلم

الازدراء أخيراً ، من أمر هؤلاء الرعايا الأجلاف الرافعين عقيرتهم بالحديث من حوله ، الذين لا يلفت أنظارهم إلا الكتابة المدونة على الملصقات الإعلانية بحروف ضخمة ذات ألوان صارخة ، ولا تستسيغ أفواههم إلا الطبخ ذا التوابل الحادة والذسم ؟ فهو يقبول على لسان بطله جوليان بكبرياء : « مالي وللآخرين ؟ » . كلاً ، ما كان له أن يخجل لأنه لم يصب نجاحاً في دنيا تحابي الأوغاد على هذا النحو ، في دنيا الغوغاء « المساواة هي القانون العظيم الذي يحظى بالإعجاب » (١) فلا بد للمرء أن ينهض بالأعباء ذاتها ليتلاءم مع هؤلاء الأوباش ، غير أن المرء يحمده الله على أنه « مخلوق غير عادي » ، « مخلوق متفوق » متفرد ، حالة خاصة ، فرد ، كيان متباين ، وليس خروفاً في قطيع . فكل الإهانات الظاهرية ، والتخلف في العمل ، ونقائصه عند النساء ، والإخفاق الكامل في الأدب ، كل هذا يستمتع به ستندال منذ اكتشاف تميزه ، على أنه برهان على تفوقه ، ويتحول شعوره بالنقص تحولاً انتصارياً إلى كبرياء صريحة ، إلى تلك الكبرياء المرحية الحالية من الهم على نحو رائع عند ستندال . وهو يتعمد الآن المضي في النأي بنفسه عن كل مجتمع ، ولا يعود يعرف بعد إلا همّاً واحداً ، هو « أن يصوغ شخصيته » (٢) ، أن يعمل على إخراج شخصيته ، سيمائه النفسية على نحو أبلغ أثراً ، فليس هناك من قيمة عنده إلا للخصوصية في عالم متأمرّك على هذا النحو ، عالم كهذا الذي يقوم على نظام تايلور (٣) ،

(١) في الأصل بالفرنسية : « L'égalité est la grande loi pour plaine »

(٢) في الأصل بالفرنسية : « de travailler son caractère » .

(٣) عالم تقني أمريكي صاحب نظرية خاصة في الإدارة العلمية للعمل .

« ليس هناك ما يهم سوى ما هو غير عاديّ إلى حد ما » (١) : وإذا فلنكن أولي خصوصية ، ولتتمسك بنواة التفرد فينا على وجه الخصوص ولندعمها ! وما من هولنديّ محنون بالخزامى ربّي نوعاً هجيناً من أنفس الأنواع بحرص أكثر من حرص سنندال في تربية صراعه وخصوصيته ، فهو يحفظهما كما تحفظ الملعبات في خلاصة روحية خاصة يسميها « البليّة » ، وهي فلسفة لا تعني شيئاً آخر سوى المحافظة على هنري بيل ، دونما تغيير ، ضمن هنري بيل . وهو يقوم بالتصديّ الواعي لعصره ويعيش مثل بطله جوليان « في حرب مع المجتمع كله » ، لمجرد أن يعزل نفسه عن الآخرين عزلاً أقوى . ومن حيث هو شاعر ، يزدري القالب الجميل وينادي بالقانون المدنيّ فناً حقيقياً للشعر . وهو يسخر من الحرب جندياً ، ويتهم على التاريخ سياسياً ، ويهزأ بالفرنسيين فرنسياً : ففي كل مكان يصطنع الخنادق والأسلاك الشائكة بينه وبين الناس لمجرد ألاّ يتمكنوا من الاقتراب منه . ومن البدهي أنه يضيّع على نفسه بذلك كل عمل ، إذ يفوته كل نجاح جندياً ، ودبلوماسياً وأديباً ، ولكن هذا لا يزيده إلاّ كبرياءً « أنا لست واحداً من ماشية القطيع ، وإذا فأنا لست بشيء » ، كلاًّ إنعاعليك ألاّ تكون شيئاً عند هذه النفوس الغوغائية ، وأن تظل « لاشيء » أمام هؤلاء الذين ليسوا بشيء . ويسعده ألاّ يلائمه مكان بينهم ، وألاّ ينسجم في أي من طبقاتهم وأعراقهم ومراتبهم وأوطانهم ، ويتحمّس للمضيّ في طريقه الخاص على قدميه ، في صورة ققيض ذي ساقين ، بدلاً من أن يقطع الطريق العريض إلى النجاح في عدوٍ وثيد وسط خراف الخدمة هؤلاء المستبهدين .

(٤) في الأصل بالفرنسية « Il n'y a pas d'intéressant que ce qui est un »

« المترجم »

peu extra ordinaire »

ولأنه خير له أن يتخلف ، وأن يظل في الخارج ، واقفاً وحده ، ولكن ليقَ حرّاً . ولقد فهم ستندال التشبث بالحرية ، وهذا التحرر من كل ألوان القسر والتأثير فهماً عبقرياً . ولئن كان لابدّ له في بعض الأحيان أن يقبل مهنة بدافع الحاجة ، وأن يرتدي بزّة رسمية فإنه لا يعطي من نفسه إلاّ ما هو ضروري لا مندوحة عنه ، ولا يعطي فوق ذلك بوصة ولا درهماً . فاذا خلع عليه ابن عمه حلة سلاح الفرسان لم يشعر بنفسه جندياً بسبب ذلك ، وإذا كتب الروايات فإنه لا يكرّس نفسه من أجل ذلك للكتابة المختصة ، وإذا اضطرّ إلى ارتداء حاشية الدبلوماسي المطرّزة فإنه يضع ضمن ساعات الدوام أيّ هنري ييل يذهب إلى المكتب ، أيّ امرئ ليس بينه وبين ستندال الحقيقي شيء مشترك إلاّ البشرة والبطن المستدير والعظام ، على أنه لا يعطي جزءاً من كيانه الفعلي في تلك الأيام ، لا للفن ولا للعلم ولا للوظيفة التي هي أدنى هؤلاء قاطبة ، وبالفعل فإن أحداً من رفاقه في العمل لم يشعر طوال عمره بأسره أنه في صحبة أعظم أدباء فرنسا أو أنه يدفع بالأضابير على المنصة ذاتها معه . بل إن رفاقه اللامعين في الأدب (عدا بلزاك) لم يكونوا يرون فيه شيئاً آخر سوى متحدث ممتع ، وضابط سابق يقوم من حين إلى آخر بنزهات في أيام الآحاد على ظهر الخيل فوق أراضيهم . وربما كان شوينهاور وحده من بين كل معاصريه هو الذي ترك أثراً مشابهاً في عزلته الفكرية السحرية ، وعاش حياة مماثلة لحياة أخيه الكبير في منطق علم النفس ، ستندال .

وإذا فثمة جزء أخير من تلك المادة الفريدة في ستندال يظل دائماً متيحاً جانباً ، واستقصاء هذا العنصر الغريب من الوجهة الكيميائية يمسّ النشاط الوحيد الفعليّ والحادّ عند ستندال . وذلك أنه لم ينكر قطّ الجانب

الأنانيّ وحب الذات في موقف انطوائيّ كهذا تجاه الحياة ، بل كان ، على النقيض من ذلك ، يفخر بهذا الحب للذات ويعمّده على نحو اشتعراضي باسم جديد ينطوي على التحدي : انه « الأنانيّة » (١) — والأنانية هذه ليست بالخطأ المطيعي ، كلاً ، ولا يخلطن القارئ هذه بأختها الهجينة المبتذلة ، الأنانية ذات القبضة الغليظة . ذلك لأن الأنانية تريد بفظاظة أن تنتزع انفسها كل شيء يعود إلى الآخرين ، فلها يدان نهمتان ، كما أن لها وجه الحسد الصفيق ، وهي عديمة الخير ، عديمة المروءة ، لا تشيع ، بل ان امتزاجها بالدوافع السكرية لا يقدر على تخليصها من جلالة إحساسها الخالي من الخيال . وفي مقابل ذلك فان أنانيّة ستندال لا تريد أن تأخذ من أحد شيئاً ، فهو يدع ، بكبرياء أرسقراطية ، للمتهالكين على المال مآلهم ، ولأصحاب الطموح مناصبهم ، وللظامعين أوسمتهم وألويتهم ، وللأدباء فقاعات مجدهم — فليُسعدوا بذلك ! وهو يتسم إليهم من على اذرءاء ، وقد اشربت أعناقهم صوب البريق الخاطف ، وهم يخنون الظهور كالعييد ويتحلّون بالألقاب ويتزوّدون بالمراتب ، ويتحلّقون في مجموعات وجماعات صغيرة ، ويحسبون أنهم يحكمون العالم (*) وهو يتسسم إليهم ستاخراً بلا حسد ولا طمع ، فليحوزوا وليملكوا ! ، وليثرعوا جيوبهم وليملأوا بطونهم ! أما الأنانيّة عند ستندال فليست إلاّ دفاعاً وجدانياً ، إذ إنه لا يدخل منطقة أحد ، ولكنه لا يدع أحداً يتخطى عتبه ، وليس لديه إلاّ الطموح إلى إفساح مجال منعزل كل الانعزال ضمن هنري بيل الانسان ، وذلك المجال مُستَنبَت يستطيع فيه نبات الفردية

(١) الأنانيّة Egotismus تمييزاً لها عن الأنانية Egoismus ، من نحت ستندال .

(*) كذا في الأصل باللغة اللاتينية : hafeant, hafeant. « المترجم » .

الاستوائي النادر أن يفتتح دونما عوائق . ذلك لأن ستندال يريد أن يبري آراءه وميوله وضروب افتتانه من تلقاء نفسه وبنفسه وحدها ، ويبدو أن مما لا يعنيه ولا وزن له عنده على الإطلاق كم يعدل كتاب أو حدث ما بالقياس إلى الآخرين جميعاً . وهو يتجاهل في كبرياء ما تحدثه واقعة من الوقائع في التاريخ المعاصر أو في تاريخ العالم ، أو حتى في الأبد : فهو لا يصف بالجمال إلا ما يعجبه على سبيل الحصر ، ولا يعمدُ صحيحاً إلا ما يراه ملائماً للتحفة الحاضرة ، ولا جديراً بالازدراء إلا ما يزدريه ، ولا يقض مضجعه بحال من الأحوال أن يقف منفرداً انفراداً تاماً برأيه هذا ، بل على النقيض من ذلك ، فالوحدة تسعد وتقوي اعتداده بنفسه : « مالي وللآخرين ! » فشعار جوليان ينطبق أيضاً على منطق الجماليات عند هذا الأنانوي الحقيقي الخبير .

وربما تقاطعنا ههنا حجة غير متروية — ولكن فيم هذه الكلمة المفرطة في الفخامة ، « الأنانوية » ، من أجل هذه البديهية التي هي بديهية البدهيات ؟ ولا ريب أن من أكثر الأشياء طبيعية أن ينعت المرء بالجمال ما يراه جميلاً ، وأن يوجه حياته وفقاً لما يحلو له من الوجهة الشخصية وحدها ! « ولا ريب أن هذا ما يود المرء أن يقوله ، ولكن إذا أئعنا النظر ، فمن يتاح له أن يشعر شعوراً مستقلاً تماماً وأن يفكر تفكيراً مستقلاً ؟ ومن عساه يملك الجرأة ، حتى من بين أولئك الذين يبنون رأيهم في كتاب ، أو صورة ، أو حدث ، انطلاقاً من تقييم خاص على ما يبدو ، على الجهر بذلك الرأي مباشرة في مواجهة عصر بأكمله ، وفي مواجهة عالم بأسره ؟ فنحن جميعاً متأثرون بقدر أعلى مما نعترف به لأنفسنا ، وبصورة لاشعورية : وذلك أن هواء العصر يستكن في رثائنا ، وفي حجرة القلب ذاتها ، وأحكامنا وآراؤنا تحتك بآراء معاصرة

كثيرة لا حصر لها وتصل عليها رؤوسها المدببة وأطرافها الحادة دونما وعي . وتتذبذب خلال الغلاف الجوي ، بصورة غير مرئية كأمواج الإذاعة ، ابجاءات الرأي العام . وإذا فالمنعكس الطبيعي للإنسان ليس تكريس الذات بحال من الأحوال ، بل ملائمة الرأي الخاص مع الرأي السائد في العصر ، والاستسلام لشعور الأكثرية . ولو أن أغلبية البشر ، الأغلبية الساحقة ، لم تكن ميالة إلى التلاؤم في اين مفرط ، ولو أن ملايينها لم تتنازل بدافع الغريزة أو الخمول عن نظرتها الخاصة الشخصية لتوقفت الآلية العملاقة عن العمل منذ عهد طويل . وعلى هذا تمس الحاجة في كل مرة إلى طاقات خاصة تماماً ، وإلى شجاعة متمردة متوثبة — وما أقل من يعرفونها ! — لإنفاذ إرادة المرء المنعزلة في وجه هذا الضغط المعنوي الصادر عن ملايين الأجواء . ولا بد أن تتفاعل معاً قوى نادرة متمرسّة تماماً في الفرد لكي يدافع عن تفرده : معرفة متمكنة بالعالم ، وحدة نظر سريعة في الفكر ، وازدراء قائم على الاستقلال اكمل قطيع ولكل جمهرة ، واندفاع ليس له صفة أخلاقية ، وقبل كل شيء شجاعة ، بل ثلاثة أمثال ذلك من الشجاعة ، شجاعة لا تتزعزع ، متمكنة في موقعها ، هي شجاعة القناعة الخاصة ؛ أما هذه الشجاعة فقد أحرزها سستندال ، وهو أناتوري كل الأناتويين : وإنه لما بيعت الارتياح في النفس أن يرى المرء مقدار الجرأة التي ينقص بها على عصره ، واحداً في وجه الناس جميعاً ، وكيف يجتاز العقبات خلال نصف قرن بالحيل البارة والهجمات المباشرة وليس معه درع آخر سوى كبريائه الخاطفة ، وكثيراً ما يصاب ، وينزف من جروح خفيفة ، غير أنه يظل منتصب القامة حتى اللحظة الأخيرة ومن دون أن يضحى بشبر من تفرده وعناده. فالمعارضة متعديته،

والاستقلال لذته . وبحسب المرء أن يتتبع بالقراءة من خلال مئات الأمثلة ، مقدار الجرأة ، ومقدار الوقاحة اللتين يصمد بهما هذا الرفض الماثب للرأي العام ، ومقدار الجرأة التي يتحدث بها . ففي عصر يهيمن فيه التحمس للمعارك على كل شيء ، ويربط فيه الناس في فرنسا ، كما يقول ، مفهوم البطالة على نحو لا يقبل الرد ، بقائد الفرقة الموسيقية العسكرية ، يصف وائرلو بأنها اختلاط فوضوي لا يحيط به البصر لقوى عشوائية ، ويقرّ دونما حرج بأنه عانى شخصياً أثناء الحملة على روسيا (التي يمجّدها المؤرخون على أنها ملحمة التاريخ العالمي) من ملل فظيع . ولا يجد حرجاً في أن يقرر أن رحلة إلى إيطاليا من أجل لقاء حبيبته أهم عنده من مصير وطنه ، وأن لحناً لموتسارت أدمى إلى الاهتمام عنده من أزمة سياسية . « وهو يهزأ بهزأة فرنسا » ولا يأبه لاحتلالها من قبل القوات الأجنبية . ذلك لأنه ، بحكم كونه منذ عهد طويل أوروبياً باختياره ومواطناً عالمياً ، لا يُعنى دقيقة واحدة بهذه الرقصات الدورانية في لعبة الخطّ الحربي ، أو بالآراء السائدة ، أو بالوطنيات (« وهي أكثر المضحكات غباءً ») والقوميات ، وإنما يقتصر على تحقيق طبيعته الفكرية وتحويلها إلى واقع ، وهو يؤكد هذه الوجهة الشخصية عنده بهذا الاستبداد وتلك الرقّة في غمرة الانهيار الرهيب في تاريخ العالم ، حتى ان المرء ايجامره الشك ، وهو يقرأ يومياته ، في أنه كان شاهداً بشخصه في كل هذه الأيام التاريخية التي يؤرّخُ بها . غير أن ستندال لم يكن هناك أيضاً بمعنى ما ، حتى وإن خاض غمار الحرب على فرسه أو كان جالساً على كرسيّ منصبه ، فقد كان دائماً مع نفسه وحدها ، ولم يكن قطّ يشعر أنه ملتزم بالمشاركة الوجدانية في الأحداث انطلاقاً من المشاركة في العمل ومن المشاركة في التفكير ، ولم تحرّك تلك الأحداث من نفسه شيئاً . ومثلما كان جوته لا يدون

في حولياته من أيام التاريخ العالمي إلا مطالعته من الصينية ، فإن ستندال لا يدون في أكثر الساعات عصفاً بالعالم في عصره إلا أكثر الأمور الهامة خصوصيةً عنده : فكان تاريخ عصره ومعاصريه لهما أجدية أخرى وممردات أخرى . ومن أجل ذلك يغدو شاهداً لا يعتمد عليه فيما يتصل بالعالم المحيط به بمقدار ما يغدو شاهداً لا يشق له غبار فيما يتصل بعالمه الخاص . فبالقياس إليه ، وهو الأنثويّ الكامل ، والأجدر بالثناء ، والذي لا يشق له غبار ، تُختزل كل الأحداث لتقتصر على الشعور وحده ، الشعور الذي يخبره ويعانيه من مسيرة العالم الفرد ستندال - بيل ، الفريد الذي لا يمكن الإتيان بمثله مرة أخرى . وربما لم يعيش قطّ فنانٌ من أجل أناه ولا عاش حياة أكثر مثابرة وأكثر تطرفاً وتعصباً منه ، ولم يطور فنان أناه إلى « أنا - خاصة » بصورة أكثر فنية من هذا اللاتي والأنثويّ المعتد بنفسه .

ولكن هذا الانغلاق الغيور ، هذا الإيصاد الحريص ، والانسداد السحري ، يعدّ هو ذاته الذي ظل جوهر ستندال محفوظاً لنا به على هذا النحو ، دونما انتقاص أو اختلاط ، بنكهته الطبيعية الخاصة ففي ذلك الذي لم يتأون بصيغة عصره نستطيع أن نلاحظ الإنسان في صورته المتعالية، الفرد الخالد، في نسخة نادرة ودقيقة ، متحرراً تحراً كاملاً على نحو ممتاز من الوجهة النفسية . وبالفعل فمامن عمل أو شخصية حافظاً على نفسيهما ، في كل قرنيه الفرنسي ، بهذا القدر من النضارة في الشكل ، وبهذا القدر من الجدة ، دونما تغيير . ولأنه كان يدرأ عن نفسه الزمن فإن أعماله تحدث أثراً متحرراً من الزمان ، ولأنه لم يعيش إلا حياته الأكثر داخلية فهو يحدث أثراً على هذا الجانب من الحيوية . فكلمة عاش امرؤ عصره ازداد موتاً معه ، وكلمة ازداد المرء احتفاظاً بما في كيانه الحقيقي ازداد ما يظل منه باقياً .

الفن

في الحقيقة أنا لست بأقل من متيقن
من امتلاكي بعض الموهبة التي تجعلني على
القراءة . وأنا أجد في بعض الأحيان كثيراً
من المتعة في الكتابة . وهذا كل شيء .

ستندال إلى بلزالك

ما من شيء يَهَبُّ له ستندال نفسه ، وهو أكثر المحافظين على
ذواتهم في الأدب غيراً ، بصورة كاملة ، لا لإنسان ، ولا لمهنة ،
ولا لمنصب . وحينما ينشئ كتباً وروايات وأقاصيص ومؤلفات في علم
النفس ، فانما يسجل نفسه وحدها في هذه الكتب : فهذا الهوى أيضاً
يخدم متعته الخاصة على سبيل الحصر . وذلك أن ستندال ، الذي يفخر
في ذكرياته بأن أعظم عمل في حياته أنه «لم يأت قط عملاً لا يمتعه» ،
لم يكن فناناً على وجه الدقة إلاً بمقدار ما كانت هذه المهنة تقدم له حافزاً ،
وهو لا يخدم الفن إلاً بمقدار ما يخدم الفن غرضه الأخير : *diletto* :
متعته ، سروره ، متعته الذاتية . وإدأ فقد يخطيء خطأ فادحاً كل
أولئك الذين يلتزمون لدى ستندال نفسه تناولاً جدياً لفنه ، لأنه كان
قد أصبح في تلك الأثناء أديباً له شأنه : يا إلهي ، وأنّى يتهيأ لهذا
المتعصب للاستقلال أن يستسلم ، يُعَبَّدَ واحداً من الأسرة الأدبية ،
أديباً محترفاً ، على أن منفذ وصية ستندال لم ينقش هذا التقييم الأدبي

المبالغ فيه ، في الحجر ، إلا بعناد كامل وتحريف متعمد لإرادة ستندال الأخيرة . فهو يحضر في المرور « عشت Visse ، أحببت am'o ، كتبت Scriisse » على حين كانت النوصية تقوم على تسلسل آخر بصراحة : « أحببت am'o ، كتبت Scriisse ، عشت Visse » . ذلك لأن ستندال الوفي لمبدئه المفضل أراد بهذا التسلسل أن يكون معلوماً إلى الأبد أنه قدّم الحياة على الكتابة ، فقد كان الاستمتاع يبدو له أهم من الإبداع ، ولم تكن صناعة الكتابة كلها شيئاً سوى مهمة تكميلية مسلية من أجل تفتح ذاته ، فهي وسيلة ما ، من الوسائل الكثيرة الباعثة للنشاط في وجه الملل . وإن المرء ليس في المعرفة به إذا لم يعرف : أن الأدب لم يكن عند هذا المستمتع المغرم بالحياة إلا شكلاً عارضاً من أشكال التعبير عن شخصيته ، ولم يكن شكلاً حاسماً بحال من الأحوال .

ولا ريب أنه قد أراد ، وهو إنسان شاب ، وقد وصل باريس منذ عهد قريب ، جامداً جموداً مثالياً ، أن يغدو ذات مرة أديباً أيضاً ، أديباً مشهوراً بالطبع . ولكن أيّ فتي في السابعة عشرة لا يريد ذلك ؟ فهو ينحت في تلك الأيام بضعة مقالات فلسفية ، ويكتب في مسرحية هزلية شعرية لم تكتمل أبداً ، ثم ينسى الأدب نسياناً كاملاً طوال أربعة عشر عاماً ، فهو جالس على صهوة الحصان أو إلى المكتب ، وهو يتنزّه في الشوارع المشجرة ، ويغازل النساء المحبوبات عبثاً على نحو كتيب ، ويعنى بالرسم الزيتي والموسيقا عناية أكبر بكثير من عنايته بالكتابة . وفي عام ١٨١٤ ، في لحظة شح المال ، حين يستاء لاضطراره إلى بيع خيوله ، يلفتق على عجل ، وباسم غريب ، كتاب « حياة هايدن » ، أو يسرق ، بالأحرى ، النص بوقاحة من مؤلفه الايطالي كارباني المسكين الذي

يضج ويجار بالشكوى من هذا السيد المجهول بومبيه الذي يرى أنه قد تعرض للنهب من قبله فجأة إلى هذا الحد . ثم يعيد كتابة تاريخ للرسم الزيتي الإيطالي بطريقة التجميع ، بالطريقة ذاتها ، من كتب أخرى ، نائراً فيما بين الفصول بعض النوادر ، وهو يرتجل بضعة كتب ، فهو يتخذ اليوم صورة مؤرخ الفن ، وغداً صفة الباحث في الاقتصاد القومي (« مؤامرة ضد الصناعيين ») وبعد غدٍ صفة الباحث في جماليات الأدب « راسين وشكسبير » (أو عالم النفس) « في الحب » . (وسرعان ما يتبين له عند هذه المحاولات التي جاءت بطريق المصادفة ، أن الكتابة ليست صعبة على الإطلاق ، فحين يكون المرء على جانب من الذكاء ، وتنطلق الأفكار برشاقة على شفتيه ، فليس هناك في الحقيقة إلا فرق ضئيل بين الكتابة والحديث ، على أن الفرق يغدو أقل بين الحديث والإملاء (ذلك لأن استدال لا يبالى بالصياغة حتى إنه يبلغ من ذلك أنه إمّا أن يكتب بقلم الرصاص في مثل نكت الدجاج ، وإمّا أن يملئه بغير عناء على نحو أكثر توائماً) — وإذا فهو يشعر بالأدب ، على أحسن الأحوال ، وسيلة ظريفة لتسلية رجل غريب الأطوار . بل إن كونه لا يشعر قط أنه مضطر إلى إظهار اسمه الحقيقي ، هنري بيل ، على آثاره ، يدلّ دلالة كافية على لا مبالائه تجاه كل طموح .

على أنه لا يقبل على العمل إقبالاً أشدّ إلا في عامه الأربعين . فلماذا ؟ لأنه غداً أكثر طموحاً ، وأكثر حماسة ، وأكثر ولوعاً بالنس ؟ كلا ، على الإطلاق ، بل لمجرد أنه يغدو عندئذ أكثر بدانة ، ولأنه يصيب — ويا للأسف ! — نُجْحاً أقلّ لدى النساء ، ويشجّ ماله إلى حد كبير ، ويتسع لديه الوقت الزائد ، الوقت الذي لا يمكن مآؤه ، إلى حد كبير ، وعلى وجه الإجمال ، لأنه يحتاج إلى البدائل : « يدفع عن

نفسه السأم «(١)». فمثلما يحل الشعر المستعار محل الشعر الكثيف الأشعث بالأمس ، تحل الرواية الآن محل الحياة عند ستندال ، فهو يستعويض عن تناقص المغامرات الواقعية بأحلام مصنوعة شتى ، بل انه يجد الكتابة في آخر الأمر مسلية ، ويجد نفسه فديماً لنفسه أكثر إمتاعاً وأخصب فكراً من كل أولئك الثرثارين في الصالونات . أجل ، ان كتابة الروايات هي بالفعل متعة سارة جداً ونظيفة ونبيلة على ألا يأخذها المرء مأخذ الجدل أكثر مما ينبغي ، وألا يكدر باله بالجهد والطموح شأن هؤلاء الأدباء الباريسيّين ، كما أنها جديرة بامرء أناثويّ ، إذ إنها لعبة ذهنية أنيقة غير ملزمة يجد فيها الرجل الطاعن في السن جاذبية تزداد شيئاً فشيئاً . على أن المسألة لا تقتضي بعد ذلك جهداً بالغاً ، فهو يدي رواية في ثلاثة أشهر ، من دون مسودّة ، على أي ناسخ رخيص ، أي أنه لا يضيع كثيراً من الجهد والوقت . وهو يستطيع فوق ذلك أن يستمتع بالتهكّم على أعدائه بطريقة خفية ، وأن يسخر من وضاعة العالم ، وهو يستطيع أن ييوح بأدقّ خلجات نفسه من وراء قناع ، من دون أن يُفصح عن نفسه ، وذلك بأن يدفع بها صوب فتیان أغراب . وفي وسع المرء أن يكون متحمساً من دون أن يفضح نفسه ، وأن يحلم وهو طاعن في السن كما يحلم الفتیان من دون أن يتولاه الخجل من نفسه . وعلى هذا النحو يتحوّل إبداع ستندال إلى استمتاع ، ويتحوّل شيئاً فشيئاً إلى أكثر ضروب الافتتان بالذات خصوصيّة وخفاء عند المستمتع الخبير . غير أن ستندال لم يخامر قط إحساس بأنه يصنع فناً عظيماً أو تاريخاً أدبياً على الإطلاق . وهو يعترف لبلازك بصراحة : « لقد كنت أتحدث عن أشياء كنت

(١) في الأصل بالفرنسية « Pour se désennuyer » .

أُهِمَّ بها ، ولم أفكر قط بفن كتابة الرواية . فهو لا يفكر بالشكل ، ولا بالنقد ، ولا بالجمهور ، ولا بالصحف ، ولا بالخلود ، وإنما يفكر . من حيث هو أناتوي محض ، أثناء الكتابة ، في نفسه وفي متعته . وفي النهاية ، في وقت متأخر . كل التأخر ، في حواري الحمسين ، يقوم باكتشاف غريب : وهو أن المرء يستطيع حتى أن يكسب المال بالكتب ، وهذا ما يبعث فيه شعوراً بالارتياح : ذلك لأن المثل الأقصى عند هنري بيل يظل دائماً الوحدة والاستقلال .

ولاريب أن الكتب لا تصيب نجاحاً حقيقياً ، إذ أن معدة الجمهور لا تألف الغداء المحضّر على هذا النحو من الجفاف ، بلا دسم من زيت وعاطفة رقيقة ، ولابد له أن يدبّر لشخصياته الخاصة جمهوراً آخر ، في رجوع خلقيّ تماماً ، في قرن آخر ، نخبة هي « القليلة السعيدة » ، جيلاً من ١٨٩٠ أو ١٩٠٠ . غير أن اللامبالاة المعاصرة لا تكدر ستنادال على نحو بالغ الجحد : فهذه الكتب ليست في آخر الأمر إلا رسائل ، موجهة إليه ذاته . « مالي وللآخرين ؟ » . وإنما يكتب ستنادال لنفسه فحسب . لقد ابتكر الأبيقوريّ الشيخ لنفسه متعة جديدة أخيرة متناهية في رقتها : أن يكتب أو يملي على ضوء شمعتين ، على منضته الخشبية في الأعلى ، في حجرة السقيفة . وهذا الحوار اللدائي الحميم ، الداخليّ تماماً ، مع نفسه وأفكاره ، يندو في نهاية حياته أهمّ عنده من كل النساء والمباهج ، ومن مقهى (كافيه دي فوا) ، ومن المناقشات في الصالونات ، ومن الموسيقى ذاتها . فالمتعة في الوحدة ، والوحدة في المتعة ، مثاله هذا الأصيل ، والأول والأقدم ، هو ما يكتشفه ابن الحمسين لنفسه آخر الأمر في الفن .

ولأنها لمتعة متأخرة بلاريب ، قادمة مع حمرة شفق المساء ، وقد أهدت بها سحائب الاستسلام . ذلك لأن أدب ستندال يبدأ في وقت متأخر لا يتيح له أن يحدّد لحياته وجهة إبداعية ، بل ينهي موته البطيء ويضيف عليه الجوّ الموسيقي . ففي الثالثة والأربعين يبدأ ستندال روايته الأولى « الأحمر والأسود » (أما « أرمانس » الأسبق ، فلا تعد من رواياته بصورة جدية) وفي الخمسين يبدأ رواية « لوسيان لوفان » وفي الرابعة والخمسين يبدأ الثالثة « دير بارم » فثلاث روايات تستنفد إنجازها الأدبيّ ، ثلاث روايات ، إذا نظرنا إليها من المركز المحرّك لم تكن إلاّ واحدة ، ثلاث تنويعات للمعاناة الأولية الأصيلة ذاتها : وتلك هي التاريخ النفسي لشباب هنري بيل الذي لا يريد الطاعن في السن أن يدعه يموت ، بل يريد أن يجدده مرة بعد أخرى . ولقد كان من الممكن أن تحمل الروايات الثلاث جميعاً عنوان خلتفه ومزدرية فلووير : « التربية العاطفية » .

ذلك لأن كل هؤلاء الفتيان الثلاثة ، جوليان ، ابن الفلاح الذي تساء معاملته ، وفابريزور المركز المدلل ، ولوسيان لوفان ابن صاحب المصرف ، يدخلون بالمثالية اللاهية والجائحة ذاتها ، قرناً عَراه البرود ، وهم جميعاً متحمسون لنابليون ، للبطوليّ ، للعظيم ، للحرية ، وهم جميعاً يبحثون أول الأمر في فيض الشعور عن شكل أسمى وأدنى إلى التفكير وأكثر تحليفاً مما تتيحه الحياة الواقعية . والثلاثة جميعاً يحملون قلباً مرتبكاً ، بكراً ، مترعاً بالعاطفة المتحفظة تجاه النساء ، والثلاثة جميعاً يرتدون إلى اليقظة بقسوة عن طريق المعرفة الحاسمة ، وهي أنه لا بدّ للمرأة في وسط عالم صقيعيّ وعالم مناقض أن يوارى قلبه الحار ، وأن يتنكّر لحماسته . ويتحطّم تحفّزهم على تفاهة « الآخرين » وخوفهم

المدنيّ ، أولئك الأعداء الخالدون لستندال . ويتعلمون شيئاً فشيئاً فنونَ خصوصهم في المراوغةِ والبراعةِ في المكائد ، والحسابات الماكرة ، ويصبحون مكرين مخادعين محنّكين باردين . أو يصبحون ، على نحو أدعى إلى الأسف : أذكفاء ، يماثلون ستندال الشيخ في ذكاء حساباته وأثانيته ، إذ يغدون دبلوماسيين لاعمين ، وعباقر في مجال الأعمال ، وأساقفة أجلاء ، وجملّة القول إنهم يتوافقون مع الواقع ويتلاءمون معه بمجرد أن يشعروا شعوراً مؤلماً بأنهم مطرودون من مملكتهم النفسية الحقيقية ، من مملكة الشباب والمثالية النقيّة .

ومن أجل هؤلاء الفتيان الثلاثة ، أو بالأحرى من أجل الانسان الشاب الضائع الذي كان يتنفّس على نحو خفيّ ذات مرة في جوانحه ، من أجل أن يعاني « حياته في العشرين » وليعيش حياته ، فتى في العشرين مرة أخرى على نحو عاطفيّ ، كتب ابن الخمسين ، هنري بيل ، هذه الروايات . فهو من حيث كونه فكراً ذا دراية ، يتسم بالبرود والخبية ، يتحدث فيهنّ عن شباب قلبه ، وهو من حيث كونه عقلاً خبيراً بالفن يتسم بالوضوح ، يصف رومانسية البداية الخالدة . وعلى هذا النحو تحلّ الروايات بصورة رائعة التناقض الأصلي في كيانه ، فهنا يتم تشكيل فوضى الشباب النubile عن طريق صفاء الشيخوخة ، وينتهي نضال العمر عند ستندال بين الفكر والشعور ، بين الواقعية والرومانسية ، نهاية المنتصر في معارك ثلاث لا تنسى ، إذ تدوم كلٌّ منهن في ذاكرة البشرية مثلما تدوم مارينجو وواترلو واوسترلتر .

وهؤلاء الفتيان الثلاثة إخوة في الشعور على الرغم من اختلاف مصائرهم وأعراقهم وشخصياتهم . فقد أورثهم مبدعهم الجانب

الرومانسيّ في طبيعتهم ووهبه لهم ليطوّروه . وعلى النحو ذاته يعد الثلاثة المقابلون لهم واحداً ، فالكونت ميسكا ، وصاحب المصرف لوفان ، والكونت دي لامول ، هؤلاء جميعاً نسخ مكررة من بيل ، ولكنه بيل العقلانيّ المتبلور تماماً في الفكر ، الرجل الشيخ الذي اكتسب الدكاء ، والذي تحمد فيه شيئاً فشيئاً كل المثاليات وتسمحي بفعل أشعة رونتجن العقلانية . فهؤلاء النظراء (١) الثلاثة يسيّنون بصورة رمزيّة ما تفعله الحياة بالفتى آخر الأمر ، « وكيف أن هذا » المفرط في توتره وحماسته يتباه السأم ويستنير شيئاً فشيئاً « (هنري بيل عن حياته الخاصة) . لقد مات التحمّس البطولي ، والآن يحل التفوق الحزين في الأسلوب العمليّ والممارسة محل السيكر السحريّ ، ويحل ميل إلى العبث البارد محل العاطفة الأولى ، وهم يحكمون العالم ، إذ يحكم الكونت موسكا إمارةً ، والمصرفيّ لوفان البورصة ، والكونت دي لامول الدبلوماسية ، غير أنهم لا يحبّون المهرّجين الذين يتراقصون على حبالهم ، ويزدرون البشر لأنهم يعرفون جدارتهم بالثناء معرفة مكتسبة من موقع قريب جداً وبوضوح شديد . وما زال في وسعهم أن يتلمّسوا الجمال والبطولة ، ولكنه مجرد تلمّس ، وهم على استعداد أن يستبدلوا بكل ما حققوه من آمال ذلك الشوق الغامض المشوّش وغير البارِع ، شوق أيام الشباب الذي لا يظفر بطائل ويظل أبداً يحلم بكل شيء . ومثلما يقف انطونيو النبيل الدكي ذو المعرفة الباردة إلى جانب تاسو ، الأديب الشاب الملتهب ، يقف واقعيّ الحياة هؤلاء موقفاً وسطاً بين التعاون والتنازع بالعداء ، وموقفاً وسطاً بين الازدراء والحسد الذي يستكنّ مع ذلك

(١) جمع النظير

في أشد المواقع خفاءً ، تجاه الخصم الشاب ، مثلما يواجه الفكرُ الشعورَ ،
واليقظةُ الحلمَ .

وبين هذين القطبين الخالدين في مصير الرجال ، بين الشوق الصبيانيّ
المشوش ، إلى الجمال وبين إرادة القوة الواقعية المضمونة والمتفوقة على
نحو ساخر ، يدور العالم الستنداليّ . وتتصدى للفتيان الحجولين أولي
الرغبة المستعيرة نساء يحبسن شوقهم المذوي في وعاء رفّان ، ويهدئن
بموسيقا حنائهن الانحباس الغاضب لرغبتهم . وتفرغ تلك النسوة الرقيقات
لهيب مشاعرهم حتى تغدو نقيّة . فهؤلاء هن نساء ستندال اللواتي
يظلمن نبيلات حتى في عواطفهن ، مدام دي رينال ، ومام دي
شاستييه ودوقة سان سيفيرينا . ولكن لا تستطيع حتى التضحية المقدسة أن
تحفظ لأحبائهن نقاء النفس العذريّ ، ذلك لأن هؤلاء الشبان يدخلون
مع كل خطوة في الحياة في وحلّ الابتذال البشري بصورة أعمق .
وفي مواجهتهنّ ، في مواجهة عنصر النساء البطوليّ الذي يشدّ إلى
الأعلى ، ويوسع آفاق النفس بطريقة حلوة ، يقف هنا ، كعهده دائماً ،
الواقع المبتذل ، الجانب العمليّ العاميّ ، صعاليك المراوغين الصغار
الذين يتميزون بذكاء كذكاء الأفاعي ، وبرود كبرود الأفاعي ،
من الطامعين — من البشر إجمالاً ، كما يروق لستندال أن يراهم في
غضبه المنطوية على الأزدياء ، في مقابلة المتوسط . وبينما يجاو النساء
من وجهة نظر شبابه الرومانسية ، ويظل ، وهو رجل طاعن في السن ،
واقفاً بعد في هوى الحب ، يدفع في الوقت ذاته ، وبكل الغضب
المختزن ، برهط الأشقياء الأذنياء إلى الحدث ، وكأنما يدفعهم إلى
منصة المذبح . فهو يصوغ من الوحل والنار هؤلاء القضاء والمحامين

والوزراء الصغار ، وضباط المواكب الاستعراضية ، وثرثاري الصالونات . تلك النفوس الصغيرة المشغولة بالقليل والقال ، اللزجة والمتهاونة ، وكل فرد منها كالقنّدر . ولكن ههنا المصيبة الخالدة ! فكل هذه الأصفار تنتفخ مجتمعة في رتل ، متحوّلة إلى عدد ، ثم إلى عدد كبير ، ومثلما يحدث دائماً على وجه الأرض ، يُوفّقون في قمع الجانب المتسامي . وعلى هذا تُستبدّل ، ضمن أسلوبه الملحمي ، بالكتابة المأساوية للمتحمس الذي لا يرجى شفاؤه ، سخرية الخائب الأمل ، الطعنة كالحنجر . لقد وصف ستندال العالم الواقعي في رواياته بكراهية تعدل ما وصف به العالم الخيالي المثالي من اللهب الكامن في عاطفته ، فهو أستاذ في هذا الميدان وذاك ، ذو عالمين ، وهو راسخ القدم في الفكر والشعور .

على أن هذا بالذات هو ما يضيف على روايات ستندال جاذبيتها الخاصة ومكانتها ، وذلك أنها أعمال متأخرة ، شابة في الشعور ومتفوقة ذات دراية في المجال الفكري ، وذلك لأن المسافة وحدها هي التي تقدر على تفسير كل عاطفة وجماها تفسيراً إبداعياً « الرجل الذي يقوم بأعمال نقل العاطفة لا يميّز بين الملوّينات » (١) فالتأثر نفسه لا يحيط علماً في لحظة التأثير بلوينات إحساسه ، وربما استطاع أن يدع حالات وجّده تهم فيما لا ضفاف له بأسلوب الشعر الغنائي وبأسلوب النشيد ، غير أنه لا يستطيع أبداً أن يفسرها ويؤوّها تاويلاً ملحمياً . فالتحليل الصادق ، الملحمي ، يقتضي دائماً وضوح الرؤية ، وبرود الأعصاب

(١) في الأصل بالفرنسية

« Un homme dans les transports de la passion ne distingue pas les nuances »

والعقل اليقظ ، والتعالي عن العاطفة . وروايات ستندال تتمتع على نحو رائع بهذا الجانب الداخلي والخارجي في الوقت ذاته . فهنا ، عند الحدود بين تصاعد الرجولة واضمحلالها ، يصف الفنانُ الشعورَ وصف الخبير : فهو يتلمّس عاطفته وهو متأثر مرة أخرى ، غير أنه يفهمها عندئذ وهو مؤهّل لإعادة صياغتها من الداخل ورسم حدودها من الخارج . وهذا وحده يعني ، في رواية ستندال ، الدافع والمتعة المتناهية في العمق ، والمتمثلة في تأمل الجانب الداخلي من عاطفته التي يمثلها من جديد - وفي مقابل ذلك فإن الحدث الخارجي ، الروائي من الوجهة التقنية ، لا يعدّ عند الفنان إلا شيئاً ضئيلاً حقاً ، وهو يأتي عليه مُعْجَلاً مستهيناً وبأسلوب مرتجل إلى حد بعيد (وهو يعترف بذاته ، في نهاية فصل من الفصول أنه لم يعرف أبداً ما ينبغي أن يحدث في الفصل التالي) . فأعماله تستمد طاقتها الفنية وحركتها واختلاجه من مسار الأمواج الداخلية وحدها . وتُعدّ أجمل ما تكون حيث يلاحظ المرء أن هناك من شارك في الشعور بها من الوجهة النفسية وتعد لا مثيل لها حيث يسكب ستندال وجّله ونفسه المستكنّة في كلمات أعزائه وأفعاله ، وحيث يدع أناسه يعانون من صراعمهم الخاص . ويُعدّ وصف معركة واترلو في « دير بارم » اختصاراً عبقرياً على هذا النحو لسنوات شبابه الإيطالية كلها : فمثلما ارتحل هو ذاته إلى إيطاليا يرتحل بطله جولييان ملتحقاً بنابليون ليجد البطوليّ في ميادين المعارك . ولكن الواقع يظل بغير انقطاع ينتزع منه تصوراتهِ المثالية . فبدلاً من هجمات الفرسان الصاخبة يشهد الفوضى الحمقاء في المعركة الحديثة ، وبدلاً من الجيش العظيم يجد جمهرة من أجراء الحرب المتلاعنين الساخرين ، وبدلاً من الأبطال يجد الناس ، متوسطين على السواء ، من عامة الناس ، سواء أكانوا تحت الرداء

الملون أم كانوا تحت الرداء العادي . ومثل هذه اللحظات من الصحو هي الوحيدة التي تتعرض للإضاءة على نحو بارع ، فان الكيفية التي يتعرض بها وجَد الروح مرة بعد أخرى للإحباط في كوننا الأرضي على يد الواقع الدقيق ، هذه الكيفية لم يصل بها فنان إلى حيدة أكثر كمالاً منه ، فحينما يضيف على شخصه من معاناته الأكثر خصوصية يغلو فنّاناً يتجاوز عقله الفني : « حين كان بغير انفعال كان بلا روح » .

ومع ذلك فمن الغريب أن ستندال الكاتب الروائي ، يريد أن يخفي هذا السرّ بالذات ، سرّ مشاركته الوجدانية ، بأيّ ثمن . فهو يستحي أن يدع قارئاً يطلع على مقدار ما يكشف هو من نفسه في هؤلاء الأشخاص المتخيلين ، جوليان ولوسيان وفايريزيوس ، بطريق المصادفة، ويكون في النهاية قارئاً ساخراً . ومن أجل ذلك يجعل ستندال نفسه في أعماله الروائية باردة كالحجر عن قصد ، فهو يتعمّد أن يكون أسلوبه بارداً كالصقيع : « أنا أبذل كل جهودي لأكون جافاً » فهو يؤثر أن يبدو قاسياً على أن يكون مُعَوِّلاً منتحياً ، وأن يكون بلا فنّ على أن يكون رقيق القلب ، ويؤثر المنطق على الغنائية ! وكذلك أذاع في العالم الكلمة التي لاكتها الأفواه في هذه الأثناء حتى القبيء ، وهي أنه يقرأ كل صباح قبل العمل كتاب القانون المدني ليعودّ نفسه قسراً على الأسلوب الجاف والموضوعي . على أن ستندال لم يكن يقصد بذلك أبداً أن يكون الجفاف مشكلاً له : إذ لم يكن يلتمس من وراء « حبه المبالغ فيه للمنطق » وشغفه بالوضوح إلاّ الأسلوب الذي لا يلفت النظر ، والذي يتلاشى كالبخار وراء الوصف : « يجب أن يكون الأسلوب كطلاء شفاف ، إذ يجب ألاّ يغيّر الألوان أو الوقائع والأفكار التي وُضِعَ عليها (١) » .

(١) في الأصل بالفرنسية

فلا ينبغي للكلمة أن تغطي بضروب الزخرف المصطنعة ، بالتزيق الموسيقي (١) « للأوبرا الإيطالية ، بل ينبغي لها ، على النقيض من ذلك ، أن تتواري وراء الموضوعي ، وينبغي أن تظل شيئاً لا يلفت النظر كحُلة سيد نبيل أحسنت خياطتها وألاّ تعبّر التعبير الواضح الدقيق إلاّ من خلال الحركة النفسيّة ، ذلك لأنّ الوضوح هو مدار اهتمام ستندال قبل كل شيء ، فغريزة الوضوح الغالبيّة (٢) عنده تكره كل شيء مطموس المعالم ، يغشّيه الضباب ، وكل شيء يتفجّر غليظاً ، ولاسيما تلك العاطفيّة القائمة على الاستمتاع الذاتي التي استوردتها جان جاك روسو إلى الأدب الفرنسي . فهو يريد الوضوح والحقيقة حتى في أكثر المشاعر اضطراباً وتشويشاً ، وأن يبلغ بالضوء إلى أكثر متاهات القلب توارياً وراء الظلال . والكتابة عنده تعني « التشرّيح » ! أي تحليل الإحساس المزدهم المتراكم إلى أجزائه ، وقياس الحرارة حسب درجاتها ، ومراقبة العاطفة مراقبة سريريّة كما يُراقب المرض . فانه لا يستمتع بأعماقه الخاصة على نحو رجوليّ حقّ إلاّ مَنْ يسبر أعماقه سبراً واضحاً ، ولا يعرف جمال شعوره الخاص إلاّ من يلاحظ ما يعرض له من بلبلّة واضطراب . وعلى هذا فليس هناك شيء يتمرّن عليه ستندال أحبّ إليه من الفضيلة الفارسيّة القديمة ، وهي أن يراجع في ذهنه اليقظان ما يبوّس به القلب في حالة الوجد ، في نشوة الحماسة : ومن حيث هو مع النفس خادماً الغارق في السعادة ، يظل بمنطقه في الوقت نفسه سيّد عاطفته .

التعرّف على قلبه ، وتصعيد سرّ العاطفيّة عن طريق العقل من خلال

(١) Fiorituri بالاطالية .

(٢) نسبة إلى بلاد الغال ، وهي فرنسا قبل العهد الروماني . « المترجم »

سبّر غورها : هذان هما قاعدة ستندال . ومثلما يحسّ هو يحسّ كذلك على وجه الدقّة أبنائوه المعنويّون ، أبطاله . فهؤلاء أيضاً لا يريدون أن يغرّهم الشعور عن أنفسهم ، بل يريدون أن ينصتوا إليه ، ويسبروا غوره ، ويحلّلوه ، إنهم لا يريدون أن يحسّوا بشعورهم فحسب ، بل يريدون في الوقت نفسه أن يفهموه ، وما يفتأون يختبرون أنفسهم غير واثقين ، أيكون انفعالهم حقيقياً أم زائفاً ، أم يكمن وراءه انفعال آخر ، أو يختفي إحساس أشد عمقاً . فعندما يحبّون يعملون في أثناء ذلك إلى وقف عجلة الموازنة ويراجعون العداد متسائلين عن الضغط في الأجواء التي يقفون فيها . ولا يفتأون يتساءلون : « أتراني غدت محباً لها ؟ أو ما زلت أحبها ؟ بم أشعر في هذا الاحساس ؟ ولماذا ما عدت أشعر ؟ أو يكون ميلي حقيقياً أم مفتعلاً ؟ أم تراني أقنع نفسي بها ، أم أمثل لنفسي شيئاً ما ؟ وتظل أيديهم على نبض احتياجاتهم ، وينتبهون على الفور إذا ما توقّف منحني حمّى الانفعال مقدار خفقة واحدة . وحتى في السرعة الجارفة إلى الحد الأقصى لتتابع الحدث ، تقاطع العبارة الخالدة : « فكّر في نفسه » ، « قال لنفسه » ، الجريانُ اللاهث للقصة ، وهم يبحثون ، كعلماء الطبيعة أو علماء وظائف الأعضاء ، عن تعليق ذهني على كل انقباض في عضلة وعلى كل اختلاجة في عصب . وأنا أختار هنا مثلاً على ذلك تصوير ذلك المشهد الغرامي المشهور من « الأحمر والأسود » ، لأبيّن كيف يدع ستندال شخصياته تنصرف بيقظة بالغة ، حاضرة الذهن واضحة الرؤية ، حتى في اللحظة المحمومة لاستسلام عذريّ ، اذ يغامر جوليان بحياته ليصعد في الساعة الواحدة ليلاً ، بسلم إلى جانب نافذة الأم المفتوحة ، إلى الآنسة دي لامول - وهذا فعل ينطوي على تقدير وحساب عاطفي دبره قلب رومانسي . غير أن كليهما يغدوان

في غمرة غرامهما عقلاً على الفور . « كان جوليان يشعر بالحرج الشديد ، ولم يكن يعرف كيف يتصرف ، ولم يكن يشعر بحب على الإطلاق . وقد حَسِبَ وهو في حرجه أنه يجب أن يكون جريئاً ، وحاول أن يعانقها ، فقالت : « يا للعار » ، ودفعته عنها ، وكان راضياً جداً بالصدء ، فأسرع إلى اللقاء نظرة حوالية . بهذا الوعي الذهني ، وبذلك الیقظة الباردة يفكر أبطال ستندال ، حتى في وسط أكثر مغامراتهم جرأة . وليقرأ المرء الآن استئناف المشهد ، وكيف تبدل الفتاة الفخورة في النهاية نفسها لأمين سرّ والدها « واقتضى الأمر ماتيلدا جهداً لكي تخاطبه مخاطبة الإلف الحميم ، وبما أن تلك المخاطبة تمت من دون رقّة فإنها لم تكن باعثة على السرور لدى جوليان ، وقرّر وهو متعجب أنه مازال لا يحسّ بشيء من السعادة ، ولكي يحظى بهذا الشعور لجأ أخيراً إلى التفكير : فرأى نفسه ممتعاً بخطوة لدى فتاة شابة ما كان ليثني عليها في غير هذه الحال من دون تحفظ . وبفضل هذا التفكير ظفر بسعادة نجمت عن الغرور الذي تم إرضاءه . وإذاً فهذا الشهواني الدماغي يغوي المحبوبة حباً رومانسياً بفضل « تفكير » ، وبفضل « اتخاذ قرار » ، بدون رقّة على الإطلاق ، وبدون أي اندفاع حارّ . وهي بدورها تقول بعد ذلك مباشرة بالحرف : « لا ريب أن عليّ أن أتحدث إليه ، فهذا ما تقتضيه الأصول » ، والناس يتحدثون إلى أحبائهم . « فهل خطب ودّ امرأة قط بمثل هذا المزاج ؟ وهل يجب على المرء ههنا أن يتساءل مع شكسبير ، هل تجرّأ كاتب قط قبل ستندال على أن يدع الناس في لحظة إغواء يتحكمون في أنفسهم ويفكرون ويقدرّون بأنفسهم بهذا القدر من البرود ، وهم بعدُ

أناس ليسوا على الإطلاق من أولى الطبيعة الحاملة ، شأهم في ذلك شأن كل الشخصيات الستندالية ؟ غير أننا نقرب هنا من التقنية الأعمق في فن التصوير النفسيّ عنده ، ذلك الفن الذي يحلّل حتى الحماسة في درجة حرارتها ، ويُشرّح الشعور في نبضاته . ولا يتأمّل ستندال قطّ عاطفة بالجملة ، بل يتأمّلها دائماً في تفاصيلها ، ويتابع تبلورها من خلال العدسة ، بل من خلال العدسة الزمنية . فما يجري في المجال الواقعي في صورة حركة اندفاعية تشنجيّة وحيدة يحلّله فكره العبقرى التحليلي إلى جزئيات زمنية كثيرة لا متناهية ، وهو يبسط أمام نظرنا الحركة النفسية بطريقة فنية لجعلها أقرب إلينا متناولاً من الوجهة الفكرية . وإذا فالحديث الروائي عند ستندال يدور (وهذه جِدّته) ، على سبيل الحصر ، ضمن الزمن النفسي لا ضمن الزمن الأرضي . وبه يتجه الفن الملحمي للمرأة الأولى (وهذا يتضمن استشعاراً مسبقاً بتطور ما) إلى تسليط الضوء على التصرفات الوظيفية اللاشعورية . ورواية « الأحمر والأسود » تدشّن « الرواية التجريبية » التي تؤاخي فيما بعد بين علم النفس والأدب على نحو حاسم . وتذكر بعض الفقرات في روايات ستندال بالفعل بحالة التيقّظ في مختبر ، أو بالبرود في حجرة مدرسية . ولكن الشغف الجنوني الحارّ بالفن عند ستندال يماثل مع ذلك بالضبط في ابداعه ما هو عند بلزاك ، إلاّ أنّه يمنح إلى المنطقيّ ، إلى ولع بالوضوح متعصّب ، إلى ارادة وضوح الرؤية النفسية . وليس تشكيل العالم عنده إلاّ طريقاً التفافياً إلى إدراك النفس . ففي الكون الهادر بأسره لا يتعلّق فضوله بشيء سوى البشرية ، ولا يمسك من البشرية ، دائماً أبداً ، إلاّ الانسان الوحيد الذي يستعصي عليه استقصاؤه ، العالم الصغير ستندال . ولستبر غور هذا الواحد

أصبح أديباً ، كما أصبح مصوراً لمجرد أن يصوره . وعلى الرغم من أن ستندال يعدّ بعقريته واحداً من أكثر الفنانين كمالاته لم يخدم الفن بشخصه قط ، وإنما يستخذه على أنه مجرد أداة هي أكثر الأدوات إرهافاً ولصوقاً بالفكر ، لقياس ذبذبات النفس وتحويلها إلى موسيقا . ولم يكن الفن قط هدفاً عنده ، بل كان دائماً مجرد طريق إلى هدفه الوحيد لخالد : إلى اكتشاف الأنا ، وإلى متعة التعرف على ذاته .

* * *

المتعة النفسية

إنما كان هواي الحق هو المعرفة
والاعتبار . ولم يتحقق له إشباع قط .

ويتقدم ذات مرة مواطن طيّب ، في مجلس ستندال ، ويسأل
السيد الغريب بروح الأدب والمؤانسة ، عن مهنته . وإذا ابتسامة مأكرة
ترفّ كالطيف حول القم الساخر ، وتلتمع العينان الصغيرتان بكبرياء
وقمحة ، ويحيب بتواضع مصطنع : « أنا مراقب القلب البشري » .
وكانت سخرية بلاريب ، غمز بها مواطناً مندهشاً بدافع متعة المخادعة ،
ولكن ما من شك في أن هذه المعابثة الترموية يخالطها قدر غير يسير
من صدق الطويّة . ذلك لأن ستندال لم يمارس طوال حياته شيئاً هادفاً ،
ووفقاً لمخطط مرسوم ، مثل مراقبة الوقائع النفسية .

لقد عرف ستندال متعة علماء النفس السحرية كما لم يعرفها إلاّ
القلائل : « المتعة النفسية (١) » ، وانغمس هذا المفكر المهووس بالإستمتاع
فيها انغماساً يكاد يكون متهتكاً ، ولكن ما أبلغ انتشاءه الرهيف بأسرار
القلب ! وما أشدّ خفة فنه في علم النفس وما أشدّ ما يرتفع بالقلب !
فمن أعصاب ذكية فحسب ، من حواسّ رقيقة السمع واضحة البصر

Voluptas psychologica (١)

يدفع الفضول هنا بلّواميسه ، ويمتصّ النخاعَ الفكريّ الحلوَ باشتهاء
 بارع من الأشياء الحيّة . ولا يحتاج هذا الذهن المرن إلى أن يلمس شيئاً
 لمس اليد ، ولا يضغط قطّ الظواهر بعضها على بعض بصورة قسرية
 فيحطم عظامها ليَجبرها في فراش بروكرستيز (١) العائد إلى نظام ما ،
 وإنما تمتاز تحليلات ستندال بما في الاكتشافات من مفاجأة وسعادة ،
 وما في اللقاءات التي تتم مصادفة من عذوبة وبهجة ، على أن متعة القنص
 الرجولية ، النبيلة عنده ، أكثر كبرياءً من أن تطارد ضروب المعرفة وهي
 جانية تنضج غرقاً ، وأن تنهكها بالمطاردة بسياط الحجاج وكلاهما حتى
 الموت ، فهو يمتك العمل اليسوي الذي لا يحفز الشهية ، وتفريغ الحقائق
 من أحشائها ، والتفتيق في أحشائها كفعل الكهنة ، ولا يحتاج لإحساسه
 المرهف قط ، لإحساسه المستقر في رؤوس أنامله ، بالقيم الجمالية ،
 إلى القبضة الفظة المنهومة . فخلاصة الأشياء ، والنفحة السابجة في
 الهواء من جوهرها ، والإشعاع الفكري الصادر عنها في مثل خفة الأثير ،
 كل أولئك يَبوح لهذا العبقريّ في الذوق بوحاً كاملاً بمعناه وسر معدنيه
 الصمميّ ، ومن أدقّ الخلدات يتعرّف على شعور ، ومن النادرة على
 التاريخ ، ومن القول المأثور على إنسان ، ويكفيه أشد الأشياء ضآلة ،
 والتفصيل الذي لا يكاد يُدرّك ، الصورة المصغّرة ، إحساس يبلغ
 مقدار أضغر الورنيقات في ذؤابة النبات ، وهو يعلم أن هذه الملاحظات
 التي تتعلّق بأدقّ الأشياء « بالوقائع الصغيرة الحقيقية » تعدّ هي الحاسمة
 في علم النفس : « ما من أصالة ولا حقيقة إلا في التفاصيل » ، وذلك
 ما يقوله بطله لوفان المصرفيّ ، على أن ستندال نفسه يمجّد بفخر منهج

(١) لص اغريقي غراتي كان يمدد ضحاياه على فراشه ويقطع منها مازاد على مساحة

الفراش .

عصر « يجب التفاصيل ، وهو على حق » وهو يترقب باحساسه الداخلي سلفاً القرن التالي مباشرة ، القرن الذي لن يقبل أن يمارس علم النفس بالفرضيات الفارغة الثقيلة ، بل سيعسب الجسد من خلال الحقائق المبنية على الجزئيات المتصلة بالخلية والجرثومة ، وسيعسب ضروب الحلة النفسية من خلال التنصت الدقيق ، ومن خلال الذبذبات واهتزازات الأعصاب ، وحين كان خلفاء كانط ، حين كان شيلينغ ، وهيجل ، وسائر هؤلاء على الإجمال ، ما يزالون يسحرون الكون كله على منصات التدريس ، بأسلوب اللعب بالجيوب ، تحت قبعاتهم الجامعية ، كان هذا الوحيد يعرف منذ ذلك الوقت ، أن عصر بوارج الفلاسفة ذوات الأبراج العالية ، عصر النظم العملاقة ، قد ولّى نهائياً ، وأنه لا يسيطر على محيط الفكر إلاّ طوربيدات الملاحظات الصغيرة التي تسلسل كالعواصم . ولكن ما أشدّ الوحدة التي يمارس بها فنّ الجسد هذا الذكيّ في وسط الخبراء ذوي النظرة الأحادية والأدباء المعتزلين ! وما أشدّ تفرّده في وقفته ، واستباقه لهم جميعاً ، وهم أولئك الباحثون الأمعاء في النفس ، أصحاب المدارس ذات السلطان في تلك الأيام ، وكيف يتقدّم عليهم لأنه لا يجرّ معه ، على عاتقه ، بنياناً من الفرضيات المروسة في إحكام كامل — « أنا لا أستعجن ولا أستعس ، وإنما ألاحظ » — بل يمارس المعرفة لعباً ورياضة ، إمتاعاً لنفسه ، شأنّ العارفين ! وهو لا يحب ، مثل نوفاليس (١) ، أخيه في الفكر ، الذي يماثله في إثارة الروح الأدبية على كل فلسفة ، إلا « غبار طلّح » المعرفة ، هذه الأبواغ (٢) التي تسفيها الرياح إليه بطريق المصادفة ، غير أنها مخضلة

(١) Novalis رائد الحركة الرومانسية في الأدب الألماني .

(٢) ذرات اللقاح التي يتشكل منها غبار الطلع في أزهار النبات « المترجم »

بالمعنى الأعمق لكل ما هو عضويّ ، كما تنطوي فيها ، بطريق الافتراض ، النظم الضاربة بجذورها إلى مدى بعيد ، وهي في طور التبرعم . وتظل ملاحظة ستندال مقتصرة على التغيرات الضئيلة التي لا تُدرَك إلاّ بالمجهر ، على الثانية المقتضبة للتبلور الأول للشعور . فهناك فحسب يشعر بتلك الساعة التي تُزَفُّ فيها الروح إلى الجسد ، شعوراً قريباً من الحياة ، وهي الساعة التي يسميها الفلاسفة المدرسيون متغطرسين « لغز العالم » : فهو يجلس في الحلد الأدنى من الإحساس الحلد الأقصى من الحقيقة . وعلى هذا النحو يبدو علم النفس عنده باديء ذي بدء وشيئاً فكرياً ، وفناً للأشياء الصغيرة ، ولعباً بضروب من الأشياء اللطيفة ، غير أنه ينطوي على قناعة لا تتزعزع (وهي على صواب) ومفادها أن أكثر الأحاسيس الدقيقة ضآلة تتيح نظرة في عالم الدوافع والغرائز أكثر أهمية من أية نظرية . « فقابلية القلب للإحساس أقل من قابليته للفهم (١) » وليس لعلم النفس مدخل آمن آخر إلى ذلك الظلام سوى هذه الأحاسيس المنعكسة بطريق المصادفة . « ليس هناك من حقيقي على وجه اليقين سوى الأحاسيس » . وعلى ذلك يكفي أن يلاحظ المرء بانتباه خمس أفكار إلى ست طوال حياته « وحينئذ تلوح له قوانين ، ونظام يعني إدراكهما أو مجرد حدسهما المتعة والحامسة في كل علم نفس أصيل - غير أن هذا لا يحدث قطّ على نحو ديكتاتوري ، بل بصورة فردية فحسب .

وقد أنجز ستندال ملاحظات لا حصر لها من أمثال تلك الملاحظات الصغيرة المفيدة ، وهي اكتشافات مقتضبة فريدة ، أصبح بعضها منذ

« المترجم »

(١) في الأصل بالفرنسية :

Le cœur se fait moins sentir que comprendre

ذلك الوقت بدّهيًا ، بل أساسيًا من أجل كل تحليل نفسي فني . غير أن ستندال لا يقيّم اكتشافاته هذه بنفسه قطّ ، بل يطرح الأفكار التي تلوح له كالبرق على الورق باسترخاء من دون أن ينسّقها أو يرتبها وفقًا لمنهج معين على الإطلاق : ويستطيع المرء أن يجد هذه النوى القادرة على الإنمار متناثرة في رسائله ويوميّاته ورواياته ، وقد اطمأنت إلى مصادفة العثور عليها غير مبالية . ويتألف عمله النفسيّ كله على الإجمال من عشر إلى عشرين اثني عشريةً من الأقوال المأثورة وفصول الروايات ، وقلّمًا يكتف نفسه عناء جمع بعضها حتى بالتجديد فحسب ، على أنه لا يؤلّف بينها بملاط ليجعل منها نظاماً حقيقياً ، ونظرية متكاملة . بل إن الدراسة العاطفية الوحيدة التي قدمها لنا بين دفتي كتاب ، تلك الدراسة عن الحب ، إنما هي خليط من الأجزاء المبعثرة ، والأقوال ، والنوادر . وعلى سبيل الحذر لا يسمي الدراسة « الحب » ، بل يسميها « في الحب (١) » ، وترجم على نحو أفضل بعنوان « حديث في الحب » . وعلى أقصى الحدود يرسم بضعة تمييزات أساسية ، ضعيفة الترابط ، منها عاطفة الحب ، والحب الصادر عن الاندفاع الحماسي ، والحب الجسدي ، والذوق في الحب ، أو يرسم مخططاً لنظرية مستعجلة لنشوته وانحلاله ، غير أنه لا يفعل ذلك في الواقع إلّا بقلم الرصاص (على النحو الذي تمت به كتابة الكتاب بالفعل) . وهو يقتصر على تلميحات وتكهّنات وفرضيات غير ملزمة يَجِدُهَا مع النوادر المسلية في ضفائر ، وهو يثرثر . ذلك لأن ستندال لم يكن يريد بحال من الأحوال أن يكون مفكراً عميق التفكير ، أو مفكراً ينتهي بالفكر إلى غايته ، أو مفكراً من أجل الآخرين ، وهو لا يحشّم نفسه مشقة متابعة ما يلقاه بطريق المصادفة

. De L'amour (١)

فهذا « الرحالة » اللامبالي يدع العمل الجاد المتناسك القائم على إمعان النظر وإحكام البنيان والتحليل ، في عالم أوروبا النفسي ، بشهامة دونما اكتراث ، للمساكين الملازمين لسرّهم . ولقد كتب بالفعل معظم الموضوعات العائدة إلى جيل فرنسي بأسره ولكن بتعبير آخر مختلف ، إذ كان يعرضها عرضاً تمهيدياً على نحو سليس . أما نظريته المشهورة حول التبلور في الحب (وهي التي تعقد مقارنة بين ثبوت الشعور وبين ظاهرة غصن رامودي سالزبورج ، ذلك الغصن المشبع منذ عهد طويل بالماء المالح ، والذي يشكل خلال ثانية من الزمان بلّورات مرئية على نحو مفاجئ) فينشأ عنها وحدها عشرات من الروايات القائمة على علم النفس ، كما استخرج تين من ملاحظته الواحدة التي وضع تحتها خطأ متقطعاً بصورة عابرة ، والمتعلقة بأثر العرق والبيئة على الفنان ، فرضية ضخمة الجسد ثقيلة الأنفاس . أما ستندال نفسه فلا يستفزه علم النفس قط إلى ما يجاوز الفقرة المبتسرة ، والقول المأثور ، وهو في ذلك تلميذ أسلافه الفرنسيين ، باسكال وشامفور ولاروشفوكو وفوفينارج ، الذين كانوا ، مثله ، لا يضغطون قطّ نظراتهم في حقيقة كبيرة مستقرة على قاعدة عريضة تقديرأ منهم للجوهر المجنّح لكل حقيقة ، وإنّما ينفض معارفه عن نفسه كيفما اتفق ، سواء أكانت ملائمة للناس أم لم تكن ملائمة لهم ، وسواء أكانت تعدّ اليوم حقيقة أم لا تعدّ كذلك إلاّ بعد مائة عام ، ولا يبالي أسبقه أحد إلى كتابتها من قبل أم سينقلها عنه آخرون ، فهو يفكر ويلاحظ بمثل السهولة والعفوية اللتين بهما يتنفس ويتحدث ويكتب . أمّا التماس التابعين فلم يكن قط شأن هذا الفكر الحر ولا ديدنه ، وحسبه من السعادة أن ينظر فيزداد نظره عمقاً أبداً ، وأن يفكر فيزداد تفكيره وضوحاً أبداً .

وهو مثل نيتشه ، لا يمتاز بشجاعة التفكير المستحسنة فحسب ، بل يمتاز ، من حين إلى آخر ، بالكبرياء الفكرية الساحره أيضاً ، وهو على جانب من القوة والجرأة يكفيه ليعبث بالحقيقة ، وليحبّ المعرفة بشهوانية تكاد تكون شهوانية جسدية . وما أكثر ما يزد هذا الفكر ويتألاً ، مُرغياً خفياً ، بما فيه من شعور متفجّر بالحياة ، ومع ذلك تظل هذه الأقوال الماثورة المفردة قطرات حرة منفصلة من تراثه النفسي ، تناثرت بطريق المصادفة على الحافة ، على أن غنى ستندال الأكثر أصالة يظل دائماً مختزناً في الداخل ، بارداً ونازلاً في الوقت ذاته ، في كأس مصقول لا يحطّمه إلا الموت . غير أن هذه القطرات المجزأة ذاتها تمتاز بما يمتاز به الفكري من طاقة الإسكار المشرقة الباعثة على التحليق ، فهي تنعش نبضة القلب الحاملة كالشمبانيا الجيدة وتضفي العذوبة على بلادة الإحساس بالحياة . وليس علم النفس عنده هندسة صادرة عن مخ أحسن تدريبه ، بل هو خلاصة مركزة لحياة ، وهذا ما يجعل حقائقه بالغة في الصدق ونظراته بالغة في الوضوح ، ومعارفه صحيحة على الصعيد العالمي ، وقبل كل شيء فريدة وباقية على الزمن في الوقت ذاته — ذلك لأنه ما من اجتهد فكري يقلد في أي وقت من الأوقات على أن يدرك الحيّ بكامل معناه إلى هذا الحد مثل تلك الشجاعة الفكرية التي تتميز بها طبيعة مستقلة . وإنما تعد الأفكار والنظريات دائماً ، شأن الظلال في عالم هومير السفلي ، مجرد أنماط مستقلة منفصلة ، وظلّ انعكاسي لا شكل له ، وهذه الأنماط والظلال لا تكتسب صوتاً وشكلاً وتقدر على مخاطبة الانسانية إلا حين تكون قد أشربت بدم إنسان .

تصوير الذات

ماذا كنت ، وما عساي أكون ؟
اني ليخرجني أن أفصح عن ذلك .

على أن ستنال لم يتخذ من أجل براعته المدهشة في تصوير الذات
أستاذاً آخر سوى نفسه ذاتها . فهو يقول ذات مرة : « من أجل معرفة
الإنسان يكفي أن يدرس المرء نفسه ذاتها : ومن أجل معرفة الناس
لابد للمرء أن يعاملهم » ويضيف على الفور أنه لا يعرف الناس إلا
من الكتب ، وأن كل دراساته قد تناول بها نفسه وحدها ، فهو يوجهها
دائماً لترتد على نفسه وحدها ، ولكن المدى الكامل للنفس البشرية
متضمن في هذا الطريق الذي يدور حول فرد .

أما المنهج الدراسي الأول في مراقبة الذات فيمنعجه ستنال في
طفولته . فحين تنولت عنه أمه التي ماتت في وقت مبكر ، والي أحبها
حباً جارفاً ، لا يرى حوالبه إلا ما هو عدائي وغريب من الوجهة
الفكرية ، ويضطر إلى إنكار ذاته وإخفائها حتى لا تلفت نظر أحد ،
ويتعلم في وقت مبكر ، بهذا التنكر الدائم ، « فن العبيد » في الكذب .
فحين يُحشّر في الزاوية يستغل وقت استيائه ونقمته للتنصت على الأب
والعمة والأستاذ وكل معذبيه وحاكميه ، وتصقل الكراهية نظراته
فتبلغ بها حلة لاذعة ، ويغدو ذا دراية في منطق علم النفس قبل أن

يكون ذا دراية في دراسته للعالم ودراسته الموضوعية ، عن طريق المقاومة
التي تلجئه الحاجة إليها ، وعن طريق القسر الصادر عما يتعرض له
من إساءة الفهم .

أما المنهاج الدراسي الثاني لذلك المثقف ثقافة سابقة لأوانها على نحو
بالغ الخطورة فيستغرق زمناً أطول ، بل يستغرق في الحقيقة حياته
بأسرها : وذلك هو الحب . فالنساء يصبحن مدرسته العليا . والناس
يعرفون منذ عهد طويل — وهو نفسه لا ينكر الواقعة الكثيرة — أن
ستندال لم يكن بطلاً في ميدان الحب ، ولا غازياً ، وكان أبعد ما يكون
عن الدون جوان الذي كان يحلو له في العادة أن يتنكر في زيّه .
ويروي ميريجه أنه لم ير ستندال قط في صورة أخرى سوى صورة
العاشق ، وكان مما يؤسف له أنه كان دائماً عاشقاً تقيساً . « كان موقفي
العام موقف المحبّ البائس » وهو يضطر إلى الاعتراف بقوله : « لقد
كنت أشقى بالحب شقاءً يكاد يكون دائماً » بل يضطر كذلك إلى
الاعتراف « بأنه قلّ من ضباط الجيش النابليوني من أصاب من النساء
عدداً قليلاً مثله » . وقد أورثه مع ذلك أبوه العريض المنكبين وأمه ذات
الدم الحار شهوانية شديدة الإلحاح : « طبعاً نارياً » . ولكن على الرغم
من أن طبع ستندال يختبر كل واحدة بصبر نافذ ليرى أهى « ممكنة
النوال » بالقياس إليه ، فقد ظل عمراً من الزمان فارس حب ذا شخصية
بالغة الكتابة . فهذا المستمتع النموذجي بالمتعة المستبقة يتفوق ، وهو
بعيد عن مرمى النيران ، باستراتيجيته الشهوانية ، (حين ينأى عنها
يغدو جريئاً ويقسم على الإقدام على كل شيء) وهو يدون في يومياته
مقدراً بدقة حتى الساعة التي سيرُدي فيها ربّته الراهنة (« أنا خليق

أن أنالها بعد يومين ») . ولكن الكازانوف المدعي ما يكاد يدنو منها حتى يتحول على الفور إلى طالب ثانوي خجول ، وتنتهي الهبة الأولى للعاصفة في العادة (وهو نفسه يعترف بذلك) بجمود داخلي للرجل أمام المرأة السليسة القياد . فهو يغلو « رعدبداً ومحبولاً » حين يفترض أن ينشط للمغازلة والمعاينة ، ويغلو ساخرأ حين يجدر به أن يكون رقيقاً ، وعاطفياً رقيقاً في لحظة الهجوم ، وجملة القول إنه يفوت أجمل الفرص ويضيعها بالحسابات وضروب الإحجام . وكذلك فإن هذا الرومانسي المتجانس لعصره يعمد ، مرة أخرى ، بدافع الحرج ، وبدافع الخوف من أن يبدو عاطفياً رقيقاً ، وأن « يكون مغفلاً » ، إلى إخفاء رقيقته تحت ستار الفروسية المتمثلة في الخشونة القظة الصاخبة والصراحة القوزاقية . ومن هنا جاءت حالات « إخفاقه » لدى النساء ، وهي التي تمثل هذا اليأس الخفي في حياته ، ذلك اليأس الذي جهر به الأصدقاء آخر الأمر . وليس هناك شيء كان ستندال يتوق إليه طوال حياته ، كل هذا التوق الشديد ، مثل انتصارات الحب الملموسة « لقد كان الحب دائماً بالقياس إليّ أعظم الشؤون ، أو بالأحرى ، الشأن الوحيد » . وهو لا يبدي مثل هذا القدر من الاحترام الحقيقي تجاه أحد ، لا تجاه فيلسوف ، ولا تجاه أديب ، بل ولا حتى تجاه نابليون ، كما يبديه لعمه جانبيون أو ابن عمه العسكري دارو ، اللذين أصابا عدداً لا يحصى من النساء من دون أن يستعملا أية وسائل فنية سواء أكانت ذات سمة فكرية أم ذات صلة بعلم النفس — أو ربما كان ذلك لانعدام تلك الوسائل ، ذلك لأن ستندال ينتهي شيئاً فشيئاً إلى ادراك مفاده أنه ما من شيء يعوق النجاح الإيجابي لدى النساء إلى حد كبير مثل أن يلزم المرأة نفسها بالاحساس الزاماً شديداً ، وهو يقنع نفسه آخر الأمر بقوله :

« ولا يحقق المرء نجاحاً لدى النساء إلاّ حين لا يبذل من الجهد من أجل نيلهن أكثر مما يبذل من أجل كسب جولة في لعبة البليارد ». « إن حساسيتي تبلغ حداً لا يمكن معه البتة أن تكون لي موهبة لوفليس (١) » ، ولم يفكر في مشكلة على مدى أطول وبصورة أكثر حداً مما فكر بهذه . وهو يدين بتشريجه الذاتي هذا العصبي القائم على سوء النظم ، والمنطلق من الشهواني ، بهذا بالذات يدين (ونحن معه) لنظرته الكاملة في شبكة أحاسيسه ذات الخيوط الأكثر دقة . فما من شيء ربّى فيه النزوع إلى علم النفس ، كما يروي هو ذاته ، بهذا القدر ، مثل حالات الإخفاق الغرامي ، والعدد الضئيل لغزواته (التي يحدّدها على الإجمال بست أو سبع) ولو أنه أصاب التوفيق في الحب كالآخرين لما ألبّاه الحاجة قط إلى التنصّت بهذه المثابرة على النفس النسائية وعلى أدق انبثاقها وألطفها . لقد تعلم ستندال اختبار نفسه عن طريق النساء ، وهنا أيضاً يعلم ضرباً من الانكفاء الملاحظ فيجعل منه خيراً كاملاً .

أمّا أن هذه المراقبة المنهجية للذات عند ستندال تؤدي بعد ذلك ، بصورة مبكرة خلافاً للمألوف ، إلى تصوير الذات ، فذلك أمر له سبب آخر خاص وغريب إلى أقصى الحدود — وذلك أنه كان استندال ذاكرة رديئة — أو بتعبير أفضل ، ذاكرة عنيدة جامحة جداً ، وهي على أية حال ذاكرة لا يُعتمد عليها ، ولذلك لا يطرح قلم الرصاص من يده أبداً ، فهو يدوّن ، ويدوّن بغير انقطاع ، على هامش ما يطالع ، وعلى

(١) Lovelace بطل رواية صمويل ريتشاردسن « كلاريسا هارلو » ويمثل نموذج الرجل المحبوب الرقيق غير أنه يعيش حياة اللامبالاة ويفتقر إلى الشخصية .
« المترجم »

أوراق حرة ، وعلى الرسائل ، وقبل كل شيء في يومياته . ويؤدي خوفه من أن ينسى أحداثاً هامة فينقطع بذلك استمرار حياته (هذا العمل الفني الوحيد الذي يعمل فيه بتخطيط ومثابرة) ، إلى أن يُشَبِّت دائماً ، وعلى الفور ، تحريراً ، كل سرّ . فهو يكتب على رسالة للكونتيسة كوريال رسالة غرام تمزّقها التهنيدات ، وتهزّ النفس ، وبموضوعة المسجّل الحجرية يكتب التاريخ الذي بدأت فيه علاقتهما والتاريخ الذي انتهت فيه ، ويدوّن متى وفي أي ساعة هزم أخيراً انجيلا بيتر اغروا . وفي كثير من الأحيان يخرج المرء بانطباع مؤداه أنه لا يبدأ بالتمكيز إلاّ والريشة في يده . ولهذا الجنون العصبي بالكتابة ندين آخر الأمر بستين أو سبعين مجلداً من تصوير الذات بكل المظاهر التي يمكن أن تخطر على البال ، من أدبية ، ورسائلية وفكاهية (ولم ينشر منها حتى اليوم إلاّ ما لا يكاد يبلغ النصف) . على أن ما حفظ لنا سيرة ستندال بهذا الكمال لم يكن في الحقيقة دافع الاعتراف القائم على الغرور أو على نزعة استعراضية ، بل الخوف الأتانيّ من أن بدع حتى مجرد قطرة من مادة ستندال ، تلك التي لا يمكن استعادتها ، تغيض في ذاكرته الواهية .

وقد حلّ ستندال هذه الغرابة في ذاكرته بوضوح تنبؤيّ ، كما فعل بكل شيء يعود إليه ، إذ قرّر أول الأمر أن قدرته على التذكر المفرطة في الأناية . « أنا أفتر افتقاراً مطلقاً إلى الذاكرة بصدد ما لا يهمني » ومن أجل ذلك لا يحتفظ إلاّ بالقليل جداً مما يقع خارج المجال النفسيّ ، فليس هناك أرقام ، ولا تواريخ ، ولا وقائع ، ولا أمكنة ، وهو ينسى من أهم الأحداث التاريخية كل التفاصيل نسياناً كاملاً ، وهو لا يذكر

في صدد الحديث عن النساء أو الأصدقاء (حتى مع بايرون وروسيني) متى لقيهم ، ولكنه يقرّ بهذه النقيصة بغير تفكير مع بعده عن انكارها : « لست أدعي حب الحقيقة إلاّ فيما يمسّ عواظي » . فهو لا يكفل الحقيقة الموضوعية إلاّ مادام إحساسه يتعرض للإصابة ، وهو « يحتجّ » بصراحة في أحد مؤلفاته ، بأنه « لا يتجاسر أبداً على تصوير واقع الأشياء ، بل يصور الانطباع الذي تخلّقه فيه » . (« لست أدعي رسم الأشياء في ذاتها ، وإنما أرسم أثرها عليّ ») . وإذا فما من شيء يبرهن على نحو أكثر وضوحاً أن الأحداث في حد ذاتها لن توجد على الإطلاق بالنسبة إلى ستندال ، بل توجد بمقدار ما تحدث مفعولها في الإثارة النفسية : حينذاك تبدأ بالريب هذه الذاكرة الشعورية الأحادية النظرة بصورة مطلقة ، وذلك بحدة لا مثيل لها . عند ذلك يتذكّر ستندال ، الذي لا يتأكّد على الإطلاق من أنه تحدث في يوم من الأيام إلى نابليون ، ولا يدري أيتذكر عبور ممرّ سان برنار العظيم حقاً ، أم يتذكر مجرد نقش على النحاس ، هذا الستندال نفسه يتذكّر اللفظة العابرة لامرأة ، أو وقع نغم ، أو حركة ما ، بوضوح الماس وجلائه ، طالما أنه تعرض للإثارة منها في أعماقه ذات مرة . فحيثما يظلّ الشعور منتعجاً جانباً تراكم طبقات الضباب المظلمة بلا حراك في الغالب على مدى عشرات السنين - على أن ما هو أغرب من ذلك أن الشعور حين يغدو بلبوره مفرطاً في الحدة نجد القدرة على التذكر عند ستندال قد انتابها التدهور أيضاً . فهو يكرّر مئات المرات ، وبوجه خاص ، في أكثر لحظات حياته توتراً) عند وصف عبور الألب ، والرحيل إلى باريس ، وليلة الحب الأولى) ما يقرره بقوله : « ليس لديّ ذكرى بهذا الصدد بعد » ، فقد كان الإحساس مفرطاً في الحدة . وإذا فذاكرة ستندال لا تكون

قطُّ ، خارج هذا المجال المحدود الضيق من الشعور ، ذاكرةٌ لا ضير فيها (وكذلك فنيته) : « أنا لا أحتفظ إلاّ بما هو صورة إنسانية . أما فيما وراء ذلك فأنا لاشيء » فالانطباعات المنطوية على تأكيد للجانب النفسي هي وحدها التي تصمد للنسيان عند ستندال . ومن أجل ذلك لا يقلر هذا المتمركز على ذاته بصورة قطعية إلى أقصى الحدود أن يكون قطّ شاهداً على العالم في السيرة الذاتية ، إذ إنه لا يستطيع في الحقيقة أن يرجع بتفكيره إلى الوراء ، بل يستطيع أن يرجع إلى الوراء بشعورة فحسب ، فهو يعيد تركيب المسار الفعلي للأحداث في الطريق الالتفافي الذي يمرّ بالمنعكس في نفسه - وليس بصورة مباشرة - وهو « يبتزع حياته » : وبدلاً من أن يعثر على الحقائق يبتزعها ويتصورها تصوراً شعورياً من ذاكرة الشعور ، وعلى هذا تصلح سيرته الذاتية لشيء روائي كما أن رواياته تصلح لشيء من قبيل تصوير الذات ، ولا يحسن للمرء أن ينتظر منه تصويراً لبيئته متكاملًا من كل جوانبه على النحو الذي قدمه جوته في « الشعر والحقيقة » . ولابد لستندال ، بحكم طبيعته ، ومن حيث هو كاتب سيرة ذاتية ، أن يكون كاتبَ فصول مبسووعة (١) ، انطباعياً . وهو يبدأ بالفعل صورته الذاتية بمجرد خطوط عريضة وملاحظات جاءت بطريق المصادفة ، في تلك اليوميات Journal ، الدفتر الذي ظل يمسه عشرات السنين ، والذي يخصصه بالبداية للاستعمال الخاص فحسب ، ولم يكن هناك أول الأمر إلاّ التدوين ، واثبات الحكايات الصغيرة مادامت ساخنة ، ومادامت تنبض في يده مضطربة كقلب طائر أسير ! وكان عليه ألاّ يدعها ترفرف

(١) Fragment ، من مبسوع بمعنى مقتطع ، أي غير مكتمل . (أساس البلاغة)

بجحاحيها هاربة ، وأن يمسك بكل شيء ويحتفظ به ، وألاً يكيله إلى
الذاكرة ، إلى هذا النهر المضطرب الذي يجرف كل شيء في مسيره
ويجري به ! وألاً ينجل من ترتيب أشياء لا طائل تحتها ، مجرد عبث
طفوليّ للحواس ، في ألوان متعددة ، في الصنلوق الكبير : ومن يلدي
فربما كان أحب الأشياء إلى الرجل البالغ أن ينحني على المثير للفضول
والمبتذل من قلبه الضائع ، ومن أجل ذلك تعد الغريزة التي تحمل الفتى
على جمع هذه الصور الحافظة الصغيرة من صور الشعور وحفظها بعناية ،
غريزة عبثية ، إذ أن الرجل الناضج ، وعالم النفس الخبير والفنان
المتفوق سيرتبها فيما بعد ترتيب الخبير ، وهو ممتن لها ، في الصورة
الكبرى لتاريخ شبابه ، تلك السيرة الذاتية التي يسميها « هنري بولوار » ،
هذه الإطلالة المتأخرة الرائعة الرومانسية ، على طفولته .

ذلك لأن ستندال لا يقوم بالبناء الفكريّ لشبابه ، في العمل الفني
الواعي القائم على السيرة الذاتية ، إلا في وقت متأخر ، مثل رواياته .
فعلى درجات سان بييترو في مونثوريو بروما يجلس رجل هريم ويسرح
بفكره في حياته . ما هي إلا بضعة أشهر ويبلغ الخمسين : لقد أدبرت
أيام الشباب ، أدبرت إلى غير رجعة فيه ، وأدبرت النساء ، والحب .
وقد آن الألوان لأتساءل : « من كنت أولاً ؟ ومن كنت بعد ؟ » لقد
ولّى الزمان الذي كان القلب فيه يتوغّل ليغلو أرحب وأصلب عوداً
في التحليق والمغامرة : الآن يقتضيه الزمان أن يستخلص النتيجة ، وأن
يطلّ بنظره إلى وراء . وعند المساء ، بمجرد أن يعود ستندال من
سهرته عند الوزير المفوض وقد اعتراه السأم (اعتراه السأم ، لأنه ما عاد
يحظى بالنساء وقد أصابه الجهد من كل هذا الحديث الفارغ) يقرّر

بغتة : « يجب أن أدوّن حياتي ! وعندما يتم المجاز هذا ، في عامين أو ثلاثة ، فربما سوف أعلم آخر الأمر من كنت ، مرحاً أم كئيّبا ، خصب الفكر أم غيباً ، شجاعاً أم جبناً ، وقبل كل شيء سعيداً أم شقياً » .

ولأنها لنية سهلة ، ولمهمة جبارة ! ذلك لأن ستندال كان قد اعترّم أن يكون في كتابه هذا « هنري برولار » (الذي يدوّنه بطريقة الرمز ، تمويهاً على الفضوليين الذين يحتمل أن يعرضوا له) « صادقاً ببساطة » ولكن ما أصعب الصدق ، كما يعرفه ، وما أصعب أن يظل المرء صادقاً حتى على نفسه أو أنّى له أن يجد طريقه في مناهة الماضي التي تغشاها الظلال ، وكيف السبيل إلى التمييز بين الضوء المضلل والنور ، وكيف السبيل إلى تفادي الأكاذيب التي تستكن وراء كل منعطف من منعطفات الطريق متربّصة بالحاح ؟ هنالك يبتكر ستندال ، العالم النفسي أول مرة ، طريقة عبقرية ، قد يكون وحيداً فيها وهي ألا يدع تزوير الذاكرة المفرطة في الإعجاب نفوت عليه الفرصة ، وذلك بأن يكتب بريشة مسرعة كأنما تطير ، ولا يعود إلى قراءة ما كتب ولا يعيد التفكير فيه ، (وأتخذ لنفسه مبدأ ألا أربك نفسي ، وألا أمحو أبداً) وإذا فهو اكتساح الحجل والهواجس ببساطة ، وانبثاق المرء من ذاته باعتراقاته ، قبل أن يستيقظ القاضي الدائيّ، الرقيب في الداخل ! وما ينبغي أن يصنع المرء صنيع الرسامين ، بل صنيع من يلتقطون الصور الحافظة ! وليسجل الغليان الأصيل في حركته المميّزة قبل أن يتخذ وضعاً مسرحياً فنياً ، ويدوّن ستندال ذكرياته الذاتية بقلم طيار ، بحركة قلم، وبالفعل فهو يفعل ذلك من دون أن يتصفّح الأوراق مرة أخرى في

أي وقت من الأوقات ، من أجل الأسلوب أو وحدة الموضوع أو التجسيد المنهجية ، وهو غير مبال على الإطلاق ، وكأن الأمر كله مجرد رسالة خاصة إلى صديقه : «أنا أكتب هذا من دون كذب، وأمل ألاّ أصور نفسي وهماً ، بل أفعل ذلك مستمتعاً به كرسالة إلى صديق . وكل كلمة في هذه الجملة هامة ، فستندال يكتب تصويره لذاته صادقاً « كما يأمل » ، « ومن دون أن يصور لنفسه أو هاماً » ، و « مستمتعاً » ، و « مثل رسالة خاصة ، وهذا ، « لكيلا يكذب من الوجهة الفنية مثل جان جاك روسو » ، فهو يضحى ، عن وعي ، بحمال ذكرياته ، من أجل الصدق ، وبالفن من أجل علم النفس .

وفي الواقع فإن رواية « هنري برولار » ، وكذلك رواية « هدايا الأنابوي » التذكارية « التي تعد استئنافاً لها ، تعنيان إذا ما نظرنا إليهما من الوجهة الفنية البحتة ، انجازاً فنياً يتسم بالتردد والالتباس : فكلاهما يتسم بالتعجل الشديد من هذه الناحية ، وكلاهما قد طُرح باستخفاف وبغير خطة ، فكل ما يخطر ببال ستندال يلقي به في الكتاب بسرعة البرق سواء أتلاءم مع ذلك الموضوع أم لم يتلاءم ، ومثلما هو الحال في كتب الخواطر عنده بالضبط يتجاوز المتسامي إلى الحد الأقصى مع السطحي الضحل إلى الحد الأقصى ، والجماعات المنحرفة مع الموظفين ذوي العلاقة الحميمة إلى الحد الأقصى . ولكن هذه العفوية بالذات ، وهذه الرواية التي تفيض من القلب إلى القلم مباشرة ، ينمّان عن أشكال شتى من الصدق يعدّ كل منها وثيقة للنفس ، لها فعلٌ يفوق فعل المجلد الضخم . فالاعترافات العائدة إلى ذلك النوع الحاسم ، كذلك الذي يشاع حول ميله الخطير إلى أمه ، وحول كراهيته البهيمية القاتلة ،

لأبيه ، ومثل هذه اللحظات التي تتسلل عند الآخرين يجبن إلى زوايا العقل الباطن ولا تجرؤ على الخروج طالما تيسر لرقيب وقت لحراستها : هذه الأشياء الحميمة إلى الحد الأقصى يجري تهريبها - ولا يمكن التعبير عن ذلك بطريقة أخرى - في ثانية من الغفلة الأخلاقية المصطنعة عمداً . وعن طريق هذا المنهج العبقري في علم النفس ، ومؤداه أن ستندال لا يدع أبداً وقتاً لأحاسيسه لتتجمد عند « الجميل » و « الأخلاقي » ، عن طريق هذا فمحسب أمسك بتلك الأحاسيس فعلاً حيث تكون شائكة إلى أقصى الحدود ، وحيث تتوالب وتصبح هاربة من الآخرين الذين هم أقل لباقة وأشد بطلاً . وهذه الخطيئات والخصوصيات المضبوطة في حالة التلبس تقف عارية ، عرياً نفسياً كاملاً ، وخالية من الحياء خلواً تاماً ، على الورق الأملس فجأة ، وتحملق للمرة الأولى في عيون البشر . فيالها من هواجس رائعة مأساوية متوحشة ، ويا لها من مشاعر غضب شيطانية جبارة تنطلق ههنا من قلب طفولي ضئيل ! وهل يستطيع المرء أن ينسى ذلك المشهد ، إذ يخرّ الطفل الوحيد جداً والمستاء ، هنري الصغير ، حين تموت عنه عمته البغيضة إليه ، سيرا في (« أحد الشيطانين اللذين كانا مسلطين على طفولتي البائسة » - وكان الآخر أبي) على ركبتيه ويحمد الله ، وإلى جانب ذلك ، على مسافة ضئيلة (إذ تتشابه المشاعر عند ستندال بصورة معقدة فيما يشبه المناهات) ، تلك الملاحظة الصغيرة وهي أن هذا الشيطان نفسه قد استثار النضج الشهواني المبكر ذات مرة مدة ثانية (مسجلة بدقة) . وقلما كان المرء يشعر أمام ستندال في أي وقت من الأوقات بمدى التعقيد الذي جُبل عليه هذا الإنسان ، وكيف يتلامس أشد الأشياء تناقضاً وأشدّها صراعاً عند النهايات القصوى للأعصاب ، وكيف تنطوي نفس الطفل التي لما تبلغ النضج بعد ،

وعلى الوضع وعلى أكثر الأشياء سموّاً ، وعلى الفظاظلة والرقّة ، في طبقات بالغة الرقة ، وقد انطوت ورقة على ورقة معاً ، وبهذه الاكتشافات الحاصلة بطريق المصادفة تماماً ، وبغير انتباه ، بهذه الاكتشافات بالذات ، وبها وحدها ، يبدأ في الحقيقة التحليل المنطقي في السيرة الذاتية .

ذلك لأن هذا الإهمال ، وهذه اللامبالاة حيال الشكل وهندسة البناء ، وإزاء العالم من بعده ، والأدب والأخلاق والنقد ، كل ذلك بالذات ، مع ما في هذه المحاولة من استمتاع ذاتي وخصوصية رائعة ، يجعلان من هنري برولار وثيقة نفسية لا مثيل لها . وقد كان ستندال يريد في رواياته أن يكون فناناً على أية حال ، أما ههنا فليس إلاّ إنساناً وفرداً يدفعه الفضول نحو نفسه . وتمتاز صورته الذاتية بجاذبية لا توصف ، تتمثل في الفقرات المبتسرة وفي حقيقة المرتجل العفوية ، ولا يبلغ المرء بمعرفة ستندال النهاية قط من خلال عمله ، ولا من خلال سيرته الذاتية ، وما يفتأ المرء يحسّ بما يغريه من جديد باستجلاء غموضه ، وبفهمه من خلال المعرفة ، وبمعرفته من خلال الفهم . وعلى هذا النحو تتابع نفسه المتشحة بألوان الغسق ، الحارة الباردة ، المرتعشة من جانب العصب والفكر ، لإحداث تأثيرها حتى اليوم باندفاع حارّ ، في الحّيّ ، وفي حين كان يصوّر نفسه ذاتها ، كان يقوم بتصوير متعة الفضول وغن الرؤية النفسية عنده في جيل جديد ، ويعلمنا جميعاً المتعة المتألقة المتمثلة في توجيه السؤال إلى الذات والإنصات إليها .

مفهوم الشخصية

سأكون مفهوماً حوالي عام ١٩٥٠
ستتألف

لقد وثب ستندال فوق قرن بأسره ، هو القرن التاسع عشر ،
فهو ينطلق من القرن الثامن عشر ، في المادية الخشنة ، عند ديديو
وفولتير ، ويحط بجناحيه في وسط عصرنا ، عصر علم النفس الفيزيقي (١)
وعلم النفس المتحول الى علم . لقد احتاج الأمر ، كما يقول نيتشه ،
« إلى جيلين » ، للتحاق به على أي وجه من الوجوه ، ولاهراك بعض
الألغاز التي كانت تفتنه « ولم يتقدم من عمله ، ولم يُعصَّب بالبرود ،
إلا القليل الذي يبحث على الدهشة لقلته ، وثمة قسط كبير من اكتشافاته
المفترضة يعد منذ عهد طويل تراثاً عاماً ، وما زالت بعض تنبؤاته جارية
بنشاط في طريق التحقيق . وبعد أن ظل عهداً طويلاً متخلفاً وراء
معاصريه ، حلت فوقهم جميعاً باستثناء بلزاك ، ذلك لأنه مهملة يكن
من تعارض موقفيهما في الأثر الفني ، فإن هذين كليهما فحسب .
أي بلزاك وستندال ، شكلاً عصرهما الخاص في تجاوز لنفسيهما :

(١) Psychophysis علم أسسه فيشر ، يبحث في العلاقات بين النفس
والجسم ، وقانونه (الاحساس يعادل لوغاريتم التأثير) ، أي حين يزداد التأثير بنسبة
هندسية يزداد الاحساس بنسبة حسابية فقط) . - انظر : المعجم الفلسفي ، كرم ، وهبة
شلاية .

فأما بلزك فبكونه تخطى تراكب الطبقات ونقيضه ، والقوة الاجتماعية الغالبة للمال ، وآلية السياسة ، متجاوزاً بهذا كله حدود العلاقات السائدة في تلك الأيام ، ليزيد في حجمه إلى الحد الموهل — وأما ستندال فبكونه فتت الفرد بعينه السباق ، عيّن عالم النفس . ويلمسته التي تمس الوقائع ، وميّز لؤيّناته (١) . لقد أعطى تطور المجتمع الحقّ لبلازك ، وأعطى علم النفس الجليد الحقّ لستندال . وكانت نظرة بلزك المحيطة بالعالم ترقّب العصر الحديث ، وكان حدس ذلك لأن شخوص ستندال هم نحن أبناء اليوم ، الأكثر مراناً في ملاحظة الذات ، والأكثر اطلاعاً في علم النفس ، والأكثر استمتاعاً بوعيتهم ، والأكثر انعتاقاً من الأخلاق ، والأكثر عصبية ، والأكثر فضولاً تجاه ذواتهم ، والذين أصابهم الجهد من كل نظريات المعرفة الباردة ، وليس لديهم إلاّ الرغبة العارمة في معرفة طبيعتهم الخاصة . أما نحن فما عاد الانسان المتمايز وحشاً مهولاً بالقياس إلينا ، وما عاد حالة خاصة مثلما كان يحس به ستندال الذي كان يقف وحيداً بين الرومانسيين ، ذلك لأن العلوم الحديثة في النفس والتحليل النفسي وضعت في أيدينا منذ ذلك الوقت أدوات دقيقة شتى لإضاءة الخفي وتحليل المتشابك . ومع ذلك فما أكثر ما كان هذا « الانسان ذو الشعور المسبق على نحو غريب » (كما يسميه نيتشه مراراً) واعياً إيانا ! وما أكثر ما تنطق وجهته اللامذهبية ، ونزعته الأوروبية الاختيارية المبكرة ، وتوجّسه من الصحوّة الآلية للعالم ، وكراهيته لكل شيء يقوم على البطولة الجماعية الرئانة ، بلساننا ! وما أشد ما تبدو كبرياؤه الصريحة تجاه الأورام

(١) Nuanzen .

والمترجم .

ال عاطفية للشعور في عصره على حق ، وما أحسن معرفته لساعته العالمية في ساعتنا ١ ولا يمكن أن نحصى الآثار والطرق التي شقها للأدب بالتجريب المتفرّد . وما كانت رواية دوستوفسكي « راسكولنيكوف » لتخطر بالبال بدون رواية جوليان ، ولا موقعة تولستوي عند بورودينو من دون النموذج الكلاسيكي المتمثل في ذلك التصوير الأول ، ذي الأصالة الواقعية ، لواترلو . وقليل من الناس من انتعشت متعة التفكير الجانحة عنده نيتشه بكلماته وأعماله كل الانتعاش كما كان الحال عنده . وكذلك أقبلت إليه آخر الأمر « النفوس الأخوية » و « المخلوقات المتفوّقة » التي ظل يبحث عنها طوال حياته عبثاً ، وطناً في وقت متأخر ، هو ذلك الوطن الوحيد الذي اعترف بنفسه الحرة ذات المواطنة العالمية ، ألا وهو البشر الذين يماثلونه ، وقد منحه ذلك الوطن إلى الأبد حق المواطن وتاج المواطنة ، ذلك لأنه ما من أحد من جيله ، باستثناء بلزاك ، الوحيد الذي حياه تحية الأخوة ، يقف قريباً منا في معاصرته فكراً وشعوراً . فنحن نحسّ بشخصيته قريبة منا بأنفاسها من خلال الورق البارد ، مألوفة عندنا من خلال وسيلة الضغط النفسية ، وهو امرؤ لا يسبّر غوره على الرغم من أنه سبر غور نفسه كما لم يفعل ذلك إلا القلائل ، وهو يتأرجح بين المتناقضات ، مشعاً في الظلام بألوان تنطوي على الألغاز ، مصوراً لأخفى الأشياء ، ضائعاً بأخفى الأشياء ، مكتملاً في ذاته ، ومع ذلك فهو غير منته ، غير أنه يتسم على الدوام بالحياة ، والحياة ، والحياة . ذلك لأن المتفرّدين في ساعتهم هم الذين يطيب للساعة التالية أن تبعثهم في منتصفها ، وإنما تمتاز أدقّ ذبذبات النفس بأن لها أكثر أطوال الموجات امتداداً في الزمان .

هاينريش فون كلايست

البلوطة الميتة تنتصب في وجه العاصفة
أما البلوطة السليمة فتتهوي بها العاصفة وتسحقها
لأنها تستطيع أن تمسك بتاجها.
« بتسليا »

الطريق

لا ريب في أنني لغز بالقياس إليك
ولكن هدى من روعك ، فان الله كذلك
بالقياس إلي .

لا يوجد مهب للريح في ألمانيا لم يسر في اتجاهه ، ذلك الذي لا يقرّ
له قرار ، ولا توجد مدينة لم يقطنها ، ذلك الشريد أبداً ، فهو يكاد
يظلّ دائماً في الطريق ، فمن برلين ينطلق بعربة البريد التي تدرج إلى
دريسدن ، عبر جبال الأرنس السكسونية ، إلى بايرويت ، فالى
كيمفيتس ، وفجأة يشدّ الرحال منطلقاً إلى فورتسبورج ، ثم يسير
عبر الحرب النابليونية ، إلى باريس ، وهناك يعتزم الإقامة عاماً ، غير
أنه ما يلبث أن يهرب بعد أسابيع قلائل إلى سويسرا ويستبدل برن
مدينة تون ، وبيال مرة أخرى برن ، ويسقط بغتة كحجر مرمي
في دار فيلاند الهادئة في اوسمانشيت . وبين عشية وضحاها يندفع
إلى الرحيل مرة أخرى ، ويعدو مرة أخرى ، على عجلات ساخنة
هادرة ، عبر ميلانو والبحيرات الإيطالية إلى باريس ، ويندفع ، على
غير هدى ، إلى غابة بولونيا ، وسط جيش أجنبي ، ثم يستيقظ فجأة
في ماينتس وهو مريض قد أشفى على الموت . ومرة أخرى تَطْوَح به
الأسفار إلى برلين ، فبوتسدام : وتُسمّر هذا الذي لا يستقرّ على حال ،

طوال عام ، وظيفة يتوق إليها ، في كونيغزبرج ، ثم ينطلق من جديد ، ويعتزم المضي من خلال صفوف الفرنسيين الزاحفين إلى درسدن ولكنهم يجرّونه إلى شالون ، على افتراض أنه جاسوس . وما يكاد يطلق سراحه حتى يخطر في خطوط منكسرة متعرجة خلال المدن . ويندفع من درسدن ، في وسط الحرب النمساوية ، إلى فيينا ، ولكنه يُعتقل في أسبرن (١) أثناء المعركة ، وينجو بنفسه إلى براغ . وفي بعض الأحيان يتوارى شهوراً بطولها كنهر في باطن الأرض ، ثم يظهر من جديد على بعد ألف ميل : وأخيراً تقذف الجاذبية بالطريد عائداً به إلى برلين . ويظل يتخفق بجناحيه المحطمين هنا وهناك بضع مرات ، ويلتمس طريقه في مرةٍ أخيرة نحو فرانكفورت ، ليجد عند أخيه ، وعند الأقرباء ، ملاذاً من المطارد الرهيب الذي يسجد في أثره . غير أنه لا يجد مستقراً ، ولذلك يرتقي في المرة الأخيرة عربة الرحيل (بنته التحقيقي ، الوحيد ، في كل السنوات الأربع والثلاثين) ويخرج إلى بحيرة فان (٢) ، حيث يضرب رأسه بالرصاصة . وقبره قائم على طريق عام .

ما الذي يدفع كلايست إلى هذه الأسفار ؟ أو بالأحرى : ماذا يدفعه ؟ ههنا لا يجلي فقه باللغة : فأفساره كلها تقريباً ليس لها معنى في آخر الأمر ، إذ ليس لها أغراض ، وليس لها حتى أهداف معينة . وليس من الممكن تفسيرها بصورة موضوعية . وما يسميه البحث الموثوق به هنا أسباباً ليس في الأغلب إلاّ ذرائع ، وأقنعة مصطنعة في وجهه

(١) Aspern أحد شطري مدينة فيينا

(٢) Wannsee بحيرة في برلين

الشیطان ، بمالقياس إلى أولئك الصالحين من السيكر يظل هذا الدافع إلى الاضطراب منطقياً على لغز أبداً : ومن أجل ذلك لا يعد من قبيل المصادفة أنه يُعتقل ثلاث مرات على أنه جاسوس . ففي غابة بولونيا يعبىء نابليون قواته للنزول على البر في انكترا — وإذا الضابط البروسي الذي كان قد أطلق سراحه منذ حين يترشح كالسائر في نومه وهو يتجول بين القوات . وتنقله أعجوبة من إطلاق النار . ويزحف الفرنسيون إلى برلين — فإذا هو يتسكع على مهله خلال السرايا ، إلى أن يسكوا به ويحتجزوه . وفي أسبرن يخوض النمساويون المعركة الفاصلة : وإذا المصاب بالجلولان (١) ، الغائب الفكر ، يتجول في ميدان المعركة ، وليس في جيبه شيء يبرر ذلك سوى بضع قصائد وطنية . ومثل هذا السلوك اللامبالي لا تفسر له من الوجهة المنطقية : فهذه تهين قوة غلبة ، بل يهين اضطراب خفيف في نفس تعذب ذاتها . وقد تحدث الناس عن مهام سرية أو كليت إليه لتفسير أسفاره : وقد يصح هذا بالنسبة إلى واحدة من رحلاته أو أخرى ، غير أنه لا يصح بالقياس إلى الحرب الخالدة من وجوده . والحق أن كلايست لم يكن له هدف في كل رحلاته .

لم يكن له هدف ، فهو لا يندفع نحو مدينة ، أو بلد ، أو غاية — بل يرمي بنفسه كالسهم عن قوس مفرطة في التوتر ، بعيداً عن نفسه ذاتها ، فهو يريد الإفلات ، والوثوب فوق شيء ما في نفسه بالقوة ، وهو يبدل المدن كما يبدل المحموم الوسائد (مثلما يقول لينان — الذي يمت إليه بقربى حميمة — على نحو مشابه في قصيدته عن « المريض النفسي ») . وفي كل مكان يؤمل البرد ويرجو الشفاء ، ولكن من

(١) Somnabule الجولان في علم النفس هو السير أثناء النوم

كان الشيطان يدفعه لا يتقّد له موقد ولا يؤويه سقف . وعلى هذا النحو يضرب رامبو في طول البلاد وعرضها ، وكذلك يستبدل نيتشه مكاناً بمكان ، ويتهوفن منزلاً بمنزل ، وعلى هذا النحو تتقاذف ليناو (١) القارّات ، وهم يحملون جميعاً في ذواتهم سوط الاضطراب في الحياة ، ذلك السوط الرهيب ، وتقلب الوجود المأساوي ، وهم جميعاً طرائد قوة مجهولة ، وقد حُكِم عليهم بالآل يفلتوا أبداً من قبضتها : ذلك لأن ما يستحثهم إنما يدور في دهمهم كالحمس ، ويقيم إقامة السيّد المتمكّن في أدمعتهم . ولا بدّ لهم أن يقضوا على أنفسهم ايقضوا على العلوّ في ذواتهم ، على سيّدهم وشيطانهم .

على أن كلايست يعرف إلى أين ينتهي به المسير . فهو يعرف ذلك منذ انبداية — إلى الهاوية . غير أنه لا يعرف دائماً أيفرّ من الهاوية أم يعلو صوبها . ففي بعض الأحيان تبدو يدها متشبّتين بالحياة تشبّث المتشنج تماماً (كما يروح بذلك هومبورج (٢) أمام القبر المفتوح) ، مرّغتين بأنحر ذرّة من التراب الذي يفترض أن يحفظه وهو يسقط . ثم يبحث عن التماسك في مواجهة الارتكاس الرهيب نحو الأعماق ، ويحاول أن يتعلق بسلاسل الأخت ، والنساء ، والأصدقاء ، ليمسكوا به . وفي بعض الأحيان يكاد يفيض شوقاً لاهثاً إلى النهاية ، إلى ذلك التردّي الأخير في الأعماق الأخيرة . وهو يحيط علماً على الدوام بالهاوية ،

(١) نيكولاوس ليناو ، شاعر مجري (١٨٠٢ - ١٨٥٠) يتسم أدبه بالكآبة والظلم أصيب بالجنون في أواخر حياته .

(٢) انظر : مسرحية : الأمير فريدرش فون هومبورج لكلايست ، ترجمة مصطفى ماهر ، الألف كتاب ٣٤٣

غير أنه لا يعلم أحوالهم ، أم وراءها ، ومن أجل ذلك لا يستطيع الإفلات منها ، فهو يحملها معه كظله .

وكذلك يضرب في أرض الله الواسعة كواحد من تلك المشاعل الحية ، كالمستبشرين الشهداء الذين كان يرون يلبسهم المشاقة (١) ثم يشعل النار فيهم ، والذين كانوا بعد ذلك ينجون ، ويخرجون ، وقد غشيتهم ألسنة اللهب . من دون أن يعرفوا إلى أين . وكذلك فإن كلايست أيضاً لم يرق قط الصوى (٢) على الطريق : إذ أنه قلما كان يفتح عينيه حقاً في كل المدن التي مر بها في أسفاره . بل كانت حياته كلها هرباً وحيداً من الهاوية ، وعدواً وحيداً نحو الأعماق ، ومطاردة رهيبة حافلة بالعداب ، برثية اللاهتين وقلبه المكسود . ومن هنا كانت تلك الصيحة الهائفة الرهيبة الرائعة ، حين يلقي بنفسه آخر الأمر في الأعماق طوعاً وقد أنهكه العذاب .

لم تكن حياة كلايست حياة ، بل مجرد اندفاع نحو النهاية ، مطاردة رهيبة بسيكرها الحيواني بالدم والشهوة ، بالقسوة والرعب ، بحف بها صخب كل أبواق الإثارة وصيحة المتعة اللاحقة . فثمة عصاة كاملة للشقاء تطارده : ويلقي بنفسه في الدغل كأيل مطارد ، وبلاد من في بعض الأحيان ، بلفتة مفاجئة من لفتات الإرادة ، أحد كلاب المطاردة ، مطاردة القدر ، فيضع قربانه — ثلاثة أعمال أو أربعة أو خمسة ،

(١) نسالة الخيوط المتشابكة

(٢) جمع الصوة ، وهي حجر على حافة الطريق يحدد المسافة والوجهة بين بلدين

«المترجم»

يسري فيها الدم الحارّ وقد مستّها صدمة العاطفة المجتددة — ثم يستأنف
 اندفاعه ، وهو يتزف ، إلى الأجرأش المنخفضة ، وحين ترى عصابة
 المصير المحبومة أنها توشك أن تمسك به ينهض بما لديه من طاقة أخيرة
 نهوضاً رائعاً ثم يلقي بنفسه — قبل أن يغلو غنيمة سهلة — بقفزة متعالية ،
 في الهاوية ..

* * *

صورة من الصورة له

لست أدري ماذا ينبغي لي أن أقول لك
عن نفسي ، أألا لسان الذي لا يمكن تعريفه
من رسالة .

ليس لدينا من صورته إلا ما يعدل العدم ، فالرسم الضئيل
المتناهي في غلظته وافتقاره إلى الرقة ، والصورة الثانية التي تعد ، على
النحو ذاته ، قليلة الشأن جداً ، تعرضان وجه غلام مستدير عادي للرجل
البالغ ، وجه أي إنسان ألماني شاب بلا تحديد ، له نظرة سوداء متسائلة .
وما من شيء يدل على الأديب في داخله ، أو على مجرد رجل من رجال
الفكر ، وما من قيسمة من قسماته تثير الفضول ، أو التساؤل عن النفس
الكامنة وراء هذه الجبهة الباردة : وإن المرء ليمر به من دون أن يخطر بباله
شيء ، غريباً ، بغير رضى أو فضول . فقد كان باطن كلايست يكمن
في عمق سحيق وراء بشرته ، ولم يكن من الممكن أن يرسم المرء
سراً ثم يصوره من خلال وجهه .

ثم إن ذلك لم يرد مسروداً على سبيل الرواية . فكل الروايات التي
تتناول ملامحه المميّزة عن معاصريه ، حتى روايات الأصدقاء ، ضئيلة ،
وقلما تتناول الجانب الحسّي . ولا يشعر المرء إلا بشيء واحد ينبغي
الإنجماع عليه : وهو أنه كان غامضاً ، ينطوي على سر ، وكان خلوة
مما يلفت النظر ، سواء في طبيعته أم في وجهه ، خلوة غريباً تماماً .

ولم يكن فيه شيء يرغب الناس . على الانتباه إليه ، فلم يكن يجتذب الرسام إلى رسمه ، ولم يكن يغري الأديب بالحديث عنه . ولابد أن ذلك كان شيئاً ما لا صوت له ، ولا يمكن ملاحظته ، شيئاً لم يول أهمية على نحو غريب ، شيئاً ضاعطاً نحو الخارج ، مقاومة للاختراق والتغلغل لا مثيل لها . لقد كان ماثت من الناس يتحدثون إليه من دون أن يخطر ببالهم أنه أديب ، وكان الأصدقاء والرفاق يلقونه عاماً فعاماً ، من دون أن يأتوا مرة واحدة على ذكر ليلقاء ، كتابةً أو في رسالة . ولم تجتمع اثني عشرية من أشكال الوصف الواردة في صورة حكايات وطُرف من سنوات حياته الأربع والثلاثين . ويحسن بالمرء ، لكي يشعر على نحو أفضل بمرور كلايست الغامض بجيله ، أن يتذكر رواية فيلاند ، حيث يصف وصول جوته إلى فايمار ، والهالة النارية لوجوده التي تهر عيني كل من يتناهى ضوءها إليه ولو من بعيد . وليتذكر المرء السحر الذي كان يشعه على الزمان بايرون وشيللي وجان بول وفيكتور هيجو ، والذي يتجلى بالآلاف الأشكال ، بالكلمة والرسالة والقصيدة فأنما كلايست فما من أحد يتناول القلم مجرد تناول ليسجل لقاء معه ، على أن السطور الثلاثة لكليمنس برينتانو ما تزال أكثر الصور الخطية التي نملكها وضوحاً وأكثرها حسية : « مربع القامة ، في الثانية والثلاثين ، له رأس مستدير مفلطح حافل بالمعاناة ، مختلط المزاج ، طيب كالأطفال ، فقير ومتماسل » . وحتى هذا ، أي هذا الوصف الأكثر صفاءً ، يصف الشخصية أكثر مما يصف الصورة . لقد مروا جميعاً بشخصه مروراً عابراً ، ولم ينظر واحد في عينيه . فمن يتجلى له فأنما يتجلى له من الداخل دائماً

وقد جاء هذا من أن قشرته كانت بالغة القسوة (وهذه هي مأساته في جوهر الأمر) . فقد كان يحتفظ بكل شيء موصداً في ذاته . ولم تكن عواطفه ترتفع في اختلاجها إلى العينين ، وكانت اندفاعاته تنهار دون الشفة قبل الكلمة الأولى . وكان قليل الكلام ، ربما عن نخجل ، لأن لسانه كان ثقيلاً يتلعثم ، ويبدو أن هذا يعود أيضاً إلى انعدام حرية الشعور ، وإلى انغلاق قسري .

وقد أقر هو نفسه بهذا العجز عن الكلام ، بهذا الختم الساخن على شفته ، بطريقة تهز النفس ، في رسالة له ، إذ يكتب قائلاً : « هناك حاجة إلى وسيلة للاتصال . وحتى الوسيلة الوحيدة التي نملكها ، وهي اللغة ، لا تصلح لذلك ، إذ أنها لا تستطيع أن تصوّر النفس ، وما تمنحنا إياه ليس إلا قطعاً مهشمة ، ولذلك أحسُّ بأحاسيس كالرعب كلما اقتضى الأمر أن أكشف لأمري عن خبيثة نفسي » . وهكذا ظل صامتاً ، لا عن جمود أو خمول ، بل عن نقاء في الشعور ذي سلطان أسر ، وهذا الصمت ، هذا المظلم التأملي الساكن ، الدائم الذي كان يلزمه وهو قاعد بين الآخرين ، كان الوحيد الذي يلفت أنظار الناس فيه ، ، يضاف إليه نوع من الشroud في الفكر وضبابية في وسط النهار المشرق . وكان ينقطع عن الحديث فجأة وينظر أمامه شارداً (متغلغلاً دائماً في أعماق الهاوية غير المرئية) ويروي فيلاند أنه « كثيراً ما كان يغتم في نفسه بين أسنانه عند المائدة ، وكان له مع ذلك مزاج إنسان يعتقد أنه وحده في المكان أو أنه موجود بأفكاره في مكان آخر ومشغول بموضوع آخر تماماً » . ولم يكن يستطيع أن يتحدث وأن يرسل نفسه على سجيّتها ، وكان يفتقر إلى كل ما هو

عُرِفَ في تقليدي، وما هو ملازم ، حتى لقد كان بعض الناس يلمسون بغير ارتياح « شيئاً مظلماً وغريباً في الضيف المتحجّر ، على حين كان الآخرون يتبرّمون بحدته وسخريته وحقيقته الشاحنة المتعالية (حين ينطلق في بعض المرات من ذاته بعنف وقد أثاره صمته الخاص) ولم يكن حديثه يشيع جواً من الاسترخاء في مزاجه ، ولم يكن ثمة مشاركة وجدانية سلسة تشعّ من محبّاه ومن كلمته . ولقد أفصححت عن ذلك بأحسن وجه تلك التي كانت تفهمه على أفضل وجه ، وهي راحيل ، التي تقول : « كان يواكبّه جوّ من الصرامة » وحتى هي التي تعدّ في غير هذا المقام وصافّة وقصّاصة ، لا تعرضه إلّا من الداخل ، لا تعرض إلّا جوّ طبعه ، ولا تعرض صورة مجسّدة لطبيعته . وهكذا يظلّ بالقياس إلينا ذلك الإنسان الخفيّ الذي « لا يمكن تعريفه » .

ولم يكن أكثر أولئك الذين يلقونه ينتبهون إليه ، أو كانوا ينعطفون وهم يمرون به يخالجهم شعور بالفزع والامتناع . فأما أولئك الذين عرفوه فقد كانوا يحبّونه ، ومن أحبه منهم أحبه حباً جارفاً : ومع ذلك فقد كانت تسري في هؤلاء أيضاً برودة من خوف خفيّ تنتاب نفوسهم وتغلّ قلوبهم وأيديهم . وأما من انفتح له ذلك المغلق فقد كان يطلعه على كل أعماقه ، غير أن كلاً منهم كان يحس على الفور أن هذه الأعماق إنما كانت الهاوية . وما من أحد يشعر بالارتياح بالقرب منه ، ومع ذلك فقد كان يجتذب أقرب الناس إليه اجتذاباً سحرياً ، ولم يكن أحد ممن يعرفونه يهجره كليّ الهجران ، ومع ذلك فلم يكن أحد يحتمله ، إذ كان ضغط جوّه ، والحرارة الزائدة في عاطفته ، والغلوّ في مطالبه (فهو يكاد يطالب كل امرئ بالموت المشترك !) أشدّ بأساً من أن

يحتملها أمرؤ ثان . فكل^١ يقبل عليه ، وكل^٢ يرتد^٣ مجفلاً من شيطانه ، وكل^٤ يشعر أنه لا يتفصل عن الموت والفناء إلا بشبر . وحين لا يراه « بنقول (١) » في المنزل عند المساء في باريس ينطلق إلى معرض الجثث ليلتمسه بين المتحررين . وحين لا تسمع ماري فون كلايست شيئاً عنه طوال أسبوع توعد إلى ابنها على جناح السرعة أن يبحث عنه ويمنع الشيء المرعب . أما الذين لم يكونوا يعرفونه فكانوا يحسونه لا مبالياً وبارداً ، وأما الذين يعرفونه فكانوا يرتعلون ويفزعون من النار المظلمة التي كانت تأكله ، وعلى هذا فليس في وضع أحد أن يمسك به ويسانده ، فهو عند أناس مفرط في البرود وعند آخرين مفرط في الحرارة . ولا يظل وفيّاً له إلا الشيطان .

على أنه يعرف بنفسه أن « من الخطر على المرء أن يستمر في العلاقة معه » كما يقول ذات مرة ، ولذلك لا يشكو من أحد إذا ارتد عنه ، ومن كان قريباً إليه فقد لفحته ناره . أما عروسه فيلهلمية فون تسينجه فقد أفسد عليها شبابها بالتضلل في مطالبية الأخلاقية ، وأما أولريكه ، أخته الأثيرة لديه ، فقد بدد بحياته ثروتها ، وأما ماري فون كلايست ، صديقتها الحميمة فيسلمها إلى الفراغ والوحدة ، وأما هنريette فوجل فيخطفها معه إلى الموت . وهو يعرف خطورة شيطانه ، والأثر البعيد الرهيب لباطنه : ولذلك ينكفيء على نفسه على نحو مطرد في الزيادة والتشنج ، ويجعل نفسه أكثر عزلة مما جئيل عليه بطبيعته . وينفق أياماً بطولها في السنوات الأخيرة في السرير مع غليونه ، وهو يكتب ويؤلف ، وقلماً يخرج من بيته ، وحينئذ يغلب وجوده في

Pfuel. (١)

« الحانات والمقاهي » ، وتزداد مرارة حديثه حدةً ، ويزداد توارباً عن الناس ، وحين يختفي عام ١٨٠٩ ، بضعة أشهر ، يسهل أصدقاؤه وفاته بغير مبالاة ، ولا يشعر أحد بغيابه ، ولو أنه لم يته حياته بعد ذلك على هذا النحو المسرحي المثير (الميلودرامي) لما لاحظ أحد استموار وجوده ، إذ كان قد غدا بالنسبة للعالم صامتاً كل الصمت ، غريباً كل الغرابة ، مستغلياً إلى حد بعيد .

وليس لدينا صورة له ، لا لكيانه الظاهري ، ولا لباطنه سوى الكتابة العاكسة كالمرآة في عمله ورسائله الصريحة . ولاريب أنه كان ثمة صنورة وحيلة لمن لا صورة له ، صورة رائعة هزت القلائل الذين قرأوها ، اعترف فيه روح روسو ، هو « تاريخ نفسي » ، الذي كتبه قبيل وفاته ، غير أننا لا نعرفه ، إذ أنه أحرق المخطوط ، أو ضيعه الأوصياء اللامبالون على تركته بغير اهتمام ، كما ضيَعوا روايته وبعض الأعمال الأخرى . وهكذا يهوي محيائه في الظلام الذي أظلمه أربعة وثلاثين عاماً . فليس لدينا صورة له ، ولا نعرف إلا مرافقه المظلم : الشيطان .

* * *

بأولجيا الشعر

اللمنة على القلب الذي لا يستطيع أن
يجتص إلى الاعتدال .

بتيسيليا

على أن الأطباء المدين يهرعون من برلين لفحص جثة المنتحر التي
ما زالت دافئة يجلدون الجسد سليماً تتوفر فيه طاقة الحياة ، فليس هناك
عضو فيه عجز ظاهر ، ولا يمكن التعرف في أي مكان على سبب آخر
للوفاة سوى سبب العنف ، سوى الرصاصة التي أطلقها اليانس بيد
واثقة من الهدف ، في جمجمته ، غير أنهم يكتبون في التقرير ، من أجل
تزويق الكشف بأية كلمة علمية رفيعة ، أن « المريض كلايست مصاب
بحالة انفعال دموي ، وأن من الممكن أن يخلص المرء إلى حالة نفسية مرضية
والقازيء يرى أنها كلمات متعشرة ، وتشخيص متأخر عن وقته من دون
دليل أو برهان . إلا أن الافتراضات المسبقة في التقرير تظل جوهرية
بالنسبة إلينا من وجهة علم النفس ، وهي أن كلايست كان صحيح
الجسد مؤهلاً للحياة ، وأن أعضائه كانت سليمة على الإطلاق ، وهذا
أمر لا تنقضه القرائن الأخرى في سيرته التي تتحدث كثيراً عن انهيارات
عصبية خفية ، وعن فساد في هضمه وبعض المتاعب . وكانت أمراض
كلايست على ما يبدو مربياً إلى المرض أكثر منها عجزاً حقيقياً (إذا

شئنا أن نستعمل مصطلحاً في التحليل النفسي) وكانت تمثل حاجات ملحة إلى راحة الجسد بعد ضروب التوتر النفسي المفرط الوجداني . فتمد كان أجداده البروسيون قد أورثوه جسداً يحكم البنيان يكاد يكون مفرطاً في شدة أسره ، فلم تكن مصيبتهم تكمن في اللحم ، ولم تكن تختلج في الدم ، بل كانت تحتدم وتنخمّر على نحو غير مرئي ، في نفسه .

غير أنه لم يكن في حقيقة الأمر مريضاً نفسياً أيضاً ، أو ذا وسواس فيما يتصل بصحته ، أو ذا طبيعة سوداوية المزاج مبهضة للبشر (على الرغم من أن جوته يقول ذات مرة « أن وسواسه يعد بلا ريب بالغ السوء ») ولم يكن لدى كلايست استعداد مسبق ، ولم يكن مجنوناً ، بل كان على أقصى تقدير مفرط التوتر إذا شئنا أن ننطق بالكلمة على الوجه الصحيح ، وفقاً لأكثر معاني أصلها حسية وحرفية (لا على المعنى المنطوي على الاستخفاف الذي يتناوله تيودور كورنر الأديب المنتفض بعقلية طالب الثانوية لدى رواية موته الاختياري ، والمتصل بالطبيعة المفرطة في التوتر عند البروسي) وإنما كان كلايست مفرطاً في التوتر بمعنى أنه متوتر أكثر مما ينبغي ، وكان يتعرض للتمزق على الدوام بتأثير تناقضاته ، وكان يرتعش على الدوام في هذا التوتر الذي إذا مسه العقبري كانت له اختلاجة وإيقاع كالوتر ، وكانت لديه عاطفة جياشة مفرطة ، عاطفة احساس لا حد لها ولا أعنة ، تنجح إلى الغلو ، وتندفع دائماً نحو الإفراط ، ومع ذلك فلم تكن تستطيع قط أن تجد منفذاً بالكلمة أو الفعل ، لأن أخلاقية مصعّدة ومبالغاً فيها ، على النحو ذاته من الشدة ، وإنسانية ملتزمة ، كانطية وفوق الكانطية ، كانتا تصدان العاطفة الجياشة وتكبتها بأوامر الزامية

قسريّة . لقد كان جيّاش العاطفة إلى درجة التهتك مع حسن طهارة يكاد يكون مرضياً . فكان يريد أن يكون صادقاً دائماً ، وكان يضطرّ إلى أن يُنْزِم نفسه الصمت . ومن هنا كانت هذه الحالة المتمثلة في التوتّر الدائم والاختزان ، وهذا العذاب الذي لا يطاق ، الناشئ عن قوة الاندفاع النفسي مع الشفاء المطبّقة . كان فيه كثير من الدم مع كثير من الدماغ ، وكثير من المزاج مع كثير من التهذيب ، وكثير من الرغبة مع كثير من الأخلاق ، وكان مغالياً في شعوره بمقدار ما كان أكثر من صادق في فكره . وهكذا كان الصراع يتوتّر على نحو يزداد عنفاً مع الأيام خلال حياته كلها ، وشيئاً فشيئاً كان لابد للضغط أن يؤدي إلى الانفجار . إذا لم يفتح صمّامٌ ما . ولم يكن لكلايست صمام ، ولا استيرواح (وكانت هذه مصيبتيه في نهاية المطاف) : فلم يكن يفضي بمكنون نفسه في الكلمة ، ولم يكن شيء من ضروب التوتر عنده يفيض في أحاديث أو ضروب لهُو أو مغامرات شهوانية صغيرة ، أو يغرق نفسه في الغول والأفيون . ولم تكن خيالاته الجاحشة وغلوائه الفائقة الحرارة (والغامضة في الغالب) ، تنطلق من عقلاها انطلاق المتهتك إلا في الأحلام (في أعماله) . أما حين يكون يقظان فكان يخضعها بيد فولاذيّة من دون أن يستطيع قتلها تماماً . ولو كان على جانب من التراخي واللامبالاة والتصاني والاستخفاف لتخلصت عواطفه الجياشة من ذلك السلوك الخبيث ، سلوك الحيوانات المفترسة المعتقّلة ، ولكن ذلك الأكثر جموحاً وتهتكاً في شعوره كان من المتعصّبين للأخلاق ، وكان يمارس تدريباً أساسياً بروسياً ضد نفسه ذاتها ، وكان في صراع دائم مع نفسه ، وكان باطنه كقفص تحت الأرض لمشهوات كسبتت ولكنها لم تنهذب ، وكان يصلدها دائماً بحديد محمّي حتى التوهج الأحمر ،

تخرج إرادة متناهية في القسوة . ولكن الوحوش الجائعة في داخله كانت ما تفتأ تتوالب ، وقد مزقته في آخر الأمر .

وهذه العلاقة الحرجة بين الطبيعة الحقيقية والطبيعة المقصودة من قبله ذاته ، هذا التوتر المفرط الدائم بين الدافع ونقيضه جعل من عذابه قدراً . وكان شطواه لا يتلاءمان ، بل يحتكان على الدوام احتكاكاً دموياً : لقد كان إنساناً روسياً ، متخبطاً للحدود ، متعطشاً إلى التحليق ، وهو مع ذلك مقيّد في البزة الرسمية لنبييل من مقاطعة براندنبورج (١) . وكانت له رغائب كبيرة وعنده مع ذلك شعور الزامي صارم لا يبيح له أن يتراجع أمامها . وكان عقله يطالب بالمثالية ، ولكنه لم يكن يطالب بها العالم مثل هولدرلن (المأساوي الآخر في الفكر) : لم يكن كلايست يطالب بالأخلاق للآخرين ، بل لنفسه وحدها ، ومثلما كان يبالي في كل شيء — وهو المبالغ الأشد رهبة في كل شعور ، وفي كل فكرة — فهو يبالي أيضاً في هذه المطالب الأخلاقية : فعلى العرف الجامد يبعث فيه الحرارة ويحميه إلى درجة الاحمرار ليبلغ به إلى العاطفة الحماسية . أمّا أن أحداً من الأصدقاء والنساء والبشر لم يكن يسد حاجته فإن ذلك ما كان ليكدّر صفوه . وأمّا أنه لم يكن كفؤاً لنفسه ذاتها ، وأنه ، على رغم ما كان لديه من الحرارة ، لم يكن يستطيع أن يصقل نفسه ، فذلك ما كان يدمّر كبرياءه المرة بعد المرة . وكان يحاكم نفسه على الدوام ، إذ كان قاضياً صارماً — « تحيط به حالة من الصرامة » كما كانت تقول راحيل ، وكان أشدّ ما يكون صرامة في أمر نفسه . وحينما كان يطلّ بنظرة على داخل نفسه — وكانت لدى كلايست

(١) مقاطعة في بروسيا .

خياله الفظيع المغالي ، الذي يستغرق دائماً في الصور الرهيبة ، يُنْخِل إليه نتائج مرعبة في سن حوادثه . فما يتجاوزه الآخرون مع الأيام بسهولة كما يتجاوزون إصابة طفيفة ، يفترسه من الداخل مثل قرحة سرطانة إلى أن يبلغ مبلغاً عميقاً من نفسه . فهو يشوّه ، منذ كان في الحادية والعشرين ، العيب (الذي هو محض خيال) في الجنس عنده . إذ يصل به إلى أبعاد عملاقة . وهو يصف في رسالة ذلك القتي (المبتدع بلاريب) في المستشفى الذي يتعرض للدمار بفعل « غوايات شبابه » ، بأن له « أطرافاً عارية شاحبة معروقة ، وصدرًا غائراً ، ورأساً يتدلّى من الوهن » ، المنجرد تحذير نفسه وردعها . وإن المرء ليحسّ كيف كان هذا القتي البروسي يتعرض ، بلا ريب ، للاقتراس من قبل اشمثرازه من نفسه وخجله من الانحطاط الذي بلغه حين لم يقدر على الدفاع عن نفسه ضد شهوته . ويضاف إلى ذلك التصعيد المأساوي حقاً ، وهو أنه كان قد خطب ، مع شعوره بالعجز الجنسي ، فتاة طاهرة الذيل عديمة الخبرة ، وجعل يلقنها دروساً في الأخلاق تملأ أعمدة من الصحف (على حين كان هو نفسه يشعر أنه ملوث وملطّخ حتى آخر ركن من نفسه) ، ليشرح لها الواجبات الزوجية وتلك الواجبات المتعلقة بالأمومة المقبلة (على حين كان يشك بعد في قدرته على أداء واجب الرجل الزوجي) . ومنذ تلك الأيام يبدأ ذلك الاختزان الرهيب عند كلاينست ، ذلك الاختزان الذي يكبته في خزي وخجل إلى أن يشب على شفته ذات مرة ، ويفضي إلى صديق بالأفكار الجنونية ، والعار الذي يثوّمه ، والذي يوهن أعصابه . على أن الصديق - وكان اسمه بزوكيس - لم يكن على شاكلة كلاينست ، لم يكن من أهل المبالغة ، بل أحاط بالموقف بنظرة شاملة على الفور في أبعاده الطبيعية الواضحة ، وأشار على كلاينست

بطبيب في فورتسبورج ، وفي أسابيع قلائل حرّره الجراح - عن طريق عملية جراحية في الظاهر ، ولكن بالإيحاء على الراجع - من التقص الموهوم في الجنس .

والآن أصبح الجنس عنده سليماً من الناحية العضوية ، غير أن شهوانية كلايست لم تتخذ وضعاً سوياً ، محدداً بصورة كاملة أبداً . وليس هناك حاجة بعد هذا في سيرة بشرية إلى التطرق إلى «سرّ الحزام» (١) غير أن هذا الحزام بالذات تستكنّ فيه أشد طاقات كلايست خفاءً ، وعلى الرغم من مستواه الفكري الرفيع فان مزاجه يتحدّد في الأصل انطلاقاً من استعداده المتذبذب على نحو غريب والمتسم مع ذلك بالشهوانية النموذجية على الإطلاق . ولا ريب أن كل تهتكه للشوان ، المفرط ، المطلق العنان ، الجامح ، الذي يحلو له أن ينقبّ في الصور ، وأن ينسكب في ضروب من التحليق ، يستمدّ معدنه من تلك الأشكال الخفية من الإفراط . وقد لا يوجد في الأدب كله أبداً خيال أدبيّ اتخذ بمثل هذا الوضوح السريري صورة رجولة الفتان المنغمسة في المتعة المستبقة ، والتي يحتدم أوراها بالأحلام ، وتنهك قواها وتضئها بالأحلام . وعلى الرغم من أن كلايست يعد فيما عدا ذلك أكثر الوصّافين موضوعية وجلاءً فانه يتحوّل في طرائف الشهوة على الفور إلى مفرط مغدق على الطريقة الشرقية ، وتتحوّل رؤاه إلى أحلام شهوانية منفصلة تتفاقم إلى أشكال من التصعيد الحالم (فقرات الوصف في مسرحية بنتيسيليا ، والصور التي تتردد أبداً للعروس الفارسية التي تخرج صاعدة من الحمام وهي تقطر حافية بلا صندل) - فعند هذا العصب تعد عضوية

Geheimnis Des Guertels (١)

الخفية بأسرها مكشوفة تختلج عند أقل لمسة . وههنا يحس المرء أن حالة الاستثارة الشهوانية في صباه لم تكن قابلة للاستئصال ، وأن هذه القابلية المزمنة للالتهاب في شهوته ظلت باقية على رغم قهره لها وعلى الرغم من أنها صممت أيضاً في السنوات اللاحقة . وذلك أن شيئاً ما ههنا ، ما عاد قطعاً إلى توازنه ، ولم تسلك حياة كلايست الجنسية في أي وقت من الأوقات ، وفي أي منحى من المناحي خطأ ثابتاً أو خطأ مستقيماً على المسار ذي الأثر العادي للبشرية السليمة ، فكل علاقات كلايست تحتفظ بهذا التفريط والإفراط في أكثر الأشكال تبدلاً ، وتندخل ألوانها كقوس قزح في أشد التوكيدات واللويئات غرابة وخطورة ، ولأنه كان يفتقر إلى قوة الاندفاع المباشر للرغبة (وربما للقدرة أيضاً) في المجال الجنسي ، لذلك كان قادراً على كل أشكال التعدد في الجوانب وعلى المشاعر المتدرجة من مرحلة إلى أخرى : ومن هنا أيضاً جاءت معرفته السحرية بكل مفارق طرق الشهوة ومساربيها الجانبية ، وكل أشكال الاختلاط في الشهوة وتنكرها ، وهذه المعرفة الغريبة بالغريزة وتلبسها بثياب أخرى . بل إن التوجه الأصيل نحو المرأة ، هذا التوجه ذاته لا يستعصي تماماً على التبدل ، فبينما يكون القطب عند جوده وأغلب الأدباء متجهاً نحو المرأة أنجهاً خالصاً تماماً مهما يكن من تأرجحه في ذبلبة متعددة الجوانب ، تتلمس غريزة كلايست غير المتمكنة كل جهات الهدف . وليقرأ المرء رسائله إلى « روهله » ، و « لوزه » ، و « بفول » : « لقد تأملت جسدك الجميل مراراً حين كنت تنزل إلى البحيرة . . . في تون (١) بأحاسيس كأحاسيس البنات حقاً » ، أو على نحو أوضح : « لقد شيدت عصر الإغريق من

Thun (١) مدينة في سويسرا.

جديد في قلبي ، ولقد كان في وسعي أن أنام معك » - ولو قرأها لظنّه لواطياً . غير أن كلايست ليس بالمتحول ، وإنما اتخذ احساسه الجنسيّ إشكالاً شعورية شديدة فحسب . فهو يكتب إلى « الوحيدة » ، إلى أولريكه التي كانت مع ذلك أخته غير الشقيقة بأسلوب ليس أقلّ التهاباً ، بأسلوب مترع بذلك التقيض من الحرارة الشهوانية في الاحساس النفسيّ (وقد سافرت معه في ثياب الرجال في محاكاة ساخرة على نحو غريب للجانب الأنثوي في احساسه) . فهو يخلط دائماً كل خليجة من خليجات شعوره بالملح الأجاج من شهوانيته المفرطة ، ويثير الفوضى دائماً في الأحاسيس على هذا النحو . فهو يتذوّق مع لويزه فيلاند ، ابنة الثالثة عشرة فتنة الإغواء الفكريّ دون العلاقة الجسدية ، ويشده إلى ماري فون كلايست شعور الأمومة . أما المرأة الأخيرة ، هنرييته فوجل فلا تكاد تربطه بها رابطة (وما أقطع هذه الكلمات) ، وإنما هو الشغف الشهواني الجنونيّ بالموت . ولا تعدّ علاقة لكلايست بامرأة ما ، أو برجل ما ، قط ، واضحةً وبسيطة ، ولا تكون قط حباً ، بل هي مزيج دائماً ، شيء مبالغ فيه ، هي دائماً ذلك الإفراط والتفريط اللذان يشكّلان المتنفس الحقيقيّ لشهوته . وهو ينطلق دائماً « في فوضى من شعوره » - كما يقول عنه جوته بكلمته ذات الإضاءة السحرية ، وهو لا يستمد قط في معاناة ما من قنوته على الحب ، ولا يستنفد قط تلك القدرة مهما ينقبّ في الأعماق ، ولا يتحرّر قط (مثل جوته) عن طريق الفعل أو الحرب ، ويظل دائماً معلقاً من دون أن يُترك تماماً ، « وهو المتودد المتعالي عن الحسّ والمتسمّ به » وقد أنهكته السموم الحادة في دمه . وكذلك فإن كلايست لا يكون في الشهوانية أيضاً هو المطارد ، بل الطريد ، عبداً لشیطان الحماسة .

ولكن لما كان كلايست ينطوي على الالتباس من وجهة الجنس إلى هذا الحد ، وعلى الإشكال إلى هذه الدرجة ، وربما لأنه لم يكن يتمتع ههنا بالقيمة الكاملة من الوجهة الجسدية ، ولم يكن يجري على نسق واحد ، فإنه يتفوق على كل الأدباء الآخرين من حوله بالمعرفة الشهوانية . وكان الجو الفائق الحرارة في دمه ، والتوتر الشديد المؤدي إلى التمزق في أعصابه على الدوام يستخرجان من الأعماق أشدّ رواسب الشعور خفاءً : فالشهوات الغريبة التي تغشاها ظلمة الغسق في العقل الباطن عند الآخرين وتفيض ، تنبثق عنده بألوان الحمى وتتخلل شهوة شخصياته بصورة نارية وهي ساجدة في الهواء . ومن خلال تصعيد العنصر الأساسي - ويعد كلايست فنّاناً بحدّة ملاحظته من ناحية ، كما يعد كذلك بتصعيد الأبعاد - يدفع بكل شعور إلى المستوى الباثولوجي ، وكل ما يسمى بطريقة فجّة بالباثولوجيا الجنسية يتم تصويره في عمله في صور تكاذ تكون سريرية : فهو يصعد الذكورة إلى الرجولة ، ويكاد يصعدّها إلى السادية (أنجيل وعاصفة الشعاع) ، ويصعد العاطفة الحماسية إلى الشبق الأنثوي الدائم (١) والانتشاء بالدم وحب القتل (بنتيسيليا) والعطاء الأنثوي إلى ماسوشية واستعباد (كيتشن فون هايلبرون) ، ويضاف إلى هذا كل القوى المظلمة في النفس كالتنويم المغناطيسي والجحولان (٢) ، والتنبؤ بالغيب ، فكل ما هو مدون في التاريخ الطبيعي للقلب على أول صفحاته ، وغرائب الشعور ، وإطلالة الإنسان على حافته الأخيرة ، هذا ، وهذا بالذات ، هو ما يغريه بالشكل الأدبي .

Nymphomania (١)

(٢) السير أثناء النوم

ومع الأيام تزداد سيطرة هذا الطابع للأحلام الجامحة المفرطة في حرارتها الحسية ، في عمله : ولم يكن يرى سبيلاً لطرده الأرواح الشريرة والتمزق الملتهبة في دمه إلا بطردها بسوط حماسته وإدخالها في شخصياته . فالفن عنده تحضير أرواح ، وطرده للأرواح الشريرة من الجسد المذبذب بادخالها في عالم الخيال ، وشهوته لا تنهي حياتها ، بل تتناهى في الحلم فحسب : ومن هنا جاءت هذه الأشكال من التشويه التي تدخل مجال العملاق والخطير ، تلك الأشكال التي أفرزت جوتيه وأحداث صدمة عند بعض الناس غير المطلعين .

ولكن ما من شيء يعدّ من أجل ذلك أشدّ خطأً من أن يرى المرء في كلايست الرجل الشهواني (فالشهوة تفسر استعداد كل طبيعة تفسيراً هو أكثر حسيةً فحسب ، من العواطف الفكرية المجردة) فأما أن يكون شهوانياً ، بمعنى المستمتع ، المتهتك — فهو يفتقر افتقاراً كاملاً إلى لحظة تأكيد المتعة ، وإنما يمثل كلايست نقيض المستمتع ، فهو المعاني ، والمعلّب من قبل عواطفه ، وهو اللامنجز ، واللامحقق لأحلامه الحارة ، ومن هنا جاء المختزن والمضغوط والمتدفق إلى الورا والفائر من شهواته . فهنا أيضاً يبدو كعنه في كل مكان ، في صورة المدفوع ، في صورة طريد الشيطان ، فهو أبداً في صراع مع ضروراته القسرية ودوافعه ، إذ يعاني معاناة رهبة من هذه القسرية في طبيعته . ولكن الشهوة ليست إلا واحداً من مجموعة الكلاب الزبدة التي تطارده عبر الحياة ، على أن عواطفه الحياة الأخرى ليست أقل خطورة ولا أقل تعطشاً للدماء ، لأنه يدفع بكل منها — بحكم كونه أكثر المبالغين الذين عرفهم الأدب الحديث رهبة — إلى حد الإفراط . فهو يثير في

كل لحظة من محن النفوس ، وفي كل شعور حمى تصل بهما إلى الجنوني ، إلى السريري ، إلى الانتحاري . فهنا جحيم من العواطف المحتملة يفرغ فاه حيثما يثلمس البصر طريقه نحو عمل لكلايست أو نحو تعبير عن مزاجه . لقد كان مترعاً بالكراهية ، طافحاً بالضغينة ، بل ملآن من توفتر عدواني مكبوت . أما مقدار الرهبة التي يعتل بها هذا التعطش الخائب إلى القوة ، في داخله ، فذلك ما يلمسه المرء حين يتحرر الحيوان المفترس من القبضة الضاغطة ، وينقض على أكثر الناس شموخاً ، على مثل جوته أو نابليون : « أنا أريد أن أنتزع الإكليل من جبينه » ، وتلك هي ألطف كلمة تصدر عن كراهيته لذلك الذي تحدث إليه من قبل جانياً « على ركبتي قلبه » . وثمة وحش آخر من العصابة الرهبة ، للمشاعر المتجاوزة للحدود : وذلك هو الطموح ، الذي يمت بصلة الأخوة إلى وحش مسعور آخر هو الكبرياء التي تدق الأعناق ، والتي تدوس كل حجة بنعلها . وبلي ذلك مصاص للدماء كامن في دمه وفي دماغه ، هو الكآبة المظلمة ، ولكنها ليست حالة نفسية سلبية كذلك الموجودة عنه ليوباردي وليناو ، ليست ظلمة موسيقية في القلب ، بل هي « غم لا أقدر على التحكم فيه » كما يكتب ، إنه ضرب من الحمى القاتلة العدوانية الإلهية ، عذاب متوقد يردّه إلى العزلة بمرح مسموم مثل فيلوكتيت (١) . وتنشأ عن ذلك مرة أخرى لحظة جديدة ، هي العذاب الناشئ عن كونه غير محبوب ، والذي يُقضي به في « امفيثيون » إلى خالق الطبيعة ، وهو أيضاً مصعد إلى جنون الوحدة ،

(١) Philoktet ، هو ابن يياس ، من أبرز المحاربين في حصار طروادة . صاغه سوفوكل تراجيديا رائعة .

ومهما يكن ذلك الذي يحركه فهو يتحول إلى داء وإفراط ، فحتى
الميول الفكرية والذهنية إلى الأخلاقية والحقيقة والعدل يشوّها إفراطه
ليصل بها إلى أهواء جامحة ، فالتعلق بالحق يتحول إلى لساج (كولاس)
والتعلق بالحقيقة يتحول إلى تعصب يمنح إلى الإثارة ، والحاجة إلى
الأخلاقية تتحول إلى مذهبية باردة مفرطة في الحدة ، ويظل دائماً
يدفع بالأمور خارج حدودها . ويظل الخطأ المعقوف للسهم المرتد ،
دائماً في اللحم الذي يعتره التآكل شيئاً فشيئاً بفعل كل قُلُوبَات الحية
ومراتها . ذلك لأن كل هذه الدوافع المحوّلة إلى عواطف ، هذه
السموم المثيرة الشديدة الحُمّة (١) لا تستطيع أن تغادره تماماً ، وهي
تدخل في مرحلة تخمس خطير : وذلك أنه كان يفتقر إلى إفراغ الشحنة
في الفعل (كما كان الحال في شهوته) . فكراهيته لتأبليون تنفّاقم إلى
التفكير بقتله وطرح الفرنسيين أرضاً بالخلد - غير أنه لا يتناول الخنجر ،
ولا يحمل حتى البندقية في صف أو طاوور . وإنما يريد طموحه من
خلال « جيسكارد » أن يفوق سوفوكل وشكسبير معاً - غير أن هذه
القطعة تظل عاجزة ومبتورة . وتندفع كآبته نحو الآخرين ، وتبحث
خلال عشر سنوات عبثاً عن رفيق إلى الموت - غير أنه ينتظر عشر
سنوات إلى أن يجد الرفيقة في زوجة خائبة الأمل مصابة بالسرطان .
أما دافع العمل عنده وطاقته فلا يغديان إلا أحلامه ويجعلانها جامحة
متعطشة إلى الدماء . وهكذا تنمو كل العواطف المحتلدة فيه وقد نفث
الخيال فيها الحرارة بغير انقطاع ، مبدائية تصل إلى درجة من الإثارة
المفرطة والتوتر الذي يمزق أعصابه أحياناً ، ولكنه لا يقدر على أن

(١) Virulent - بمعنى ذي المقعول السمي الشديد .

يصهر « هذا اللحم المفرط في صلابته » كما يقول هاملت . وعبثاً يهيب بالعواطف أن اهتدي ، اهتدي ! فهي لا تغادره ، ويظل البخار الحار ينطلق بصفيره حتى الدفقة الأخيرة من أعماله ، ذلك البخار الناشئ عن تضخم الشعور ، ولا يكف شيطان السوط عنه ، فلا بد له أن يواصل المسير خلال أدغال مصيره في مطاردة خالدة حتى الهاوية .

طريد تطارده كل العواطف المحتملة — ذلك هو كلايست ، كما لم يكنه أحد . غير أنه ما من شيء خليق أن يكون أفحش خطأ من أن يرى المرء فيه ، من أجل ذلك ، إنساناً مطلق العنان ، ذلك لأن هذا هو عذابه الأقصى ، ومأساته الأصلية ، وهو أنه كان يواصل جلد نفسه بكل سياط عواطفه وأفاعيها ، ويشد الأعنة على الدوام حتى أن هذا السور البخامد من ارادته ليمزقه وهو يردّه إلى الوراء بينما يريد هو التقدم إلى الأمام ، وفيما عدا ذلك يقابل ذلك الطراز الذي يمت إليه يصلة قرابة جد عميقة ، الأديب الذي يقضي على نفسه بنفسه ، مثلاً في جنتر ، وفرلين ومارلو ، أي أديب العاطفة الجامحة المحلقة ، ارادة ضعيفة كارادة النساء ، وهؤلاء تطفئ عليهم غرائزهم وتسحقهم ، ويقضون على أنفسهم بالشراب والميسر واهلدار العمر والضياح ، وتسحقهم زوينة كيانهم الداخلي : وهم لا يسقطون بغتة ، بل ينزلقون نحو الأسفل شيئاً فشيئاً ، ويتدحرجون من درك إلى درك ، اذترداد مقاومة الارادة عندهم ضعفاً مع الأيام . أما عند كلايست — وههنا ، وههنا فحسب تكمن جذور المأساة الكلايستية — فيقف في مواجهة العاطفية الشيطانية الشديدة في الطبيعة ارادة للفكر شيطانية بالقدر ذاته (مثلما يقترن ، في العمل الفني ، صاحب رؤيا جامع سكران . يامري . ذي

مقدرة وحساب يتسم بالبرود والصحو والرؤية الواضحة على نحو فائق
على أن ارادته المضادة للغريزيّ فائقة القوة كالغريزة ذاتها . وهذه القوة
المزدوجة المتعارضة تصعّد كفاحه الداخليّ إلى المستوى البطوليّ . وفي
بعض الأحيان يبدو هو نفسه مثل بطله جيسكارد الذي يتخلّله الصديد من
الدمامل وهو في خيمته الداخلية العميقة (في نفسه) ، وتغشاه الحمى
بفعل كل العصابات الخبيثة ، ويعاني ، ولكنه يتماسك بقوة ارادته ،
ويواجه الناس وهو يوصد بحركة هائلة حنجرتة على سرّه . فان كلايست
لا يتراجع مقدار قدم ، ولا يدع نفسه تتردّى بلا إرادة في هاويته
الخاصة . وتنتصب الارادة فولاذية في مواجهة هذا الانسحاب الهائل
لعاطفته :

قيفي ، وانتصبي صامدةً ، مثلما تنتصب القبة
لأن كلاً يريد أن يهدّ لسيّئاتها .
وقدّمي هامتك ، كحجر البناء الأخير ،
إلى بُروق الآلهة ، وناديها : فلتصبي !
ودعي النفس تتصدع حتى القدمين ،
ما دامت نفحة من ملاط وحجر
متماسكة في هذا الصلر الفتيّ .

فهو يضع في مواجهة القلندر هذا التجبّر المقدس ، وفي مواجهة
القضاء على الذات يقيم سداً محكماً قوياً يتخلّده من الدافع العاطفي من
أجل المحافظة على الذات والارتقاء بها . وهكذا تتحول حياة كلايست
إلى صراع العمالقة مع الآلهة ، إلى كفاح جبابرة طبيعة مصعّدة :

ولا تتمثل مأساويته في أنه كان يأخذ من أحده الجانبين أكثر مما ينبغي ،
ومن الجانب الآخر أقل مما ينبغي ، بل كان لديه من الجانبين أكثر مما
ينبغي ، كان لديه كثير من الفكر مع كثير من الدم ، وكثير من الأخلاقية
مع كثير من العاطفة المحتلثة ، وكثير من التهذيب مع كثير من الانفلات .
وكان من أشد الناس افراطاً ، وكانت العلة التي « لا دواء لها
والتي كان هذا الجسد المصمم تصميماً جميلاً مصاباً بها ، فيضاً من
الطاقة في الحقيقة (كما يقول جوته) . ومن أجل ذلك كان لابد له أن
ينفجر كمرجل زبد في حرارته : ولم يكن شيطانه التوسط ، بل كان
الافراط .

* * *

خطة الحياة

كل شيء في متداخل متشابك كالنسالة
المقطعة في رأس المغزل .

من رسالة في عهد الصبا

لقد شعر كلايست في نفسه بهذه الفوضى في شعوره منذ وقت مبكر
فهو يشعر وهو غلام في منتصف الطريق إلى الوعي ، كما يشعر على
نحو أشد بكثير وهو ضابط حرس في العشرين ، بالفوران الغلاب
في شعوره ازاء العالم الضيق . ولكنه يحسب أن هذا الاضطراب وتلك
الخربة ليستا الا اختماراً للشباب ، وموقفاً تعيشاً في الحياة ، وقبل كل
شيء ، نقصاً في الإعداد والتمهيد ، وفي النظام ، وفي التربية .
والحق أن كلايست لم يُربّ قط من أجل الحياة : فهو ينتقل من بيت
أبويه المهجور إلى رعاية واعظ مهاجر ، فإلى الكلية الحربية حيث يراد
منه أن يتعلم فن الحرب على حين كان يميل أعمق الميل إلى الموسيقى ،
وكانت هذه هي الوثبة الأولى لشعوره في اللانهائي ولكن لم يكن يباح له
أن يعزف على الناي إلا في الخفاء (ويقال انه كان يتقنها إتقان البارعين).
ففي النهار كان يقوم بالخدمة العسكرية في الجيش البروسي الصارم
ويعمل أعمال التدريب فوق الحصص الرملية في قفار بلاده . أما حملة
عام ١٧٩٣ التي تزج به آخر الأمر في حرب حقيقية ، فقد كانت أكثر
الحملات في التاريخ الألماني فواجع وبؤساً وإملاً وبعداً عن البطولة ،

ولم يأت على ذكرٍ لها قط من حيث هي عمل حربي : إلا أنه يتنهّد في قصيدة له إلى السلام معبراً عن شوقه إلى الخلاص من هذا العبث .

ويقع اللباس العسكري منه موقعاً ثقيلاً على صدره الرحب ، ويشعر بطاقات تتخمّر في نفسه ، ويشعر أيضاً أن هذه الطاقات لا تستطيع أن تخرج إلى العالم بصورة فعّالة ما لم يعرف كيف ينظّمها . ولم ير به أحد ، ولم يعلمه أحد ، فهو يريد أن يكون مربّي نفسه ، وأن « ينشئ » لنفسه خطة حياة » ، أو « أن يعيش الحياة الصحيحة » كما يقول . ولما كان بروسياً فلا بد أن تكون فكرته الأولى فكرة النظام ، فهو يريد أن ينشئ نظاماً داخل نفسه ، و « أن يعيش على النحو الصحيح » وفقاً لمبادئ ، ووفقاً لأفكار وأصول . وهو يعتقد أنه يستطيع أن يُلجم هذه الفوضى في نفسه عن طريق حياة متزنة تحكمها قواعد وأنماط ، « ليدخل في علاقة تقليدية مع العالم » . وفكرته الأساسية : أن كل إنسان لا بد أن تكون له خطة حياة ، وهذا الجنون لا يفارقه بعدُ حتى نهاية حياته تقريباً . « فالإنسان الحر المفكّر لا يظل واقفاً حيث تدفع به المصادفة . . بل يشعر أن المرء يستطيع أن يرتفع بنفسه فوق مصيره ، بل يشعر أن من الممكن أيضاً توجيه المصير ، إذا فهم هذا بمعناه الصحيح ، فهو يقرر وفقاً لعقله أي سعادة هي الأعلى عنده ، ويرسم لنفسه خطة حياته . . . ومادام الإنسان غير مستعد لإنشاء خطة حياة لنفسه فهو قاصر وسيظل كذلك ، فهو يدخل تحت وصاية أبويه طفلاً ، أو تحت وصاية القدر رجلاً » — وعلى هذا النحو يتفلسف ابن الحادية والعشرين ويحسب أنه يهزأ بالقدر . غير أنه ما زال يجهل أن مصيره يكمن في الداخل ، وأنه في الوقت نفسه بعيد عن تناول طاقته .

ولكنه ينغمس في الحياة انغماساً شديداً ، فيخلع الثوب العسكري — ويكتب قائلاً : « لقد أصبحت الجنديّة بغیضة إليّ حتّى أصبح الإسهام في العمل في خدمة أغراضها عبثاً ثقيلاً عليّ شيئاً فشيئاً » . ولكن أنّى السبل إلى الخلاص من نظام والعثور على آخر ؟ لقد سبق أن قلت ان كلايست لو لم تكن فكرته الأولى هي النظام لما كان بروسياً . وأقول الآن : انه لو لم يكن يعلق الأمل على الثقافة في كل شيء من أجل هذا النظام الداخلي لما كان ألمانياً . فالثقافة إنما هي المعرفة السرية السحرية بالحياة ، عنده وعند كل ألماني ، فليتعلم ، ليتعلم كثيراً من الكتب ، وليجلس إلى المحاضرات ، ولينسخ كتب المحاضرات ، وليصنع إلى الأساتذة الجامعيين — هكذا ترسم معالم الطريق إلى العالم عند الشاب . فكلايست يأمل أن يلمس روح العالم بالمبادئ والنظريات ، بالفلسفة وعلم الطبيعة والرياضيات وتاريخ الأدب ، وأن يستخرج الشيطان من نفسه بالعزائم وهكذا يزج المبالغ الخالد بنفسه كالمجنون في خضمّ الدراسة . وكل ما يفعله ، وكل ما يلمسه ، يبت فيه الوهج بارادته الشيطانية ، فهو يسكر بالصحو ذاته ، ويصنع من الحذلقة عربدة صاحبة . وهو يرى ، مثل سلفه الفكري الألماني ، مثل الدكتور فاوست ، طريق العلوم المتدرّج والبادئ بمقدمة مستفيضة ، أطول مما ينبغي ، فهو يريد أن يأتي على كل شيء بقفزة واحدة ، وأن يتعرّف آخر الأمر ، من خلال المعرفة ، على الحياة ذاتها ، على الشكل « الحقيقي » للحياة . ذلك لأنه يعتقد ، اذ ضلّته كتابات عصر التنوير ، وبكل عصبية ارادة الاندفاع ، بإمكانية اكتساب « الفضيلة » بالمعنى الذي كان لدى الاغريق ، بمعادلة للحياة يستطيع المرء بواسطتها أن يكتسب المعرفة والثقافة بالحساب ليطبّقها بعد ذلك مثل جدول رياضيّ ، مثل جدول لوغاريتم ، على

أمثلة متنقلة من حالة إلى حالة . ومن أجل ذلك يتعلم تعلّم اليائس ،
 فحيناً يتعلم المنطق ، وحيناً آخر الرياضيات البحتة وطوراً يتعلم الفيزياء
 التجريبية ، ثم يعود إلى اللاتينية والأغريقية ، وكل هذا « بنشاط متناه في
 الجهد » ، وبحسّ المرء بوضوح أنه لا بدّ أن يصير على أسنانه ليحتمل
 ذلك : « لقد وضعت نصب عينيّ هدفاً يقتضي الجهد المتواصل من كل
 طاقتي واستغلال كل دقيقة من الوقت إذا أردت بلوغه » . غير أن هذا
 « الهدف » لا يتبيّن له بعدُ على مرور الأيام ، فهو يتعلّم في الفراغ ،
 وكلّما أمعن في تكتيل المعارف التفصيلية تضاعلت معرفته بالهدف
 الداخليّ . « ما من علم أحب إليّ من سواه ، فهل ينبغي لي أن أنتقل
 دائماً من عالم إلى آخر ، وأظل عائماً على السطح فحسب ، من دون أن
 أعمق في أي واحد منها ؟ وعبثاً يعظ نفسه لمجرد أن يقنعها بفائدة عمله ،
 وليعلّم عروسه ، بطريقة متحذقة ، آلية متحذقة في السلوك الأخلاقي ،
 ويعذب الفتاة المسكينة شهوراً بطولها كأستاذ المدرسة المهووس بالأسئلة
 والأجوبة الصبائية المتشبهة بمظاهر العقلانية ، والتي يدونها لها بدقة وعناية
 « ليقفها » . ولم يكن كلايست قطّ منفصراً ، بعيداً عن الإنسانية ،
 متحذلقاً ، مجبولاً على النزعة البروسية أكثر مما كان في تلك الحقبة
 الكثيرة ، حيث كان يبحث عن الإنسان في نفسه عن طريق الكتب
 والمحاضرات والوصفات ، ولم يكن قط غريباً عن نفسه ، ولا عن نواة
 طبيعته المتوهّجة ، أكثر منه حين كان يطمح إلى أن يجعل من نفسه
 إنساناً نافعاً بارعاً .

غير أنه ما كان ليفات من بين يدي الشيطان بتصفّح ما وضع فيه
 من كتب ورسائل : إذ يتصدّى له من الكتب اللهب الرهيب ذات يوم

على نحو محيف . واذا خطة كلايست الأولى للحياة تتقوّص فجأة ، في ساعة ، في ليلة . فقد قرأ كانط ، العلوّ اللدود لكل الأدباء الألمان ، الذي يتولّى إغواءهم وإفسادهم ، وهذا الضوء البارد المفرط في الوضوح يعمى بصره ويضطر وقد تولّاه الرعب ، أن يعلن إفلاسه من أسمى عقائده ، من الايمان بالطاقة الشافية للثقافة ، وإمكانية التعرف على الحقيقة : « نحن لا نستطيع أن نقرر أيكون هذا الذي نسميه بالحقيقة هو حقيقة حقاً أم أنه يبدو لنا كذلك فحسب » . ويعمل « الرأس المدبّب لهذه الفكرة » حقراً « في الباطن الأكثر قدسيّة » من قلبه ، وينادي في رسالة وقد أخذته الهزّة : « لقد أتى الغرق على غايّتي الوحيدة ، على أسمى غايّاتي ، وما عاد لي الآن من غايةٍ بعدها » . وتتقوّص خطة الحياة ، ويعود كلايست وحيداً مع نفسه ، مع هذه الأنا الرهيبة . الشديدة الوطأة ، الخفية التي لا يعرف كيف يمسك بزمامها . فما يكاد يضع كل وجوده ، وحياته الفكرية الطليقة ، على خريطة ، وهو العاطفي الجامح المفرط ، كعهده دائماً — حتى تجعل هذه الخريطة انبهاراته النفسيّة بالغة الرهبة والخطورة . وحين يفقد كلايست إيمانه أو عاطفته الحماسيّة فهو يخسر دائماً كل شيء : ذلك لأن هذه هي مأساويته وعظمته ، فهو يزجّ بنفسه دائماً ، وبصورة كاملة وغير منقوصة ، في شعور ما ، ولا يجد أبداً طريق العودة ، أي أنه لا يستطيع قطّ أن يحرّر نفسه بطريقة أخرى سوى الانفجار والدمار .

وكذلك يتحرر هذه المرة أيضاً عن طريق الفناء . فهو يحطّم الكأس التي ينعم بالسكر منها عبر السنين ، اذ يضرب بها جدار المصير ضربة مدويّة وهو يلعنّها . ومنذ الآن يسبح ما كان حتى الآن معبوده ،

العقل « الكتيب » ، ويهرب من الكتب ، والفلسفة ، والنظريات — ويهرب ، وهو المبالغ الخالد ، من جديد مفرطاً في الابتعاد إلى حيث النهاية الأخرى . « أنا أشعر بالاشمئزاز من كل ما يسمى معرفة » ويلقي بنفسه دفعة واحدة في النقيض ، وينتزع إيمانه من نفسه مثلما ينتزع من التقويم يوماً مدبراً من عمره ، وإذا الذي كان بالأمس مازال يرى في التربية الخلاص ، وفي المعرفة السحر ، وفي الثقافة الشفاء ، وفي الدراسة طاقة الدفاع ، يفرض الآن حماسة للخدر واللاوعي . وللبدائي ، وللحيواني — النباتي . ويتم على الفور — اذ لا تعرف حماسة كلايست كلمة الصبر — انشاء خطة حياة جديدة ، بالضعف ذاته في التركيب ، وعلى النحو ذاته ، من دون أي أساس من الخبرة : والآن يريد طالب الكلية الحربية البروسي فجأة أن يعيش حياة « مظلمة هادئة وادعة » يريد أن يكون فلاحاً ، وأن يقيم في تلك العزلة التي وجدها (جان جاك روسو) زمانه مغرية للغاية . وما عاد يمتغي شيئاً سوى ما كان السحرة الفارسيون يرون فيه الشيء الذي يحوز رضى الرب إلى الحد الأقصى : « أن يزرع المرء حقلاً » ، وأن يغرس شجرة . وأن ينجب طفلاً » . وما تكاد الخطة تدخل في روعه حتى تجرفه في مسارها : فبمثل السرعة التي أراد بها كلايست أن يكتسب الحكمة يربع الآن أن يغدو محدث الحس . وبين عشية وضحاها يغادر باريس ، حيث كان قد لجأ ، « مشوش المهن من دراسة فلسفة كتيبة » . وبين عشية وضحاها يطرح عنه عروسه ، لا لشيء إلا لأنها لا تستطيع أن تكتيف أوضاعها مع خطة الحياة الجديدة ، وتعرب عن ارتياها في أن تكون قادرة على أن تعمل خادماً في الحقل والخطيرة وهي ابنة جنرال كبير . غير أن كلايست لا يستطيع الانتظار ، فإذا ما استحوذت عليه فكرة توقد من الحمى . ويأخذ في دراسة كتب

الزراعة ، ويعمل مع الفلاحين السويسريين ، ويعجوب الأقاليم طولاً وعرضاً ، ليشترى بما تبقى لديه من المال قطعة من الأرض (في وسط البلاد التي أقامتها الحرب وأقعدتها) ، فهو لا يستطيع ، حتى وهو يبغني أكثر الأشياء تعقلاً ورزانة ، كالثقافة والزراعة ، أن يسلك سبيلاً آخر سوى السبيل الشيطاني . وذلك أن خططه في الحياة كالفتيل المشعل : إذ يندلع لهيبها لدى أول تلامس مع الواقع . فكلما زاد من جهده كان ذلك أحرى أن ينتهي به إلى الإخفاق ، ذلك لأن فطرته تقوم على الإفساد عن طريق المبالغة . وما يصيب فيه كلايست نجاحاً إنما يتحقق خلافاً لإرادته : إذ تحقق القوة الخفية الغامضة فيه دائماً ما لم تحسب له إرادته حساباً ، وبينما كان يلتمس المخرج في الثقافة ، ثم في الانقلاب على الثقافة من جديد ، في حذلقات عقله هذه البالغة الحرارة ، كان الاندفاع ، وهو قوة الإرادة الغامضة في كيانه ، قد تحرّر . فبينما كان يسعى إلى شفاء الحمى الداخلية عنده بالمراهم والضمادات بصورة عقلانية ، إذا بالتخمر الخفي ينطلق ، وإذا الشيطان المكبّل بالأغلال ينفلت من عقاله في القصيدة . فقد بدأ كلايست في باريس « أسرة شروفسشتاين » وهو في حالة جَوْلان (١) الشعور ، بغير قصد على الإطلاق ، وعرض على أصدقائه هذه المحاولات الأولى وهو متردد : ولكنه ما يكاد يتيسّن امكانية تخفيف جماع شعوره أخيراً عن طريق صمّام منفتح ، وما يكاد يشعر كيف تتاح له ههنا ، في هذا العالم ، عالم الحدود والقيود والمعايير ،

(١) الجولان (بفتح الجيم والواو) هو السير ليلا أثناء النوم .

« المترجم »

حرية الخيال ، حتى تنطلق إرادته انطلاقاً جنونياً في هذه اللانهاية (وهو يتسم هنا أيضاً بالتلهف ذاته ، على الوصول إلى النهاية الأخيرة من تلك اللانهاية ، في الساعة الأولى) . فالأدب هو التحرر الأول لكلايست : وفي نشوة عارمة يعود ليُسَلِّم نفسه إلى الشيطان (الذي ظن أنه قد أفلت منه) ويلقي بنفسه في أعماقه الخاصة ، وكأنه يلقي بها في هاوية .

* * *

طموح

ويلاه ، انه لما ينالني المسؤولية ،
ان نبعت في انفسنا الطموح - فانما
نسلم انفسنا فريسة لعنة .

« من رسالة »

ويقتحم كلايست المجال اللا محدود الخطير من الأدب وكأنه
خارج من سجن ، إذ تفتح للحافز المتخمر عنده أخيراً إمكانية التفرغ ،
فالخيال المحصور يستطيع أن يفتت في شخصيات ، وأن ينساب في
الكلمة المتماوجة . غير أن رجلاً مثل كلايست لا يطيب له شيء ،
لأنه لا يعرف اعتدالاً ، فما يكاد يشرع في العمل الأول ، وما يكاد يجرؤ
على أن يحس بنفسه مصوراً وأديباً ، حتى يريد على الفور أن
يكون الأديب الأكبر والأروع والأكثر شموخاً في كل العصور .
ويدعي لباكورة انتاجه الحق المبني على الشطط ، في أن يفوق أبدع أعمال
الاغريق والعصر الكلاسيكي . انه الوصول إلى كل شيء لدى القفزة
الأولى ، وبذلك تنحرف تلك المبالغة الكلاسيكية الآن إلى المجال الأدبي .
فأما الأدباء الآخرون فيبدأون مترددين تراودهم الآمال والأحلام ،
بالتجارب والتنازلات ، وأما كلايست ، الذي يعيش على الدوام في
الحدود القصوى ، فيطلب من التجربة الأولى على الفور مالا سبيل إلى
بلوغه . فبطله جيسكارد الذي يبدأ به (بعد عمله المبكر في « أسرة

شروفتشتاين » ، ذلك العمل الذي يكاد يكون جَوْلَانِيًّا (١) يفترض فيه ، بل يتوجب عليه ، أن يكون المأساة الجبارة لكل العصور ، وهو يريد الوصول إلى الخلود بخطوة واحدة ، ولم يعرف الأدب جسارة أكثر جبروتاً من مطالبة كلايست بالخلود منذ الانبثاق الأولى لطاقته . والآن فحسب يرى المرء مقدار ما كان الرجل المستعر في صدره ينطوي عليه من الكبرياء الخفية : فهو يختلج ويتزّ في كلمات يتصاعد بخارها . وحين تهذي مادة خام عن الأوديسات والالياذات التي تريد أن تبدعها فانما يكون ذلك ثرثرة مفرطة عن النفس صادرة عن طبيعة ضعيفة تنطوي على إيمان ضعيف . ولكن كلايست جادٌ كل الجِد في مبارزته مع آلهة الفكر . وحين تستحوذ عليه عاطفة محتدمة يدفع بها إلى ما لا حدّ له . (وهي تدفع به ، بدورها) ومن هذه الساعة التي تتضح فيها رسالته يتحول الطموح إلى تعبئة تكاد تكون قاتلة ، لكل وجوده . فصراع العمالقة عنده حقيقي كحياته ، كموته ، حين يفترض فيه الآن ، وهو اليائس من الحياة ، المكبُّ على عمل في ، أن أن يوحد في ذاته أرواح اسخيلوس وسوفوكليس وشكسبير (كما يفضي بذلك إلى فيلاند) في تحدٍ عنيد للآلهة . ويظل كلايست دائماً يراهن بكل ما لديه على ورقة واحدة ، ومنذ الآن لا تعود خطوة حياته تسمى الحياة ، والحياة الصحيحة ، بل الخلود .

ويبدأ عمل كلايست الفني في فورة النشاط ، في الانتشاء الأخير والسيكر ، فكل شيء ، حتى الابداع ، يتحول لديه إلى عريضة .

(١) نسبة إلى الجولان ، وهو السير أثناء النوم

وتنطلق صبيحات اللذة وصبيحات الألم من رسائله في تنهد أو غمغمة .
 فما يشجع الأدباء الآخرين ويهبهم الطاقة ، وهو إشاعة المرح عن
 طريق الكلمة الباعثة على البهجة ، يجعله يترنح خوفاً واستمئاعاً . فبهذه
 الدرجة من الرهبة يُستثار كيانه كله من بديلي النجاش أو العجز .
 وما يعد سعادة لدى الآخرين يتحول لديه (هنا ، كشافه دائماً) إلى
 خطر ، ذلك لأنه يدفع بالحسّم الكبير حتى عصب الحياة الأخير .
 وهو يكتب إلى أخته : « إن بداية قصيدتي التي يراد بها إعلان حبك
 لي على الملأ تثير إعجاب كل الناس الذين أحدثهم عنها . ربّه ! ياليتني
 أستطيع إنهاءها ! وياليت السماء تحقق لي هذه الأمنية الوحيدة ، ثم
 لتصنع ماشاءت » وهو يراهن بورقة جيسكارد هذه الوحيدة على
 حياته كلها . وبينما يفرق في العمل في جزيرته في بحيرة تون ، وبغوص
 تماماً في هاويته الخاصة ، يناضل نضال يعقوب مع الملاك ، ومع الشيطان ،
 ليحرر نفسه . وفي بعض الأحيان يهتف مزغرداً بافتتان مجنون ، :
 « عما قريب سيكون عليّ أن أكتب إليك بأمر سارٍ للغاية ، ذلك لأنني
 أقرب من سعادة الأرضين كلها » . ثم يتبين له من جديد ما استحضر
 من قوى الظلام ، فيقول : « ويلاه ، هذا الطموح التيس ، إنه السمّ
 لكل المباحج » . وفي ثواني الضياع يودّ لو يموت — « أنا أرجو من
 الله الموت » ثم يعاوده الخوف من جديد ، من أن يموت « قبل أن ينجز
 عمله » ولم يحدث قط أن كافح أديب بأكثر من هذه المראה وبأشد
 من هذه التعبئة الجنونية لكل وجوده ، من أجل عمله ، مما فعل كلايست
 في تلك الأسابيع ، أسابيع العزلة في الجزيرة الصغيرة في بحيرة تون .
 ذلك لأن هذا الجيسكارد هو أكثر من مجرد انعكاس أدبي لكيان داخليّ ،
 فهو يريد هنا ، بهذه الشخصية الجبارة ، أن يصور كل مأساة وجوده ،

الإرادة الهائلة للفكر الرجولي ، على حين تنخر الجسد من الأسفل آفاته وقروحته على نحو خفي . والإنجاز هنا يعني : البر ، والنصر يعني الخلاص ، والطموح يعني الحفاظ على الذات ، ومن هنا كان هذا التشنج الهائل ، وكانت هذه الأعصاب المتوترة المشدودة حتى كأنها العضلات . إنه صراع من أجل جسم حيوي ، وهذا ما يشعر به هو ومعه الأصدقاء الذين ينصحون له قائلين : « لا بد أن تنجز الجيسكارد ولو كانت جبال القوقاز والأطلس كلها جاثمة فوقك » ولم ينهماك كلايست قط مرة أخرى بهذا العمق في عمل مثله ، فهو يكتب المأساة مرة ، ومرتين ، وثلاثاً ، على التعاقب ، لبتلفها من جديد ، وهو يعرف كل كلمة فيها غيباً حتى إنه ليستطيع أن يتلوها على فيلاند تلاوة حرة من الذاكرة . ويظل طوال شهور يدرج الحجر الهائل إلى الدروة ، ويظل يتدرج من جديد إلى الأسفل : إذ لم يؤت مثلاً أوتي جوته في « آلام فرتر » ، وفي « كلافيجو » ، وهو أن ينفذ عن نفسه بحركة واحدة الطائف الذي يطيف به ، إذ إن الشيطان متشبث بروحه على نحو أشد إحكاماً . وأخيراً تهبط يده عظيمة ويتنهّد المجتهد قائلاً : « السماء تعلم ، يا غاليتي أولريكه (ولني لأود أن أموت إذا لم يكن ذلك صحيحاً صراحةً حرفية) كم كان يسرني أن أهب قطرة دم من قلبي لكل حرف من رسالة يمكنها أن تبدأ على النحو التالي : « لقد انتهت قصيدتي » . ولكنك تعلمين من يفعل أكثر مما يطيق ، حسب المثل . لقد وضعت الآن خمسمائة من الأيام المتعاقبة بعضها وراء بعض ، بما فيها من أغلبية الليالي ، قيد التجربة ، لأضيف إلى الأكاليل الكثيرة جداً لإكليلاً آخر على أسرتنا : والآن تهيب بي آهتنا الحامية المقدسة أن كفى هذا . . . وأنه سيكون من الغباء على الأقل أن أبدل طاقاتي

وقتاً أطول من هذا في عمل لا أطيعه ، كما لا بد لي أن أقنع نفسي
آخر الأمر . وهأنذا أترجع لأفسح المجال لرجل لا وجود له بعد ،
وأنحني أمام روحه سلفاً قبل ألف عام .

ويبدو في مدة ثانية ، كأن كلايست أراد أن ينحني أمام القدر ،
وكان فكره المضيء له سلطان على شعوره المحتدم . ولكن شيطانه ما زال
ممسكاً بزمامه : فهو لا يستطيع أن يحتمل الموقف البطولي المتمثل في
التنازل الكبير ، إذ إن طموحه لا يمكن إلجأه بعد أن ضرب ذات مرة
بالسوط نحو الأعلى . وعيناً يحاول الأصدقاء أن يخرجوا به من يأسه
المظلم ، وعيناً يشيرون عليه برحلة إلى إقليم أكثر إشراقاً ، إذ إن ما كانوا
يحسبونه نزهة ينشرح لها الصدر يتحول إلى هزيمة لا معنى لها ، من مكان
إلى مكان ، ومن أرض إلى أرض ، إلى هرب من الفكرة الأكثر إثارة
للرهبة . ويعد إخفاق جيسكار د طعنة الخشجر لكبرياء كلايست الجلاء .
وفي تحول مفاجئ يحل الآن الشعور القديم بالنقص ، ذلك الشعور المضيء
محل الكبرياء الرجولية التي تنزع إلى اقتحام السماء . وتكرر مرة أخرى
فكرة الخوف الرهيبة العائدة إلى صباه ، الخوف من العجز ، من عدم
القدرة ، إلا أنها تتجه الآن صوب الفن . فمثلما كان في تلك الأيام يخاف
من حيث كونه رجلاً ، يخاف الآن ألا يستطيع بعد البدء أن يبلي بلاء
حسناً من حيث كونه أديباً ، ويتنهد وهو يقول مزبداً ، مغالياً بضعفه
بصورة مفتعلة (كما كان في تلك الأيام) : « لقد وهب لي نصف الجحيم
مواهبي ، أما السماء فتهدب الإنسان شيئاً كاملاً أو لا شيء على الإطلاق » .
ولكن كلايست الذي لا حدود عنده ، لا يعرف إلا « الكل » أو
اللاشيء ، الخلود أو الفناء .

وهكذا يلقي بنفسه في اللاشيء ، وهكذا تمّ الفعلة الجحونية ، وهي نوع من الانتحار الأول (يقوم به على نحو أصعب مما يحدث به موته الاختياري فيما بعد) فحين يصل باريس ، وقد أصابته الحمى من سفر لا معنى له ، يقوم باحراق « جيسكارد » ومشاريعه الأخرى انقاداً لنفسه من تطّبعها إلى الخلود . والآن تمّ إتلاف خطة الحياة : وفي مثل هذه اللحظات يظهر دائماً خصمها ، وكأنما استدعي بطريقة سحرية : خطة الموت . وحين يتحرر من شيطان الطموح يكتب تلك الرسالة الخالدة التي قد تكون أجمل رسالة صاغها فتان في لحظة الإخفاق : « عزيزتي اولريكه ! إن ما سأكتبه إليك قد يكلفك حياتك ، ولكن لا بدّ لي ، لا بدّ لي من أدائه . لقد تصفحت عملي ، إلى النقطة التي انتهت إليها ، في باريس ، ثم طرحت أرضاً وأحرقته : والآن قضى الأمر ، فإن السماء تضمن عليّ بالمجد ، وهو أعظم متاع الدنيا ، وها أنا ذا ألقى إليها ، كالطفل العنيد ، بكل المتاع الباقي : وأنا لست بمستطيع أن أظهر أنني أهل لصداقتك ، على أنني لا أستطيع مع ذلك أن أعيش من دون هذه الصداقة : فأنا أهوي بنفسي إلى الموت : فلا تُراعي أيتها النبيلة ، فسأمت موت المارك الحميل ، . . وسوف أدخل في الخدمة العسكرية الفرنسية ، ولسوف يعبر الجيش عما قريب بالمجازيف إلى انكلترا ، وها هو ذا الهلاك يتربّص بنا جميعاً فوق البحار ، واني لأطير فرحاً إذ أطلّ بناظري على القبر الذي لا تنتهي روعته » . وبالفعل يهيم على وجهه مخدّر الحواسّ وقد استطار عقله بالفعلة الناجزة ، في أرجاء فرنسا ، إلى سرفاً بولونيا (١) ، حيث يردّه الصديق المدعور بشقّ النفس ، ثم يرقد طوال شهور غائباً عن الوعي عند طبيب في مانتسن .

(١) ميناء صيد على الساحل الفرنسي المواجه للساحل الانكليزي المترجم

وهكذا تنتهي قفزة كلايست الأولى الهائلة ، فقد أراد أن يدفع بكل ما في داخله ، بالشيطان ، إلى الخارج ، غير أنه لا يزيد على أن يمزق صدره ، ويبقى في يديه الداميتين بضعة من تمثال ، هو بلا ريب أروع ما أبدع أديب في نوعه . ولا ينتجز شيئاً سوى ذلك المشهد الذي يتمثل فيه تحدي الارادة عند « جيسكارد » - وفي ذلك من الرمزية ما يكفي - حيث يتغلب على ألمه وآفاته بقوة فولاذية - غير أنه لم يصل بعد إلى بيزنطة ، ولم ينته العمل . ومع ذلك فإن هذا الكفاح وحده ، من أجل التراجيديا، إنما هو تراجيديا بطولية بذاتها . وما كان لأحد أن يكافح من أجل الله على هذا النحو إلا إذا كان يحمل الجحيم كله في نفسه مثلما جنى كلايست بهذا العمل على نفسه.

* * *

الاندفاع القسري الى المسرح

اننا اكتب لا لشئ الا لانسي
لا استطيع ان اكلد عن الكتابة .
« من رسالة »

ويحسب المعبّد أنه باتلافه « جيسكارد » إنما خنق في نفسه الدائن
الذي لا يرحم ، والذي يلاحقه ملاحقه رهيبه ، غير أن الطموح ،
الشيطان حياته الذي ييزغ بصورة رهيبه ، من أشد شرايينه حرارة ،
لم يمت . وإذا فقد كانت الفعلة المشؤومة عديمة المعنى على هذا النحو ،
كما لو أطلق المرء النار على صورته المنعكسة في المرأة ، فالصورة المهذّدة
هي التي تنقص ، لا الخصم الذي يتابع التربّص به . ولا يستطيع
كلايست أن يقلع عن الفن إلاّ بمقدار ما يستطيع مُدّمين المورفين
أن يقلع عنه . وأخيراً عثر على صمّام يفرّغ به نفسه لأجل قصير من هذا
الجموح الرهيب في شعوره ، وهذا الطوفان من الخيالات ، ويتقلّب
في الأحلام الشاعرية ، وعبثاً يقاوم ، فما عاد قادراً ، وهو المحتقن
بمشاعره ، على الاستغناء عن ذلك الفصاد الساخن الذي يحرّره ، ثم إن
الثروة قد استهلكت ، وساء أمر المهنة العسكرية ، أما العمل الجاف
المزدرى في الوظيفة فهو مجاف لطبيعته العنيفة ، وهكذا فما من شيء
ينجديه ، على الرغم من أنه يجأّر بالصياح معذباً : أو أكتب الكتب لقاء
المال — كلا ، هيهات ، هيهات ! ويتحول الفن ، والتصوير ،

بالضرورة ، إلى قالب لوجوده ، واتخذ الشيطان الغامض لنفسه صورةً ،
فهو يتجول معه في أعماله ، وتمزقت كل خطط الحياة التي صممها
بصورة منهجية ، بعاصفة القدر : وهو يعيش الآن وفقاً لارادات
طبيعته الغامضة الحكيمة ، التي تحب أن تصوغ من عذاب الانسان
اللامتناهي شيئاً لا متناهياً

والآن يجم الفن عليه كشيء قسري ، كآفة من الآفات ، ومن هنا
أيضاً جاء القسري في مسرحياته والمنطلق من عقالة كالانفجار ، على نحو
يلفت النظر . فمسرحياته انبثاقات من أعماق شعوره ، وهرب من
جحيم قلبه — باستثناء « البحرة المحطمة » التي نشأت بسهولة فائقة ،
وعلى سبيل العبث ، من أجل رهان — وهي تتسم جميعاً بنبرة صياح
منرطة في الاستثارة ، كالنبرة الصارخة لرجل يخنق ثم يجد الهواء
بغته ، إذ طوّحت بها بصورة مدوّية أعصاب متوترة مشدودة للغاية ،
واستميع العذر للصورة التالية التي لا أعرف أصدق منها — فهي تنتشر
صادرة عن أعماق حرارة ، وضيق ، كما تخرج نقطة الرجل حارة
كالدم من الجهاز التناسلي ، وقلماً تتلقّى إخصاباً من الفكر ، وقلماً
يظللها العقل — بل تنطلق عارية ، عارية في الغالب بلا حياء ، في
اللانهاية ، صادرة عن هوى جارف لانهاية . فكل فرد يدفعه شعور ،
شعور عارم في حدة الأقصى ، وفي كل فرد تنفجر خلية أخرى من
لهيب روحه المختزنة ، الزاخرة بكل الغرائز . ففي جيسكاردينثيق كل
طموحه البروميثوسي من ذاته كما ينبثق الدم من وعاء دموي منفجر ،
وفي « بنتيسيليا » تحتدم حرارته الجنسية ، وفي « معركة هرمان » تجمع به
الكرامية التي يدفع بها إلى درجة الوحشية — والأعمال الثلاثة جميعاً تجري

في شرايينها حمى دمه أكثر مما تجري فيها الحرارة الخارجية للحياة الواقعية وحتى في الأعمال الأكثر لطفاً ورقة ، والأكثر تعرضاً لشطط الأنا الخاصة ، كما هو الحال في « كيتشن فون هايلبرون » ، والأقاصيص ، يظل التوتر الكهربائي يثير الرعدة في أعصابه . وفي مكان نتابع فيه كلايست يسود الجو السحري والشيطناني غسق الشعور وانسدال الظلال . ثم إن هذا الانطلاق الصارخ لبرق العواصف الكبرى ، ذلك الهواء الرطب المضغوط الذي ظل طوال حياة بأسرها جائماً على قلبه ، ثقيلًا وهذا القسري ، وهذا الجوّ الناري - الكهربائي من التفريغ يكسب مسرحيات كلايست سمة خاصة على نحو بديع . والحق أن تلك المسرحيات التي كتبها جوته تمثل أيضاً تحولات في الحياة غير أنها ليست سوى تحولات من قبيل الأحداث العابرة ، فهي مجرد تفريغ شحنات ، وتخفيف أعباء عن نفس مثقلة ، وضروب من التبريد الذاتي ، وهرب ، وذريعة . غير أنها لا تتسم أبداً بتلك السمة الخطيرة الانفجارية ، وذلك الطابع البركاني ، مثل مسرحيات كلايست ، حيث يُقذف إلى الخارج بأنقاض اللحم من أعماق أعماق القلب ، وأعسرهما منالاً ، وأشدّها خطراً ، يمثل هذا الضغط المبالغ . وهذا العنف في الثوران ، وهذا الإبداع على شفا الجحرف بين الموت والحياة ، هو أيضاً ما يميّز كلايست من العبث بالأفكار ، الذي يتزيّا بأزياء شتّى عند هيبيل (١) ، حيث تأتي الإشكالية من الدماغ ، لا من أعماق الأعماق البركانية للوجود ، أو من مسرحيات شيللر التي هي مجرد تصورات وتركيبات رائعة ، غير أنها تظل مع ذلك ، على نحو ما ، خارج المحنة الخاصة ، والخطر الخاص القائمين

(١) فريدريش هيبيل (F. Hebbel) (أديب ألماني (١٨١٣ - ١٨٦٣).

في الحياة ، ووراءهما ، وبصورة لا تنطوي على تهديد . ولم يتوغل شاعر قط بهذا العمق ، وبكل روحه ، في المسرح ، ولم يقدم أحد على نسف صدره نفساً قاتلاً بأدبه ، بهذه الشدة . ولم ينشأ ، فيما عدا ذلك ، ما يعدل هذه بركانية وقسريّة وإمتاعاً للنفس ، إلا الموسيقا . على أن هذه الخاصة الخطيرة بالذات قد أغرت أكثر الموسيقيين بمجازفة ، بصورة سحرية ، بأن يدع هذا الثوران الأشدّ عمقاً للعاطفة الثائرة الهوجاء يدوي مرة أخرى في « بنيتسليا » . ولكن أو لا يعبر هذا الإكراه ، هذا القسريّ عند كلايست ، بصورة متسامية ، عن المطلب الذي وضعه أرسطو قبل ألفي عام بصدد المأساة ، وهو أن تقوم بالتطهير من انفعال خطير ، عن طريق تفريغه تفريغاً عنيفاً ؟ . ففي الصفتين « خطير » و « عنيف » يكمن التوكيد الحقيقي . ومن أجل ذلك تبدو التعليمات كأنها مكتوبة لكلايست ، وإلاّ فأية انفعالات كانت أكثر خطراً من انفعالاته ، وأية تفريغات أكثر عنفاً ؟ لم يكن ، مثل شيللر ، مهيماً على مشكلاته ، بل كانت تستحوذ عليه ، غير أن هذا بالذات هو الذي يصل بثورانه إلى هذه الدرجة من العنف ، وهذا القدر من التشنّج . فابدأه لا يعرف توجّهاً إلى الخارج مبنياً على التأمل والتخطيط ، بل لا يعرف إلاّ الاطّراح بعيداً ، والصراع المحتدم من أجل التخلص من نحنة داخلية متناهية في الشدة تضيق عليه الحناق حتى لتكاد تقتله . وكل إنسان في عمله الفني يحس (كما يحسّ هو نفسه) بالمشكلة المفروضة عليه على أنها المشكلة الوحيدة الجوهرية ، وكلّ يفيض به الشعور إلى درجة الجنون : وكلّ معنيّ في كل حال بالكليّ ، بالنعم واللا في الوجود كله . وعند كلايست يتحول كل شيء في ذاته إلى حد قاطع ، إلى أزمة (ولذلك يحدث هذا في شخوصه) . فأما نحنة الوطن ، المحنة

الأخرى ، فليست إلاّ مقطوعة مؤثرة غنيّة بالكلمات يتعالى هديرها ، وهي الفلسفة (التي لم يكن جوتيه يتابعها إلاّ بصورة تأملية نقدية ، ويتقبل منها قدر ما يقتضيه نموه الفكري) . وأما الشهوة والحياة فكل هذا يتحول إلى حمّى وجنون ، إلى معاناة أصيلة قديمة تهديد بتدمير الإنسان كله . وهذا ما يجعل حياة كلايست الآن حياة مسرحية إلى هذا الحد ، ومشكلاته مأساوية إلى درجة لا تظل معها مثل تلك الإخيلة الشعرية عند شيللر ، بل تتحول إلى وقائع قاسية لشعوره . ومن هنا جاء الجوّ المأساوي حقاً في عمله ، ذلك الجوّ الذي لم يصوّره أديب ألماني آخر على نحو مماثل ، فالعالم ، والحياة كلها عند كلايست يتحولان إلى حالة توتر : فالعجز عن الاستخفاف بأي شيء ، وصرامة الإدراك لا بد أن يؤديا بكل من شخصه ، سواء أكان كولهاس ، أم هومبورج وآشيل ، بالضرورة إلى صراع مع خصومه ، ولما كانت هذه الأشكال من العناد تتعرض للتصعيد والمبالغة ، مثل تلك التي توجد عنده ، وعلى النحو ذاته ، لتصل إلى الشكل المائل ، فان حضوراً مسرحياً وجوّاً مسرحياً ينشآن هنا عن ضرورة أصيلة ، لا عن طريق المصادفة ، بل بطريقة قدريّة .

وإذا فالوصول إلى المأساة عند كلايست يتم بطريقة طبيعية وقسرية . فالمأساة وحدها هي التي كان في وسعها أن تحقق التعارض المؤلم في طبيعتها (وعلى حين تفسح الملحمة المجال لأشكال أكثر تساهلاً واسترخاءً ، فان المسرح يقتضي الارهاق الأقصى ، ولذلك كان وحده الذي يلقي الترحيب من لدن طبعه القائم على المبالغة والاسراف) . وقد تحدث جوتيه شيء من السخرية عن « المسرح اللامنظور » الذي خصصت له

تلك المسرحيات : وكان هذا المسرح اللامنظور ، عند كلايست هو الطبيعة الشيطانية للعالم ، التي تنشئ من الفصل القسري ، من مخور التناقض ، مثل هذا التوتر وهذه الحركة ، إلى أن كان لا بد لها أن تنسف خشبة المسرح وتجرفها بطوفانها . وما كان أحده ليريد أن يكون أقل من كلايست في اتجاهه العملي : فقد كان يريد أن يفرغ شحنة عن نفسه ويخفف عن نفسه ، وكل شيء ينطوي على اللهو أو الفرض يناقض الاضطراب العاطفي في شخصيته . وتنسم تصوراته بشيء من طابع المصادفة والاسترخاء ، كما أن روابطه أوجى ، وكل شيء مرسوم كالنقش الجداري الجصي (١) (على عجل وبصبر نافذ) : وحيثما لا تنسم لمسة يده بالعبقريّة فهو يتلمّس طريقه محاذياً لها في المجال المسرحي ، وحتى في المجال المبلو درامي ، وهو يسقط في بعض المواضع في أدنى درجات كوميديا الضواحي (٢) ، ومسرح الفرمان ، والمسرح السحري ، ليعود بوثة واحدة ، بضربة مدوية (مثل شكسبير) إلى أسمى أجواء الفكر . فالموضوع عنده ليس إلا ذريعة ومادة ، على حين أن الاستعارة بالعواطف المتأججة يعدّ في مقابل ذلك الانفعال الحقيقي . وهكذا يقوم في الغالب باحداث التوتر بالوسائل الأدنى الأقل براعة ، والأكثر استعارة (كيتشن فون هايلبرون ، اسرة شروفنشتاين) ، ولكن ما تكاد حرارة العاطفة تستعر عنده ، وما يكاد يدخل في عنصره الأصيل عنصر التعارض ، بطاقة نفسه البخارية الدافعة ، حتى يتندع ضروباً من الحدة لا مثيل لها . وعلى هذا فلا بدّ له أن يمعن دائماً في التزول إلى الأعماق ، ومن أجل ذلك يحتاج ، مثل دوستوفسكي ، إلى ضروب

(١) Al Fresco بالاطالية في الأصل .

(٢) Vorstadtkomödie .

من التمهيد تستغرق وقتاً طويلاً ، كما يحتاج إلى أكثر المداخلات صقلاً ، وإلى المهابط التي تشبه المتاهات . ففي بداية مسرحياته تنكتل الوقائع ويتكتل الموقف (الجرة المحطمة ، جيسكارد ، بينتيسيليا) إلى أقصى درجات الكثافة ، وكأنما تم بذلك إنشاء السحب التي يمكن للعاصفة المسرحية بعد ذلك فحسب أن تنطلق منها ، وهو يحب هذا الجو المختزن الذي لا يحيط به النظر ، والمترع ، لأنه يمثل في اضطرابه وتداخله ، وانعدام المخرج فيه ، جو نفسه على الوجه الصحيح تماماً – فاضطراب الوضع هنا يتماشى مع ذلك « الاضطراب في الشعور » الذي كان يثير مخاوف جوته ، الشيطاني الواضح عنده إلى درجه فائقة . ولا ريب في أنه يستكن في أساس هذا التواري القسري ، وهذا التخمين للألغاز ، والاستخفاء ، شيء من الاستمتاع الشاذ بالعلاب ، استمتاع تمهيدي يتمثل في التوتر ، والتباطؤ ، والتلدد ، ومعاينة صبره وصبر غيره بأعواد الثقاب . وعلى هذا النحو تمس مسرحيات كلايست الأعصاب مساً مثيراً حتى قبل أن تدع الشعور يستعر : وهي مثل موسيقا تريستان ، يحلو لها أن تبدع ، برتابة مترفة ، وبايماءات متوترة ، وبأشكال مثيرة من الالتباس والغموض ، ذبذبة في الشعور . وفي « جيسكارد » وحدها يكشف بحركة واحدة ، وكأنه يزيج ستاراً ، عن الموقف كله في وضوح كوضوح النهار – وفيما عدا ذلك تبدأ كل مسرحية عنده (هو مبورج ، بنتيسيليا ، معركة هرمان) باضطراب وتدخل في الموقف والشخصيات ينشق منه بعد ذلك بصورة جارفة هائلة كالطوفان انفعالات الشخصيات الأصلية المحتمدة ، وتتلاطم فيسحق بعضها بعضاً . وفي بعض الأحيان تلعو في عنفوانها وزخمها على التصور الهش المرسوم من قبل فتسحقه :

وباستثناء ما يحدث في «هومبورج» بحس المرء لدى كلايست دائماً وكأن شخصياته قد انتزعت نفسها من يده لتلقى بأنفسها في الحمى ، ثم تابعت التردّي منطلقة فيما فوق الأبعاد ، في طاقات الشعور ، كما لم يعجزوا على مثلها الحلم اليقظان ولم يردّها ، فهو لا يهيمن على شخصياته وشكالاته مثل شكسبير ، بل ترتفع به فوق ذاته نفسها ، وهي تتبّع النداء الشيطاني ، وكلُّ منها تلميذٌ ساحر ، ولا تجري وراء الارادة الواضحة ذات التخطيط . وبالمعنى الأعلى يعد كلايست غير مسؤول عنها كما لا يعد المرء مسؤولاً عن كلمات نطق بها في الأحلام ، وهي تشي بأصدق الرغائب دونما حرج .

وهذا القسري ، المغلول الحرّي ، وهذا الاضطراب المفروض فوق الارادة الخاصة ، يسيطر أيضاً على لغته المسرحية : فهي مثل أنفاس منفعل . فحيناً تفيض مزبدة متدفقة ، وطوراً تلهث بصورة مقتضبة : مجرد نشيج ، أو صيحة ، أو صمت . وما تفتأ تنتقل من نقيض إلى نقيض : وأحياناً تكون تصويرية رائعة في إيجازها ، وهي تنطبع انطباعاً قوياً بتحفظها الجامد ، ثم تنصهر في فيض حرارة الشعور بغير عائق منتقلة إلى الغلو ، وفي كثير من الأحيان يصيب نجاحاً في تكتلات وحيدة ، مترعة بالدم كالشرايين التي تفيض بالطاقة ، ثم ينفجر الاحساس المنبثق من جلده فيكون له دويٌّ اذ ينكسر . وما دام يحيط باللغة بسياج فهي رجولية قوية : ولكن حين يغلب الاحساس عاطفياً حماسياً تفلت الكلمة من يديه ، وتقلّب في كل أحلامه تقلّباً تصويرياً . ولم يكن كلايست قط يمسك بزمام حديثه تماماً : فهو يعطف مسار الحمل ويلويها ويوسّعها ، ويلفّها ليكسبها القساوة . ويشدها (وهو المبالغ الخالد)

بعضها عن بعض ، حتى لا يكاد المرء يرى بعد ذلك نهايتها تتلاقى ، ولكنه لا يهيمن دائماً ولا يصبر إلاً على المفصل ، ولا يحدث قط أن تتدفق أبيات الشعر كلها وينساب بعضها في بعض ، في نهر من الألحان ، فهو ينثر ويزبد ويرغي ويتز من العواطف المحتملة . ومثلما تكون شخوصه حين يدفع بها في حمّاه فكذلك تكون حالات عنفوانها ، وكذلك لا يستطيع بعد ، في آخر الأمر ، أن يسلك بأعنة الكلمات : فحين يطلق كلايست نفسه العنان (وفي الانتاج يحرر أعرق ما في ذاته من الأغلال) يسبقه إفراطه ويطغى عليه ، ومن أجل ذلك لا يصيب نجاحاً في قصيدة واحدة (باستثناء انشودة الموت ، تلك الانشودة السحرية) ، لأن الاختزان والتردي في الهاوية لا ينشئان أبداً صورة سيالة متجانسة متوازنة ، بل ينشئان صوراً متلاطمة على نحو متردد متقلب ، كما أن شعره قلماً يجري بهدوء وتناغم شجي ، مثل أنفاسه . على أن الموت وحده هو الذي يريحه في الموسيقى ، في انسياب التيار الأخير المتناهي .

مطارِدٌ ومطارِد ، مستحيثٌ بالسياط وهو نفسه طريد . كذلك يقف كلايست في موقع وسط بين شخصياته . على أن ما يجعل مسرحياته هذه مأساوية بصورة بارزة إلى هذه الدرجة ليس حالتها المتفرّدة من حيث الحدث العابر ، بل الأفق المتلبّد بالسحب إلى حد هائل ، ذلك الأفق الذي يوسّع مداها ويرتفع بها إلى المستوى البطوليّ بصورة رائعة . فالضربة المدوّية التي تخترق صدر كلٍّ من أبطاله هي بالقياس إليه جزء من الوئبة الهائلة التي تحدث صدعاً لا يمكن رأبه في الكون كله ، وتحوّل الكون إلى جرح وحيد ، إلى معاناة خالدة . ولقد أحسّ نيتشه بالحقيقة إحساساً تنبؤياً من جديد حين قال عن كلايست ، إنه يتناول « الجانب

الذي لا سبيل إلى شفائه» من الطبيعة ، ذلك لأنه كان كثيراً ما يتحدث عن هشاشة العالم الذي كان عنده غير قابل للشفاء ، ولا سبيل إلى توحيده تماماً ، وكان قديماً لا فكاك منه ولا خلاص . غير أنه يكتسب بذلك الموقف الحق لكاتب المأساة : فإنّ من لا يفتأ يحسنّ بالعالم على أنه مأخوذ من المآخذ ، بالمعنى المزدوج للكلمة ، مادةً وانهاماً ، في الوقت ذاته ، هو وحده الذي يستطيع أن يفتح من الناحية المسرحية ، فيتحدث بلسان الخصم ولسان الحكم ، بصورة متناوبة ، وأن يدع كل ذي حق ينال حقه ، خلافاً لما يقوم في الطبيعة من ظلم هائل ، فالطبيعة تمزق الإنسان إرباً إرباً وتفتته وتجعله ساخطاً أبداً . ولا ريب أن مثل هذه الرؤية للعالم ما كانت لتحدث بالعين الصافية . وقد كتب جوته بصورة ساهرة عن رجل آخر يغشاها الظلام ، هو آرتور شو بنهور ، في كتاب أنسابه (١) قائلا :

إذا أردت أن تسرك قيمتك

فلا بدّ لك أن تضيفي على العالم قيمة

غير أن نظرة كلايست المساوية لم تستطع أبداً أن تقرر أن تضيفي . مثل جوته ، « قيمة على العالم » . وبالفعل فقد حقّ عليه ذلك القول لهذا السبب ، ولم يُنتج له أن « تسره قيمته » فبفعل سخطه الخاص على العالم تنهار كل شخصوصه : فهم أبناء مأساويّون لمأساويّ أصيل ، يريدون أبداً أن يتجاوزوا أنفسهم ، وأن يناطحوا برؤوسهم جدار القدر الأصم . أما تسامح جوته الذي كان راضياً عن الحياة رضاً يقوم على الاستسلام

(١) Die 'Wahlverwandschaften وهو كتاب مترجم إلى العربية بعنوان

«الترجم»

» (الانساب المختارة) .

الحكيم فكان لابد أن ينتقل بصورة لا ارادية إلى شخصه ، وإلى مشكلاته التي لم تبلغ من أجل ذلك أبداً مستوى عظمة القدماء وان استعارت ملاسهم وأحاديثهم . بل إن تلك المصممة تصميماً مأساوياً ، مثل فاوست ، وناسو ، تنجح إلى السكينة والهدوء ، ويتم « إنقاذها » من ذاتها الأخيرة ، من سقوطها المقدس . لقد كان يحيط علماً ، وهو الحكيم الأصيل ، بالجانب المخرب في المأساوية الحقّة (وهو يعترف بأن كتابة مأساة حقيقية خليقة أن تدمره) . وكان يرى ، ببصره الصقريّ ، العمق الكامل للخطر الذي يتهدّده ، ولكنه كان أكثر حكمة وحذراً من أن يردّي في الهوة . أما كلايست ، فكان ، على النقيض من ذلك ، عديم الحكمة بصورة بطولية ، وكان يمتاز بالشجاعة اراء الأعماق الأخيرة والجنون بها: وكان يستمتع بمطاردة أحلامه وشخصياته إلى أقصى الإمكانات في اتجاه الانحدار ، وهو يعلم حق العلم أنها ستجرفه معها إلى الكارثة المقدسة . وكان يرى العالم مأساة ، وهكذا أبدع مآسي من عالمه ، وصاغ حياته الخاصة لتكون آخرها وأعلاها .

* * *

العالم والجوهر

لا أستطيع أن أكون مسروراً إلا في
مجتمعي ، اذ يتاح لي أن أكون هناك صادقاً
كل الصدق .

لم يعرف كلايست من الواقع إلا قليلاً ، غير أنه عرف كثيراً إلى
حد لا نهاية له من الجوهر : كان يعيش غريباً ، بل معادياً في وسط
عصره وبيئته ، وقلتما كان يفهم فتور الناس ومجاملتهم أكثر مما كانوا
يفهمون عطشته الاعترالي ومبالغته المتعصبة. وكانت نفسيته غير قابلة للدفاع
عنها ، بل ربما كانت عمياء ازاء النموذج العام ، وحيال كل ظواهر
الحمد المتوسط : فلا يبدأ عقله المبصر إلا حيث يضخم المشاعر قسراً ،
و يصعد الناس إلى أبعاد أعلى ، ولا يرتبط بالعالم الخارجي إلا في العواطف
الحماسية ، في الافراط في العالم الداخلي ، فهناك فحسب ، حيث تغدو
طبيعة الناس شيطانية ، وحيث تغدو متصلة بالهاوية وفجائية ، تنتهي
عزائته : وهو لا يرى بوضوح في الضوء مثل بعض الحيوانات ، بل لا
يرى بوضوح إلا في الضوء الخافت للشعور ، في ميل غسق القلب .
ويبدو أكثر ما في الطبيعة البشرية عمقاً ، مهلها البركاني ، وحده ،
قريباً إلى بيئته الحقيقية قرباً حميماً . لقد كان صبره أقل من أن يراقب
ببرود ، وأن يمارس التجربة بصورة واقعية على المدى الطويل — وهكذا

يعجّل تنامي الأحداث عن طريق بعث الحرارة إلى درجة مدارية عنيفة : فلا يتحوّل عنده إلى مشكلة إلاّ المتوهّج ، الانسان العاطفيّ المتحمّس . انه لم يصف آخر الأمر بشراً ، بل تعرّف شيطانه على أخٍ له بينهم ، وراء كل ما هو أرضيّ ، على شيطانيّة الشخصيات ، وعلى شيطانيّة الطبيعة .

ومن أجل ذلك يفتر أبطاله جميعاً إلى التوازن افتقاراً شديداً : فهم يرتفعون جميعاً بفطرتهم فوق أجواء الحياة اليومية ، فكل فرد مبالغ في انفعاله . وكل هؤلاء الأبناء الجاحمين الذين أنجبهم خياله المفرط يتمون ، كما قال جوتّه عن بنتيسيليا ، « إلى سلالة خاصة غريبة » وكلّ منهم يحمل معالم طبيعته ، ممثلة في ذلك الذي لا يقبل التسامح ، في الحاذق المرّ ، في العنيد ، والذي لا يمكن التأثير فيه : ومن النظرة الأولى تبيّن للمرء سيماء قابيل عليهم ، وذلك أنهم لا بدّ أن يدمروا أو يتعرضوا هم للتدمير . وهم يتسمون جميعاً بهذا المزيج الغريب من الساخن والبارد ، من التفريط والإفراط ، من التهلكة والحياة ، من الطوفان والتحفظ ، ويتسمون بهذا التقلّب المناخيّ ، بتدّير العواصف ، وبالأعصاب المشحونة بالكهرباء إلى درجة الإبراق . وكلهم يثير الاضطراب حتّى عند من يريد أن يحبّهم (كما كان كلايست نفسه مع أصدقائه) : ولذلك لم تتسم بطولتهم قطّ بالسمة الشعبية ، ولم تغد قطّ مفهومة عند الشعب الألمانيّ ، ولم تغد قطّ من بطولات كتب القراءة المدرسية . وحتى كيتشن ، التي كان لابد لها أن ترتد خطوة واحدة فحسب إلى الابتذال ، وإلى المستساغ ذي المذاق الحلو ، لتنتقل إلى الطابع الشعبي في صورة جريتشن ولويزه ، تتسم ببعض سمات المرض النفسيّ ، بالافراط في التضحية ، ذلك الافراط الذي لا يفهمه

الدوق العام ، وذلك مثلما يتسم هرمان ، البطل القومي ، بشيء من الإفراط في السياسة والبراعة في التلّف ، والإفراط في سمات تاليران (١) ، وذلك مما لا يجعل منه شخصية وطنية استعراضية . ومنتزع في دم كل ما هو مثالي ومبتدل ، بصورة مسبقة ، وعلى الدوام ، قطرة خطيرة تجعله غريباً عن الشعب : فهي عند الضابط البروسي هومبورج خوفه من الموت (وهو صحيح على نحو رائع ، غير أنه شيء لا يحتمل بالقياس إلى هالة القدسية) . وهو عند بنتيسيليا الاغريقية التعتش الباخوسي ، وهو عند فيتر فون شترال ضرب رجولي بالسياط ، وعند توسيلدا حبة من الغباء والغرور القائم على البهجة النسائية . وهؤلاء جميعاً ينقلهم كلايست من الجلبة الصادحة ، من الشيللري ، من الرّوسم الملّون ، بوساطة أي شيء إنساني أصيل في كيانهم يبرز لدى الانفعال عارياً ، عارياً بلا حياة ، من تحت الستار المسرحي . وكلّ منهم يتسم بسمة ما خاصة ، غير متوقعة ، بشيء غير منسجم . بشيء غير نموذجي في وجهه النفسي ، وكلّ يتسم (باستثناء مغني الأوبرا الهزلية الموضوع في صورة مسرحية ، وكوينجونده ، والجنود) بمسحة من الحدة في سيمائه ، كما هو الحال عند شكسبير : وكما أن كلايست الكاتب المسرحي يعدّ معادياً للمسرح فكذلك يعدّ كلايست المصور للبشر معادياً للمثالية بصورة لا شعورية . ذلك لأن كل إضفاء للمثالية يحدث دائماً إما عن طريق لمسة التزييق الشعورية وإما عن طريق نظرة سطحية قصيرة . غير أن كلايست يرى دائماً رؤية واضحة . ولا يكره شيئاً أشدّ من كراهيته للاحساس الضئيل . وهو أقرب إلى فقدان الدوق

(١) وزير خارجية فرنسا أيام الثورة الفرنسية وما بعدها ، مشهور بالدهاء والتقلب

مع الظروف .

« المترجم »

منه إلى الابتذال ، وإلى العطن . وإلى المبالغة منه إلى الحلاوة . فإثارة المشاعر عنصر بغضض إليه ، وهو الحر الممتحن ، الخبير بالمعاناة الواقعية ، وعلى هذا يغدو ، عن وعي ، معادياً للعاطفية ، ويعتمد في تلك اللحظة التي تبدأ فيها الرومانسية المبتدلة بالذات ، ولا سيما في مشاهد الحب . إلى إغلاق أفواه شخوصه بصورة متعقّفة ، ولا يتيح لهم إلاّ الاحمرار من الخجل ، أو التلعثم الناشيء عن التأثر ، أو التنهّد ، أو الصمت الأخير وهو يحظر على أبطاله أن يجعلوا أنفسهم كالعامة : ومن أجل ذلك لا تربطهم — ولنكن صريحين — بالشعب الألماني ، وأي شعب آخر ، صلة حميمة ، إلاّ من الناحية الأدبية ، ولم يتغلغلوا إلى مدى عميق وراء المسرح ، في كيان الشعب ، كالقول المأثور أو الصورة الرمزية ، وإذاً فلا يمكن أن يغدوا أولي سمة قومية إلاّ بمعنى أمة ألمانية متخيّلة ، كما أنهم لا يعدّون من الوجهة المسرحيّة إلاّ شخوصاً في ذلك « المسرح الخيالي » الذي تحدث عنه كلايست إلى جوفه . فهم لا ينسجمون فيما بينهم ، ويتميزون بالعناد وانعدام التسامح لدى مبدعهم ، ومن أجل ذلك يحفّ بكل منهم دائرة ضئيلة من العزلة . وتظل مسرحياته من الأمام والخلف مرتبطة بالأجداد والأحفاد ، لم توث أسلوباً ولم تخرج بأسلوب . فقد كان كلايست حالة منفردة ، ولقد ظلّ عالمه حالة منفردة .

أمّا أنه كان حالة منفردة فذلك لأنه لم يكن عالم الحقبة الممتدة من عام ١٧٩٠ إلى عام ١٨٠٧ ، ولم يكن محدوداً بحدود مقاطعة براندنبرج أو ألمانيا ، كما لا تشيع فيه من الوجهة الفكرية أنفاس الكلاسيكية ولا تغشاه عتمة غسق الرومانسية الكاثوليكية . لقد كان عالم كلايست

غريباً ومتعالياً على الزمان ، مثلما كان هو نفسه ، كان جواً من أجواء زُحَل ، يتجه وجهة بعيدة عن ضوء النهار والتجلي الواضح ، ولا يُعنى كلايست بالطبيعة وبالعالم ، كشأنه مع الانسان ، إلا حيث يكون جنب حدودها القصوى ، حيث تتعالى على ذاتها ، إلى ما لا يخطر بالبال ولا يخطر على بال ، بل أكاد أقول ، حيث تغدو مفرطة ، منهكة ، وتخرج على المعايير . ومثلما يحدث حيال البشرية ، لا يشغله في الأحداث إلا ما هو شاذ ، وإلا الخروج على القاعدة (المركيزة أو .. متسولة لوكانون، الزلزال في تشيلي) أي دائماً اللحظة التي تبدو فيها وكأنها تخرج على المسارات المرسومة لها من قبل الرب ، ولم يكن من قبيل العبث أن يقرأ « الجانب الليلي للطبيعة » لشوبرت بحماسة بالغة : فكل الظواهر النفسية من الجحولان ، والايحاء ، والمغناطيسية الحيوانية ، مواد تلقى الترحيب من لدن خياله المغالي الذي لا يكتفي بالعواطف البشرية بل يستقر قوى الكون الخفية لتجديد مزيداً من التداخل والتشابك بين الشخصيات التي يتدعها ، فهو ينتقل من تداخل الحقائق إلى تداخل المشاعر ! ففي الغريب العجيب يوجد دائماً أحب البيوت إلى كلايست : فهناك يحس في مكان ما بالشیطان قريباً منه ، في الظل والهاوية ، ذلك الشيطان الذي يتطبع نحوه مشدوداً في كل مكان باغراء سحري ، فهو يلتمس الحيد الأقصى في النظام الكوني مثلما يلتمسه في الشعور

و هذا التجنب للظاهر الجلي يبدو كلايست لدى النظرة الأولى وكأنه يمت بفضلة قريبي إلى معاصريه الرومانسيين ، غير أن هوة سحيقة من الشعور تنشق فاضلة بين أولئك الأدباء أصحاب الخرافة والسعادة الأسطورية من مفتعلة وساذجة ، وبين حبه القسري الخيالي والعقيد المبهم « أما الرومانسيون فليتمسكوا » العجيب الغريب » على أنه معرض

من أمراض الطبيعة . فان امرأً مثل نوفاليس يريد أن يؤمن ويرفل في
نعم هذه الخرافة ، كما أن أناساً مثل آيشندورف وتيك ، يريدون أن
يذنبوا قسوة الحياة وتناقضها في اللهو والموسيقا — أما كلايست ، المتلهف
فيريد أن يلمس السرّ الكامن وراء الأشياء ، فهو يمدّ بصره الفاحص ،
العاطفي المتحمس البارد والذي يسبر العمق بنزاهة ، إلى الظلمة الأخيرة
في مجال العجيب الغريب : وكلما كان الحديث أكثر غرابة استفزه ذلك
إلى الحديث عنه بمزيد من الموضوعية ، بل إنه يضرب مثلاً على البراعة
الفائقة في توضيح مالا يمكن ادراكه ، بعلاقة واضحة ، وهكذا يحفر
ذهنه المتحمس بصلاية كالبرال ، دورة "فدورة" ، إلى أن يبلغ الطبقة
الأعمق حيث يحتفل السحريّ في الطبيعة والشيطانيّ في الانسان بقران
خفي . وههنا يقترب من دوستويفسكي أكثر من أي ألماني في أي وقت
من الأوقات : وذلك أن شخصيات كلايست محمّلة أيضاً بكل طاقات
الأعصاب المريضة والمصعّدة ، وهذه الأعصاب معلقة بدورها في مكان
ما ، تعليقاً مؤلماً في الشيطانيّ من طبيعة العالم . فهو ، مثل ذلك ، ليس
صادقاً فحسب بل هو فوق الصادق بسبب فرط توتره . ومن أجل
ذلك ينتصب ذلك الجنّ الزجاجي والضابط في الوقت ذاته كسماء من
رياح القوهن الدافنة فوق العاطفة الحماسية لعالمه النفسيّ ، صقيع من
العقل يتناوب بغته مع قيظ من الخيال ، ثم تُسفيه ضربات رياح
الانفعالات الغاضبة بغتة إلى الأعالي . ولا ريب أن الانفعال النفسي
عند كلايست عظيم مقعم بالنظر العميق في الجوهرية ، فهو يبلغ من
الحدة ما لا يكاد يبلغه انفعال أي أديب ألماني آخر ، غير أنه صعب
الاحتمال مع ذلك . وما من انسان يستطيع المكث فيه طويلاً (على أنه
لم يستطع ، هو نفسه ، أن يحتمله أكثر من عقد من الزمان) فهو أشد

من أن يحتمل على مدى حياة بأسرها ، إذ أن جوّه مشحون إلى حد مفرط
 بالهواء المضغوط والمملّح ، وسماؤه تعجّم بثقلها البالغ على النفس ،
 وفيه كثير من الحرارة ، وقليل جداً من الشمس ، وكثير جداً من وضوح
 الضوء الحاسم في مجال بالغ الضيق . على أن ذلك المنشقّ أبداً ليس له
 وطن من حيث هو فنان ، وليس هناك أرض صلبة تحت عجلة مطاردته
 الدوّارة . فهو هنا وهناك . على أنه لا يكون في داره حيثما كان : وهو
 يعيش في العجيب الغريب من دون أن يؤمن به ، ويصوغ الواقعيّ من
 دون أن يحبّه .

* * *

الفقاص

ذلك لأن هذه هي سمة كل صورة
أصيلة ، وهي أن يبرز الفكر منها في اللحظة
ذاتها ، وبصورة مباشرة ، على حين أن
الصورة الناقصة تمسك بالفكر مرتبطاً بها
كمراة رديئة ، ولا تذكرنا بشيء سواها
ذاتها .

رسالة أديب إلى امر

وتسكن نفسه في عالمين ، في حرارة الخيال المدارية المفرطة في
شدتها إلى الحد الأقصى ، وفي عالم التحليل الموضوعي المتسم بأقصى
اليقظة والبرود ، ومن أجل ذلك ينقسم فنه على نفسه قسمين ، يشجعه
كل منهما إلى أحد الحدين اتجاهاً متعصباً . ولقد خلط الناس في كثير
من الأحيان بين كلايست الكاتب المسرحي وكلايست الروائي حين
اقتصروا على تسميته كاتباً مسرحياً . ولكن هذين الشكلين الفنيين يعبران
في الحقيقة بصورة ظاهرة للعيان عن تناقض ، وهو ازدواج الأنا الداخلية ،
ذلك الازدواج المدفوع به إلى نهايته القصويين - فالكاتب المسرحي يطلق
العنان لنفسه في مادته ، أما كلايست القصاص فيغتصب إسهامه اغتصاباً ،
ويقصر نفسه على الارتداد ، ويظل في الخارج تماماً ، بحيث لا يسري
نفس من فمه في القصة . وفي المسرحيات يتوتر هو نفسه وتنبعث فيه
الحرارة . أما في الروايات فهو يريد أن يبعث التوتر والحرارة في

الآخرين ، في القارئ ، وفي المسرحيات يدفع بنفسه إلى الامام ، أثافي
القصة فيردها إلى الوراء ، وكلا الامرين : الانطلاق والتحفظ ، يدفع
بهما إلى الامكانية القصوى للفن : وعلى هذا تعد مسرحياته أكثر
مسرحيات المسرح الألماني ذاتيةً وتدفقاً وثوراً ، على حين تُعد أقاصيصه
أشدّ الاقاصيص اقتضاباً وبروداً وانضغاطاً في الفن القصصي الألماني ،
ويظل فن كلايست يعيش في الحد الأقصى .

ففي تلك الأقاصيص يعطل كلايست أنه . ويكبت عاطفته المحتدمة ،
والأخرى أنه يحولها إلى مسار آخر . ذلك لأن هذا المغالي المتمصب ما
يلبث أن يصل إلى إفراط من جديد : فهو يدفع بهذا التعطيل للذات
(الفني جداً) إلى حد مفرط ، إلى حد أقصى للموضوعية ، أي أنه يدفع
به من جديد إلى خطر على الفن (والخطر إنما هو عنصره) . ولم يحدث
أبداً أن جاء الأدب الألماني مرة أخرى بعلاقة بهذه الدرجة من
الموضوعية الهادئة في الظاهر ، وبموضوعية بهذه الدرجة من البراعة في
السرد كما هو الأمر في هذه الأقاصيص والحكايات الصغيرة السبع :
وربما كان ينقصها مجرد عنصر أخير يحل إيسارها ، تحقيقاً لاكتمالها
الذي يبدو كأنه لا تشوبه شائبة : وذلك هو الطبيعية . فالمرء يحس أن
ثمة أحد هنا يزعم شفثيه قسراً لكيلا يشي عن طريق ارتعاش أنفاسه بحب
العذاب الذي يكسبه به ضروب التوتر ههنا . والمرء يحس كيف
تعتري اليلد الحمى في ذلك القسر المرضي الذي يرغمها على التصرف ،
وكيف يقوم الانسان كله بكبح نفسه عن طريق القسر ، ليظل في الخارج :
وليقرن المرء ، من أجل الإحساس بهذا ، مثاله المحثذ فحسب : مثال
سرفانتس ، ليقارن شفافيته السمحة السهلة وتحويله الماكر عن طريق
الاختباء والسر ، مع تقنية كلايست المتوترة المشدودة ، المشعونة

بالانفعال ، تلك التي تحوّل اليقظة والصحو إلى إفراط ، وتحدث إلى القارئ كمن يعضّ على شفتيه بأسنانه . وهو يريد أن يكون بارداً ، فإذا هو يغدو جليدياً ، ويريد أن يتحدث بصوت هاديء ، فيتحدث حديثاً مكبوتاً ، ويريد أن يسرد بصرامة سرداً لاتينياً ، تاسيتياً (١) ، فإذا هو يُشَنِّج اللغة ويظل ككلايست ينساق إلى المبالغة بصورة هائلة ذات اليمين وذات الشمال . ولم تتعرض اللغة الألمانية قط للتقسية أكثر مما تعرضت لها في نثر كلايست . على أنها لم تكن قط باردة أيضاً برودة المعادن ، وخالية من البريق كالحديد ، أكثر مما كانت عليه في نثر كلايست ، فهو يتمكن منها ، لا كما يتمكن المرء من قيثارة (مثل هولدرلن ، ونوفاليس ، وجوته) ، بل مثل سلاح ، ومثل محرّث ، وبغنى لا هوادة معه ، وبهذه اللغة المفتقرة إلى المرونة ، القاسية ، المثقلة بالبروز ، يسرد بعد ذلك — وهو المتعصب الخالد للتناقض — أشدّ المواد حرارة وتأثيراً واستحواذاً ، ويضطرع صحوه ووضوحه الباردان والصارمان صرامة بروتستانتية مع أكثر المشكلات خيالية وبعداً عن الاحتمال ، وهو يلغز الموضوع إلغازاً فنياً ويشبك نسيج القصة بمكرٍ ، لمجرد المتعة القاسية والخبيثة المتمثلة في إثارة الخوف عند المتفرجين ، والاستحواذ عليهم ، ليعمد بعد ذلك ، قبيل الانهيار ، إلى سحب الأعنة المشلودة إلى وراء بضربة واحدة مدوية . ومن كان لا يحسّ وراء هذا البرود الظاهريّ عند كلايست القصّاص ، باستمتاعه الشيطانيّ في أن يدفع بالآخرين إلى حيث منزله الخاص ، إلى الإحساس العنيف ، إلى أعماق المرعب والحطير ، فقد يرى التقنية فيما يعدّ في

(١) نسبة إلى تاسيتوس Tacitus مؤرخ الجرمان في العصر الروماني .

الحقيقة تحويلاً لعاطفية عميقة إلى قصى الحدود ، عند ذلك المتعصب
نفس النفس . فكل ما هو فاسد ، وكل ما هو مستكنٌ ومكبوت عند
كلايست ينكشف من خلال تكتّمه على ما يختزن ، لأن الهدوء والتمكن
والبراعة كانت أموراً منافية لأعماق ما في طبعه . فالعفوية ، وهي السحر
الأعلى عند الفنان ، كان لابد لها أن تقصّر بوجه خاص في ذلك الموضع
الذي أراد عنده أن يفرض على نفسه نقيض طبيعة كيانه قانوناً له ،
متمثلاً في الهدوء المقيّد بالأغلال .

ولكن ما أكثر ما تبتز إرادته من النثر ، إرادته ذات القوة الشيطانية :
وما أشدّ القسوة الفولاذية التي يضغظ بها الدم في عروق اللغة في هذه
الأقاصيص ! وما أشدّ ما يكون إحساس المرء بهذه البراعة في القطع
التي لا مصادقة فيها ولا غرض ، في تلك الحكايات الصغيرة والأخبار
التي كتبها لجريده لمجرد ملء عمود بقي خالياً . فتلک إرادة المرونة
عنده تكوّن تقرير شرطة من عشرين سطرًا ، حكاية فرسان من حرب
السنوات السبع ، في قالب خالد : فما من فقاعة صغيرة من علم النفس
تتسرّب هنا في سبيكة زجاج القصة الشفاف . تلك القصة التي يغدو
فيها الموضوعي بوجه خاص شفافاً بصورة سحرية . وفي القصص الأكبر
يغلو الجهد المبذول من أجل الموضوعية ظاهراً للعيان . فذلك الولع
الحماسي الكلاسيكي الأصيل بآثاره الفوضى وقلب الأوضاع ، وبما هو
شديد التركيز ، وحب اللعب بالسرّ ، كل ذلك يجعلها مثيرة أكثر مما هي
مجسّدة ، وهي لا تثير إثارة شديدة بشيء كما تفعل ذلك ببرودها
الظاهري ، حتى إن « مركيزة أو » (وهي حكاية لمونتاني في ثمانية
سطور) تحدث من الأثر ما يعدل أحجية مشوّقة ، و « متسوّل لوكارنو »

مثل كابوس يثير الرعدة . ويبدو ما يشبه نقيض طبيعته ، وهو فرط التوتر الناشيء عن حالة اللاإفراط في التوتر ، إفراطاً في الاعتدال : أجل ، لقد كان استئصال أيضاً يميل إلى النثر البارد ، اللاتصويري ، المضاد للعاطفية ، وكان يقرأ كتاب القانون المدني في كل يوم ، مثلما يتخذ كلايست وتيرة الخوليات أنموذجاً له : ولكن بينما يصل استئصال إلى مجرد تقنية يصاب كلايست ، الاندفاعي ، بهوى نجار ف تجاه اللاهوى . فقد انتقل الآن الإفراط في التوتر منه نفسه ، إلى القارئ ، ولكن المرء يظل يحسّ بالإفراط الذي يصدر لاجل حاله عن طبعه : ومن أجل ذلك تعد أقوى أقاصيصه تلك التي تحول موضوع طبيعته إلى تصوير . فقصّة ميشيل كولهاس ، وهي أروع أنموذج أبدعه كلايست للمبالغ ، وأجفله بالمغزى . حيث يرمز الرجل الذي يدفع بطاقته الأقوى إلى تخريب الذات عن طريق التصعيد ، وباستقامته إلى العناد ، وبانصافه إلى المكابرة ، إلى نفسه بذلك دونما وعي منه ، وهو المصور الذي أبدع الأخطر من أفضل ما لديه ، والذي يندفع نحو الطريق والهدف متجاوزاً عصبية الإرادة . وكذلك يعدّ كلايست في التهذيب . وفي السلوك ، مغالياً بصورة شيطانية قدر غلوّه في التلذذ ، وقدر غلوّه في الإنشاق .

ويبدو هذا المزيج ، كما قلت آنفاً ، فيما هو غير مقصود ، في تلك الحكايات الصغيرة التي كتبها وهو كأنّه نحالي الدهن من الغرض الفني ، ثم في ذلك التصوير الفائق في روعته ، الصادر عن إنسان غريب الأطوار : في رسائله . فلم يقدم أديب ألماني أبداً نفسه مكشوفة على هذا النحو إلى العالم مثلما فعل كلايست في تلك الحفنة من الرسائل التي احتفظ

بها ، وهي تبدو لي غير قابلة للمقارنة بالوثائق النفسية لجوته وشيلر .
لأن تمثيل كلايست للحقيقة ، أكثر جرأة وأقل تحرجاً . وأكثر
اندفاعاً وانطلاقاً بما لا نهاية له ، من أشكال الصياغة اللاشعورية ،
واعترافات الكلاسيكيين التي ترتبط دائماً بالنواحي الجمالية . وإنما
يتجاوز كلايست الحدود بالقياس إلى طبيعته بأسرها ، حتى في الاعتراف ،
فهو يضفي على تمزيق الذات المتناهي في القسوة إيقاعاً استماتعياً خفياً .
فهو لا يكنّ للحقيقة حباً فحسب ، بل نوعاً من الشبق ، وحالة وجدية
رائعة هي دائماً في الألم المتناهي في العمق . وما من شيء أبلغ أثراً من
صرخات هذا القلب ، ومع ذلك فهي تبدو وكأنها قادمة من ارتفاع لا نهاية
له كالإيقاع المختلج لطائر من الجوارح مصاب . وما من شيء أبدع من
الانفعال البطولي في عزله الشاكية ، وبحسب المرء أنه يسمع عذاب
فيلوكيت (١) المسموم الذي يختصم مع الآلهة معتزلاً إخوته ، وحيداً
على جزيرة فكره ، وحين يخلع الأثواب عن جسده في عذاب التعرف
على الذات يقف أمامنا عارياً ههنا ، ولكنه ليس بعري فاقد الحياء ،
بل عري من يتزف دماً ، كمن يحترق وقد انتزع نفسه من الكفاح
الآخر . وإنما تكمن ههنا صرخات من العمق الأخير للأرضية . صرخات
حيوان معذب ، يلها من جديد كلمات يقظة مثمرة ، كلمات ضوء
داخلي بالغ القوة يبهر العيون ، وما من عمل تمكن من الانغماس فيه
كل الانغماس على هذا النحو ، مثلما فعل في رسائله . وما كان لأحد مثل
ازدواجيته بين الاقتضاب والفيض ، وبين الوجد والتحليل ، وبين
التزام الحدود والحماسة ، وبين النزعة البروسية والعالم الأولي .

(١) Rhiloktet رفيق هرقل ووارث قومه في الاسطورة اليونانية ، قتل باريس

«المتزوج»

أمام طروادة .

وربما كانت كل ألسنة اللهب والبروق ما تزال منضمة في ضوء
وحيد ، في ذلك المخطوط الضائع . في « تاريخ سريوتي » (١) غير أننا
فقدنا هذا العمل الذي لا ريب أنه لم يكن حلاً وسطاً على شاكلة « الشعر
والحقيقة » (٢) ، بل كان هو التعصب للحقيقة ذاتها ، فقد عاقه القدر
هنا ، كشأنه دائماً ، عن الحديث ومنع « الإنسان الذي لا يوصف » في
داخله من البوح بسرّه .

* * *

-
- ١ . Kleist - Geschichte Meines Innern
٢ . J. W. Goethe - Dichtu und Wahrheit

للآصرة للأخيرة

فإن حسن العدالة ينتصر على كل شيء
«أصرة شروفتشتاين»

لقد كان كلايست في كل مسرحياته كشافاً بذاته عن طبيعته: فقد
نفذ عن نفسه في كل منها جزءاً نارياً من روحه إلى العالم ، وحول
انفعالاته إلى صورة ، وعلى هذا النحو يلمّ به المرء جزءاً فجزءاً ، بصورة
كاملة ، كما يلمّ بما فيه من تعارض ، غير أن ظاهريته ما كانت ليكتب
لها البقاء على الزمن لولا أنه تمكن في عمله الأخير من أن يعطي الحد
الأعلى : أن يعطي نفسه تماماً في أسى ارتباط لها ، فقد ارتفع هنا ، في
«الأمير فون هومبورج» بنفسه ، بتلك العبقرية الأخيرة التي قلّما يهبها
القدر أكثر من مرة لفنان ، وبالطاقة الأصيلة في كيانه ، وبصرع
حياته ، إلى تراجعها ، وهي التناقض بين الحماسة والتزام الحدود .
أما في «بنتيسيليا» وفي «جيسكارد» ، وفي «موقعة هرمان» فلم يكن
هناك إلا دافع واحد مضخم بطريقة التضعيد — زُجّ به بصورة حماسية
مفعمة بقوة صدامية نحو اللانهاية — وأما هنا فليس ثمة دافع منفرد ،
بل هو عالم بأسره من الدوافع المختلطة يتحول إلى حقيقي . وههنا ضغط
وضغط مقابل بدلاً من التجاذب المتقطع ، ينتهي إلى إحداث تأثير
جديد ، ثم إلى العوم في الهواء . وما عسى أن يكون العوم في الهواء سوى

الانسجام الأعلى . ولا يعرف الفن لحظة أجمل من تلك اللحظة التي يتاح له فيها أن يعرض المفرط في اعتداله ، في تلك الثانية التي تدوي دقاتها في الأجواء ، حيث ينحلّ التنافر ، في طرفة عين ، في انسجام ينطوي على السعادة الخالصة : وكلما زاد الصراع رهبة كان هذا الانسكاب المتبادل أكثر قوة ، وكان توافق التيارين اللذين يهويان من على أكثر عنفواناً . وتمتاز مسرحية كلايست « هومبورج » بهذه الروعة في تخفيف حدة التوتر إلى الحد الأقصى . كما لا تمتاز بذلك مسرحية ألمانية ثانية ، فالأديب الأكثر تعرضاً للتدمير يهب للأمة (قبيل انتحاره بلمحات) أكثر أشكال المأساة اكتمالاً ، مثلما يهب لها هولدرن في الساعة التي تسبق الظلمة الأخيرة انشودته الأورفيّة ذات الدويّ الكونيّ ومثلما يهب لها فيتش قبل تدهور فكره أعلى درجات السيكر الفكريّ ، الكلمة الراقصة التي يتطاير منها شرر الماس . على أن سحر الاحساس بالنسقوط هذا يعدّ فوق كل امكانية للتفسير ، فهي رائعة الجمال على نحو لا يقبل التفسير ، كالوثبة العالية الأخيرة للسان اللهب الأزرق الخافت قبل الانطفاء .

ففي « هومبورج » أوثق كلايست الشيطان لحظة من الزمان ، بالأغلال ، وذلك حين أطرحه عن نفسه تماماً فقتل به في عمله الفني . على أنه لم يقتصر هذه المرة ، كعهده فيما عداها ، على قطع رأس واحد من رؤوس أفغوان هرقل (١) ، أي ذلك الرأس الذي كان يطوقه آخذاً بخناقه ، كما فعل في « بنتيسليا » وفي « جيسكاردا » وفي « معركة هرمان » ، فههنا يمسك به من حلقومه ، ويطرّحه تماماً من خلال

(١) هو في الاسطورة أفغوان قتله هرقل ، وكان كلما قطع رأساً ثبت محله رأسان

جديدان

تصويره . وههنا فحسب يحس المرء بطاقته . لأنها لا تهراق في الفراغ بل تقف هنا ، طاقة في مواجهة طاقة مضادة ، في حالة صراع . وفي هذه المسرحية لا تنبخر ذرة من الاحتدام الداخلي ، بل يتعادل هنا الطوفان والسد ، الجريان والصد ، في القوة . فقد توصل كلايست إلى الخلاص ، لا بالخروج عن نفسه ، بل بادخال الازدواج في نفسه : وبذلك فقد المتناقض قدرته على التخريب لأنه ماعد يطلق العنان للدافع أو لآخر متيحاً له الغلبة . فقد اتضح له المتناقض في طبيعته من خلال العمل الفني . ولكن كل وضوح ينشئ المعرفة ، وكل معرفة بدورها تنشئ المصالحة . ويمسك العاطفي الحماسي ، والمهذب ، في نفسه ، عن الكفاح ، وينظران أحدهما في عيني الآخر : فأما التربية (حيث يأمر الأمير الناخب (١) بالمناداة في الكنيسة بانتصار هومبورج) فتمجد العاطفي الحماسي ، وأما العاطفي الحماسي (هومبورج الذي يطلب لنفسه الحكم بالإعدام) فيمجد القاعدة السلوكية ، وكلاهما يتعرف على ذاته جزءاً من قوة خالدة تبني الثوران من أجل الحركة ، والتهذيب من أجل النظام المقدس ، وحين ينتزع كلايست تناقضه الأرضي من صدره الذي يغشاه الظلام ، ويطرحه إلى الخارج يخرج أول مرة من عزلته ، ويغدو مُسْتَهِمًا في الإبداع في العالم .

وبصورة سحرية يفيض كل شيء حوله وأرادته ، مُتَقَبلاً في أشكال أنقي وأسهي ، إذ يكون كل شيء قد سكن بفعل هذا الشعور بالارتباط الأخير والمصالحة . وإذا كل أهوائه في الثلاثينات تتشكل هنا ، غير أنها ما

(١) أحد الأمراء الذين يحق لهم الاسهام في انتخاب الامبراطور في الامبراطورية

« المترجم »

الجرمانية المقدسة.

عادت مهيمنة ولا فعالة ، بل أصبحت متطامنة وصافية . فقد اكتسب طموح جيسكارد الشامخ الجامع تلك النارية النقية التي يسعدها العمل ، وذلك في شخص البطل الشاب هومبورج . أما الوطنية في «معركة هرمان» ، تلك الوطنية البربرية الظائمة إلى القتل ، الملوحة بالهراوة ، فقد اكتسبت دماء وشهامة ، متحوّلة إلى شعور وطني حادّ ، لا يُجْعَلُ جمع بالكلام . وأما مكابرة كولهااس وعناده في القانون فقد اكتسبت السمة الانسانية بوصولها إلى الحفاظ الواضح على القانون في شخص الأمير الناخب ، وأما جهاز كينشن السحري فيكتسب زرقة فحسب ، كبريق القمر الحلو فوق منظر الحديقة الصيفي ، حيث يهبّ الموت كنفحة من عبير من العالم الآخر ، وأما تهتك بنتيسيليا ، تلك اللهفة العارمة إلى الحياة ، فينحسر إلى شعور بالشوق الهادئ . ويجيش في عمل نكلايست أول مرة إيقاع للفضيلة خفيّ تماماً ، نفحة من الانسانية العذبة والفهم : فهذا التوتّر الأخير أيضاً ، هذا الفضيّ ، الذي لم يحرك فيه ساكناً أبداً ، يبعث الآن باللحن المظلم مرجّحاً على قيثارته ، وفجأة يتجمّع كل ما يحرك الانسان ، ومثلما يتحدث الناس عن المحتضرين بأن حياتهم بأسرها تعود مكثفة في لحظاتهم الأخيرة ، كذلك يتناهى صخب الماضي بأسره ، الحياة التي يبدو أنه لم يعيشها على الوجه الصحيح ، إلى هذا العمل الأخير : فكل الأخطاء والأغلاط وأوجه التقصير ، وكل ما كان خاوياً وعشياً يكتسب في هذا التصوير معناه مرة واحدة . وأما الفلسفة الكانطية التي يضفي بها قى العشرين قلبه ، والتي تكاد تخنقه من حيث هي «خطّة حياة» — فهي تصوغ الآن كلمات الأمير الناخب ، وترتفع بالشخصية التي هي مجرد شخصية ملكية إلى منزلة الفكريّ . وأما سنوات الكلية

الحربية ، التربية العسكرية ، التي يلعبها آلاف المرات — فتنبعث الآن في .
 النقش الجداري (١) الفخم للجيش ، في هذا التشيد الموجه إلى تضامن
 المجتمع . وكل ما خاض الصراع للخلاص منه ، التقاليد ، والتربية ،
 والعصر ، كل ذلك ينتصب الآن سماءً فوق عمله ، وينضج من موطن
 داخلي ، أول مرة ، من اليقين الدموي لكيانه ، ويتحرر الهواء من
 القيظ ، ولا تعود ضروب التوتر تسومه العذاب وتهز أعصابه ، وتنساب
 الأشعار ، أول مرة ، واضحة ، فلا تفرض نفسها قسراً ، ولا تثقل ،
 وتصدح الموسيقى ، أول مرة . أما عالم الأشباح الذي كان من قبل
 تنافساً شيطانياً في الأعماق فيسبح الآن في الهواء فحسب ، كغمسقى
 فوق اللعب الأرضي . وثمة إيقاع له حلاوة المسرحيات الشكسبيرية
 الأخيرة ، حلاوة تلك المعرفة المرحية ، وذلك التحرر ، يسدل الستار
 على عالم متناغم .

وتعد مسرحية « الأمير فون هومبورج » أكثر مسرحيات كلايست
 أصالة ، لأنها تنطوي على حياته كلها ، فكل مفترقات الطرق وأشكال
 التقاطع متضمنة فيها ، من حب الحياة وحب الموت ، ومن التربية إلى
 الجموح ، ومن الموروث والمكتسب : فههنا فحسب ، حيث يستنقد نفسه
 تماماً ، يغدو صادقاً كل الصدق ، متخطياً كيانه ذاته ، ومن أجل ذلك
 كان أيضاً هذا الإيقاع التنبؤي الخفي في مشهد الموت ، والسركر بالموت
 الاختياري ، والخوف من القدر — ساعات موته التي صاغها شعراً بصورة
 مسبقة ، وهي في الوقت نفسه استعادة الحياة السابقة بأسرها . وليس
 يملك مثل هذه المعرفة العليا إلا المقدمون على الموت . هذه النظرة

Fresko (١)

المزدوجة ، فيما مضى ، وفيما يُستقبل . ولا يهيب لنا مثل هذه الموسيقى
الروحانية التي تُعبد بذاتها إيقاعاً علوياً داخلًا في اللانهاي إلاّ
«هيمبورج» و « امبدوكل » (١) من بين كل المسرحيات الألمانية .
ذلك لأن المحنة الأخيرة وحدها هي التي تقدر على أن تصهر الروح ،
ولا يقدر إلاّ الاستسلام الأنقى على بلوغ الجو الذي يكون فيه الجهد
قد أصاب الحماسة زمنًا طويلاً ، على أن ما تقاصر عنه ذلك الظام
المتلهف ، وما تقابضت عنه وثبته الغاضبة على الدوام ، يهبه القدر
لكلايست بوجه خاص في تلك الساعة التي ما عاد يأمل فيها شيئاً آخر :
ألا وهو الكمال .

* * *

(١) من أعمال هولدرن ، انظر : « بناء العالم » ، الجزء الأول .

الغسل بالموت

لقد أدبت العصى ما يتسع له جهد الانسان -
وحاولت المستحيل
وقاشرت بكل ما لدي .
على أن الترد الذي يحسم اللعبة راقد ، راقد .
ولا بد لي أن أفهم ذلك - وأنني خسرت
بتسليلا

ولكن كلايست يصل أيضاً ، وهو في الذروة العليا من فنه ، في عام
« هومبورج » بطريقة فاجعة ، إلى ذروة مراحل عزلته ، فلم يسبق أن
كان منسياً لدى العالم ، ضائع الهدف في زمانه ، وفي وطنه : فأما الوظيفة
فقد اطرحها جانباً ، وأما مجلته فقد حظرت ، وأما رسالته الداخلية ،
وهي دفع بروسيا إلى جانب النمسا في الحرب ، فتظل بغير طائل ، وهذا
عدوه اللدود نابليون يمسك بأوروبا في يديه غنيمة مستندلة ، ويغدو
ملك بروسيا حليفه بعد أن غدا تابعاً له . وتنتقل مسرحيات كلايست
من مسرح إلى مسرح من دون أن تمثل ، أو تتعرض لسخرية الجمهور ،
أو يصرف المدير النظر عنها باهمال ، ولا تجد كتبه ناشراً . أما هو
نفسه فلا يجد أدنى وظيفة ، وقد أعرض عنه جوتّه ، كما أن الآخرين
لا يكادون يعرفونه ، ولا يقدرونه ، وتركه حماته يتعرض للسقوط ،
ونسيه الأصدقاء ، وكان آخر من هجره منهم الأعزّ فيهم ، أخيه

أولريكه التي كانت فيما سلف « على استعداد للتضحية كبيلايس (١) » وخسرت كل ورقة راهن عليها ، على أنه ما عاد يستطيع اللعب بالورقة الأعلى التي ما زالت بين يديه ، وهي مخطوط عمله الأول « الأمير فريدريش فون هومبورج » : وما عاد يجلس إلى مائدة أحد ، ولا عاد أحد يحفل به . عند ذلك يجرب حفظه مرة أخرى مع العائلة ، فيظهر من وسط الضياع الذي طال شهوراً : ويرتحل مرة أخرى إلى فرانكفورت على نهر الأودر ، إلى ذويه ، ليعزي النفس بشيء من الحب غير أنهم يندرون الملح على جروحه ، ويتلفون المرارة في فيه ، إذ أن تلك الساعة في منتصف النهار ، في وسط آل كلايست الذين ينظرون في تكبر واستعلاء إلى الموظف المسرح ، إلى محرر الصحيفة المخفق ، نظرتهم إلى امرئ غير جدير بعائلتهم ، تلك الساعة تقصم ظهره ، ويكتب يائساً : إني لأؤثر أن أكابد الموت عشر مرات علي أن أعاني مرة أخرى ما أحسسته في المرة الأخيرة على مائدة الغداء . فقد طرد من قبل ذويه ، وانكفاً على نفسه ، مرتداً إلى جحيم صدره الخاص ، ويعود إلى برلين مترثحاً ، فقد خيم الظلام على روحه ، يجلله العار ، ويحسّ المهانة حتى تحت جلده . ويظل بضعة شهور يتسكع هناك في حذاء مهترئ وأثواب بالية ، يلتبس في الدوائر عملاً ، ويقدم (عبثاً روايته) هومبورج ، (وكتابه « موقعة هرمان ») إلى أصحاب المكتبات ، وتكفهر وجوه أصدقائه حين يبصرونه : وأخيراً يسأله الناس جميعاً ، كما يصيبه الجهد من كل ضروب البحث ، وهو يشكو

(١) بيلايس صديق أوريس في الأسطورة اليونانية ، ويعد رمزاً للصديق المستعد للتضحية من أجل الصداقة .

في تلك الأيام بصورة تهز النفس قائلاً : « لقد أصاب الجرح روحي حتى لأكاد أقول إنني حين أخرج أنفي من النافذة يؤلمني ضوء النهار الذي يلتصق في وجهي » وانتهت كل انفعالاته الحماسية ، واضمحلت كل الطاقات ، واستنفدت الآمال جميعاً ، لأن :

نداءه يقرع كل الآذان ، وهو عاجز .

وحين يرى لواء العصور يتابع ارتكازه مرفرفاً من باب إلى باب ، يطبق جفنه ، ويتمنى أن ينتهي معه ويفلت القيثار من يديه ، وعيناه تدمعان .

عند ذلك ينبعث في هذا الصمت ، الذي هو أشدّ هولاً من أي صمت أحاط بهقري في أي وقت من الأوقات (وقد يستثنى من ذلك نيتشه فحسب) - صوت غامض يلامس قلبه ، نداء كان دائماً ، وطوال حياته بأسرها ، يطرق قلبه في لحظات وهن العزيمة واليأس : وذلك هو فكرة الموت . فعند أوائل أيام الصبا ترافقه فكرة الموت الاختياري هذه ، فحين كان ما يزال بين الفتوة والشباب ، وكان قد صاغ لنفسه خطة حياة ، كان أيضاً قد سبق له التفكير بخطة الموت منذ عهد طويل : ويشند سلطان الفكرة دائماً في ساعات العجز ، ثم تظهر في نفسه كصخرة قائمة حين ينحسر طوفان العاطفة الحماسية ، وثوران الأمل المزبد ، وليس من الممكن احصاء هذه الصرخات المسعورة تقريباً والصرخات التي تلتبس النهاية ، في رسائل كلايست ولقاءاته ، بل يكاد المرء يجرؤ على التناقض القائل إنه لم يكن يستطيع احتمال الحياة على الإطلاق إلاّ بكونه مستعداً في كل ساعة لا طراحها . فهو يريد الموت دائماً ، وحين يطول به التردد فما ذلك عن خوف ، وإنما يصدر في

ذلك عن الجانب المبالغ ، الجانب المفرط في طبيعته ، ذلك لأن كلايست يريد الموت أيضاً في أبعاد عملاقة ، في حالة توتر مفرط ، في حالة ثوران ، فهو لا يريد أن يقتل نفسه ، كما يفعل الصغار المساكين ، ولا كما يفعل الجبناء ، بل يتلهّف ، كما يكتب إلى أولريكه في تلك الرسالة ، « إلى موت رائع » — وحتى هذه الفكرة المتناهية في القتامة والخطورة ، لها عند كلايست توليد آخر للمتعة ، تلذذ سكران ، فهو يريد أن يلقي بنفسه إلى الموت ، كما يلقي المرء بنفسه في سرير زفاف هائل ، وفي تشابك متناه في الغرابة يحلم لنفسه بالموت على أنه فناء مزدوج السعادة . فثمة خوف رهيب ما ، — وقد خلّده في مشهد الأمير فون هومبورج — يحمله ، وهو أكثر الناس عزلة : على الخوف من أن يتابع حمل هذه العزلة في الحياة حتى خلال خلود الموت بأسره . وعلى ذلك يعرض ، منذ الطفولة ، على كل من يحبه ، وهو في أعلى حالات الوجد ، أن يموت معه . وذلك أن هذا الذي هو أشدّ الناس افتقاراً إلى الحب يتوق إلى موت غرامي . ففي الحياة الأرضيّة لم تكن ثمة امرأة تستطيع أن تكون كُفُوءاً لإفراطه ، ولم تستطع واحدة أن تماشيه في انطلاقه في وجدٍ للشعور ، فلا العروس ، ولا أولريكه ، ولا ماري فون كلايست ، يستطعن أن يشرّكنه في الحرارة القورانيّة لمطاليبه ، فالموت وحده ، الحسد الأقصى ، الذي لا يمكن تجاوزه بعد . هو الذي يقدر على إشباع الحاجة الكلاسيكية إلى الحب — وقد وشت بنتيسيليا بألسنة لهيبه — وكذلك تكون المرأة التي تريد أن تموت معه ، والتي تعرب عن هذا الشعور الأقصى الذي لا يمكن تصعيده فوق ذلك ، وهي الوحيدة التي يتوق إليها : والتي يعد « ضريحها أحبّ إليه من أسرة كل

الامبراطورات في العالم » (كما يصّرّح في رسالة موته في ابتهاج عظيم)
وعلى هذا يعرض على كل أولئك الأعزة عليه ، بالحاح ، يكاد يثقل
عليهم ، أن يتبعوه إلى التردّي في الظلام . فهو يعلن إلى كارولين فون
شيللر (التي كانت غريبة عنه تقريباً) استعدادة « لإطلاق الرصاص
عليها وعلى نفسه » . ويغري صديقه « روهله » بكلمات حماسية متملّقة :
« هناك فكرة لا تفارق ذهني ، وهي أنه لابد لنا أن نقوم مرة أخرى
بعمل مشترك — فهلّم ، ولنقم بعمل حسن ، ونموت معه ! نموت
إحدى موتاتنا التي تعدّ بالملايين ، والتي متناها ، والتي سنموتها بعد ،
وإن الأمر لي شبه خروجنا من غرفة ودخولنا في أخرى » وتمحول الفكرة ،
الباردة ، كما هو الحال دائماً عند كلايست ، إلى هوى جارف ، إلى
لهيب ، إلى وجد ، ويزداد مع الأيام افتتاناً بفكرة إنهاء التآكل التدريجي
للطاقة والطاقة المضادة ، وذلك عن طريق انفجار وحيد ، عن طريق
تدمير بطوليّ للنفس بصورة رائعة ، والانتقال مما في الشعور بالحياة الذي
لا يشبع أبداً ، من يؤس وعوائق وانكسار ، إلى التردّي بالنفس في
موت رائع ، ويتعاطف الشيطان فيه على نحو رهيب ، لأنه يريد العودة
إلى لا نهائيته .

وهذا التعلق بالموت المشترك يظل غير مفهوم لدى أصلغائه والنساء ،
شأن كل أشكال تصعيد الشعور : وعبثاً يلجّ ، بل يتوسّل ، من أجل
رفيق إلى الهاوية — فكلّهم يردّون الاقتراح الخياليّ مصعوقين ،
مذعورين ، وأخيراً — وبوجه خاص في الساعة التي تغتلي فيها نفسه
بالمراة والاشمزاز — يلقي واحدة ، واحدة غريبة عنه تقريباً ، تشكر
له هذا الاقتراح الغريب ، وهي مريضة مرضاً قاتلاً ، إذ يفترس

النسرطان جسدها من الداخل مثلما يفترس السأم من الحياة روح كلايست من الداخل ، ولما كانت تلك الضائعة غير قادرة بذاتها على اتخاذ قرار جريء ، ولكنها مستعدة لتبني وجدّه من فرط التوتر ، فانها تبحر سروراً في أن تدعه ينجرها معه إلى الهاوية . والآن يحظى بوحدة تخلصه من عزلة الثانية الأخيرة والسقوط ، وهكذا تقوم ليلة الزفاف هذه الخيالية الغربية بين غير المحبوب وغير المحبوبة ، وهكذا تتردّى العجوز القبيحة المريضة مرض الموت (والتي لم ينظر إلى محيّاها إلا) وهو في وجد من هذه الفكرة) معه في الخلود . وفي جوهر الأمر كانت هذه المرأة ، أمينة الصندوق ذات النوق الأدبي ، والعاطفية المتحمسة ، غريبة عنه ، بل يبدو أنه لم يعرف أبداً أنها كانت امرأة ، بالمعنى الجنسيّ — غير أنه يتزوجها تحت اسم — وشعار مختلفين ، وبرعاية كهنوت الموت المقدس ، وتغدو تلك المرأة التي كانت بالقياس إلى حياته أشدّ ضلالة وهشاشة وضعفاً ، رائعة من حيث هي رفيقة موت ، وقد عرض هو بنفسه عليها نفسه قائلاً إن عليها أن تقبله فحسب ، وكان على أهبة الاستعداد .

فقد جعلته الحياة مستعداً ، بل مفرطاً في الاستعداد ، وكانت قد دأسته واستعدته ، ونخبت أمله ، وسامتته الحسّف — ولكنه ينهض بطاقة رائعة مرة أخرى ، ويصوغ من موته مأساته البطولية الأخرى ، ويضرم المبالغ الخالد فيه النار التي كانت تلخّن منذ عهد طويل ، نار العزيمة المشوهجة بصورة خفية ، بنّفسٍ شديد، وتنطلق تلك النار من صدر كلايست كلهيب من الهتاف والسعادة منذ أن أيقن بموته الاختياري ، ومنذ أن « نضج للموت كل النضج » ، كما يقول . ومنذ عرف أن الحياة لن تتمكن منه ، وما هو ذلك الذي لم يجد في الحياة قطّ ما يقرّه كل الإقرار (مثل جوته) ، يقرّ الموت ويهتف له بحرية وسعادة : ألا إن هذا الإيقاع لرائع ، فهذا كيانه كله يدوي أول مرة

كالناقوس صافياً لا تنافر فيه، فقد انقطع كل نُبْرٍ ، وتلاى كل فتور ، وإنما تُجَلِّجِلِ الآن جلعلة فخمة كل كلمة ينطق بها ، ويكتبها ، تحت مطرقة القدر ، وما عاد النهار يؤلمه ، بل بات يتنفس الصعداء ، وأمسّت الروح المتوترة تسترّجح أنفاس اللانهاية ، وإذا المبتل المولم يغمر قيقاً، والإضاءة الداخلية عالماً ، وإذا هو يعاني معاناة سعيدة أبيات شعره التي تتناول أنه الخاصة، أبياته في هومبورج، قبل السقوط :

الآن ، أيّها الخلود ، أصبحت لي ، كلُّك
فأنت تنفذ بشعاعك من خلال العصابة على عيني .
مرسلاً بهاء الشمس المتضاعفة آلاف الأضعاف !
لقد نبت لي جناحان على كاهلي
وما هي ذي روجي تحلق في مجالات الأثير الساكن
وهي ترى مدينة الميناء اللاهية تغوص
كسفينة تحطّفتها نسائم الريح
وكذلك تتوارى عني كل حياة ، غائبة في الغسق
أما الآن فما زلت أُمَيِّز الألوان والأشكال
والآن أخلف كل ضباب تحتي .

فقد رفعه الوجد الذي كان يدفع به طوال ثلاثة وثلاثين عاماً خلال
أدغال الحياة ، رفعاً لطيفاً إلى سعادة الوداع ، وفي الساعة الأخيرة
يتماسك الممزّق ، وينصهر المتصدّع الكيان في الحد الأقصى للشعور .
وفي اللحظة التي يدخل فيها الظلام حرّاً بارد الأعصاب يغادره ظله ،
ويخرج شيطان حياته من الجسد المزعزع ساجداً في الهواء كاللدخان
فوق النار متلاشياً في الأجزاء ، وفي الساعة الأخيرة ينصهر ثقل كلايست
وألمه ويتحوّل شيطانه إلى موسيقا .

موسيقا الفروب

ما كل ضربة ينبغي للمرء أن يحتملها .
ومن مسته يد الله ، كان له ، فيما أرى ،
أن يغيب .

أسرة شروفنشتاين

لقد عاش أدباء آخرون حياة أبهى وأرفع ، وهم يمهّدون لعمليهم
تمهيداً مستفيضاً ، ويدفعون عجلة المصير الانساني إلى الأمام ، ويعدّون
مسارها انطلاقاً من حياتهم الخاصة : أما كلايست فلم يمت أحد ميتة
أروع من ميتته ، وما من ميتة بين كل أشكال الموت يحفّ بها صخب
الموسيقا على هذا النحو ، أو هي كلّها سيكّر وتحليق مثل ميتته . فهذه
الحياة التي تعدّ « أحفل حياة بالعذاب عاشها لإنسان البتّة » (رسالة
الموت) تنتهي بحفل تقديم قربان إلى ديو نيسيوس (١) . وهذا الذي
يخفق في كل شيء في الحياة إخفاقاً بائساً ، بل إخفاقاً فاجعاً ، يصيب
نجاحاً في المعنى الغامض لوجوده : الفناء البطولي . وذلك أن
بعضهم (سقراط ، اندريه شينيه) وصل بالأمر في تلك الثانية الأخيرة
إلى درجة من الاعتدال في الشغور ، إلى لا مبالاة روائية (٢) ، بل

(١) اله الخمر عند الاغريق

(٢) مدرسة فلسفية تقوم على مبدأ احتمال الألم ، أشهر ممثليها الامبراطور الروماني
مارك أوريل وسنيكا ، وزينون الرواقي «المترجم»

مبتسمة ، إلى موت حكيم يتقبلونه بلا شكوى — أما كلايست ، المبالغ
الحال ، فيصعد الموت أيضاً ، إلى هوى جارف ، إلى افتتان ، إلى حفلة
عريضة ووجد ، وإنما يعدّ فناؤه حالة سعادة ، واستسلام ، كما عرف
ذلك في الحياة — ذراعان مفتوحان ، وشفتان ثملتان ، وابتهاج وتحليق .
فهر يلقي بنفسه في الهاوية وهو يغني .

فمرة واحدة فحسب ، هذه المرة الوحيدة ، تتحرر شفة كلايست
وروحه . ويسمع المرء أول مرة هذا الصوت المختنق المكبوت في هناف
ونشيد . ولم يره أحد في تلك الأيام الداعية سوى رفيقة الموت ، ولكن
المرء يشعر بذلك ، فلا بد أن عينه كانت عين سكران ، ولا بد أن
محيّاه كان مشرقاً بالعباس البهجة الداخلية . على أن ما يصنعه ، وما
يكتبه في تلك الساعات يفوق حده الأقصى — فرسائل الموت بالقياس
إلى إحساسي هي أكمل ما أبدع . ، تحليقٌ أخير ، مثل القصائد الحماسية
الديونيسية (١) عند نيتشه ، وأناشيد الليل عند هولدرلين : ففيها يهب
هواء من أجواء مجهولة ، حرية فوق كل أرضي . فالموسيقا . وهي
الأعمق بين ميوله ، تلك التي كان يتدرب عليها أيام الصبا ، على الناي
في حجرة هادئة ، والتي انطوت صفحتها بارادتها ، من أجل شفة الشاعر
المضغوطة المتشنجة ، هذه الموسيقا تفتّح له الآن ، ويعرض ذلك المعلق
أول مرة متدفقاً في إيقاع ولحن . وفي تلك الأيام يكتب قصيدته الحقيقية
الوحيدة ، أيضاً من الحب ثملاً ، بطريقة صوفية ، وهي أنشودة الموت ،
قصيدة مترعة بالظلام وحمرة شفق المساء ، نصفها تلثم ونصفها
صلاة ، وهي تتسم مع ذلك بجمال سحري وراء كل عالم العقل اليقظان :

(١) Dionysos Dithyramben .

وبالموسيقا يتحرّر من كل العوائق ، ومن كل قسوة ، ومن كل حدّة ،
ومن كل نزعة فكرية ، ومن ضوء العقل البارد الذي يهبط في العادة على
أكثر جهوده حرارة فيخرجها من السكر ، ويسترخي البروسي الصارم
والمتشجج ، في قبضته ، استرخاءً جميلاً ، في الحن ، ويسبح ، أول مرة ،
في الكلمة ، ويسبح في الشعور : فما عاد في حوزة الأرض .

وعلى هذا النحو يطلّ مرة أخرى على العالم ، سابعاً في أجواز الفضاء ،
« كبحّارين جويّين مسرورين » كما يقول في رسالة موته — من دون أن
ينطوي وداعه على غلّ . أمّا المرارة عنده فما عاد يفهمها ، فكلّ
ما يكدّرهُ منذ أن جعل ينظر من منظور اللاهية ، يبدو في الخفيض ،
على بعد سحيق ، مفرطاً ، ولا معنى له . وما يكاد يستحلف المرأة
الأخرى على الموت حتى يفكر بعدُ في تلك التي عاش من أجلها والتي
أحبّه : ماري فون كلايست : وإليها يكتب من أعماق أعماق روحه ،
الوداع والاعتراف ، ويعانقها مرة أخرى في ذهنه ، غير أنه الآن عناق
بلا رغبة ولا حميميّة ، كمن يذهب إلى الأبديّ ، ثم يكتب إلى أخته
أولريكه : وتعمّل في نفسه المرارة بعدُ حيال الهوان الذي عانى منه في
نفسه ، وتقسو الكلمات ، غير أنه يبدو له بعد ذلك بثماني ساعات ، في
حجرة الموت ، عند آل ستيمنج ، وهو محلّق في شعوره الأوّل ، أن من
الظلم أن يكدّر أيّ امرئٍ بعدُ وهو في نعيمه ، فيكتب مرة ثانية إلى
الحبيبة السالفة كتابة مثرعة بالودّ والصفح ، ويتمنى لها أطيب الأمناء ،
وهذا الأطيب الذي يعرف كلايست كيف يتمنّاه ، إنما هو قوله لها :
« فلتهب لك السماء موتاً فيه شطر من البهجة والمرح اللذين لا يوصفان ،
واللذين يوجدان في موتي : وهذه هي أكثر الأمناء التي أستطيع أن
أتمناها لك حرارة وعمقاً » .

والآن تم ترتيب الأمور ، وها هو ذا فاقد السكينة قد طاب نفساً :
على أن الحدث الأبعد عن النظر ، وعن الاحتمال ، هو أن كلايست
الممزق ، يشعر بارتباطه بالعالم ، وما عادت للشيطان مقدرة على دفعه ،
على أن ما كان ينبغي من ضحيته قد تحقق . ويقاب ذلك الذي نفذ
صبره في أوراقه مرة أخرى : فهذه رواية ترقد مكتملة ، ومسرحتان ،
وتاريخ سريره - وما من أحد يريد لها ، وما من أحد يعرفها ، ولا
ينبغي أن يعرفها أحد . فحتى شوكة الطموح ما عادت تنغرز في صدره
المدرع ، ويعمد إلى احراق مخطوطاته بغير مبالاة (وفيها « هومبورج »
الذي لا يظل بمنجاة إلا عن طريق نسخة وجدت بطريق المصادفة) :
فالمجد اللاحق الزهيد ، هذه الحياة الأدبية في القرون ، تبدو : أحقر
شأناً بالقياس إلى أعمار الكونية . والآن ما عاد هناك إلا شيء صغير
يجب انجازه ، غير أنه يفعل هذا أيضاً بموضوعية وعناية ، ويتبين المرء
فيه ، من خلال كل تصرف ، الذهن الصافي الذي لا يشوشه خوف أو
هوى ، فثمة بضع رسائل ينبغي أن يتولى أمرها « بيجلسين » ثم الإيعاز
بتسديد الديون التي يسجلها باهتمام ، قرشاً قرشاً ، ذلك لأن الشعور
بالواجب يرافق كلايست حتى « نشيد الانتصار في موته » . وقد
لا توجد رسالة وداع ثانية يتخللها جنون الموضوعية إلى هذا الحد ،
كتلك التي يبعث بها إلى الديوان الحربي ، إذ يبدأها بقوله : « نحن
نرقد مصابين بعيار ناري على الطريق إلى بوتسدام » وفيها تندافع الأحداث
في البداية بجرأة لا نظير لها ، ومثلما يحدث في الأقاصيص تتم تقسية
قصة حالة قلرية لا مثل لها ، تقسية موضوعية ، في تجسيد ووضوح
فولاذيين . ولا توجد رسالة وداع ثانية يتخلل نسيجها شيطان التحليق
إلى هذا الحد كتلك الموجهة إلى الحبيبة ، إلى ماري كلايست - ففي

الساعة الأخيرة ما يزال المرء يرى بصورة واضحة ازدواج حياته ،
التهذيب والوجد ، ولكن كلاهما قد دُفِع به ، عن طريق المبالغة ،
إلى البطولي ، وإلى العظيم بصورة رائعة .

أما توقعه فهو خط الرصيد (١) الأخير تحت الدين الهائل الذي
يدين به للحياة : فهو يخطه بقوة ، والآن تمت تسوية الحساب المعقد
أخيراً ، فهو يتأهب الآن لتمزيق دفتر الحساب . ويتوجه كلاهما ،
في مرج ، كهروسين ، إلى بحيرة فان ، ويراهما مضيفهما يضحكان ،
ويلهوان طواً معربداً فوق المروج ، ويشربان القهوة في الخلاء ، ثم
تتوي - في الساعة المتفق عليها بالضبط - الطلقة الأولى ، وتعقبها
الثانية على الفور - في وسط قلب الرفيقة ، وفي وسط فمه هو . ولم
ترتعش يده ، فقد كان في الحقيقة يعرف كيف يموت أكثر مما يعرف
كيف يعيش .

ويعد كلايست الشاعر المساوي العظيم عند الألمان ، لا بارادته ،
بل بما أريد له ، وذلك لسبب وحيد ، وهو أنه كان خاضعاً لطبيعة
مساوية ، وكانت حياته مأساة : وذلك أن هذا الجانب المظلم ، المقيّد ،
المحدود ، والمتعرض في الوقت ذاته للحث والتحرّض ، هذا الجانب
البروميشوسي من طبيعته ، هو الذي ينشئ بوجه خاص السمة التي
لا سبيل إلى تقليدها في مسرحياته ، والتي لا يستطيع خلفاؤه أن يبلغوها
في أي وقت من الأوقات ، لا هيبيل (٢) بذهنيته الباردة ولا جرابه (٣)

(١) استعملت الكلمة هنا بمعناها الشائع في العرف التجاري البحت ، أي بمعنى التسوية
النهائية للحساب

«المترجم»

(٢) ف . هيبيل ١٨١٣ - ١٨٦٣ كاتب مسرحي نمساوي

(٣) كريستيان جرابه (١٨٠١ - ١٨٣٦) من رواد المدرسة الواقعية

بحرارة العصبية . ويعلّ قدره وجوّه جزءاً متكاملًا من عمله : ومن أجل ذلك يبدو لي السؤال الذي يكثر طرحه ، وهو إلى أي مدى كان خديقاً أن ينهض بالتراجيديا الألمانية فوق ما نهض بها لو أنه بريء من علته وتحرّر من قدره ، سؤالاً أخرق وغريباً ، فقد كان جوهر طبيعته إثارة التوتر والعرض للتوتر ، وكانت غاية قدره التي لا تُردّ إنما هي تدمير الذات عن طريق الإفراط ، ومن أجل ذلك يعدّ موته الاختياريّ المبكر عملاً فنياً لا يقل روعة واتقاناً عن « الأمير فريدريش هون هومبورج » : ذلك لأنه لا بد أن يظهر من حين إلى آخر ، إلى جانب الشاخين الذين هم أسياد الحياة ، مثل جوته ، امرؤٌ متمكن من الموت ، يبدع من موته قصيدة باقية على مدى العصور . « كثيراً ما يكون الموت الحسن أفضل سيرة حياة » — على أن جنتر التينس الذي كتب لنفسه هذا البيت ، لم يعرف كيف يصوغ الموت الحسن ، فانزلق هاوياً في مأساته ، وانطلقاً كضوء ضئيل . أما كلايست ، المأساويّ الحق ، فيرتفع بمعاناته ، في مقابل ذلك ، على نحو تجسّدي ، ليمثله في تمثال خالد للفناء . غير أن كل معاناة تغدو مفعمة بالمعنى حين نتاجها نعمة التصوير ، وعند ذلك تكتسب أعلى ما في الحياة من سمح . ذلك لأنه لا يعرف التوق إلى الكمال إلاّ من كان ممزقاً كل الممزق . وإنما ينال الخلود من كان مطاردًا فحسب .

* * *

الفهرس

٥	ديكنز
٤٣	تولستوي
٤٥	مدخل
٥١	الصورة
٥٩	الحيوية وانعكاسها
٧٧	الفنان
١٠٥	الأزمة والتبدل
١١٥	المسيح الفني
١٢٧	الدرس ونقيضه
١٤٩	الكفاح من أجل التطبيق
١٦٧	يوم من حياة تولستوي
١٨٣	الحسم والتألق
١٩١	اللجوء إلى الله
١٩٧	الصدى الأخير
٢٠١	ستندال
٢٠٣	الولع بالكذب والطرب للحقيقة

٢٠٩	الصورة
٢١٥	شريط حياته المصور
٢٤٩	الأنا والعالم
٢٨٥	المتعة النفسية
٢٩٣	تصوير الذات
٣٠٥	حضور الشخصية
٣٠٩	هاينرش فون كلايست
٣١١	الطريد
٣١٧	صورة من لا صورة له
٣٢٣	باثولوجيا الشعور
٣٣٩	خطة الحياة
٣٤٧	طموح
٣٥٤	الاندفاع القسري إلى المسرح
٣٦٥	العالم والجوهر
٣٧٢	القصص
٣٧٩	الآصرة الأخيرة
٣٨٥	التعلق بالموت
٣٩٣	موسيقا الغروب

۱۹۹۳/۱۱/۲۰...

أهي كلمة « بناء العالم » عنوان فضفاض جمع فيه
ستيفان تسفايج دراساته لبعض من مفكري وأدباء القرن
التاسع عشر ، أم أن المؤلف يعني حقاً ما يقول ؟ فبناء العالم
عنده ليسوا السياسيين أو الاقتصاديين ولا العلماء ...
بالدرجة الأولى ، بل أكابر الثقافة والفكر ؟ والعالم المعنى هنا
أهو « العالم » باطلاق المعنى أم أي عالم هو ؟

الجواب في الكتاب ذاته . فهو قصة الانسان الذي
كونته الثورة الصناعية بريشة ديكنز الساخرة وملحمة
روسيا التي ستصير ذات يوم اتحاداً سوفياتياً كما عاشها
في أيامه كاهنها تولستوي . ثم ملحمة ثلاثة سبقت زمنياً
انجلترا وروسيا ، انها أوروبا كما صاغت انسانها المغامرة
النابوليونية ورومانتيكية ألمانيا مع ستاندال وتولستوي
وكلايست . وتتساءل : أما تزال أوروبا هذه حاضرة تستدعينا
اليوم في عصر الثورة العلمية التقنية ؟ ومن ثم أهي أوروبا
العالم ؟

الجواب في أربع لوحات نابضة بالحياة تشعرك بأن
الفكر الكبير هو من كل زمان ومن كل مكان .

الطبع وفرز الألوان في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٣

في الاقطار العربية ما يصادل
٢٠٠ ل.س.

سعر الدخلة داخل المطبع
١٠٠ ل.س.